

مجلة
كلية الآداب



المجلد الثلاثون

٨١ - ١٩٨٢

مطبعة جامعة الاسكندرية

١٩٨٤

فهرس

الأسس الابدتمولوجية بين الفيزياء الكلاسيكية وفيزياء اينشتين

للدكتور ماهر عبد القادر محمد . ١ - ٤٨

حول شخصية شريك وخلف اخناتون

للدكتور ليلي عطا الله ٤٩ - ٦٤

الاستراتيجية البريطانية في البحر المتوسط

للدكتور عبد الغفار محمد حسين ٦٥ - ١٠٨

مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ م والمسألة التونسية

للدكتور عبد الغفار محمد حسين ١٠٩ - ١٥٦

كتاب رائق التحلية في فائق التورية «تحقيق ودراسة»

للدكتور فوزى سعد محمد عيسى ١٥٧ - ١٩٩

مغيث الرومي ونبوه

للدكتور محمد أحمد أبو الفضل ١٩٩ - ٢٤٢

الحوارزمية ودورهم في الصراع الصليبي الاسلامي

للدكتور أسامة زكى زيد ٢٤٣ - ٢٨٦

Jean Paul Sartre

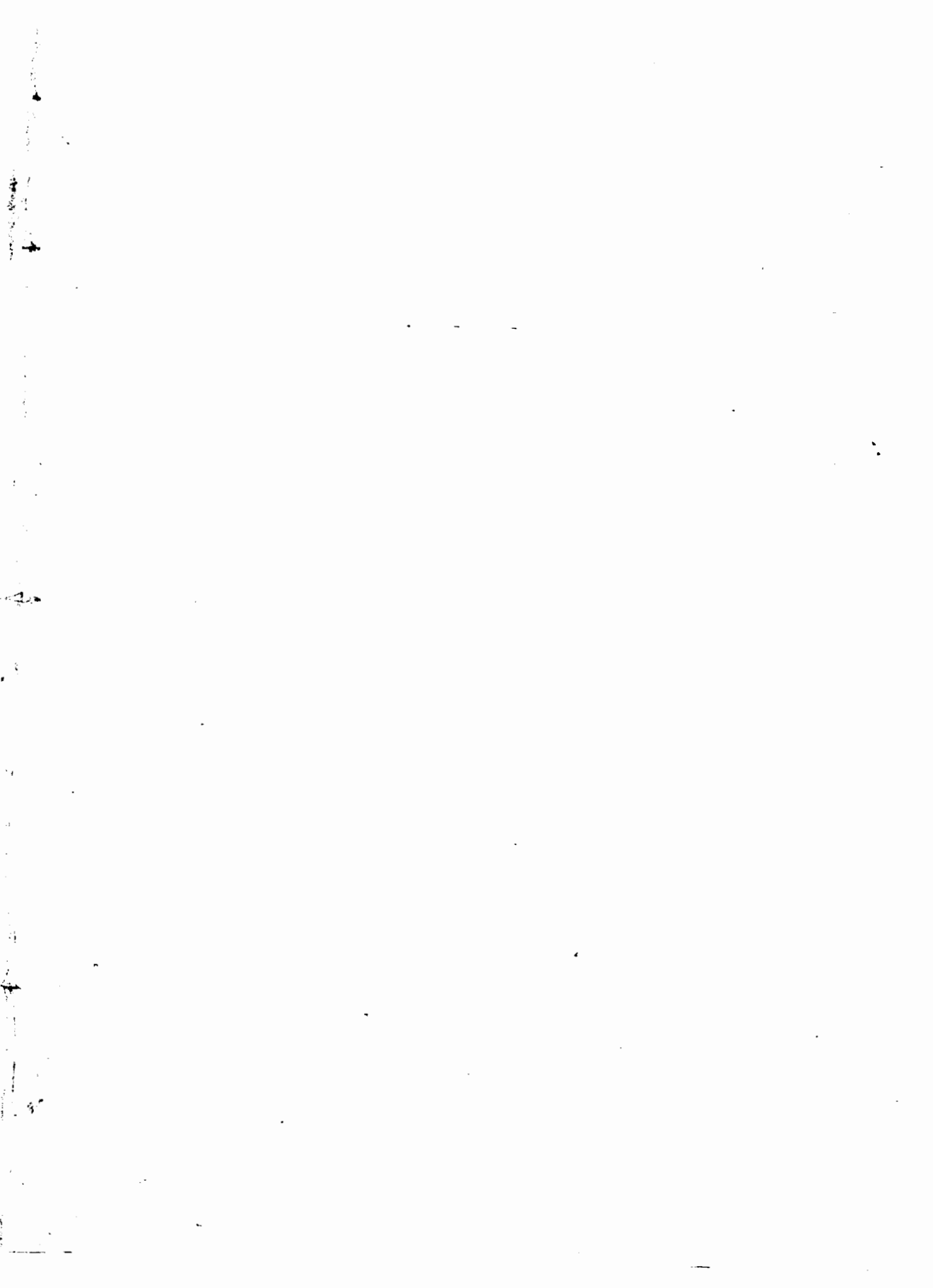
Par : Nafissa Abdel-fattah 1—32

Francis Ponge

Par : Nafissa Abdel-Fattah 33—72

Le Concept de la Copule

Par : Ahmed Mohamed Hamed 73—101



الأسس الاستمولوجية
بين الفيزياء الكلاسيكية وفيزياء أينشتاين
بحث في استمولوجيا العلم

دكتور
ماهر عبد القادر محمد علي
مدرس الفلسفة
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

ارتبطت الفيزياء الكلاسيكية بنموذج معين للتفكير ظل قائماً طوال ثلاثة قرون من الزمان ، وفجأة في مطلع القرن العشرين ، وبعد بينات فيزيائية وهندسية معينة ظهرت أمام أحد علماء الفيزياء ، تغير كل شيء وأنهار النموذج الكلاسيكي للفيزياء ليحل مكانه نموذج آخر جديد هو الفيزياء المعاصرة التي بدأت بنظرية النسبية الاينشتينية الخاصة (١٩٠٥) : حقيقة تستند نظرتنا الأساسية في هذا البحث إلى أن الفيزياء المعاصرة لا ترفض الفيزياء الكلاسيكية تماماً ، وأن كل ما أحدثته هو مجرد تصحيح للمفاهيم والتصورات وفقاً لنتائج الأبحاث العلمية . وقد يفهم القارىء هنا أن الفيزياء المعاصرة بنظرياتها هي من طراز النظريات التي لا تتسم بالطابع الكشفي ، ولكن الأمر شديد الاختلاف هنا إذ أن التصحيح الذي نشير إليه يختلف عن ذلك التصحيح الذي يطور أو يعدل بما يجعل النظرية العلمية قاصرة على المتخصصين فحسب ، فلهذا التصحيح بعده الثوري الانقلابي لأنه يتناول المفاهيم ذاتها ، أى المنطلقات الأساسية التي تبدأ منها النظرية ، وبالتالي انسحب على النتائج التي نشأت عن هذه المفاهيم . فكأن من الصحيح إذن أن نصف الفيزياء المعاصرة بصفتين معاً هما : الصفة الأولى أنها لم ترفض الفيزياء الكلاسيكية وإنما صححتها . والصفة الثانية أنها تتميز بالطابع الكشفي : وبهاتين الصفتين فهي تهم رجل العلم المتخصص وتهم البشر جميعاً .

والواقع أن المقابلة بين الفيزياء الكلاسيكية والفيزياء المعاصرة تكشف عن حقيقة التغير الذي حدث في العلم المعاصر ، وإلى أى حد انعكس هذا التغير على العلوم الأخرى ، مما يفسر لنا حقيقة التغير الذي يطرأ على النظريات ذاتها . وهنا فاننا نجد أمماً أكثر من منظور لمعالجة التغير : هناك منظور فلسفي ، وآخر منطقي وثالث تجريبي امبريقي ورابع رياضي .

وقد يفضل البعض معالجة التغير في النظريات من خلال منظور واحد حتى يمكن أن نلم بجوانب التغيرات أو التحولات العلمية ، وهذا المنظور هو ما تبناه كون في مؤلفه عن «تركيب الثورات العلمية» حين أخذ يعالج

المسألة من خلال نظرة فلسفية معينة لتاريخ العلم . وقد يفضل فريق آخر المنظور الرياضى تماماً كما فعل هانسون حين نزع إلى تقديم براهين رياضية يبرر بها ما يحدث فى العلم . لكننا نفضل معالجة التغيرات العلمية التى تحدث داخل الانساق العلمية من خلال نظرة أشمل وأعم تبنى ههنا الأساسى ، لنثبت فى نهاية الأمر الفرضية التى يقوم عليها هذا البحث ، ومن ثم فإن مناقشاتنا ستأخذ من هذه المداخل جميعاً منطلقاً لها ، على اعتبار أن النظرة التكاملية داخل العلم تكشف لنا عن جوانب مستغلة ما كان يتصور الوصول إليها إذا ما أخذنا أحد المداخل وأهملنا غيره .

إن أصدق وأدق وصف للفيزياء الكلاسيكية هو ما نفهمه بعلم الميكانيكا النيوتونى ، هذا العلم الذى صيغت مفاهيمه الأساسية فى مجموعة القوانين الآتية :

القانون الأول : كل جسم يبقى على حالته من حيث السكون أو الحركة المنتظمة فى خط مستقيم ما لم تؤثر عليه قوة خارجية تعمل على تغيير حالته ،

القانون الثانى : معدل تغير كمية الحركة يتناسب مع القوة المؤثرة ويكون التغير فى اتجاه القوة المؤثرة .

القانون الثالث : لكل فعل رد فعل مساو له فى المتدار ومضاد له فى الاتجاه .

قانون الجذب العام : كل جسمين يتجاذبان بقوة تتناسب طردياً مع حاصل ضرب كتلتهما وعكسياً مع مربع المسافة بينهما .

هذه القوانين الأربعة التى تعبر عنهما الميكانيكا النيوتونية تعد أصدق تعبير عن الفيزياء الكلاسيكية بأسرها ، وما كان يمكن صياغتها الا من خلال نظرة معينة للكون والواقع الفيزيائى ، وهذه النظرة تتمثل فى تصور معين للمكان والزمان ، فالفيزياء بطبيعتها تدرس حركة الأجسام فى مكان معين

وزمان معين ، أى أنها تدرس الحركة التى يمكن القول بأنها تغيير الموضع فى المكان خلال الزمان ، ولذلك فأننا نجد قوانين نيوتن السابقة تشير إلى الحركة مباشرة وتتضمن المكان والزمان بصورة ضمنية : إذ أن الحركة التى تنسب للأحسام تتم فى المكان المطلق والزمان المطلق ، فما هى طبيعة التصورات التى تأخذ بها الفيزياء الكلاسيكية ؟

تصور المكان كلاسيكياً :

تشير الفيزياء الكلاسيكية إلى أن كل حركة لا بد وأن تتم فى مكان Space ، وهذا المكان ينظر إليه على أنه وسطاً متجانساً يوجد باستقلال تام عن المحتوى الفيزيائى Physical Content ، أى الجسم . يقول نيوتن فى وصفه للمكان «بدون النظر لأى شىء آخر خارجى ، فإن المكان المطلق Absolute Space — فى طبيعته الذاتية — يبقى دائماً متشابهاً وثابتاً (١)

لقد اعتقد نيوتن أن هذا الافتراض هو أدق بديهية تميز الفيزياء التى افتقدت خاصية التحديد من قبل . وقد نتفق معه فى أنه ربما يكون أول من قدم صياغة واضحة لهذا الافتراض الذى ارتبط باسمه ، لكنه بكل تأكيد لم يكن أول من قدم الافتراض ذاته ، لأن الافتراض المتعلق بالمكان المطلق وثباته وتشابهه قفز إلى حيز الوجود فجأة مع تلك المفاهيم والتصورات التى زودتنا بها الفلسفة الذرية اليونانية فى العصر القديم ، حين أثبت الذريون تعريفهم للمادة Matter بأنها الملاء Plenum (أى ما يشغل مكاناً) فى مقابل الفراغ void (أى المكان الفارغ Empty Space ، ومن ثم أمكنهم التمييز بين الثابت والحارى Container المستقل ، أى المكان ومحتواه الفيزيائى المتغير . ولكن إذا كان الذريون قد أقاموا هذا التمييز ، فكيف أمكنهم إذن تمييز خاصية المكان المطلق ؟

إن فلاسفة الذرية اليونانية — لوقيوس وديموقريطس فى القرن الخامس ق . م — يمثلون حلقة هامة من حلقات الابداع الفكرى والفلسفى ، فهم

يطلقون اصطلاح اللاوجود non - being ويقابلون بين اللا وجود والوجود المطلق أو التام full - being . ومصطلح اللا وجود هذا من المصطلحات الهامة التي استعارها الذريون من فلاسفة المدرسة الايلية أمثال بارميندس وميلسيوس حيث كان اللا وجود بالنسبة لهُلَاء يعنى اللا شىء nothingness ، الا أن لوقيبوس حين استعار المصطلح ألبسه ثوباً جديداً واستخدمه من حيث الشكل فحسب ، ولم يقبل الفكر الايلي للمصطلح لأنه من وجهة نظره لا توجد ثمة حلولاً للمتناقضات التي أكدها الايليون ما لم يؤخذ في الاعتبار درجة من الوجود للخلاء .

وهناك نقطة أخرى هامة ترتبط بهذا التصور ، فالمادة — في حد ذاتها — ذاتها رغم أنها قابلة للتغير ، وثابتة من الناحية الكيفية الا أنها بمعنى ما كانت عرضة للتغير ، لأن اجزائها تعج بالحركة، وهذا التغير لا يؤثر على الجزئيات ذاتها ، وإنما على المسافة بينها فحسب .

لقد واجه الفكر الذري أشد النقد من جانب ارسطو ، الا أن أرسطو ذاته لم يشك لحظة واحدة في أن المكان مطلق ، وأنه يمكننا اثبات هذه الخاصية من مجرد «ملاحظة شغلنا لمكان معين وانتقالنا من مكان لم آخر» (٢) فهذه الملاحظة تؤكد لنا أن المكان «موجود ما دما نشغله بالفعل» (٣) ولكنه مع هذا ينكر صفة الجسمانية للمكان قائلاً «ومن المحال أن يكون المكان جسماً ، لأنه يلزم من ذلك أن يكون جسمان في مكان واحد بعينه» (٤) ، ويرتب على هذا أنه لا يمكن لنا أن نتصور المكان على أنه ذات صورة ومادة ، لأن مثل هذا الافتراض يشكل صعوبة على ادراكنا للطبيعة المكان إذ أن «الصور والمادة لا يمكن أن يفصلا عن الشىء، بينما يمكن للمكان أن ينفصل عنه ، ذلك لأن المكان الذي كان فيه هواء نجد أنه قد حل فيه ماء .. وأيضاً فان المكان ليس جزءاً ولا حالة ، ولكنه منفصل عن كل شىء» (٥) . وهنا فإنا نجد أرسطو يتقدم ببعض الحجج التي تثبت رأيه هذا عن المكان ومنها ، أن المكان من حيث هو مفارق فانه ليس بصورة للمركب ، كما أنه

من حيث هو محيط فهو ليس بهيولى ، ذلك لأن الهيولى لا تحيط بل يحاط بها
كما أن المكان منفصل عن المركب ، أما الهيولى والصورة غير منفصلين ،
ومن ثم فالمكان مخالفاً لهما . كذلك فإن الأجسام تتحرك دائماً إلى المكان ،
والشئ لا يتحرك إلى ذاته لأنه لا يتحرك إلى ما هو له ، ولو كان المكان
هيولى أو صورة لكان ذات الشئ المركب (٦) ومن جانب آخر فإن
المكان قد يوصف بأنه إما فوق أو أسفل ، أما الهيولى والصورة فلا يمكن
أن تنصفاً بفوق أو أسفل . وكذلك لو كان المكان صورة لفسد . على هذا
نجد أنه ما دام المكان «منفصلاً عن الشئ» فإنه لا يكون صرورة ، وما دام
مجرد غلاف (حاو للشئ) لا يكون مادة» (٧) ومع هذا يرى أرسطو أن
هناك صورتان للمكان «مكان مشترك يوجد فيه جسمان أو أكثر ، ومكان
خاص يوجد فيه كل جسم أولاً» (٨) . ومن ثم فإنه إذا كان «المكان الخاص
هو الحاوى الأول للجسم ، كان مفارقاً للجسم خارجاً عنه ، لأن الجسم
ينتقل ويتخذ له أمكنة على التوالي . وعلى ذلك يكون المكان الخاص وسطح
الجسم الحاوى ، أعني السطح الباطن المماس للمحتوى» (٩) .

إذن لقد اتفق أرسطو مع فلاسفة الذرية اليونانية في القول بالمكان المطلق
لكنه اختلف عنهم في تقرير مسألة الخلاء الذى قال به ديموقريطس لتفسير
حركة الذرات Atoms ، فالخلاء من وجهة نظر أرسطو لا يمكن تقريره
لأن الحركة في الخلاء لا سبيل إلى تصورها ، والسبب في ذلك أن حركة
الأجسام إذا كانت في الخلاء فإنها تكون حركة عديمة كما أن السرعة
ستكون لا نهائية .

ولكننا إذا انتقلنا إلى نيوتن في العصر الحديث وجدنا أن مفهوم المكان
النيوتونى المستقل Independent قد صدر ابتداء من الموقف الذرى
اليونانى ليقف وراء التمييز بين المادة والمكان الذى تشغله : المواضع تظل
واحدة ، وما تشغله يختلف من زمن لآخر . وبتعبير أدق فإن المادة تتحرك
في مكان ، وهذا ما لاحظته الذريون القدماء في دقة وبراعة حين وضعوا الأول

وهلة ، ذلك التمييز بين المادة والمكان ، فكانت خطوطهم بمثابة التمهيد الحقيقي أمام التصور النيوتوني للمكان المستقل ، بحيث أصبح المكان يتمتع بخاصية الثبات المطلق .

لكن علينا أن نشير إلى أن الذرات التي قررها ديموقريطس والذريين المتأخرين تبدو ثانوية وحادثة وعرضة للتغير بالنسبة للمكان ، بمعنى أن الذرات تعرف بأنها أحجام تامة من المكان ، وتحتاج للمكان في وجودها بينما المكان لا يحتاج إليها في وجوده ، لأنه يوجد دون وجود الذرات ، إلى جانب هذا فإن الذرات تشغل مواضع معينة ، ولذا فإنها لا تفترض أى ضرورة منطقية خاصة بالعلاقات الهندسية التي تقوم بين المواضع Positions ذاتها .

على هذا النحو يمكننا أن نقرر الخواص السابقة بصورة أدق في العبارة الآتية : في العلم الذري القديم ينظر للمكان منطقياً على أنه سابق أو متقدم على محتواه المادى ، بينما نجد على النقيض من هذا تماماً أن الفيزياء الكلاسيكية والفلسفة الميكانيكية التي سادت عصر نيوتن تقرر أن الجوهر المادى هو الحقيقة الوحيدة . ولكن سواء أكان وجود المكان الفارغ افترض ضمناً أم تم تقريره صراحة — مثلما هو الحال عند الذريين القدماء — فإن سبقه المنطقى على المادة لم يتم ادراكه بصورة كافية .

وهنا يمكننا أن نتساءل : كيف يمكن لتلك الحقيقة السالبة المتمثلة في اللاوجود أن ينظر إليها على أنها سابقة أو متقدمة منطقياً على الواقع المادى للذرات الأزلية غير القابلة للتخطيط ؟ أو بمعنى آخر ، كيف يمكن أن يكون اللاوجود متقدماً منطقياً على الوجود ؟

إننا بلا شك نلاحظ الخلط والتضارب وعدم الوضوح بين السبق المنطقى والسبق الانطولوجى أو الزمنى ، مما يفرض علينا ضرورة القاء الضوء على هذا التمييز حتى تتضح المسألة بصورة أدق .

لقد كان من أغرب انجازات فلاسفة الذرة القدماء ، كما لاحظ بيرنت وبيلي ، تلك الصيحة المشهورة القائلة بأن «الشيء قد يكون حقيقياً دون أن يكون جسماً» (١٠) ، وهذا يعنى أن الدريين يشيرون إلى أن المكان له وجود حقيقى رغم أنه ليس بجسم ، وبذا فانهم يضمنون عليه طابعاً دينياً . وقد انتقلت هذه النظرة إلى «مور» أستاذ نيوتن ومعلمه ، ثم أثرت فى نيوتن ذاته وفلسفته الطبيعية ، بحيث أصبح المكان عنده منظوراً اليه على أنه صفة للاله . وهنا نلمس مدى الخطأ الذى وقع فيه نيوتن حين خلط بين السبق المنطقى للمكان والمادة معاً وبين السبق الانطولوجى . وقد اشترك فى هذا الخطأ العلماء والفلاسفة الكلاسيكيون لقراءة قرنين من الزمان بعد نيوتن ، فكأن السبق المنطقى للمكان على محتواه الفيزيائى كان بمثابة اعتقاد راسخ لم يجرأ على الشك فيه سوى عدد قليل من الناس ولكن فيما يتعلق بمورونيوتن فإن هذا السبق ظل زمانياً .

وترتبط فكرة التجانس homeogenity بفكرة استقلال المكان وثباته ، رغم أنه من الصحيح منطقياً أن نبدأ أولاً بفكرة التجانس ، ثم ننتهى إلى القول بأن الاستقلال والثبات ينتجان معاً من تجانس المكان homeogenity of space . لكن إذا كان عرضنا قد اتخذ الطريق الآخر فالسبب فى ذلك يرجع أولاً للتعريف التاريخى الذى قدمناه لنيوتن ، ذلك التعريف الذى يركز على خاصيتى الاستقلال والثبات اللتان تنسبان للمكان صراحة ، بينما افترضت خاصية التجانس ضمناً .

والواقع أن الافتراض المتعلق بتجانس المكان قدمته الفيزياء منذ افترض أن المكان منفصل عن محتواه الفيزيائى ، وهذا الافتراض كما نعلم يرجع للدريين اليونانيين ، فن وجهة نظرهم نجد أن كل الاختلافات الكيفية فى العالم تنشأ من الأوضاع Positions والأشكال shapes وحركات motions المادة ، ولذا فإن افتراض التجانس يعد أحد المعالم الرئيسية للذرية الديموقريطسية .

وقد كان من الطبيعي في عصر نيوتن - ذلك العصر الذي استفاد من الأفكار اليونانية القديمة وعاد إليها - أن تظهر فكرة تجانس المكان . لذا حاول جون لوك ، صديق نيوتن ومعاصرة - رغم أنه رفض امكانية تعريف المكان - أن يحدد لنا المعنى صراحة فاعتبر المكان مبدأ التقسيم الحقيقي الذي يمكننا من التمييز بين نوعين من كفيات الاحساس الذاتية ، ذلك أنه يمكن التمييز بين موضوعين مدركين عددياً فحسب إذا كانا في محلين مختلفين (١١) two different places ، ومن رأى لوك إذن نجد أن التمييز بين شيئين انما ينشأ من التجاور في الوضع Juxtaposition .

من هذا المنطلق نجد أن بيرجسون ورسل معاً يقبلان في أواخر القرن الماضي المفهوم الذي قدمه جون لوك . يقول بيرجسون في كتاب «المعطيات المباشرة للحواس»: «لأنه من النادر أن نقدم تعريفاً آخرًا للمكان : فان المكان هو ما يمكننا من تمييز عدد من الاحساسات الذاتية والتلقائية الواحدة منها عن الآخر فهو إذن مبدأ الاختلاف .. ويترتب على هذا أنه حقيقة بلا كيفية » (١٢) أما رسل فيذهب في مؤلفه المبكر «مقال في أسس الهندسة» إلى أن «كل النقط متشابهة من الناحية الكيفية ، ويمكن تمييزها فقط بكون الواحدة منها تقع خارج الأخرى» (١٣) .

بهذه الصورة يبدو لنا تماماً أن استقلال المكان عن محتواه الفيزيائي انما هو نتيجة مباشرة لتجانسه ، والاختلافات الأخرى بخلاف التجاور في المكان لا تنتمي للنقط ذاتها ، وانما ترجع بصورة مباشرة إلى الحضور العرضي لمادة تشغل النقط ، كذلك فإن اجراء المكان الحالية وتلك الأجزاء المشغولة بالمادة انما يختلفان أساساً في شيء واحد هو أن الواحدة منها تقع خارج الأخرى بصورة ثانوية أو زمنية ، والاختلاف هنا ينشأ بسبب أن الواحدة منهما ذات محتوى والأخرى تفتقر إلى المحتوى . وأهمية العنصر الزمني هنا تتمثل في أنه يشير إلى أن التغير ينتمي فقط لتشكيل الأجزاء المادية ، ولا ينتمي للمكان ذاته ، فما يتغير انما هو شغل قطاع معين من

المكان ، بينما القطاع ذاته باق كما هو ، ولذا فان القول بخلاف هذا التمييز كما يقول رسل ، لا يمكن أن يسمح به لأنه يحطم تجانس المكان (١٤) . ومن خاصية التجانس التي تنسب للمكان يقرر رسل أن التجانس يتضمن نسبية المواضع relativity of positions ، كما يتضمن لا نهائية التقسيم infinite divisibility . لقد عبر رسل عن وجهة النظر الكلاسيكية حول مفهوم المكان - في بداية القرن الحالى وقبل ظهور النسبية - وخواصه وصفاته الأساسية في نص من أدق نصوصه في أصول الرياضيات بقوله : «لا يوجد أى لزوم منطقي لكيانات أخرى في المكان ، لأنه لا يترتب على مجرد وجود مكان أن توجد أشياء فيه . وإذا كان علينا أن نعتقد في هذا ، فيجب أن نعتقد على أسس جديدة ، أو بالأحرى على ما يمكن أن نسميه شهادة الحواس ، وهنا فائنا نخطو خطوة جديدة تماماً» (١٥) . ونحن نستنتج من هذا النص أن الصفة الأساسية للمكان تتمثل في الاستقلال التام ، تلك الصفة التي لا يمكن افتراضها بدون اعتبار مسألة التجانس الذي يتمثل في ترتيب أجزاء المكان ، والتي ينبغي أن ينظر إلى كل منها على أنها مستقلة أيضاً عن المحتوى المادى ، وهذا ما جعل ماكسويل Maxwell يؤكد على الترابط بين خواص المكان في نص بليغ قدمه في مؤلفه عن «المادة والحركة» حين يقول «لقد تم تصور المكان المطلق على أنه يبقى دائماً مشابهاً لذاته وغير متحرك . ولا يمكن تغيير ترتيب أجزاء المكان .. وحتى نتصور أجزاء المكان متحركة من أماكنها هو أن نتصور محلا place يتحرك بعيداً عن ذاته» (١٦) . فكأن الفيزياء الكلاسيكية تفهم جيداً معنى تجانس المكان ، ومدى الارتباط بين التجانس والاستقلال ، الأمر الذي جعل طبيعة المكان ذاته وهندسيته تتسق مع التصور الكلاسيكي لهندسة العالم ذلك التصور الذي حدده اقليدس في كتاب «الأصول» The Elements والذي بمقتضاه تصور العلماء أن هناك نوعاً من التطابق بين الهندسية الاقليدية والواقع الفيزيائي ، ويمكن لنا أن نبين هذا التطابق الذي فهمه العلماء من النظر في الهندسة الاقليدية .

نسق أقليدس الهندسى :

لقد ظن العلماء منذ عصر أقليدس (٣٣٠ - ٢٧٠ ق . م) وحتى قرابة نهاية النصف الثانى من القرن التاسع عشر أن الهندسة الاقليدية انما جاءت كتجريد للواقع الفيزيائى ولم يخرج عن هذا التصور الا بعض العلماء الذين حاولوا اثبات تصورات جديدة حول طبيعة الهندسة وعدم تطابقها مع المكان الفيزيائى انطلاقاً من التناقضات التى اكتشفت الهندسة الاقليدية ذاتها .

اعتقد أقليدس كعلماء عصره تماماً أن الأرض دائرية ، على اعتبار أن الدائرة هى أتم الأشكال الهندسية - وظل هذا الاعتقاد سائداً حتى القرن السابع عشر - وبناء على هذا الاعتقاد حاول تشييد نسق هندسى ينسجم مع ما هو معتقد ، فحدد ثلاث مجموعات أساسية ينطلق البرهان الهندسى ابتداء منهما هى البديهيات والتعريفات والمسلمات ، وهذه المجموعات الثلاث قبلها بدون برهان ، ونسلم بها تسليماً ، لأنها أبسط الأشياء وأوضحها للعقل الرياضى ، ولا يمكن التوصل إلى ما هو أبسط منها .

البديهيات (١٧) :

- ١ - الأشياء المتساوية لشيء واحد متساوية .
- ٢ - إذا أضيفت أشياء متساوية إلى أشياء متساوية كان الناتج متساوياً ،
- ٣ - إذا طرحنا أشياء متساوية من أشياء متساوية كان الناتج متساوياً ،
- ٤ - باضافة أشياء متساوية إلى أشياء غير متساوية نحصل على نواتج غير متساوية .
- ٥ - بطرح أشياء متساوية من أشياء غير متساوية نحصل على نواتج غير متساوية .
- ٦ - أضعاف الشيء الواحد متساوية .
- ٧ - أنصاف الشيء الواحد متساوية .

- ٨ - المقادير التي ينطبق الواحد منها على الآخر متساوية .
٩ - الكل أكبر من الجزء .

التعريفات (١٨) ومنها :

- ١ - النقطة هي ما ليس له أجزاء .
٢ - الخط طول بلا عرض .
٣ - حدى الخط نقطتان .
٤ - المستقيم يقع بين نقطتي النهاية .
٥ - السطح له طول وعرض فحسب .
٦ - الخطوط هي نهاية السطوح .
٧ - السطح المستوي هو الذى يقع عليه أى خط مستقيم .
٨ - الزاوية المستوية تنشأ من بين خطين متقابلين الواحد منهما مع الآخر ، بحيث يكون لكل خط اتجاه مخالف للأخر .
٩ - المستقيمتان المتوازيتان هي مستقيمتان على سطح واحد بعينه بحيث أنها لا تتقابل إذا مدت من الجانبين .

المسلمات (١٩)

- ١ - يمكن رسم مستقيم واحد بين نقطتين .
٢ - يمكن مد مستقيم إلى أى طول .
٣ - يمكن رسم دائرة من أى مركز .

من هذه المجموعات الثلاث من البديهيات والتعريفات والمسلمات يستطيع اقليدس أن يبرهن على أى نظرية من نظريات الهندسة . وما يميز هذه المقدمات التي يبدأ بها اقليدس نسخته الهندسى هو أنها «مطابقة للواقع

ومعبرة عنه ، أعنى تعتبر فى ذاتها أنها «حقيقية» . فالحقيقة هى فى المشابهة التامة مع الخارج أو العالم الخارجى» (٢٠) . كذلك فإننا نلاحظ أن ت تعريف اقليدس للخط المستقيم جاء ليثبت فكرة تجريبية الأصل ذات علاقة وثيقة بالواقع الخارجى ، كما أن الأفكار التى جاءت ببيدهيات وتعريفات ومسلمات اقليدس هى من الأفكار الدقيقة التى يستعين بها المهندسون المعماريون فى فن البناء والتشييد ، تلك هى الأفكار التى تقوم عليها الهندسة الاقليدية ، ونحن لا نتعرض هنا لتفصيلاتها ، وانما نشير فقط إلى اتساقها مع الاعتقاد فى طبيعة المكان ثلاثى الأبعاد وانطباقها عليه ، وسوف نشير فيما بعد إلى التطورات التى حدثت فى مجال الهندسة بما يبنى بطبيعة العالم الفيزيائى الخارجى .

تصور الزمان كلاسيكياً :

يعد تصور الزمن Time لمن التصورات الأساسية للفيزياء الكلاسيكية ، فبينما يعرف المكان على أنه ذو ثلاثة أبعاد محدود متجانسة متساوقة ، ينظر للزمن على أنه ذو بعد واحد محدود متتابعة : علاقة التجاور هى العلاقة الأساسية للمكان وتنشأ عن وضع شئ بجانب شئ آخر ، لأن نقاط المكان تقع الواحدة منها بجانب الأخرى . أما العلاقة الأساسية للزمن فهى علاقة التتابع Succession لأن أنات instants الزمن تتبع الواحدة منها الأخرى . إنه إذا أمكننا الاحتفاظ بهذا التمييز فى عقولنا بصورة واضحة لأمكننا تطبيق الكثير من الخصائص التى نطلقها على المكان ، على الزمان أيضاً . لقد اعتقد الكلاسيكيون أن المكان والزمان ينطويان على تعدد الأجزاء وانهما يحتفظان بخاصية التجانس ، وقد بينوا فى تصورهم للزمن أن خصائصه المتعددة تنتج من تجانسه : استقلالة عن المحتوى الفيزيائى المادى ، لانهائته اتصاله ، اطراده — على اعتبار أن اطرادالزمن هو الشئ المتمم لثبات المكان أما من حيث استقلال الزمن فقد صاغ نيوتن هذه الخاصية فى نص بالغ الدقة حيث كتب يقول :

«ان الزمان المطلق والرياضي ، بذاته وطبيعته ،
ينتج باطراد ، بدون النظر لأي شيء خارجي .
انه أيضاً يسمى الديمومه duration . فالزمن
النسبي والظاهر إنما هو مقياس محسوس
وخارجي للزمن المطلق (الديمومه) . وهو يقدر
بحركات الأجسام سواء أكان دقيقاً أم غير
متساو ، وهو عادة ما يستخدم بدلا من الزمن
الحقيقي مثل الساعة واليوم والشهر والأسبوع» (٢١)

وفقاً لهذا الرأي الذي يقدمه نيوتن فإن الزمن ينتج باطراد سواء أكان
شيئاً ما متغير أم لا . والزمن في طبيعته الذاتية فارغ empty ويملاً فقط
بطريقة ثانوية أو اضافية بالتغيرات Changes ، وتلك التغيرات إذن
تحدث في زمن ، ولكنها ليست الزمن ذاته . وبطبيعة الحال فإن هذا التمييز
بين الزمن والصيرورة المشخصة Concrete becoming من أساسيات
الفيزياء الكلاسيكية ، فكما أن المكان لا يتضمن المادة ، كذلك الزمن
لا يتضمن الحركة أو التغير بصفة عامة ، وهذا ما أكدته «أختر بارو»
Issac Barrow أستاذ نيوتن ومعلمه ، فقد كان له أبلغ الأثر على تصور
نيوتن للزمن ، وتأثيره يماثل ذلك التأثير الذي تركه «هنري مور» على
تصور نيوتن للمكان ، ذلك لأن «بارو» في أحد نصوصه الهامة يقول :

ولكن هل الزمن يتضمن الحركة ، ليس على
الاطلاق بل أنه مطلق .. ان كمية الزمن لا تعتمد
على أي جوهرية ، سواء أكانت الأشياء تسير
أم تقف ، سواء أكانت في النوم أم اليقظة .
ان الزمن في فحواه ينساب . تخيل أن النجوم
ظلت ثابتة في مواضعها منذ وجدت ، فلن
يتحرك شيء للزمن . إن قبل وبعد وفي نفس

الوقت ، حتى في هذه الحالة سوف يكون لها
وجودها التام ، وسوف يكون بمقدور العقل
أن يتصورها تماماً» (٢٢) .

أنه يمكن لنا أن نتبين مدى الاتفاق بين أقوال نيوتن وآراء أستاذه
«باروو» من مجرد النظر إلى تقسيم الزمن لديهما : هناك الزمان المطلق ،
وهذا الزمان هو ما يعرف بالزمان الحقيقي أو الرياضي «وهو قائم بذاته»
مستقل بطبيعته ، في غير نسبته إلى شيء خارجي ، ويسيل باطراد ورتوب» (٣٢)
ولا يرتبط بالحركة . وهناك الزمان النسبي ، وهذا النوع «ظاهرياً عاماً» ،
وهو مقياس حسي خارجي لأية مدة بواسطة الحركة ، وهو الزمان المستعمل
في الحياة العادية على هيئة ساعات ، وأيام وشهور وأعوام ، وقد يكون
«دقيقاً» ، وقد لا يكون متساوياً مطرداً . وهذا الزمان الثاني يستخدم في الفلك
كمقياس لحركة الأجرام السماوية ، لأن زمان الفلكيين مرتبط بحركة» (٢٤)

لقد ظل هذا الفهم قائماً حتى البدايات الأولى من القرن الحالى وذلك
حين أخذ برتراند رسل يدافع عن نظرية الزمن المطلق ، فقد بدأ أولاً
بالدفاع عن التمييز الأساسى بين السلاسل الزمنية ذاتها ، وبين محتواها الكيفي
وهذا ما يتضح لنا من نص هام كتبه عام ١٩٠١ بعنوان «هل الوضع في
المكان مطلق أم نسبي ؟» ، حيث يذهب إلى أنه «في النظرية المطلقة
لدينا فصلين من الكيانات Classes of entities (١) الفصل الأول
هو وجود المواضيع (٢) والفصل الثانى ماله مواضيع . وأى
حدين للفصل الأول لهما علاقة لا تماثلية متعددة ، وهما في حالتنا
قبل وبعد . والحدود التى لها مواضيع كل منها له علاقة معينة — بحد أو
أكثر مع الحدود التى هى مواضيع — يمكن التعبير عنها بالقول إن
الحدود الجديدة في مواضيع ، أو أنها تشغل مواضيع .. ويمكننا أن نسمى
الكيفيات بالحدود التى لها مواضيع في الزمن ، ومن ثم فإن الكيفية قد تكون
في لحظات كثيرة ، أو في كل اللحظات» (٢٥) . وهكذا يتبين بوضوح

أن حجة رسل الأساسية تتخذ صفة العمومية ، ولكنها على أية حال تشبه نفس الحجة التي ساقها «باروو» منذ قليل ، فقد حاول «باروو» في حجته أن يوضح لنا أن غياب الحركة لا يمنع الزمن من الانسياب Flowing ، أما رسل فقد أضفى على الحجة صورة عامة عن طريق الإشارة إلى أن عدم غياب أى تغيير يؤثر على انسياب الزمن أو تتابعه ، لأن أى كيفية معينة يمكن أن تبقى خلال لحظات كثيرة ، أو حتى خلال كل اللحظات All moments ولكن ما هو الهدف الذى كان يرمى اليه «باروو» ورسل معاً من تأكيدهما على هذه الخاصية ؟

الاجابة على هذا التساؤل واضحة تماماً ، لقد كانا يرميان إلى النظرية العلاقية للزمن ، ذلك لأن تمييز رسل بين الكيفيات واللحظات يكافئ التقرير القائل بأن المحتوى الفيزيائى للزمن ليس مشتقاً من الزمن ذاته ، تماماً كما أن المادة ليست مشتقة من المكان . ويمكن أن نجد أن ما قاله رسل عن المكان هو نفسه مكرراً كلمة عن الزمن حيث يقول «إنه لا يوجد ضمن منطق لكيانات أخرى من الزمن ، وهذا لا ينتج من وجود الزمن ، بل ينتج من هذا أنه توجد فيه (أى الزمن) أشياء» ، ذلك لأن تصور المادة تماماً كتصور الحركة لا يمكن أن يشتق بصورة منطقية من تصورات المكان والزمن ، لأن هذين التصورين لا معرفين ، يقول رسل «ما المقصود بشغل Occupying نقطة أو لحظة ، لا يمكن للتحليل أن يشرحه وأن يفسره ، وتلك هى علاقة أساسية يعبر عنها بـ at, in ، وهى لا تماثلية ومتعددية ، لا معرفة وبسيطة » (٢٦) وهذا القول يعنى أن الزمن فارغ empty . أما المقصود باستخدام المصطلح Occupying بالنسبة لكل من المكان والزمان فهو تمييز الفكر التقليدى بأسره ، فالمصطلح فى حد ذاته يشير إلى ما هو مكانى فى أصله ومعناه ، فكما أن المادة تملأ Fills أو تشغل أجزاء من المكان ، كذلك فإن التغيرات أو الحركات تملأ أو تشغل أجزاء من الزمن . وكما أن المكان هو الحاوى Container لكل المادة ، كذلك

فإن الزمن هو وعاء receptable كل التغيرات ، أو بكلمات «باروو»
«الزمن هو بشكل ما مكان الحركة» (٢٧)، وهذا هو الاعتقاد الراسخ
والأساسى للعلم الكلاسيكى .

ان وجهة النظر النيوتونية حول الزمن كانت أكثر عمقاً وتأثيراً لأنها
تذهب إلى ما وراء حدود العلم الفيزيائى ، فعلى سبيل المثال نحن نجد أن
كانط Kant نظر للزمن على أنه نوع من التجانس ، أو هو الوعاء الذى
«يملأ من الخارج» Filled out from Outside بالاحساسات المادية المتغيرة :
أنه من الصحيح أن الزمن بالنسبة لكانط لا يفترض الحقيقة المحاذرة لما هو
عقلى ، والتي تبدو كصورة قبلية للحدس ، لكنه لا يغير الحقيقة الواقعة
بأن التمييز الحاسم بين الوعاء المتجانس الثابت وتغيره وتغير عناصر المحتوى
انما هو نيرتوني فى طبيعته الذاتية .

والواقع أن خاصية استقلال محتوى الزمن تأتى كنتيجة مباشرة لتجانسه
فالتغيرات العيانية Concrete changes تبدو على أنها لا متجانسة ، والتغيرات
الكيفية هى واحدة من أهم ملامح الشعور وتبدو كأنها ممثلة حتى فى العالم
الفيزيائى العادى . ولكن حتى إذا قبلنا رد كل التغيرات الكيفية فى العالم
الفيزيائى إلى تغيرات فى الوضع فحسب ، كما تقترح علينا وجهة النظر
الكلاسيكية عن العالم ، فان اللاتجانس لن يختفى تماماً ، وهذا يعنى أنه بينما
نجد اللحظات المتتابعة Successive movements للصيرورة الفيزيائية
Physical becoming مختلفة ، على الأقل فى جوانبها الهندسية
والديناميكية ، فان الأناث المتتابعة Successive instants للزمن الرياضى
الحقيقى لا تفتقر إلى أشياء أخرى بخلاف ما ينتج عن تتابعها ، فانات الزمن
متكافئة تماماً والاختلافات بين ملاحظها الأساسية انما ترجع إلى المواضع
المختلفة فى السلاسل الزمنية .

ان لانهائية الزمن واتصاله ينتجان مباشرة وبصورة طبيعية من تجانسه .
أما لانهائية الزمن فانها تتضمن غياب أى لحظة مؤقته كانت فى الماضى أو أى

لحظة في المستقبل ، لأن مثل هذه اللحظات تفترض خاصية مميزة تجمعها غير متسقة مع تجانس الزمن. فإذا كان الزمن متجانساً حقيقةً فإن كل أنه لا بد وأن تسبقها آتات وتتبعها آتات أخرى ، ويترتب على هذا أن تصور اللحظة الأولى التي ليس لها سابق ، أو أن الغاية النهائية التي ليس لها لواحق لا يمكن التفكير فيها .

ان لا نهائية الزمن فرضت نفسها على عقول الفيزيائيين الكلاسيكيين تماماً مثل لا نهائية المكان ، ومن ثم فإن الافتراض المتعلق بالبداية الزمنية للعالم يرجع في معظمه إلى دوافع لاهوتية . وحتى إذا كان الأمر كذلك فإنهم كانوا ينظرون إلى بداية العالم على أنها في زمن . ولذا فإن المنطق المتضمن في فلسفة «باروو» و «مور» و «جاسندى» و «نيوتن» و «كلارك» يتطلب وجود الزمن حتى قبل خلق العالم ، أى وجود الديمومة الأبدية المجردة من أى محتوى فيزيائى ، والديمومة في هذه الحالة ديمومة فارغة من المحتوى الفيزيائى .

على هذا النحو إذن يبدو لنا اتساق المفهوم النيوتونى للمكان والزمان ، بما جعل الفيزياء الكلاسيكية لا تخرج عن تلك المفاهيم التي ساقها نيوتن . ولكن ماذا عن المادة والحركة في اطار هذه التصورات التي قدمها نيوتن للفيزياء الكلاسيكية ؟

التصور الكلاسيكى للمادة :

يعد تصور المادة Matter من التصورات الأساسية للفيزياء الكلاسيكية رغم أن هذا التصور لم يطرأ عليه كثير من التغيير منذ عصر لوكيبوس حتى بداية القرن الحالى . لقد عرفت المادة بأنها تملأ مناطق معينة من المكان وتستمر خلال الزمان حتى لو تغيرت مواضعها ، وهذا المفهوم ينشأ مباشرة من تعريف المادة بأنها :

المادة = المكان الممتلئ

Matter = full space

تملاً ماذا؟ وتشغل بماذا؟

أنه بالنسبة لكل أولئك الذين يعتقدون في قيمة العلم الكلاسيكي ، فإن هذا السؤال بلا معنى ، ولكنه يوضح الفشل الذريع في فهم معنى التعريف السابق . ان خاصية شغل المكان ليست واحدة من بين خصائص متعددة للمادة ، وانما هي الخاصية الوحيدة فحسب . علينا أن نسترجع هنا التمييز بين الكيفيات الأولية والثانوية ، فهذا التمييز له أهميته الخاصة ، ذلك لأن الكيفيات الأولية بخلاف الامتلاء fullness كانت تمثل الخصائص الهندسية التي تشترك فيها المادة مع المكان الذي تشغله ، وعلى هذا الأساس أصبحت المادة تصوراً على درجة كبيرة من العمومية ، وبالتالي يمكن مقارنتها بتصور الوجود. وبطبيعة الحال لم تكن المسألة عرضية حين كان ينظر للمادة والوجود على أنهما لا معرفان ، لأنه إذا كان امتلاء المكان هو جوهر المادة فإنه لا يمكن ادراجها تحت تصور آخر أعم لإنها تصبح مثل الوجود ذاته ، تصوراً على درجة من العمومية ، وهذا ما أوضحه رسل حين أصر على أن علاقة شغل المكان Relation of space - Occupancy علاقة لا معرفة .

ومع هذا فإن المصطلح «علاقة» قد يضللنا ، لأن يؤدي بنا إلى فهم أنه ترجل ثلاثة حدود متضمنة فيه هي (١) المادة (٢) علاقة الشغل ذاتها (٣) المكان . فكما نلاحظ هنا أن المصطلحين الأولين متداخلين ، والتمييز بينهما لفظي فحسب ، ويرجع إلى طبيعة تركيب اللغة أو الرمزية المستخدمة . أنه إذا جردت المادة في العلم الكلاسيكي من صفة شغل المكان لبدت وكأنها كلمة عارية .

ان الحقيقة التجريبية عن الحركة أفضت بالذريين الأوائل إلى الاعتراف

بالمكان الفارغ empty space أو الخلاء void على اعتبار أنه الامكانية الوجدية للخروج من متناقضات بارمنيدس الخاصة بالملاء غير المتحرك Changeless Plenum . وهذه النتيجة لم ينتهى اليها أصحاب المذهب الذرى المتأخرين فحسب ، وانما انتهى اليها ، وقبلها ، كل العلماء الكلاسيكيون الذين أدرکوا أن انكار المكان الفارغ وواقعية الحركة يمكن التخليص منه بصورة لفظية فحسب ،

وما يهمنا توضيحه هنا أن التفكير النموذجي للنظرية الحركية الجسيمية Corruscular - Kinetic Model عن الطبيعة افترض أن أحجام معينة فقط من المكان تملأ Filled وهي التى تؤلف ما نسميه الأجسام الفيزيائية Physical bodies ، وقد أمكن للعلماء اجراء بعض تجارب التحقيق الالمبريقى عن خصائص المادة الفيزيائية ، بالاستناد إلى التعريف السابق . إنه إذا كانت المادة هى المكان الممتلىء full space لتحتم أن تتمتع عناصرها وفق طبيعتها الذاتية بخواص اللانفاذية impenetrable والالانقسامية indivisible وعدم التحطيم indestructible والجانسية rigid ولكن هل يمكن لنا أن نقين القرة الاستنباطية لتصوير الميكانيكا الكلاسيكية عن العالم من خلال هذه الخواص ؟

ان الفاحص المدقق ليتبين على الفور أننا نتحدث عن المادة فى صيغة «الجمع» plural لأننا نتحدث عن عناصرها المكونة ، وقد كان من الأخرى بنا أن نتحدث عنها فى صيغة «المفرد» Singular وهو ما يمكن أن نلاحظه حين نسمح بوجود المكان الفارغ : الخلاء فقط هو ما يمكن أن يحطم اتصال المادة ويقسمها إلى أجسام مفردة . وما تتمتع به هذه الأجسام اللانفاذية والالانقسامية انما ينتج بصورة ضرورية من التعريف السابق : المادة = المكان الممتلىء . وبطبيعة الحال فإن الامتلاء لا يسمح بدرجات لأن ما ملئ فعلا لا يمكن أن يملأ ، ومن ثم فالأجسام المادية تتمتع باللانفاذية . ولكننا فى حقيقة الأمر نلمس ما يناقض هذا فى خبرتنا اليومية ، فالوقائع المتعلقة بالمخاليط mixtures والمحاليل Solutions والمركبات الكيميائية

Chemical Compounds ، وما إلى ذلك ، تشير إلى أن المادة تتمتع
بالنفاذية . وعلى أية حال فإن كل هذه التناقضات سرعان ما تختفى إذا حاولنا
تأويل المسألة بصورة صحيحة . يقول بيرجسون :

حاول أن تتخيل صورة لجسم ينفذ في آخر :
سوف تفترض على الفور أنه توجد أماكن
بداخلية في الجسم الأول ستشغل بواسطة أجزاء
من الجسم الآخر ، وهذه الأجزاء بدورها
لا يمكنها أن تنفذ الواحدة منها في الأخرى ما لم
ينقسم الواحد منها ليملأ الفراغات الموجودة
بالبآخر» (٢٨) .

ويستنتج بيرجسون من هذا القول أنه ليست الضرورة الفيزيائية وإنما
الضرورة المنطقية هي التي تمضي بنا إلى القضية القائلة بأن جسمين لا يمكن
أن يشغلا نفس المكان في نفس الوقت ، وعند هذا الحد يمكن اعتبار تصور
بيرجسون صحيحاً إلى حد ما . لكنه منذ المرحلة التصورية الذرية فإن لانفاذية
العناصر كانت مجرد استدلال منطقي مستمد من المسلمات الأساسية للتصور
الفلسفي للذرة . ويبدو أن السبب في هذا التصور يرجع إلى بعض القصور
في حواسنا فن المعروف أن للحواس قدرات محدودة . ولكن إذا ما زودت
حواس الإنسان بما يزيد من قدرتها وحدودها ، لأمكن للإنسان أن يقف
على بعض دقائق الأشياء ، وهذا ما كشفت عنه التجارب العلمية التي
استندت إلى استخدام أشعة اكس X-Ray حيث أمكن بواسطتها أن نرى
ونحسب تجاور الأجزاء في المحاليل والمركبات الكيميائية وغيرها .

ولكن ماذا عن تركيب المادة ؟ وكيف يمكن تصورها من الداخل ؟
وهل أسهم العلم الكلاسيكي في تأسيس هذا التصور ؟ الذي لا شك فيه
أنه ينبغي لنا عند هذه النقطة أن نناقش ما حدث منذ بداية القرن التاسع عشر
حول تصور التركيب الداخلي للمادة .

لقد جاء «دالتون» عالم الكيمياء فى القرن التاسع عشر وتصور أن كل ما لدينا هو مجموعة من العناصر ، وأن قوام المادة جزيئات Molecules كل منها يتألف من ذرات قد تكون من ذات العنصر ، أو من عناصر أخرى (٢٩) مثال ذلك أن جزيئى الماء يتكون من ذرتين من الایدروجن وذرة واحدة من الأكسجين ، ويمكن فصل أحدهما عن الآخر بالتحليل الكهربى ، إلا أن ذرات كل من العنصرين لا تتغير «وليس قابلة للانقسام» (٣٠) . وهذا ما جعل دالتون يعتقد أن ذرات العنصر متشابهة وأن اختلاف الذرات من عنصر لآخر يرجع إلى اختلاف الوزن الذرى لكل عنصر .

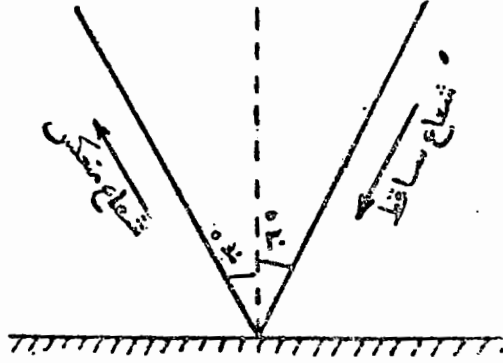
فكان دالتون قد قرر فى متن أرائه الأساسية حول طبيعة الذرات ، أن هذه الذرات لا تنقسم بأى صورة من الصور . لكن سرعان ما اكتشف العلماء خواص جديدة فاكشفت خواص جديدة للذرة مع نهاية القرن التاسع عشر ومن أهمها خاصية النشاط الاشعاعى التى كشفت للعلماء أن بعض الذرات تتمتع بخاصية النشاط الاشعاعى وتهدف ببعض جزيئاتها تلقائيا ، مما يثبت خاصية الانقسام ، وهذا ما كشف عنه التحليل الذرى للمادة . فقوام الذرات الكترونات وبروتونات . أما الالكترونات فتحمل شحنات كهربية سالبة ، على حين أن البروتونات تحمل شحنات موجبة ، وباطراد التطور العلمى اكتشفت مكونات أخرى داخل الذرة مثل البوزيترونات والنيوترونات والميزونات أو الهبيرونات . ووجد أن بعض هذه المكونات تحمل شحنات كهربائية ، بينما البعض الآخر لا يتمتع بهذه الخاصية .

وقد اهتم علماء الفيزياء بالكشف عن طبيعة الذرة داخليا ، هل توجد هناك ثمة حركة ، أم أن الذرة عالم استاتيكي ؟ لقد تبين للعلماء فى هذه الفترة أن الكشف عن فكرة الحركة داخل الذرة لابد وأن يكون من خلال مكوناتها ، والالكترون أحد هذه المكونات ، بل أهمها تقريبا ، حيث يمكنه أن ينتقل من مدار إلى آخر دون أن يمر بمواضع متوسطة بين المدار الأول

الذى انتقل منه ، والمدار الثانى الذى انتقل اليه ، وأن حركة الالكترونات انما تكون على هيئة قفزات أو وثبات ، وهى ليست حركة متصلة . وهنا أمكن لعلماء الفيزياء النظرية أن يتصوروا وجود مناطق لا توجد فيها الكترونات لأن الانتقال من مدار إلى آخر يكون فى وثبات ، وهذا ما يتيح لنا أن نتصور وجود فاصل Interval بين المدار الأول والثانى يمكن قياسه .

وفى نفس الوقت تقريباً كانت الأبحاث العلمية تسير فى اتجاه آخر لتحاول الكشف عن طبيعة الضوء . هل الضوء مؤلف من جسيمات كما ذهب إلى ذلك نيوتن ؟ أم أنه مؤلف من موجات كما قال معاصره هوجنز ؟

لقد وجد نيوتن عالم الرياضيات والفيزياء من خلال أبحاثه فى الضوء والبصريات أن قوام الضوء جسيميات أو جزئيات ، وأن سرعة انتقال الضوء فى الأوساط الكثيفة أعلى من سرعته فى الأوساط الأقل كثافة . على حين ذهب هوجنز وهو من معاصريه إلى أن الضوء مؤلف من موجات وأنه ينتقل بسرعة أعلى فى الأوساط الأقل كثافة . وبطبيعة الحال فإن فرضى نظرية نيوتن وهوجنز لابد وأن تنشأ عنهما تفسيرات مختلفة ، فلا يمكن أن نتوصل إلى نفس النتائج فى حالة الفرض الثانى إذا قبلنا الفرض الأول ، وهذا ما يتفق عليه العلماء ، لأن الفروض ذات التركيب المختلفة تؤدي إلى نتائج مختلفة ، ومع هذا فانه فى حالة نظريتي نيوتن وهوجنز وجد أن النتائج المترتبة على الفرضين واحدة . مثال ذلك إذا كانت لدينا مرآة مستوية وسقط عليها شعاع بزاوية مقدارها 30° ، فإن هذا الشعاع ينعكس بزاوية مساوية لزاوية السقوط ، أى بزاوية مقدارها 30° أيضاً ، كما يبين الشكل الآتى :



المفروض أنه إذا توصلت النظرية الجسيمية إلى هذا التفسير ، فإن النظرية الموجية لا تتوصل إليه ، ولكن ما حدث أن توصلنا إلى نفس التفسير في حالة النظرية الأولى والنظرية الثانية ، وبطبيعة الحال فإن هذا الأمر يستدعى إجراء تجربة حاسمة Crucial experiment للفصل بين النظريتين وتقريب قبول أيهما ، وهذا ما أقدم عليه الفيزيائي المشهور « فوكو » Foucault في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، فقد صمم تجربة لاختبار نتيجتي الفرض الأول والثاني والمقارنة بين سرعة انتشار الضوء في الهواء والماء ، حيث استطاع أن يلتقط صورتين لنقطتين ضوئيتين منبعثتين من أشعة الضوء المار خلال الهواء والماء ، ومنعكستين على مرآة تدور بسرعة عالية . وقد أسفرت تجربة فوكو عن تأكيد صحة الفرض الموجي ورفض الفرض الجسيمى ، وبالتالي أدت إلى صياغة الفرض الموجي كنظرية تقوم على مجموعة من الفروض الخاصة بانتشار موجات الأثير من خلال البصريات ، استناداً إلى أن سرعة انتشار الضوء في الهواء أكبر منها في الماء .

لكن سرعان ما اكتشف عالم الفيزياء « ماكس بلانك » Plank ، منع مطلع القرن العشرين ، خطأ رأى فوكو ، وأثبت بالتجربة أن قوام الضوء فوتونات Photons وأن كل شعاع ، بما فيه الضوء يسير وفقاً للأعداد الصحيحة لوحدات أولية من الطاقة ، هي ما يطلق عليه الكوانتم

Quantum ، وأن قوام الطاقة كمات Quanta وما يعنيه الفيزيائي من الفوتون هو ذلك الجسم الموجود في كل شعاع ، فكأن الأنواع المختلفة من الأشعة ذات فوتونات خاصة بها، والمثال على ذلك هناك فوتونات لأشعة اكس ، وفوتونات أخرى للأشعة تحت الحمراء .. وغيرها - ومن ثم فالكوانتم هو ذرة الطاقة المتوقفة على طول موجة الشعاع الذي ينتقل به الكوانتم .

ووفقاً للتصورات الجديدة التي قدمتها النظرية الذرية بعد اكتشاف ظاهرة النشاط الاشعاعي (٣١) وتفتت الذرة تصبح الجسيمات المتناهية الصغر التي تقذف بها الشمس ليست سرى الذرات ، أو الطاقة energy الموجودة في كل جزء من أجزاء المادة ، وهو ما يعرف بالاشعاع المؤلف من فوتونات .

ولا شك أن اينشتين يؤيد النتائج التي توصل اليها بلانك والتي أصبحت موضعاً للتطبيق العملي ، فقد تبين أنه إذا سلب الفوتون على الذرة فإنها تضطرب وفقاً لكمية الطاقة الموجودة في الفوتون ، كما تبين أيضاً أن الفوتون في حركة مستمرة ، وأن سرعته تماثل سرعة الضوء .

لكن كما يرى رشنباخ (٣٢) فإن العلم لم يتوقف عند هذا الكشف ، فقد أمكن لعالم الفيزياء الفرنسي دى برولى (٣٣) Louis de Broglie أن يحسم الصراع بين نظريات الضوء مفاهيم الفيزياء ، حيث أكتشف من خلال تجاربه أن الضوء مؤلف من جسيمات وموجات معاً ، وهذا الكشف الجديد مكنه من نقل الفكرة إلى ذرات المادة التي لم يفسرها أحد من قبله على أساس موجي ، فوضع نظرية رياضية يكون فيها كل جزيئي صغير من المادة مقترناً بموجة ، ثم قام شرودنجر بعد ذلك بوضع هذا الرأي في معادلة تفاضلية أصبحت الأساس الرياضي للنظرية الجديدة في الكوانتم . ومعنى ما ذهب اليه دى برولى هو ما يكشف عنه «ماكس بورن» من أن

الجسيمات الأولية لا تتحكم في سلوكها قوانين عليه ، وإنما قوانين احتمالية من نوع مشابه للموجات فيما يتعلق بتركيبها الرياضى . وفى ضوء هذا التفسير لا تكون للموجات حقيقة الموضوعات المادية ، بل تكون لها حقيقة المقادير الرياضية ، وهذا ما جعل « هيزنبرج » يتوصل إلى أن هناك قدراً من الالاتحديد بالنسبة للتنبؤ بمسار الجزيئى ، مما جعل العلماء يفسرون عالم الذرة على أساس احصائى ، لأن الحادث الذرى الفرد لا يتحدد بقانون على وإنما يخضع لقانون احتمالى .

ان هذه النتائج التى توصلنا اليها من تحليل المادة وتحليل الضوء تتكامل مع بعض النتائج الأخرى التى توصل اليها العلماء فى مجال معرفتنا بالزمن خاصة بتلك النتيجة التى انتهى اليها العلماء من حركة الالكترىون وانتقاله فى وثبات لا اتصال بينها من مدار إلى آخر . لقد ركزت نظرية النسبية على دراسة هذه المسألة ، ومحاولة فهمها بصورة وثيقة ، يقول رسل « أن الأمر الهام بالنسبة للفلسفة ، فيما يتعلق بنظرية النسبية ، أنها حطمت الزمان الواحد الذى ينتظم الكون بأسره ، وقضت على المكان الواحد الدائم ، واستبدلت بهما الزمان - المكان . وهذا التعبير له جوانب متعددة ، حيث يغير فكرتنا عن تركيب العالم الفيزيائى جذرياً » (٣٤) . ومفهوم هذا الرأى - كما يرى رسل - أن الفيزياء الكلاسيكية زودتنا بفكرة هامة عن علاقة الترتيب الزمنى Time - order Relation التى أصبحت موضع اهتمام الفيزياء المعاصرة . هل يمكن لنا أن نقول أن حادثتين وقعتا معاً فى نفس الوقت ؟ إنه إذا ما كان لدينا شخصان الأول منهما يقف على مسافة بعيدة عن الثانى وليكن موقعها الشمس ، ومزود بمراة عاكسة للضوء ، وكان الثانى يتخذ موضعه على الأرض ويحمل مراة عاكسة أيضاً ، فإنه إذا ما قام الأول بإرسال إشارة ضوئية للثانى ، فإن هذه الإشارة لكى تصل إلى الذى يحمل المراة على سطح الأرض وترتد مرة ثانية إلى الأول فإنها فى هذه الحالة تستغرق حوالى أربع عشر دقيقة (وفق التقدير الحديث لسرعة الضوء) . ومن ثم فإن

ما يقع من حوادث للشخص الأول بعد ارسال الإشارة الضوئية ، وقبل أن تترد اليه ثانية لا يقع قبل أو بعد أو متزامناً مع ما يقع للشخص الثانى من أحداث حتى وصول الإشارة الضوئية اليه وارتدادها . وهذا ما يجعلنا نقول أنه لا مجال للحديث عن أزمنة متعاقبة فى موضعين مختلفين ، ذلك لأنه «لا يوجد زمان كونى واحد ، ومن ثم لا يمكننا أن نتحدث عن حالة العالم فى لحظة بعينها ، وب نفس الصورة لا يمكننا أن نتحدث بغير غموض عن المسافة بين جسمين فى زمن معين ، لأننا إذا ما حسبنا الزمن بدقة لأحد الجسمين سيكون لدينا تقدير معين ، وإذا كان الزمن متعلقاً بالجسم الآخر كان لدينا تقدير آخر» (٣٥) . فكل من الجسمين إذن له ترتيب زمنى خاص به ، لا يمكن تحديد ما إذا كان جاء «مع» أو «بعد» أو «قبل» الترتيب الزمنى للجسم الآخر .

لكن آن لنا الآن أن نكشف عن هذه النتيجة الهامة : كيف نشأت نظرية النسبية ؟ وما هى البيانات الفيزيائية التى فرضت نفسها على العلم الفيزيائى وغيرت من ملامح الفيزياء الكلاسيكية ؟ وما هى النسبية وكيف يمكن تتبع التطورات العلمية التى أحدثتها فى معرفتنا بالعالم الفيزيائى ؟

نظرية النسبية :

لقد ذهب عالم الفيزياء الألمانى «البرت اينشتين» Einstein فى نص هام يعلق فيه على نظرية النسبية إلى تأكيد الرأى التالى :

إن الضرورة هى التى أدت إلى نشوء نظرية النسبية ، فضلاً عن التناقض الواضح الكامن فى النظرية القديمة والذى لم نستطيع التخلص منه بكل الطرق الممكنة . وتعزى قوة النظرية الجديدة إلى البساطة والدقة التى حلت بها هذه المشاكل مع استخدام فروض منطقية قليلة (٣٦)

وتأكيد مثل هذا القول من جانب عالم فيزيائى مثل اينشتين ينطوى على معان متعددة من أهمها أنه لم يكن هناك ما يدعو العلماء إلى القيام بمحاولات علمية للبحث عن نظرية أفضل لتفسير طبيعة العالم الفيزيائى ، ذلك لأن فيزياء نيوتن ، أو ما نطلق عليه أحياناً الميكانيكا الكلاسيكية بصفة أخص كانت مألوفة للعلماء والباحثين فضلاً عن المجالات التطبيقية المتعددة التى شملها ، ولكن ظهرت بيانات فيزيائية جديدة أمام العلماء تتناقض والفيزياء الكلاسيكية من حيث النظر أو التطبيق : كشفت طبيعة الفيزياء الكلاسيكية عن تناقضات صارخة جعلت العلماء يهتمون بالبحث عن أوجه النقص والقصور فيما لديهم من البناء النظرى Theoretical Structure حتى يمكن التخلص منها أو تعديل النظرية بحيث تتلاءم مع البيانات الجديدة ، الا أنه تبين للعلماء أن البناء يحتاج إلى إعادة بناء حتى يتسق التفسير النظرى مع البيانات الجديدة وهنا يبدو مظهر الضرورة الذى يتحدث عنه اينشتين ، ذلك المظهر الذى دفع بالنظرية الجديدة إلى حيز الوجود طفرة واحدة — بعد ما شوهدها من البنات — فأمكن عن طريقهما تفسير الواقع الفيزيائى بصورة أفضل ، ومن ثم بدت النظرية الجديدة متماسكة وبسيطة لكونها استندت إلى عدد قليل من الفروض الدقيقة والموجزة .

وقد يبدو من المناسب بمكان أن نشير إلى أن الناس عادة يعتقدون أن نظرية النسبية تحتاج فهمًا وتركيزاً أشد من الفيزياء الكلاسيكية ، وهم فى كثير من الأحيان يصفون عليها صفة تجعلها صعبة الفهم شديدة التعقيد ، وهذا الاعتقاد ليس له ما يبرره ، لأن عادات الناس واعتقاداتهم لازالت تستند إلى الأساليب التقليدية التى تتحكم فى تفكيرهم وتجعلهم يقفون عند نقطة معينة لا يمكن تجاوزها ، ولكننا أثّرنا أن نقدم الجوانب المتعددة لتفكير المنظرين العلميين ، ونقارن بينها ، لنقف على المنجزات العلمية الحقيقية فى ميدان فلسفة العلوم . ولهذا السبب فسوف نقرب الصورة إلى ذهن القارئ من خلال الأمثلة والبيانات المشاهدة فى الحياة اليومية .

لقد أشرنا منذ برهة إلى «البيانات» التي ظهرت أمام العلماء . ما هي هذه البيانات ؟ وما هي علاقتها بالتناقض الذي يذكر اينشتين أنه اكتنف التفسير الفيزيائي الكلاسيكي ؟ وكيف أمكن لهذه البيانات أن تسهم في تأسيس البناء النظري لفيزياء معاصرة تستند إلى النسبية ؟

مقدمات نظرية النسبية :

يمكن لنا إدراج البيانات التي ظهرت أمام العلماء في مقولتين أساسيتين : الأولى بيانات فلكية ، والثانية بيانات فيزيائية . وبطبيعة الحال فإن هذه البيانات لم تظهر في فترة زمنية واحدة ، وإنما ظهرت في فترات زمنية مختلفة ، وأدى الربط بينها إلى الافادة منها .

(أولاً) البيانات الفلكية :

توافرت بعض البيانات الفلكية الهامة لدى العلماء منذ القرن السابع عشر وحتى نهاية القرن التاسع عشر . فنحن نعلم أن كبار عالم الفلك حدد قوانين الفلك منذ بداية القرن السابع عشر ، وجاء جاليليو الفيزيائي الرياضي وحدد شكل حركة الأجسام الساقطة على سطح الأرض ، ثم جاء نيوتن واستطاع بتفكيره العبقرى أن يربط حركة الكواكب في السماء بحركة الأجسام الساقطة على سطح الأرض ، فيما عرف باسم قانون الجذب العام ، أو قانون التربيع العكسي الذي ينص على أن « كل جسمين في الكون يتجاذبان بقوة تتناسب طردياً مع حاصل ضرب كتليتهما وعكسياً مع مربع المسافة بينهما » فإذا كانت المسافة r وقوة الجذب المتبادل بين كوكب m مثلاً والشمس M ، وكانت Y تمثل ثابت التجاذب العام F تمثل القوة المركزية الجاذبة لكوكب ، فإن المعادلة الآتية تعبر عن قانون الجذب العام :

$$F = \frac{yMm}{r^2}$$

ومنذ أن وضع هذا القانون أصبحت قوانين كبلر الثلاثة وقوانين سقوط الأجسام بمثابة نتائج له ، وقد وجد العلماء أن هذا القانون ينطبق على كثير من الظواهر الطبيعية ، فهو ينطبق على التجاذب بين أجزاء المادة ، كما ينطبق على التجاذب بين الإلكترونات ونواة الذرة ، وتخضع له الظواهر الكهربائية والمغناطيسية (ويعرف في هذه الحالة بقانون كولمب) حيث إذا وجدت شحنتان كهربيتان ش ، ش' مختلفتان في النوع على مسافة ولتكن م ، نشأت بينهما قوة تجاذب تخضع لقانون التربيع العكسي . كذلك اتضح لعلماء الفيزياء أن ظواهر انتشار الضوء والصوت تخضع خضوعاً مباشراً لذات القانون ، فشدة الضوء مثلاً في نقطة ما تتناسب عكسياً مع مربع بعدها عن مصدر الضوء .

الا أن الفيزيائي الدانمركي رومر Olaf Roemer تبين في عام ١٦٧٥ ظاهرة فلكية لا تخضع للقانون بصورة مباشرة . فمن المعروف أن لكوكب المشترى أقماراً تدور حوله ، ومن بين هذه الأقمار أربعة يمكن رؤيتها باستخدام التلسكوب العادي ، ومن ثم فانه إذا دخل أحد أقمار المشترى في ظل المشترى حدث لهذا القمر خسوف ، لأن ضوء الشمس لا يصل إليه . وكل قر من هذه الأقمار يكمل دورته حول كوكب المشترى في فترة زمنية معينة ، ولهذا السبب ذاته لا بد وأن يكون خسوف القمر في فترات زمنية منتظمة بحيث تأتى الفترة الواقعة بين الخسوف السابق والخسوف اللاحق مساوية تماماً لكل فترة أخرى يحدث فيها بين خسوف سابق وآخر لاحق تالين ، الا أن الملاحظة الفلكية الدقيقة كشفت للفكي « رومر » أن هذه الفترات غير منتظمة ، ورصد في ذلك حالتين ، أولهما حالة اقتراب الأرض من المشترى ، وفيها تزايد الفترة الزمنية ، وكان لا بد وأن يقدم « رومر » تفسيراً لهذه الظاهرة التي عزاها إلى أن سرعة الضوء في الفضاء محدودة ، وهذا ما يوضح أن اللحظة الزمنية التي يحدث فيها الخسوف فعلاً تختلف

عن اللحظة الزمنية التي نشاهد فيها هذا الخسوف ، فإذا افترضنا أن اللحظة الزمنية التي حدث فيها الخسوف هي Z ، وأن اللحظة الزمنية التي شوهد فيها ذلك الخسوف هي Z_1 ، فإن الفارق بين Z_1 ، Z — أى ($Z_1 - Z$) — يمثل الفترة الزمنية المطلوبة لكي يصل فيها الضوء من المشتري إلى الأرض. وبناء على أن المسافة بين الأرض والشمس والمشتري أثناء حركة دوران الأرض والمشتري حول الشمس ليست ثابتة — أى متغيرة — بسبب الحركة فلا بد وأن تكرر الفترة الزمنية بين خسوفين متتاليين مختلفة ، وبناء على هذا التفسير أمكن تقدير سرعة الضوء بصورة دقيقة (٣٧) . وقد أمكن للعالم الفلكي الانجليزي «برادلى» أن يحصل بعد ذلك على نفس التقدير الذي حصل عليه رومر بعد حوالى نصف قرن من الزمان ، حيث أمكنه قياس سرعة الضوء من خلال دراسته لظاهرة الزيغ Aberration (٣٨) .

ثم توالت التجارب بعد ذلك حول تقدير سرعة الضوء وتوصل علماء الفيزياء إلى أن الضوء ينتشر بسرعة قدرها ٣٠٠,٠٠٠ كم / ث أو ١٨٦,٠٠٠ ميل / ث ، وقد أمكن للنمالي الهولندي «دى ستر» أن يثبت أن سرعة الضوء لا تتأثر بحركة المصدر الضوئى . وعند هذا الحد وقعت الفيزياء الكلاسيكية من وجهة نظر النسبية فى مشكلات ، يقول اينشتاين «اننا باحتصار مدعوون إلى أن نسلم مع أطنال المدارس بقانون ثبوت سرعة انتشار الضوء (فى) الفراغ ج . من كان يتخيل أن هذا القانون البسيط قد أوقع علماء الفيزياء، أمعاء التفكير فى أكبر المأزق الفكرية» (٣٩) . والمأزق أو العضلات التي يتحدث عنها اينشتاين يمكن الوقوف عليها بدقة من خلال معرفة البيانات الفيزيائية التي تتكامل مع البيانات الفلكية لتشكيل محور الثورة فى الفيزياء المعاصرة .

(ثانياً) البيانات الفيزيائية :

فى منتصف القرن التاسع عشر استطاع الفيزيائى «فيزو» (٤٠) Fizeau أن يصمم تجربة تقيس سرعة الضوء أرضياً ، فبين أن هذه السرعة حوالى

٣٠٠ ألف كيلو متر / ث تقريباً ، وقد كررت نفس التجربة عدة مرات من جانب آخزين وتوصلوا لنفس النسبة تقريباً ، ومن أهم من قاموا باجراء التجربة «فوكو» Foucault الذى أجرى التجربة فى حيز ضيق مع اجراء بعض التعديلات .

وانتجه «ميكلسون - مورلى» Michelson - Morlery فى عام ١٨٨١ لاجراء تجربة يتحققان بها من فرض الأثير الساكن (٤١) ، وقد انصب محور التجربة على إيجاد الزمن الذى تستغرقه الموجات الأثيرية فى الانتقال من نقطة لأخرى فى المعمل ، وتم اختيار موجات الضوء المرئى من بين الموجات الأثيرية لتكون موضعاً للتجربة . إنه إذا كان الأثير ساكناً فسوف توجد حركة نسبية بين الأثير والأرض ، وبالتالى فإن الزمن الذى يستغرقه الضوء يتوقف على اتجاه سيره ، بمعنى أنه إذا كان الضوء يتجه شرقاً والمعمل الذى تجرى فيه التجربة يدور شرقاً نتيجة لحركة دوران الأرض حول محورها ، فإن الزمن الذى يصل فيه الضوء إلى المشاهد فى هذه الحالة لا يساوى زمن الضوء المتجه إلى مشاهد آخر يقف فى عكس اتجاه حركة دوران الأرض ، فالحركة إما أن تساعد الموجة الضوئية فى سيرها أو تعوقها ومن خلال التجربة العملية اتضح للعالمين أنه لا يوجد فارق جوهري بين الزمنين نظراً لأن سرعة الضوء أكبر من سرعة دوران الأرض حول محورها ومن ثم استنتجوا عدم صحة الفرض القائل بوجود الأثير الساكن (٤٢) بناء على النتيجة السلبية للتجربة .

وقد استطاع الفيزيائى «فيتز جيرالد» Fitzgerald تفسير النتيجة السلبية لتجربة «ميكلسون - مورلى» ، فقد افترض فى عام ١٨٩٢ (٤٣) ما يسمى بفرض الانكماش Contraction القائل بأنه إذا تحرك جسم فى الأثير فإنه ينعكش فى اتجاه حركته بنسبة تزداد بازدياد سرعته . وقد تبين أن الجهاز الذى استخدم فى التجربة قد انكمش فى الاتجاه الموازى لحركة

الأثير : ويترتب على هذا أن الزمن المطلوب لحركة الضوء في الاتجاه ذاته ينقص ، ويصبح مساوياً تماماً لزمن الحركة العمودية Perpendicular على اتجاه تيار الأثير . وقد اتضح أن تفسير فيتزجيرالد له بيانات تؤيده خاصة إذا نقل إلى مجال التفسير الذى للمادة وطبق على حركة الالكترونات ، فالالكترون ينكمش حين يتحرك في اتجاه حركته تحت تأثير القوى الكهربائية المؤثرة عليه .

وظاهرة التقلص أو الانكماش التى كشف عنها فيتزجيرالد كانت من الظواهر الهامة التى درستها نظرية النسبية . وحتى نعرف ما الذى قدمته نظرية النسبية للعلم علينا أن نتبع بدقة هذه النظرية فى مولدها ونشأتها ، وتفسيراتها . والظواهر التى قامت لتفسيرها ، وكيف تسنى للعالم الفيزيائى البرت اينشتين (٤٤) أن يقدم هذه النظرية بشقيها كتصور أفضل للعالم الفيزيائى والفلكى معاً .

تصورات فيزياء النسبية :

والآن حان الوقت لأن نقدم نظرية النسبية والتصورات التى تقوم عليها بعد أن استعرضنا فى عجالة مجهودات اينشتين حتى ظهور النسبية العامة إن أول الأفكار التى تقوم عليها نظرية النسبية الخاصة هى تلك الفكرة المألوفة عن الزمان والمكان ، فالاعتقاد الكلاسيكى كان يثبت أن حادثتين فى مكانين متباعدين وقعتا فى زمن واحد ، ومن ثم فانه بالامكان وصف وضع الكون فى لحظة معينة بصورة مكانية بحتة . لكن النسبية وجدت أن هذا التصور لا يمثل الصواب ، لأن الدقة المطلوبة لا بد وأن يتم التعبير عنها فيما نسميه متصل «المكان - الزمان» ، وهذا ما يمكن أن يصوره المثال الآتى : افترض أن حادثتين معينتين وقعتا لى ، وفى ذات الوقت انبعثت منى ومضة ضوئية فى اتجاهات متعددة ، فأى شئ يحدث لأى جسم بعد أن وصله الضوء من المومضة يكون على وجه الدقة بعد حدوث الحادثة ل فى أى نظام

معمول به لحساب الزمن . وأى حادثة حدثت في أى مكان واستطيع أن أراها قبل أن تقع لى الحادثة ل هى بكل تأكيد حدثت قبل الحادثة ل فى أى نظام معمول به لحساب الزمن. لكن أى حادثة حدثت فى الزمن المنقضى بينهما ليست بكل تأكيد قبل أو بعد الحادثة ل . فإذا افترضت أنه بإمكانى مشاهدة شخص فى الشعري ايمانىة ، ويمكن لهذا الشخص أن يرانى ، إذن فكل مايفعله وما أشاهده قبل أن تحدث الحادثة ل لى هو بكل تأكيد قبل حدوث ل . وكل ما يفعله بعد أن رأى الحادثة ل هو بالتحديد بعد ل . لكن مايفعله يكون قبل أن يرى الحادثة ل ، ولكننى أراه بعد أن حدثت الحادثة ل وهذا بالتحديد ليس قبل أو بعد ل . وطالما أن الضوء يستغرق سنين طويلة ليصل من الشعري ايمانىة إلى الأرض ، فإن هذا يحدد لنا فترة من السنين ضعف الوقت فى الشعري ايمانىة ، وهذه الفترة يمكن أن نطلق عليها «معاصره» للحادثة ل طالما أن هذه السنين ليست قبل أو بعد الحادثة ل (٤٣) .

من هذا المثال يتبين لنا أنه إذا أردنا أن نتوصل إلى تفسير موضوعى للحوادث الفيزيائية فلا بد وأن نعين التاريخ الذى ننظر فيه إلى الجسم ، لأن زمان ومكان حادثة ما فى نظام تسجيلى مشاهدة ، يختلف عن زمان ومكان نظام آخر نعينه لمشاهد آخر ، وهذه الفكرة تعد فى صميمها المنطلق الأساسى للنسبية الخاصة . ولكن كيف يمكن لنا تفسير هذه المسألة بصورة أكثر موضوعية ؟

نعلم أن التفسير النيوتونى ساد العلم الكلاسيكى ، وكان معمولاً به لفترة طويلة إلى أن ظهرت النسبية الخاصة . وعلى سبيل المثال فإننا إذا نظرنا للشحنات من حيث هى تحمل كهرباء ، فإننا نقول ان الشحنتين الكهربيتين يجذب الواحدة منها الأخرى إذا كانت الأولى تحمل شحنة كهربية مخالفة للثانية . أما إذا كانتا من نفس النوع فإنهما تتنافران وفى الحالتين الأولى والثانية فإن قانون التربيع العكسى ينطبق عليهما انطباعاً تاماً ، حيث تختلف القوة وفقاً لعكس مربع المسافة . وكان فاراداي أول

من أثبت تأثير الوسط بين الشحنتين ، ثم جاء ماكسويل وحاول تحديد المسألة في صورة رياضية من خلال تجارب فاراداي ، ونتيجة لهذا اعتقد العلماء أن الضوء ظاهرة كهرومغناطيسية تتألف من موجات كهرومغناطيسية ، وبالتالي أمكن اعتبار الوسط الذي تنتقل فيه الموجات الكهرومغناطيسية هو الأثير . وأصبح هذا التفسير أكثر واقعية بعد التجارب التي قام بها هرتس وحاول من خلالها إنتاج موجات كهرومغناطيسية أصبحت أساس عمل الطغراف اللاسلكي . وقد ظل هذا التفسير سائداً إلى أن ظهرت مجموعة من الوقائع الفيزيائية الجديدة . (٤٤)

لقد حاول اينشتين في عام ١٩٠٥ أن يقدم تصورات جديدة لنظرية النسبية الخاصة بصورة يمكن للعالم الفيزيائي أن يعمل من خلالها ، وقد أتت هذه المحاولة من جانب اينشتين في أعقاب ما اكتشفه هو وغيره من العلماء من النتيجة السلبية التي اسفرت عنها تجربة ميكلسون مورلي ، ولهذا وضع اينشتين تصورين أساسيين :

التصور الأول : أن قوانين الطبيعة بما فيها قوانين الديناميكا ، لا بد وأن تبقى هي ذاتها بالنسبة لكل المراقبين التصوريين الذين يتحركان الواحد منهم بالنسبة للآخر بسرعة ثابتة . وهذا التصور يسمح لنا بالتعبير عن قوانين الفيزياء بحيث لا تتغير عندما تنتقل من مشاهد إلى آخر . كذلك أمكن استخدام هذا التفسير في الجانب الفيزيائي خاصة الظواهر الكهرومغناطيسية من خلال معادلات ماكسويل ، ذلك لأن المشاهدين المختلفين يتوصلون إلى نتائج مختلفة ومتباينة تماماً ، ولما كانت معادلات ماكسويل تحتوى على سرعة الضوء c ، فإن هذا يعنى أن عدم تغيرها عند الانتقال من محاور قصورية إلى أخرى هو أن سرعة الضوء ينبغي أن تظل ثابتة .

التصور الثاني : سرعة الضوء كمية ثابتة بالنسبة لجميع المشاهدين بدون النظر إلى حالتهم الحركية من مصادر الضوء ، فهذه الكمية ثابتة ولا تعتمد

على حركة المشاهد أو المحاور . فإذا كنت أشاهد نجمين يدوران حول نقطة مشتركة في مدار واحد، حيث في كل دورة يبتعد أحدهما عندما يقطع نصف دوره ويقترب منا في نصف الدورة الثانية ، فإنه إذا افترضنا أن سرعته المدارية V وسرعة الضوء C ، فإنه يترتب على هذا أن سرعة الضوء الصادر من النجم في ذهابه هي $C - V$ وسرعة في ارتدائه هي $C + V$ ، ومن ثم فإن الفارق بين الذهاب والارتداء هو $2V$

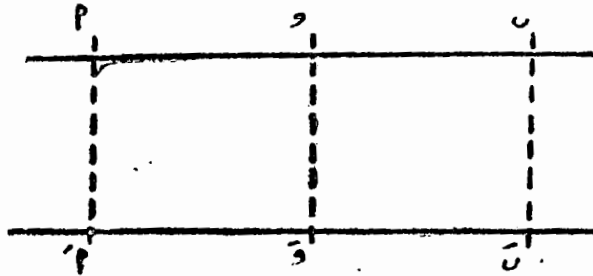
انه بناء على التصور الأول والثاني تصبح التحويلات الجاليلية غير صحيحة ، لأن المشاهدين يستخدمون نفس الزمن ، أو بمعنى آخر يمكن القول بأن القياسات الزمنية لا تعتمد بصورة أساسية على حركة المشاهد ، وهذه الفكرة تعتبر ثورة حقيقية في الفيزياء المعاصرة .

إن المتبع لنظرية النسبية وما أحدثته من تطورات جذرية في فلسفة العلم ومنطقه يجد أن المسألة تترد بصورة أساسية لفكرة النظام Order والترتيب Arrangement إذ أن العالم بدون ترتيب أو نظام تعمه الفوضى وتختلط فيه المفاهيم ، ومن ثم يصبح من المتعذر التوصل لمعيار شبه دقيق للحقيقة الاستمولوجية ، هذا فضلاً عن اختلال معايير الحكم على الأشياء مما يجعل العقول تقع في حيرة واضطراب ، ولذا لم تكن نظرية النسبية أو الاكتشافات الاينشتينية سوى إعادة ترتيب لنظام الأشياء ، وتحديد دقيق لمسار المعرفة ، وهذا ما يبدو لنا بوضوح في جوانب النظرية الأساسية ، فالنظرية تثبت نسبية الزمان حيث الزمن يختلف باختلاف المحاور المرجعية ، أو بمعنى أدق ، يختلف الزمن باختلاف مواقعنا . ويترتب على هذا أن المسافة أيضاً سوف تختلف ، بمعنى أن المقاييس التي نستخدمها لقياس الأشياء لن تكون صحيحة بصفة مطلقة لاختلاف موضع القياس من الزمن . ويترتب على هذا أيضاً اختلاف وحدات الزمن المحلي أو نسبية للوحدة الزمنية ، ونسبية السرعات بالنسبة للمشاهد ، وتغير ملازم بين الكتلة والسرعة .

كل هذا فرض على اينشتين أن يضع مقوله واحدة للتغير عن جوهر ما يحدث في العالم من حولنا وهي ما يعرف بمتصل الزمان - المكان Space - time حيث لا شيء من الأشياء الفيزيائية في هذا العالم يمكن أن نتحدث عنه من خلال زمان مطلق أو مكان مطلق . ولذا فإنه يجدر بنا أن نناقش الأفكار الرئيسية التي انطلقت منها النظرية .

١ - نسبية التزامن (٤٥)

افترض أننا اعتبرنا طريق السكة الحديدية بمثابة مجموعة اسناد لنا ، وأن قطاراً طويلاً جداً يتحرك على قضبان السكة الحديدية بسرعة c . وافترض أن مسافرون بالقطار يتخذون القطار مجموعة اسنادهم ويسندون اليه كل ما يحدث ، إذن فكل حادثة تقع على الطريق انما تحدث عند نقطة خاصة من القطار ، هذا بالنسبة للمسافر ، أما بالنسبة للقطار فان كل حادثة تقع تسند إلى طريق السكة الحديدية . فهل إذا حدثت صاعقة ا وصاعقة ب تكون الحادثنان الانيتان بالنسبة لطريق السكة الحديدية أنيتين أيضاً بالنسبة إلى القطار ؟ على ما يوضحه الرسم الآتي :



إننا إذا قلنا أن الصاعقتين أ ، ب أنيتان بالنسبة إلى طريق السكة الحديدية فعني هذا أن أشعة الضوء الصادرة من المكان ا والمكان ب حين تحدث الصاعقتان تتقابل في النقطة (و) على اعتبار أن و تقع في منتصف المسافة بين ا ، ب على الطريق وتناظر الحادثنان على طريق السكة الحديدية الموضعين ا ، ب على القطار ، مفترضين أن و تقع في منتصف المسافة بين

١ ، ب على القطار ، ومن ثم فإنه بمجرد حدوث ومضة البرق نجد أن النقطة و تتفق مع و وتتحرك بسرعة ع تمثل سرعة القطار. انه بالنسبة لراصد جالس في و في القطار ولا يتحرك بالسرعة ع فإنه سيبقى دائماً في و وسيصل إليه شعاعاً الضوء من ا ، ب في نفس الوقت حيث يلتقيان في نقطة تمثل الموضع الذي يجلس فيه ، الا أنه في الواقع يندفع في اتجاه شعاع الضوء الصادر من ب بينما يبتعد عن شعاع الضوء الآتي من ا ، ومن ثم فإن الراصد سوف يشاهد الشعاع الصادر من ب قبل الشعاع الصادر من ا ، وهنا تصل إلى النتيجة الهامة الآتية :

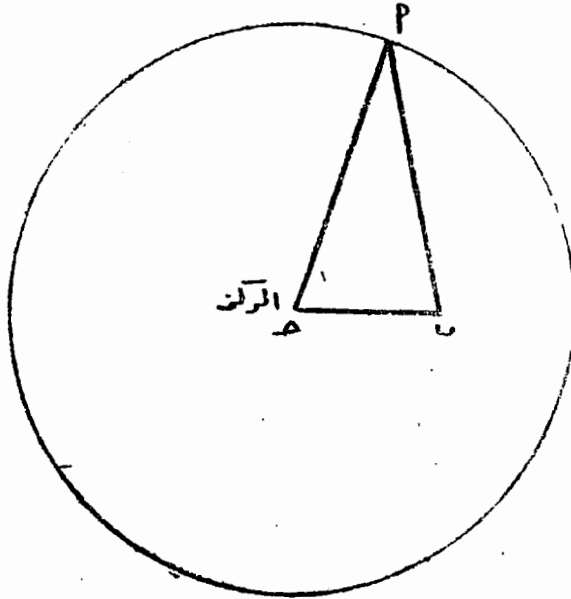
نحن نشعر بأن الحادثتين يكونان متزامنين إذا كانت الأشعة المضيئة التي تنبعث عن وجودهما والتي يفترض اتحاد طولها ، تصل معاً إلى الملاحظ . على أن الحادثين المقترنين في نظر ملاحظ معين ، ليسا كذلك في نظر ، ملاحظ آخر متحرك بالنسبة إليه ، إذ أن أحدهما يذهب لمقابلة الضوء ، أو يبتعد عنه ، أما الآخر فينتظره (٤٦)

٢ - نسبية المسافة :

وبناء على خاصية التزامن السابق تقريرها ، فإنه لا بد لنا وأن نعالج فكرة المسافة بين حادثتين ، لأن هذه الفكرة تتصل بفكرة الزمان . فإذا افترضنا أن لدينا الجسم ا والجسم ب كل منهما يتحرك بالنسبة للأخر ، فإن المسافة بين الجسمين ستغير باستمرار ، بحيث انه لا يمكننا أن نتحدث عن المسافة بين الجسم ا والجسم ب الا في وقت محدد بالذات . افترض انك مسافر بالقطار إلى القاهرة ، فانت تستطيع أن تتحدث عن المسافة بينك وبين القاهرة في وقت محدد بالذات . لكن إذا كان لدينا عدد من المشاهدين المختلفين فان كل واحد منهم سوف يصدر كلمات مختلفة فيما يتصل بنفس الوقت لحادثه معينة حدثت في القطار وحادثة وقعت في القاهرة ، ومن ثم

فإن قياس المسافة نسبي بنفس الصورة. التي تكشف لنا في الزمان. وعادة ما نعتقد في وجود نوعين منفصلين من الأبعاد بين حادثتين ، أما البعد الأول فهو بعد في المكان ، وأما الثاني فبعد في الزمان . بين رحيلك عن الامكنة وكنتريه ووصولك إلى القاهرة ٢٢٠ كيلو متراً وساعتين وثلاث .

الواقع اننا في حياتنا اليومية كثيراً ما نقيس الأطوال بطريقتنا المألوفة وهي استخدام المسطرة مثلاً أو أى مقياس آخر متعارف عليه . ونحن في الفترة الزمنية التي نستخدم فيها المسطرة للقياس فإن المسطرة تعد بمثابة الطول المناسب فقط ، أو بمعنى آخر هي الطول كما يحدده المشاهد الذي يشارك في حركة الجسم . ولكن ماذا عن قياس جسم في حركة مستمرة ؟ هل يمكن لنا أن نحدد طول هذا الجسم تحديداً تاماً ؟ افترض أن الجسم المراد قياسه يتحرك بالنسبة لنا ، وأن هذا الجسم يتحرك مسافة ولتكن ب ج في ثانية واحدة . وافترض أيضاً أننا رسمنا دائرة حول النقطة ج كما في الشكل الآتي :



بحيث يكون نصف قطر الدائرة المسافة التي يقطعها الضوء في ثانية واحدة. نرمم من ج الخط ج ا العمودي على ب ج والذي يلتقي بمحيط الدائرة في النقطة ا . ومن ثم تكون المسافة ا ج هي المسافة التي يقطعها الضوء في ثانية واحدة . وكذلك تكون نسبة ج ا إلى ب ج هي نسبة سرعة الضوء إلى سرعة

الجسم ، ونسبة ج إلى ج ب هي النسبة التي تتغير بها الأطوال الظاهرة نتيجة للحركة ، ومن ثم فإنه إذا حكم المشاهد بأن نقطتين في خط الحركة على الجسم المتحرك يبعدان بمسافة يمثلها الخط ج ب ا ، فإن شخصاً يتحرك مع الجسم سيحكم بأن النقطتين على مسافة يمثلها الخط ج ا ، والحركة لا تتأثر بالمسافات الموجودة على الجسم المتحرك والتي تكون على زوايا قائمة بالنسبة لخط الحركة ، ومن ثم فإن المشاهد الذي يتحرك مع الجسم إذا قام بقياس الأبعاد بالنسبة لجسم المشاهد السابق فإن هذه الأبعاد سوف تتغير بنفس النسبة كما أنه إذا كان الواحد منهما يتحرك بالنسبة للآخر فإن الأطوال التي سيتوصل إليها كل واحد سوف تبدو أقصر بالنسبة إلى المشاهد الآخر، وعلى هذا النحو فإنه كما يذهب إلى ذلك بول موى فإن :

قياس المسافة يفترض التزامن ، لأن قياس مسافة ما ، هو العمل على انطباق طول محدد من قبل ، على طول ، معطى لنا ، على أن هذا يفترض أنه متى انطبق الطولان في طرف فأنهما ينطبقان في الطرف الآخر في نفس اللحظة . وإذن فالمسافة نسبية هي الأخرى باعتبار الملاحظين ، وذلك على الأقل بالنسبة إلى المسافة الطولية ، أى في اتجاه حركتهما النسبية . فالموضوع إذن يتغير شكله بالنسبة إلى الملاحظ الذي يراه من مركز خارجي ، وينكمش في نظره في اتجاه الطول» (٤٨)

وهذه هي النتيجة الثانية التي أفضت إليها نظرية النسبية ، بعد أن تقدم فيترجيرالد بفرضه الأساسى عن التقلص أو الانكماش كتفسير مقبول للنتيجة السلبية لتجربة ميكلسون -- مولى .

٣ - نسبية الزمان (الزمن المحلى)

تصور أنك ركبت القطار من مدينة الاسكندرية ، وتصور أنه بدلا

من أن يسير القطار على قضبان السكة الحديدية تحرك بسرعة ١٨٦,٠٠٠ مل/ث - أى بسرعة الضوء - فى الوقت الذى كانت عقارب الساعة تشير إلى الساعة الثانية عشر تماماً ، منطلقاً إلى المدينة التى تقصدها وتقع على مسافة ١٨٦,٠٠٠ ميل . إذن فسوف تصل إلى المدينة التى تقصدها بعد ثانية واحدة (وهو الزمن اللازم ليقطع به شعاع من الضوء هذه المسافة فى ثانية واحدة) . فإذا انطلق شعاع من الضوء من ساعة موجودة فى محطة الاسكندرية ليقصد المدينة التى تقع على المسافة المذكورة ، فإنه سيصل فى نفس الوقت معك . ولكنه نظراً لأنك تسير بسرعة الضوء فانك كراكب فى عربة القطار لا تشعر بمرور الوقت ، ولكن الواقف على رصيف الاسكندرية قرأ ساعة المحطة التى سجلت عقاربها الثانية عشر وثانية واحدة . بمعنى آخر فإن الوقت يمضى بصورة مختلفة بالنسبة لك فى عربة القطار وبالنسبة للواقف على رصيف محطة الاسكندرية . ومن ثم فإنه لا يوجد ما يمكن أن نسميه بالوقت العالمى . وهكذا فإن الحقيقة التى تحصل عليها بالنسبة للزمن والمسافة والسرعة والكتلة ليست هى القيم التى يحصل عليها أى شخص آخر . على الرغم من أنك فى عربة القطار تكشف نفس القوانين ، ونفس العلاقات بين الزمن والمسافة ، كما يكشفها أى انسان آخر فى أى مكان ، والقيمة الوحيدة التى تظل دائماً واحدة بالنسبة لكل انسان هى قيمة سرعة الضوء ، وعلى هذا فإن :

الزمن الفيزيائى يقاس بواسطة «الساعات»
فى علاقتها بظواهر محددة بدقة (كحركات
الافلاك ، واهتزازات ضوء ذى لون واحد)
فكل ساعة تتخذ الثانية مثلاً وحدة زمنية ،
والثانية هى الوقت الذى يعبر فيه الضوء
٣٠٠,٠٠٠ كيلو متراً ولما كانت المسافة نسبية
باعتبار الملاحظين ، فإن الثانية ، نسبية هى

الأخرى . فعندما يكون أحد الملاحظين متحركاً بالنسبة إلى الآخر ، فإن الثانية التي يعترف بها تبدو أطول من اللازم في نظر الملاحظ الآخر» (٤٩) .

٤ - نسبية السرعات :

أنه طالما ان الزمن نسبي ، فمن الطبيعي أن يكون مختلفاً بالنسبة للملاحظ ما عن آخر . ويترتب على هذا أن الملاحظون المختلفون لا يحددون للسرعات نفس القيمة .

٥ - تغير الكتلة مع السرعة :

وما دامت السرعة نسبية فانه إذا كان لدينا ملاحظ يقرر لنا أن كتلة جسم ما في محاوره هي m_1 ، فإن ملاحظ آخر يقول أن كتلة الجسم ليست m_1 وإنما m ، وهذا ما كشفت عنه تحويلات لورنتز من خلال المعادلة الآتية

$$m = \frac{m_1}{\sqrt{1 - \frac{v^2}{c^2}}}$$

مما يعني أن كتلة الجسم تزداد مع السرعة وتقترب قيمتها من اللانهاية في الحالة التي تقترب فيها سرعتها من سرعة الضوء .

من كل هذا يتضح لنا أن نظرية النسبية كشفت عن حقيقة المفاهيم التي اعتقد الانسان فيما مضى أنها مطلقة ، لقد أصبح معظمها نسبياً ، وتبين أنه لا توجد لدينا أية أسس منطقية أو علمية تجعلنا نفترض محاور مرجعية معينة ونتخذها دون غيرها للقياسات المكانية والزمانية ، ذلك لأن كل ملاحظ يعتقد أن محاوره هي الحقيقية وأن المحاور الأخرى ظاهرية . هكذا يمكن القول أنه ليس هناك سكون مطلق أو حركة مطلقة .

الهوامش

(1) Newton, I., *Mathematical Principles of Natural Philosophy*, trans. by A. Motte, revised by F. Cajori, University of California Press, 1969, Scholium II.

(٢) د. محمد على أبو ريان ، تاريخ الفكر الفلسفى ، أرسطو ، ص ٩٦ .

(٣) المرجع السابق ، الموضع السابق .

(٤) أرسطو ، الطبيعة ، ترجمة أسحق بن حنين ، تحقيق عبد الرحمن بدوى ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ٢٧٨ ، ٢٠٩ أ .

(٥) د. محمد أبو ريان ، المرجع السابق ، ص ٩٧ - ص ٩٨ .

(٦) أرسطو ، الطبيعة ، تعليق على مقالة أرسطو ، شرح يحيى النحوى الإسكندراني ، ص ٢٩٠ .

(٧) د. محمد على أبو ريان ، المرجع السابق ، ص ٩٨ .

(٨) يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة اليونانية ، ص ١٤٢ .

(٩) المرجع السابق ، الموضع السابق .

(10) Burnet, J., *Early Greek Philosophy*, 2nd. ed. London. 1920, P. 389.

وايضاً

Bailey, C., *The Greek Atomists and Epicurus*, Oxford, 1928, P. 76.

(11) Locke, J., *An Essay Concerning Human Understanding*, Book II. xxvii.

(12) Bergson, H. *Essai sur données immédiates de la Conscience*, Paris, 1889, English translation, *Time and Free Will*, by F. L. Pogson, New York, Macmillan, 1910, P. 95.

(13) Russell, B., *Essay on the Foundation of Geometry*, the original edition, 1897, Dover, 1956, P. 51.

(14) Ibid, P. 49.

(15) Russell, B., *Principles of Mathematics* P. 465.

(16) Maxwell, J. G, *Matter and Motion*, Dover, 1953, 1st ed. 1877, Ch. 1, & 18.

(17) Euclid., *The Elements of Euclid*, ed. by Todhunter, 1., intro. by Heath, Everyman's Library New York, Dutton, 1939, Book 1,P.6.

(18) Ibid, Book. 1. PP. 1 — 4.

(19) Ibid, Book. 1.P.5.

(٢٠) دكتور محمد ثابت الفندى ، فلسفة الرياضة ، دار النهضة العربية ، بيروت ،
الطبعة الأولى ، ١٩٦٩ ، ص ٤٨ .

(21) Newton, I., *Mathematical Principles of Natural Philosophy*, Scholium I.

(22) Mathematical Works of Issac Barrow D.D., Wheell edition, Cambridge, 1860, Vol. II, 160 FF.

(٢٣) عبد الرحمن بدوى ، الزمان الوجودى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ،
١٩٤٥ ، ص ٨٩ .

(٢٤) المرجع السابق ، الموضع السابق .

(25) Russell. B., "Is Position in Space Absolute or Relative", Mind, Vol, X, 1901, P. 294.

(26) Russell, B., *The Principles of Mathematics*, P. 465.

(27) Barrow, I, Op. Cit., lecture "on Space and Impenetrability". quoted by G. Windred, in "The History of Mathematical Time" Vol, XIX, 1933, especially PP. 126 — 136.

(28) Bergson, H., *Time and free will*, New York, Macmillan, 1910, P. 88.

(٢٩) التصور الكلاسيكى كان ينظر للمادة على أنها فى نوعين : النوع الأول يتمثل فى الجسيمات التى لا تتجزأ إلى ما هو أبسط منها، وهذه هى العناصر elements والنوع الثانى يشير إلى الجسيمات التى تتجزأ وهى المركبات Compounds مثال ذلك أن الماء مركب لأنه بالتحليل ينحل إلى الهيدروجين والأكسجين أما الحديد والقصدير فإنه لا يمكن تحويلها بأى طريقة من الطرق الكيميائية أو غيرها إلى ما هو أبسط منها. وأصغر أجزاء العنصر هو ما يعرف بالذرة Atom على حين أن أصغر أجزاء المركب هو الجزيئى Molecule . فالجزيئى أكبر من الذرة . وفى ضوء هذا التصور تمت صياغة الفرض للقائل بأن العنصر الواحد يتكون من جسيمات متماثلة هى ذرات ذلك العنصر ، وتتكون المركبات من جزيئات مؤلفة من اتحاد ذرات العناصر المكونة منها بنسبة ثابتة . وقد وضع أفوجادرو ، صياغة دقيقة لهذا الفرض على النحو الآتى : الجزيئات الجزيئى

؟ لجسم ما نقي يحتوي على نفس عدد الجزيئات دائماً مهما كان الجسم ، ويعرف هذا العدد بعدد افوجادرو وهو تقريباً 2310×6 .

(30) Russell, V., *An Outline of Philosophy*, P. 105.

(٣١) يقول بول موى في مؤلفه «المنطق وفلسفة العلوم» : وسنوضح باختصار كيف أتاح لنا النشاط الإشعاعي توسيع نطاق معرفتنا بالمادة ، وأسهم في وضع أسس علم جديد هو الفيزياء النووية . ففي نهاية القرن التاسع عشر لا حظ هنرى بكنول (١٨٥٢ - ١٩٠٨) أن مواد معينة (أملاح اليورانيوم) تنطبع في اللوحات الفوتوغرافية في الظلام التام وقد تمكن «بيير كوري» (١٨٥٦ - ١٩٠٦) ومارى كوري (١٨٧٦ - ١٩٣٤) بعد دراسة منهجية لهذه لهذه الاشعاعات الغامضة ، من عزل مادة أنشط بكثير من الأورانيوم ، هي الراديوم وسرعان ما أصبحت تسبب إلى النشاط الإشعاعي صفتان أساسيتان : .

١ - أن قوة الاشعاع لا يمكن زيادتها أو انقاصها بأية وسيلة .

١ - أن قوة الاشعاع لا يمكن زيادتها أو انقاصها بأية وسيلة .

٢ - والاشعاع في حالة الراديوم يعطى : فقد تبين بالحساب أنه لابد من مرور ١٥٩٠ سنة حتى يفقد نصف ذرات الراديوم الذى نلاحظ نشاطه الاشعاعي وبعد فترة قصيرة أمكن عزل عناصر مشعة أخرى (الثوريوم والاكينيوم والبولونيوم وهو الوقت الضروري لكي يفقد نصف المادة في كل من هذه العناصر ، قوته الاشعاعية . وسميت هذه الفترة الزمنية بالنسبة إلى كل مادة باسم (متوسط الحياة) ... ولكن ماقوام هذا الاشعاع ؟ أمكن منذ البداية تمييز ثلاثة أنواع من الأشعة رمز لها في بادئ الأمر بأحروف الثلاثة الأولى من الأبجدية اليونانية :

١ - أشعة ألفا α التى قد تنحرف في اتجاه (كاليسار مثلا) بوساطة مجال مغناطيسى .

٢ - أشعة بيتا β التى تنحرف بوساطة هذا المجال ذاته إلى اليمين .

٣ - أشعة جاما γ وهى لا تنحرف .

راجع الترجمة العربية للدكتور فؤاد زكريا ، دار نهضة مصر ، ص ٣٣٨ - ص ٣٣٩ .

(٣٢) حول هذا الفقرة ، راجع مايندكره هانز رشنباخ في مؤلفة نشأة الفلسفة العلمية ،

ص ١٥٧ .

(٣٣) يذكر بول موى الفقرة التالية عن «لويس دى بروي» : لقد كان تفكير «لوى

دى بروي» في البداية فلسفياً بحق ذلك لأن اينشتين ، حين وضع النظرية التى شرحناها منذ قليل ، كان قد قرر (ثانية) مذاهب علم الضوء : إذ أن الظاهرة الضوئية الكهربائية إذا كانت تقتضى تفسيراً جسيماً ، فإن علم الضوء الكلاسيكى كان يدرس ظواهر تقتضى القول بالنظرية الموجية (كظاهرة التداخل) وبعبارة أخرى فإن نوع التفسير الذى كان ينبغى الأخذ به ، أعنى التفسير الجسمى أو الموجى ، يختلف باختلاف الظواهر الضوئية الخاصة .

على أن دى بروي قد تساؤل : أليس من الأقرب إلى روح الفلسفة أن نكرر الثنائية نفسها .

بالنسبة إلى الجسم الكهربى ، أى بالنسبة إلى الالكترزون ؟ ذلك لأنه قد عرفت عن الالكترزون خواص جسيمية عديدة ، فلم لا تكون للالكترزون خواص موجية أيضاً ؟

ولقد تمكنت عبقرية دى برولى فى صياغة هذا الرأى الفلسفى فى معادلات فهو يعرف مبدئياً الخواص الموجية للالكترزون ثم يؤلف يؤلف بين هذه التعريفات فى فرض نظرى ضخم هو الميكانيكا الموجية .

ولقد قطع ذلك العالم الفرنسى شوطاً بعيداً فى بيان التوازن بين الميكانيكا المعتادة التى تدور حول المحرك المادى وبين الميكانيكا الموجية ، وكشف فى ذلك عن التناظر بين مبدأ فيرما *Fermaf* القائل بأن الضوء يسير بين نقطتين فى المسافة التى تستغرق أدنى حد من الزمان ، وبين مبدأ موبرتوس القائل أن المحرك المادى بين نقطتين يتبع دائماً المسافة التى يبلغ تفاوت التأثير بالنسبة إليها حده الأدنى .

راجع : بول موى ، المرجع السابق ، ص ٣٣٣ - ص ٣٣٤ .

(34) Russel. B. *An Outline of Philosophy*, P. 114.

(35) *Ibid*, P. 115.

(٣٦) البرت اينشتين وليوبولد انفلد ، تطور علم الطبيعة ، ترجمة الدكتور محمد عبد المقصود النادى واندكتور عطية عبد السلام عاشور ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ص ١٤١ .

(37) Whittaker, E.T., *A History of the Theories of Aether and Electricity*, New York, Philosophical Library, 1951, Vol. I, PP. 404 f.

(28) *Ibid*, P. 248.

(٣٩) البرت اينشتين ، النسبية : النظرية الخاصة والعامة ، مجموعة المؤلف كتاب ، دار نهضة مصر ، ١٩٦٧ ، ص ٢١ .

(40) d'Abor, A., *Bergson On Einstein* PP. 117—118, P. 214.

(41) Kattsoff, L.O., *The Role of Hypothesis in Scientific Investigation*, *Mind*, Vol. Lvii, No. 2330, 1949, P. 230.

(42) Rajam, J, B, *Modern Physics*, S. Chand & New Delhi, 1969, PP. 299 — 300.

(43) Wittaker, E.T., *Op. Cit*, P. 404.

(٤٤) فى ١٤ مارس ١٨٧٩ ولد البرت اينشتين ، حيث كانت أسرته تعيش فى أولم بألمانيا ، وكان والده يهودياً يمتلك مصنعاً صغيراً للأجهزة الكهروكيميائية . وعرف عن اينشتين الطفل انطوائه إلى حد كبير ، وبعثه فى التعليم ، وابتعاده عن الأنشطة الرياضية واللاهوت مع غيره من أقرانه . وفى الخامسة من عمره انهر حين شاهد البوصلة المغناطيسية ينحرف مؤشرها صوب اتجاه واحد مهما كان وضعها . هل هذه الحركة تتم بفعل قوى غامضة ؟ أم ماذا ؟ لقد كانت المسألة

تختم في عقله وظلت تشغله دون أن يشعر، ثم التحق أينشتاين بالمدرسة الابتدائية، وفي العاشرة من عمره التحق بالمدرسة الثانوية، وكان عليه أن يخضع للنظم والقوانين المدرسية، وهو ما كان يكرهه أشد الكره، فالنظام الصارم يقتل في الإنسان حرية الابتكار والابداع، وعند هذا الحد اعتبره مدرسه عنصرياً مخرباً لأنه لا يأبه بالنظام. فأخذ الشعور بالتعاسة يطارده للانطباع السيئ الذي أخذ عنه ولم يكمل أينشتاين دراسته، ولكنه التحق بمعهد الفنون التطبيقية بزيورخ حيث أخذ في دراسة الفيزياء والرياضيات. وبعد أن تخرج أينشتاين من معهد الفنون التطبيقية في عام ١٩٠٠ فشل في الحصول على وظيفة، ولكنه استطاع في عام ١٩٠٢ أن يحصل على وظيفة في مصلحة تسجيل براءات الاختراع في بيرن وذلك بمساعدة صديقه مارسيل كروسمان. وفي عام ١٩٠٥ حصل على الدكتوراه وأخذ في مواصلة أبحاثه في الفيزياء. وظل يقيم بمدينة برن إلى أن جاء عام ١٩٠٩ حيث كان عليه أن يقبل وظيفة أستاذ مساعد متفرغ في جامعة زيورخ وذلك بعد أن ذاع صيته في الأوساط العلمية نتيجة لأبحاثه التي قام بها عن الجسيمات المخهرية المعروفة بالحركة البراونية عن الكيانات الضوئية والنسبية، حيث أمكنه وضع نظرية دقيقة عن الحرارة النوعية للغوامد، وكذلك نتيجة لابتكاره نظرية النسبية الخاصة في عام ١٩٠٥. وفيما يلي ذلك من السنوات أي في عام ١٩٠٧ اعتقد أينشتاين رأياً مفاده أن أي نظرية عن الجاذبية لابد وأن تدمج بطريقة أساسية وطبيعية مقدراً مساوياً من القصور الذاتي وقوى الجذب، وهذا ما تبينه بوضوح. وفي عام ١٩١٠ قبل أينشتاين الوظيفة التي قدمها له جامعة براغ حيث عمل استاذاً متفرغاً. وفيما بين الأعوام ١٩٠٧ - ١٩١٦ وجه اهتماماته الخاصة إلى نظرية الجاذبية. لقد كان العلماء في هذه الفترة يوجهون اهتمامهم لدراسة نظرية النسبية الخاصة وقد قبلوها كجزء أساسي من بناء الفيزياء؛ إلا أن اهتمامات أينشتاين كانت تتجه إلى أبحاث أكثر شمولاً من تلك التي اهتمت بها النسبية الخاصة، ففي عام ١٩١١ هداه تفكيره الفيزيائي البقري إلى التنبؤ بأن موجات الضوء تنحني بواسطة مجالات الجذب، ولكن لم يتسنى التأكد من هذا التنبؤ إلا بعد أن قام العالم الفلكي أدجنجتون بتنظيم رحلتين إلى خليج غينيا والبرازيل في عام ١٩١٩ لاختبار النظرية أثناء الكسوف الكلي للشمس في ٢٩ مايو ١٩١٩. لقد استطاعت البعثتين أن تلتقطا مجموعة من الصور تبين مواقع النجوم، ورصدتا ضوء النجوم وهو ينحرف فعلاً، رغم أن مقدار الانحراف في رصد غينيا كان أقل مما قدرته نظرية أينشتاين، على حين أن مقداره في رحلة البرازيل كان أكثر قليلاً. وسوف نعرض هنا فقط لأفكار نظرية النسبية الخاصة على أن نفرد لنظرية النسبية العامة موضعاً آخر.

(45) Einstein, A., Relativity : The Special and The General Theory, Ch. 9

(٤٦) بول موى، المرجع السابق، ص ٣٠٢.

(47) Russell B., op. cit., P. 45

(٤٨) بول موى، المرجع السابق، ص ٣٠٣.

(٤٩) بول موى، المرجع السابق، ص ٣٠٣.

حول شخصية شريك وخلف اخناتون

للدكتورة

ليل عطا الله

كلية الآداب — جامعة الاسكندرية

اشرك اخناتون معه في الحكم في أخريات أيامه شخصاً خلفه فيما بعد في الحكم وحول شخصية هذا الشريك يدور هذا البحث .

كانت الفكرة السائدة والتي وافق عليها غالبية الباحثين ان هناك صبيّاً يدعى سمنخ كارع شارك اخناتون العرش ثم خلفه فيما بعد كملك. وربما كان يرى وراء هذا الرأي معتمداً على اكتشافاته في العمارنة . وظلت هذه الفكرة دون مناقشة .

لكن جون هاريس نشر سنة ١٩٧٣ مقالين مقالاً قصيراً عن نفر نفرو آتون Nefernefruaten (١) تبعه في نفس السنة مقال آخر مطول عن نفرتيتي رد فيفو Nefertiti Redivivo (٢) . ناقش فيهما تفاصيل اللوحة التي عثر عليها الألمان في العمارنة (٣) ، والتي نشرها شافر Schafer (٤) سنة ١٩١٢/١٣ وقرر أن المالكين المتوجعين الموجودين عليها واللذان لا يحملان أسماء ليسا الا اخناتون ونفرتيتي ، ولقد وافق بورخارد على هذا الرأي فيما بعد . (٥)

(1) Harris G., Göttinger Miszellen, Göttingen, Germany, 4, 1973, PP. 15/17.

(2) Harris & G., Acta Orientalia, University of Copenhagen, XXXV, 1973 PP. 5/13, Berlin M., 17813.

(4) Schafer, Amtliche Berichete 134, 1912/13. PP. 13/17.

(5) Borchard, Portrats der Königin Nofret-ete, 1923.

غير أن الرأى عند كارتر حول النقوش الموجودة على اللوحة التى اكتشفها الألمان ، لا يمكن أن تكونا لاختاتون ونفرتيتى ذلك لانهما ارتديا التيجان الخاصة بالملوك وأنهما لا بد وأن تكون للمكيين من الذكور ظهرا مشتركين فى الحكم ولقد نشر هذه النظرية نيوبرى سنة ١٩٢٨ (١) وظلت دون مناقشة إلى أن ناقشها جون هاريس سنة ١٩٧٣ حيث قرر وجود أدلة على أن الخراطيش الثلاثة الموجودة على هذه اللوحة لا بد وأن يكون أثنان منهما اسما للملك واحد أما الثالث فاسم للملكه ولا تدل على وجود شريك فى الحكم ذلك لأن كل ملك يحتاج إلى خرطوشين ولقد لاحظ أن نفرتيتى ارتدت التيجان الخاصة بالملوك ودليمة على هذا أنها كانت تضع يدها حول الملك وهذا الوضع كانت تنمير به نفرتيتى عندما كانت تجلس بجوار اختاتون

ويرى هاريس انه لا توجد أية أدلة إيجابية على أن خليفة اختاتون كان رجلا خاصه وأن نفر نفرو آتون كانت ملكة وتوتلى الملك وخرج من مناقشته إلى أن نفر نفرو آتون أو سمنخ كارع الملك الذى خلف اختاتون لم يكن الا نفرتيتى .

شاركت جوليا سامسون (٢) جون هاريس الرأى فى كون نفرتيتى قد حكمت مشتركة مع زوجها ثم خلفته فيما بعد كفرعون لأنه من الصعب وجود شخص آخر شارك اختاتون فى الحكم ثم خلفه فيما بعد ودليها على هذا آثارها فى طيبة وتل الهمارنه .

ففى طيبة أى فى الفترة المبكرة من حكم (اختاتون) امحتب الرابع كانت آثارها تدل على أنها تحكم إذ كان لها معبدها الخاص بها حيث

Newberry, J.E.A., 14, 1928, P. 7.

(1)

Julia Samson, Amarna City of Akhenaten and Nefertiti, Nefeiiti as a Pharaoh, London, 1978, PP. 137/139.

(2)

كانت تتعبد للاله وحدها فلم تكن تتعبد للاله في حضرة الملك فقط وكانت تصطحب معها بناتها في بعض الأحيان .

أما آثارها في العمارنه فتبين مشاركتها لزوجها في الحكم فشاركته في كافة الشؤون الدينية والدينية وكانت تحضر المحافل الرسمية وصورت وهي تعاقب الاعداء مثلها مثل الملوك وكانت ترسم في نفس حجم اخناتون وكانت تلبس التيجان الخاصة بالملوك وكانت تقود عربتها بنفسها وهذا شيء غير عادى بالنسبة للملكات وكانت تلقب 'dw' وهو اللقب الذي كان يلقب به الملوك أو الآلهة ليضفي عليهم الاحترام والمديح . فكانت تظهر بمظاهر الحكام فترة حكم زوجها اخناتون .

على أية حال فانه من المسلم به وجود شريك في الحكم في أخريات أيام اخناتون ، وكان اسم هذا الشريك نفر نفرو آتون المحبوب من اخناتون أووع ان رع .

Nefernefruat-en- beloved— of — Akhenaten (or Waenre)

وأما لقبه فهو عنخ خبرو رع المحبوب من نفر خبرو رع أو وع ان رع

Ankhkheprure-beloved of Nefer Khepruré (or Wa nrè).

ولقد تحول اسم هذا الشريك وذلك بعد وفاة اخناتون واستقلاله بالحكم إلى سمنخ كارع أما لقبه فأصبح عنخ خبرو رع . وكان يعتقد حتى عصر يرى أن هذا الشريك والخلف فيما بعد هو صبي أما زوجته فكانت ابنة اخناتون ونفرتيتي الكبرى مريت اتون ومن المحتمل أن يكون هذا الشريك أخاً لثوت عنخ آمون وكان يظن أن الملكة نفرتيتي كانت قد نوفيت أثناء حكم اخناتون أو أنها اختفت خلال حكمه ذلك لأن خروطوشا استبدل بخروطوش مريت اتون .

غير أنه لا يوجد أى دليل على كون شريك وخلف اخناتون ذكراً

خاصة وأنه كان من بين الست والعشرين شكلا التي سجلها بترى لاسم الملك
ولقب الشريك ثمانى حالات توجد تاء التأنيث في نهاية لقب الشريك كما في شكل (١)

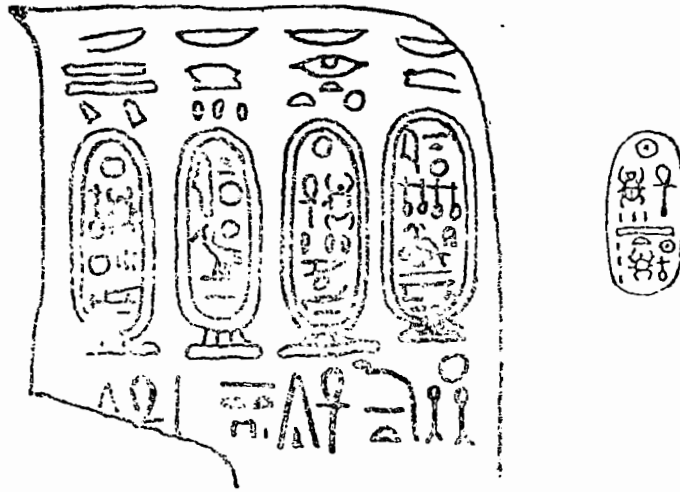


شكل (١)

مما يجعل كون هذا الشريك انثى وليس ذكراً (١) ذلك لأنه لا يوجد أى تبرير

Petrie F., Tell El Amarna, London, 1894, Reprinted 1974, EP. -1
92/96.

لوضع تاء التأنيث لتأنيث اسم مذكر . فأضيف للقب خبرو رع صفة
المحبوب من اخناتون وهى نفس صفة نفرتنى .



ففى اللوحة الدالة على الاشتراك فى الحكم وهى على شكل باب وهى (١) كما
فى الشكل (٢) زوجان من الخراطيش الأول لاسم ولقب اخناتون .

'h - n - Iten Nfr — h prw - R^c W^c - n - R^c

أما الزوج الثانى ففيه لقب اخناتون وصفه المحبوب من وع ان رع واسم
نفرته رو آتون

'h n - hprw - R' mry - w' - n - R' and Nfr nfrw - Iten - mry - 'h - n' Iten.

أما اسم سمنخ كارع فلم يظهر فى هذه اللوحة ذلك لأنه لم يقترن بلقب نفر
نفر وآتون رغم أنه حل محله ولم يوجد اسم سمنخ كارع فى حياة اخناتون
بل وجد بعد وفاته (٢) .

Cairo Catalogue General, and Julia S., City of Akhenaten, 1973, (1)
PP. 101, 102.

Haris, J., Chronique de L'Egypte, XLVIII, 96, 1973, P. 250. (2)



شكل (٢)
اللوحة الداله على الاشتراك في الحكم

فوجد على ختم طينى مكسور خرطوشين بهما لقب عنخ خيرو رع
من اليسار واسم سمنخ كارع وصفه جسر dejeser فى الخرطوش الأيمن. (١)
فاذا رجعنا إلى اسم نفرتيتى فنجد حدوث تغيير فيه وان دل هذا على
شئ فأنما يدل على مدى أهميتها فى التطور الذى طرأ على فترة حكم اخناتون
فى طيبة أى قبل الانتقال إلى العمارنة حدث تغيير فى اسم نفرتيتى الذى
كان يكتب داخل خرطوش ويبدو أن الملك والملكة غيرا اسميهما فى وقت
معاصر لىتضمن اسم الإله آتون .

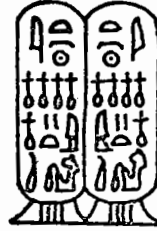


فتغير اسم المنحوت الرابع إلى اخناتون ونفرتيتى إلى نفر ونفرو آتون
نفرتيتى ويرى ولسون ان اضافة لقب جديد لنفرتيتى كان ذا طبيعة دينية
تماماً كما كان يحدث للملوك عند توليتهم الحكم .

ومن مقارنة الاسم الاتونى أو لقب نفرتيتى بلقب شريك اخناتون
وخلفه فى الحكم والذى جاء فى لوحة الاشتراك فى الحكم سالفة الذكر نلاحظ
تشابه اللقبين وليس بمستبعد أن يكونا لشخص واحد هو نفرتيتى خاصة
وان صفة الشريك هو المحبوب من اخناتون وهو نفس صفة نفرتيتى ويلمح
أن هذه الصفة لابد وأن تكون قد استعملت فى حياة اخناتون . هذا بالاضافة

Petrie F., Op-Cit., PL. XV, PP. 103—105 and Pertrie F., Scarabs, (1)
PL. XXXVII, 18—11—9.

إلى أن لقب الشريك كان يضاف إلى نهايته تاء التأنيث في بعض الأحيان (١).
وعلى هذا فتكون نفرتيتي قد شاركت اخناتون الحكم وكان لها إلى
جانب اسمها لقباً متخذة بذلك خرطوشاً مزدوجاً متشبهة بالملوك .



ولقد اتبعت الملكة تا أسرة نفس الشيء فازدوج خرطوشها وذلك حينما
حكمت منفردة بعد وفاة زوجها (٢) . ولقد تخلت نفرتيتي مثل الملكات
اللائى حكمن مصر كفراعنة مثل سبك كارع من الأسرة الثانية عشرة
وحتشبسوت من الأسرة الثامنة عشر وتا أسرة من الأسرة التاسعة عشر
عن صفة الزوجة الملكية العظمى حمت نسوورت Hmt-nsu-wrt غير أن
نفرتيتي تخلت عن هذه الصفة اثناء حياة اخناتون (٣) تلك الصفة التي اتخذتها
مريت آتون لأنها تزوجت والدها اخناتون .



Wilson J., J. N.E.S., ١2, 1973, P. 283.

Hays, Scepter of Egypt, (2), 1968, P. 357.

Davies N., The Rock Tombs of El Amarna, London, 1905, Pls. (3)
XXXI, XXXII, XXXVIII.

كذلك تخلت نفرتيتي عن اسمها بعد وفاة اخناتون متخذة من اسم
Smenkh-Kara - djeser hepru . اسماً للتويج .
وهذا يتفق مع رأى جون هاريس إذ يقول أن نفرتيتي كانت الشريك في
الحكم مستعملة لقبها الاتوني وصفتها المحبوبة من الملك الذى خلفته كفرعون
باسم سمنخ كارع كاسم للتويج . (١)

ومن الملاحظ ان الملكات اللائي حكمن منفردات كفراعة اتخذن القاباً
جديدة واستعملن اسمائهن الأصلية حينما كن ملكات وربما استخدمت نفرتيتي
اسم جديد كاسم للتويج وهو سمنخ كارع لغرض التخفيف من تعصب الاله
آتون فاستبدل آتون برع ذلك الاله الذى عرفه المصريون من قبل ولقد ظهر
هذا التغيير فى اسماء بعض أميرات العمارنه الصغيرات فلم يظهر اسم آتون
بين اسمائهن بل استبدل باسم الاله رع وربما لم تستطع نفرتيتي استبدال
إسم الاله آتون فى لقبها باسم الاله رع ليصبح نفر نفرو رع بدلا من نفر نفرو
آتون لأن نفر نفرو رع كان اسم ابنتها الخامسة .

وربما كان تخلى نفرتيتي فى أخريات أيام اخناتون عن صفتها كزوجة
الملك العظمى حمت نسو ورت ، واتخاذ ابنتها مريت آتون هذه الصفة ، وظهورها
مع اخناتون (كزوجة) وشريكة فى الحكم الذى اتخذ لقب عنخ نفرو رع
نفر نفرو آتون وهو نفس لقب نفرتيتي الاتوني (٢) هذا بالاضافة إلى إعادة
استعمال خرطوش ملكة كان موجوداً على بعض مباني العمارنه وراء
الاعتقاد بأن نفرتيتي كانت قد توفيت أو اختفت قبل نهاية حكم
اخناتون (٣) .

Harris G. Gottinger *Miszellen* Gottingen, Op-Cit., PP. 15/17, (1)
and *Acta Orientalia*, Op-Cit., PP. 11—21

Davies N., Op-Cit., Vol. V., 1908, P. 25. (2)

Woolley, *The City of Akhenaten*, Part I, 1923, P. 155. (3)

لكن جون هاريس أثبت ان الخرطوش الخاص بالملكة والذي أعيد استعماله ليس الخاص بنفرتيتي ولكنه كان لكيا زوجه اخناتون الثانوية وقد استعملته مريت آتون ابنة وزوجة اخناتون . (١)

ويرى رد فورد اعتماداً منه على بعض الاكتشافات غير الكاملة في معبد الكرنك وكذلك بعض النقوش من العمارنه امكان وجود نفرتيتي حتى العام الثالث من حكم توت عنخ آمون (٢)

على أية حال فانه من بين فراعنة مصر قاطبه شاركت نفرتيتي اخناتون العرش فكانت تعامل معاملة الملوك أو الآلهة ولقد ارتدت التيجان الخاصة بالملوك فارتدت التاج الأحمر في المناسبات (٣) أما التاج المميز لها فلم يرتديه غير اخناتون (٤) وكانت تقوم بقيادة عربتها بطريقة ملكية (٥) كذلك ظهرت نفرتيتي في نفس حجم اخناتون وهما يتعبدان للاله آتون وذلك على لوحات الحدود— كما ظهرت خلفه في بعض الأحيان (٦). وكانت تظهر على آثار العمارنه بمظاهر الحكام فظهرت وهي تعاقب الاعداء (٧) ولقد تغيرت لقبها خلال فترة حكم اخناتون فبعد أن كان اسمها نفرتيتي فقط تغير مثلما تغير اسم امنحتب الرابع إلى اخناتون فأضيف إلى اسمها لقباً يحتوى على اسم آتون الاله الجديد ليصبح نفر نfro آتون نفرتيتي وليزدوج اسمها أواخر طوشها

Harris G., Chronique de L'Egypte, Fondation Egyptologique, (1)
Elisabeth Brussels, 1974 XLIX, 97, PP. 23/25.

Redford R., The Akhenaten Temple Project, University of (2)
Pennsylvania, Vol. I, 1976, P. 94.

Davies N., Op-Cit, Vol . II, PL. VIII, Vol-III, P. 10 and Haris (3)
G., Acta Orientalia, Op-Cit., XXXV, 1973. PP. 9/13.

Aldred C., Akhenaten and Nefertiti, 1973, Fig. 31. (4)

Davies N., Op-Cit., Vol. II, PL. XVI. (5)

Davies N., Ibid., Vol. II PL. XVIII. (6)

Cooney J., Amarna Reliefs from Hermopolis, P. 191, PL. 67. (7)

مثل الملوك وعلى ما يبدو أن تاريخ تغيير اسم نفرتيتى حدث أثناء إقامة لوحات الحدود أى عند بداية انشاء مدينة العمارنة وهى توافق مولد الابنة الثانية لنفرتيتى ماكت آتون (١) وكانت صفة نفرتيتى المحبوبة من اخناتون وهى الصفة واللقب الذى اتخذته نفرتيتى (نفر نفرو آتون) هما اللذان عرف بهما شريك اخناتون وخلفه فيما بعد والذى عده علماء المصريات صديقاً عرف بسمنخ كارع وذلك طبقاً لما قرره بترى وانه كان متزوجاً من ابنة اخناتون ونفرتيتى مريت آتون وذلك لأنها ظهرت على لوحة الاشتراك فى الحكم مصحوبة بلقب الزوجة الملكية العظمى غير أنه لم يعثر على أية اشارة تدل على مثل هذا الزواج فقد ظهر على جدران قاعة التتويج فى القصر الرئيسى بالعمارنة اسم سمنخ كارع لكن لم يظهر اسم مريت آتون (٢) وكل الذى نعرفه أن مريت آتون كانت متزوجة من والدها اخناتون وقد اكتسبت لقب الزوجة الملكية العظمى من كونها زوجة لابنها .

غير أن ألقاب الملكة وصفتها هذه لا يمكن وأن يكون قد اتخذها صبي جلس على عرش مصر بواسطة اخناتون خاصة وأن هذه الألقاب كانت تأخذ صفة التأنيث فى بعض الأحيان هذا بالاضافة إلى أنه لم توجد أية صورة للملك شاب شارك اخناتون ثم خلفه فيما بعد بل وجدت فقط صورة الملكة بمظاهر الملكية فيوجد فى مقبرة ميريرا II (٣) Meryra فى العمارنة رسم ناقص وغير واضح لشخصين من المحتمل أن يكون احدهما لشريك اخناتون وخلفه فيما بعد ومن المحتمل أن يكون هذا الرسم لاختاتون ونفرتيتى ويقترح دافيز (٤) أن الخرطوشين الموجودين ربما كانا لاختاتون ونفرتيتى وربما دعى مرض اخناتون إلى وجود خراطيش جديدة اثنان منهما لاسم خلفه

Lepsius, Denkmaler ,Abb. III, B1 110 (b). (1)

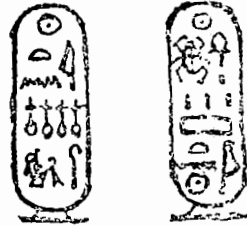
Pendelbury, J.E.A., 17, 1931 and 18, 1932, Pl. 44. (2)

Martin G., The Royal Tomb at El Amarna, 1974, PL. 21. (٤)

Davies N., Op-Cit Vol II, P. 44. (4)

ممذخ كارع دجسر خبرو والثالث كان يحمل لقب مري آتون وهو لقب
نفرتي (١)

ولقد هجرت نفرتي القابها كزوجة في أخريات أيام اخناتون وربما
كان هذا أمراً طبيعياً للملكات اللائي حكمن كملوك فتخلت الثلاث
ملكات اللائي حكمن كغرائعنة عن القابهن الزوجية . وقد استعملت نفرتي
الذقن المستعارة كظهر من مظاهر الملكية مثلما فعلت حتشبسوت إذ نشر
هاريس (٢) خرطوشين مذهبين لخلف اخناتون يحمل صفة المحبوب من آتون
فتبع اسم نفرتي الآتوني نفر نفرو آتون شكل ملك بلحيه .



وربما كان تخلي نفرتي عن القابها الزوجية وراء اعتقاد بعض المؤرخين
عن احتمال وفاتها أو اختفائها في أخريات عصر اخناتون لكن من كل ما تقدم
نجد أن نفرتي شاركت اخناتون العرش متخذة اسم نفر نفرو آتون نفرتي
واتخذت صفة المحبوبة من وع ان رع (اخناتون) وبعد وفاته حكمت كفرعون
متخذة اسم سمنخ كارع كإسم للتويج .
والشيء المنطقي أن تكون نفرتي قد خلفت زوجها كفرعون حتى

Redford, The Akhenaten Temple Project, University of Pennsy- (1)
vania, Vol. I, Warminster, 1977, P. 82.

Harris J., Acta Orientalia, Op-Cit, 36 (1974) PL. 17, Fig., 3 P. (2)
16, N. 20.

تولى توت عنخ (آتون) آمون وابنتها عنخ اس أن با (آتون) آمون حوالى
سنة ١٣٥٠ ق . م . لأنه وجد فى مقبرة توت عنخ آمون خرطوشين مذهبين
يحمل أحدهما اسم عنخ خبرو رع والثانى يحمل صفة المحبوب من آتون وهى
صفة نفرتنى بعد وفاة اخناتون . (١)

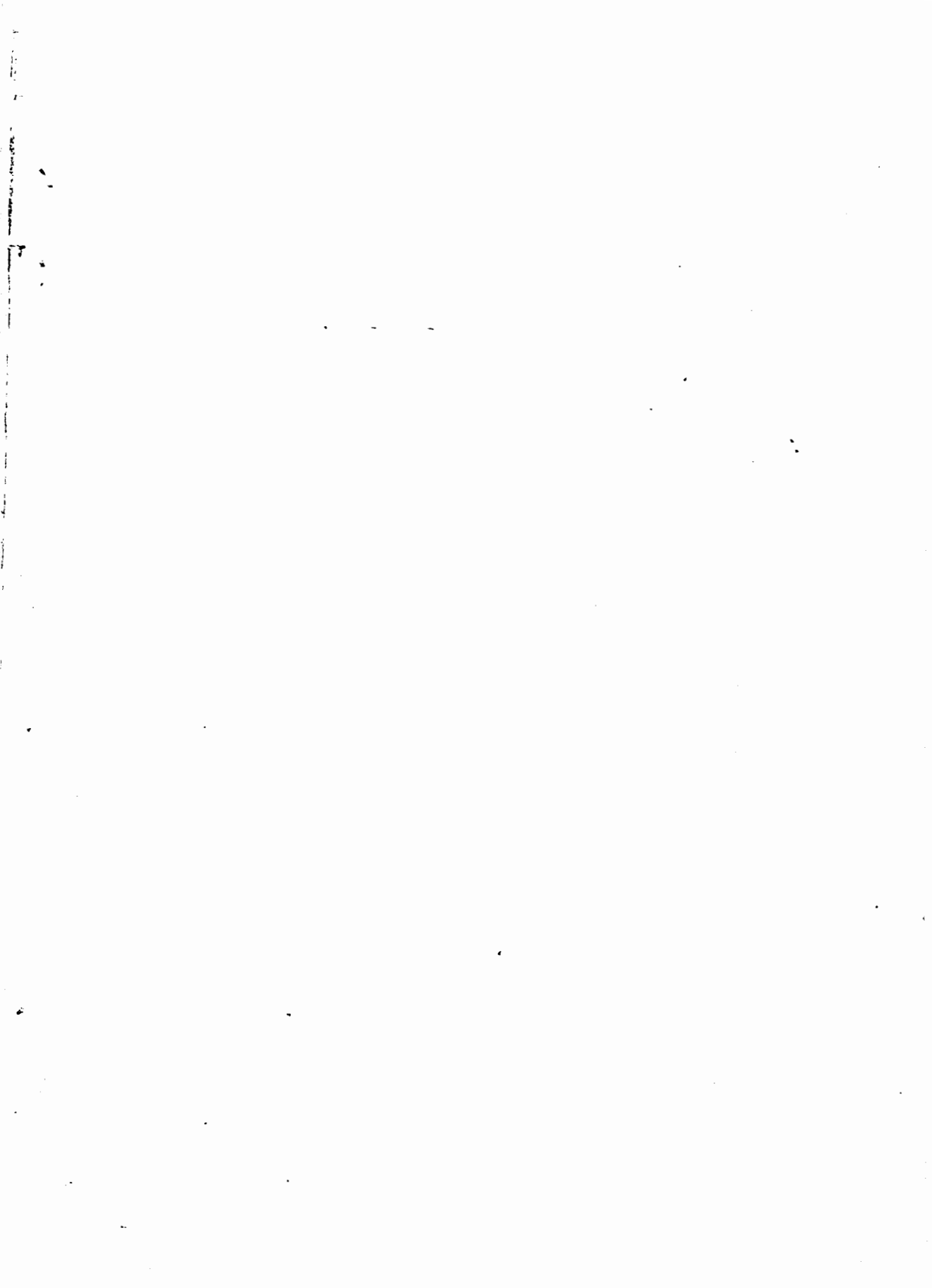


وربما تعطينا الاكتشافات والحفريات التى تجرى فى منطقة الكرنك
وفى القصر الشمالى فى العمارنة أدلة أكثر حول امكان احتفاظ نفرتنى بالقابها
للملكة اثناء حكم توت عنخ آمون أو أنها تنازلت له عن العرش أو أنها كانت
قد توفيت وخلفها توت عنخ آتون وابنتها عنخ أس ان با آتون .

Harris J., Actta Orientalia, Ibid, 36, 1974, PL. 17, P. 16, N. 20. (1)

المصادر والمراجع التي رجعت إليها الباحثة

- 1 - Acta Orientalia, University of Copenhagen, Elizabeth Riefstahl, Ancient Egyptian Glass and Glazes, Brooklyn Museum, 1968.
- 2 - Annales du Service des Antiquités de L'Egypte, Cairo.
- 3 - Ashmolean Museum, Oxford.
- 4 - British Museum, London.
- 5 - The Cambridge Ancient History, Cambridge University Press, Vol. II, (chapter XIX, 1971).
- 6 - Chronique de L'Egypte, Fondation Egyptologique Reine Elisabeth, Brussels.
- 7 - Cairo Egyptian Museum, Cairo.
- 8 - Wooley, The City of Akhenaten, Part I, 1923. Pendlebury J.D.S., The City of Akhenaten, Part II, 1933. Cairo Catalogue Général.
- 9 - Göttinger Miszellen, Gottingen, Germany.
- 10 - Journal of Egyptian Archaeology, London. (J.E.A.)
- 11 - Journal of Near Eastern Studies, Chicago. (J.N.S.)
- 12 - Petrie Flinders, Scarabs and Cylinders with names, London, 1917., Warminster, 1974. Tell El-Amarna, London, 1894, Reprinted Warminster, 1974.
- 13 - Capart J., Recueil de monuments Egyptiens, 1905.
- 14 - Davies, N. de G., The Rock Tombs of El Amarna, 6 Vol., 1903, 1905, (2) 1906, (2) 1908.
- 15 - Vandier J., Manuel of Arcéologie Egyptienne, III, paris, 1958.



الاستراتيجية البريطانية

في البحر المتوسط وموقع تونس فيها

الدكتور عبد الغفار محمد حسين

أستاذ مساعد التاريخ الحديث والمعاصر

كلية التربية - جامعة طنطا

١ - الاستراتيجية البريطانية في البحر المتوسط

في عام ١٧٩٣ استولت بريطانيا على قاعدة جبل طارق الحصينة . وكان التحالف البريطاني البرتغالي يحمي هذه القاعدة ضد احتياجات التاجوس Tagus (١) ، وساعد على استقرارها أيضاً قيام الولايات المتحدة بحملاتها ضد القرصنة في شمال أفريقية ، ثم بعد ذلك استولت بريطانيا على جزيرة مالطة عام ١٧٩٨ م ، وهي القاعدة التي وصفت بأنها (أقوى قاعدة في أوروبا) (٢) ، ثم استولت على الجزر الأيونية حول قاعدتها البحرية في كورفو ، ومنذ بداية العقد الثالث من القرن التاسع عشر كان النفوذ البريطاني أقوى من غيره ، وفي سنة ١٨٠٢ عقدت بريطانيا معاهدة تجارية مع عدن (٣) فصار طريقها إلى الهند آمناً مهدداً ، وكانت أضعف مراكز النفوذ البريطاني على هذا الطريق هي مصر التي كان يحكمها محمد علي ، والذي استعان بالخبرة الفرنسية ، فصار النفوذ الفرنسي في مصر أقوى من غيره .

وبعد عام ١٨١٥ م كانت التهديدات لمنطقة البحر المتوسط تأتي من أيريا ومن إيطاليا ومن البلقان ، فشغلت بريطانيا بهذه المشاكل حرصاً على الحفاظ على الحالة الراهنة والاستقرار في منطقة البحر المتوسط . وذلك بعدم تشجيع قيام الوحدة في شبه جزيرة أيريا أو إيطاليا ، أو وقوع أحد هذه المناطق في يد دولة قوية توحيدها وتجعل منها منطقة نفوذ خطر ضد بريطانيا وسيادتها في هذا البحر . (٤)

وكانت فرنسا تسبب قلقاً لبريطانيا في أسبانيا ، كما أصبحت طولون في منتصف العقد الثالث قاعدة ضخمة تنافس مالطة ، كما كانت روسيا تسبب لها قلقاً في جزر البليار وفي ايطاليا (٥).

وعندما قامت ثورة اليونانيين ضد السلطان محمود : وتدخلت قواته تساندها قوات محمد علي لاختاد هذه الثورة ، خشيت بريطانيا من أن تتخذها روسيا ذريعة للتدخل ، أو أن تتصرف فرنسا تصرفاً خاصاً ، ولذا حرصت على دعوة هاتين القوتين للتضامن معاً في اتخاذ عمل موحد . وفي معاهدة لندن عام ١٨٢٧م اتفقت الدول الثلاث على منح اليونانيين استقلالاً ذاتياً ، وعلى أن يدفعوا الجزية للسلطان وأرسلت أسطولا مشتركا لاييقاف القتال ، ولكن حدث أن أكتسح الفرنسيون الترك في المورة ، وفرض الروس نفوذهم في فارس بعد معاهدة تركمانشى ، وألغى السلطان محمود معاهدة أكرمان مع بريطانيا بعد غضبة بسبب تدمير أسطوله في معركة نوارين ، ثم تخلص السلطان من قوات الانكشارية المتمردة ، فأصبح بلا قوة ، ففرض عليه الروس اتفاق أدريا نوبلى في سنة ١٨٢٩ . وحصل القيصر على دلتا الدانوب ووقف مع ثوار المورة ، ثم تدخل الفرنسيون في الجزائر سنة ١٨٣٠م ، وسبب هذا كله قلقاً لبريطانيا ، ولكن الدول الثلاث عادت فاتفت من جديد في عام ١٨٣٣م على منح اليونان استقلالها . وعينت وعليها الأمير أوتوا ملكاً وأعلن الفرنسيون أن الجزائر أصبحت ملكاً لهم ، كما أن الهند ملك لبريطانيا .

وكانت السياسة البريطانية في القرن التاسع عشر بصفة عامة لا تستمر على حال واحدة ، في منطقة البحر المتوسط . فعلى حين وقفت هي وروسيا تساند ثوار اليونان المطالبين بالاستقلال عن الدولة العثمانية في العشرينات كان بالمرستون ورسل مستعدان للمخاطرة بالحرب لمنع أية تصدعات في بناء الامبراطورية العثمانية واملاكها ، فبالمرستون كان يسير على سياسة حماية مصلحة بريطانيا أولاً ، ثم أن هذه السياسة نفسها لم تستمر على حال واحدة ، فقد تأثرت بمدى نمو المصالح البريطانية التجارية مع الدولة العثمانية .

وقبل عام ١٨٣٣م كانت الحكومة البريطانية لا تتبع أسلوباً محدداً نحو الدولة العثمانية ، وبعد موت كاننج سنة ١٩٢٧ اضطربت هذه السياسة في منطقة الشرق الأوسط (الشرق الأدنى في عرف ذلك الوقت) ، ولم يستطع كل من ولنجتون أو جودريس Goderich أن يرسم برنامجاً محدداً لهذه السياسة حتى انتهت حرب الاستقلال اليونانية ، ثم بعدها وفي بداية عهد بالمرستون شغل بالمشاكل القرية منه مثل مشكلة استقلال بلجيكا والثورة الفرنسية سنة ١٨٣٠م ، ومنطقة الراين ، وشغلت هذه المشاكل بريطانيا عما كان يجري في منطقة البحر المتوسط. (٦) .

ولما قام النزاع بين محمد علي والسلطان العثماني ، وعقدت روسيا مع السلطان معاهدة انكياراسكلسي شعر البريطانيون بالتهديدات في منطقة البحر الأحمر والبحر المتوسط ، وفي نفس الوقت كانت قد تقدمت طرق المواصلات ووسائلها ، ففضل البريطانيون طريق الكاب ، ثم عادوا مرة أخرى سنة ١٨٢٨م ، إلى طريق البحر الأحمر أيضاً ، وخاصة بعد فتح ترعة المحمودية للملاحة (٧) ، وبدأوا يعملون لاقتناع محمد علي على ذلك ولكنه أرجأ تنفيذ المشروع نظراً للظروف السياسية ، وبعد اتفاقية انكياراسكلسي وشعور البريطانيين بتهديدات مواصلاتهم في البحر الأحمر فضلوا استخدام طريق القوات (٨) الذي سرعان ما أثبت عدم أهميته الكافية ، فعادوا مرة أخرى إلى البحر الأحمر وقناة السويس (٩) ، ثم بدأوا يتدخلون بالتضامن مع فرنسا وبروسيا وبروسيا لفرض الاستقرار في منطقة مصر والشام ، كما طلب السلطان من بريطانيا أن تهتم بمنطقة عدن حتى لا يغزوها محمد علي (١٠) .

وأثناء الصراع العنيف بين محمد علي والسلطان ، والذي تهددت فيه الدولة العثمانية بقوة ، والذي وقفت فيه فرنسا مع محمد علي تعطف عليه ، شعر بالمرستون بالخطر فصمم على ضرورة الوقوف في وجه فرنسا ، وبعدم السماح لها بأية سبيل لتصبح سيدة الطريق إلى الهند سواء بطريق مباشر أو غير

مباشر (١١) واستطاع أن يحرك الروس والنمساويين والبروسيين حتى فرضوا على محمد علي معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ م ، واستطاع بالمستون أن يعيد الوضع البريطاني القوى في القسطنطينية والقاهرة وأصبح الساحل الشمالي لأفريقيا، والذي يحيط بالطريق البريطاني إلى الهند هو مثار اهتمام بريطانيا منذ ذلك الوقت ، فحرصت على أن تقف في وجه أى سياسة تقوم بها أية حكومة لفرض نفوذها وتهديد طرق التجارة البريطانية . (١٢)

وفي ذلك الوقت أصبحت مسألة الحرص على عدم سقوط الامبراطورية العثمانية هي الشغل الشاغل لبريطانيا . وكان رأى العام البريطاني قبل ذلك بقليل قليل الاهتمام بوسائل هذه الامبراطورية حتى كتب البعض ، (١٣) عن الدولة العثمانية ومواردها . فبدأ بعض الرجال يدرك أهمية موقع الدولة العثمانية الجغرافي في الطرق التجارية في البحر المتوسط ، ثم زاد الاهتمام بذلك حتى أصبح أمر الحفاظ على كيان الدولة العثمانية في الربع الثاني والثالث من القرن ١٩ مشكلة عامة ليس فقط في السياسة البريطانية ، بل في رأى العام البريطاني كذلك .

وكانت معاهدة انكياراسكلسى كافية لتنبية رأى العام ورجال السياسة للخطر الروسى ، ثم الخطر الفرنسى كذلك . وبدأ الشعب البريطانى يحس بأهمية تركيا لاقتصادهم ونموه ، ولطريق مواصلاتهم إلى الهند (١٤) ، فأصبح محور السياسة البريطانية يقوم على محورين .
الأول : الحفاظ على حدود الامبراطورية العثمانية ضد أى عدوان خارجى .

الثانى : هو تشجيع النمو الداخلى لهذه الامبراطورية حتى تصبح قوية وغنية .

أما البحر المتوسط ، فانه لم يأخذ أهميته في نظر بريطانيا كطريق للمواصلات إلى الشرق بصورة واضحة إلا في الربع الثاني من القرن ١٩ .

وكان ذلك بسبب تغيرات صناعية ، وبسبب ازدياد الحاجة إلى المواد الخام والأسواق الجديدة الواسعة ، فقد كان تبادل المواد الخام والمواد المصنعة يحتاج إلى طريق أقصر من طريق رأس الرجاء الصالح . (١٥) .

وكانت الحاجة إلى هذا الطريق القصير قد بدأت تظهر منذ سنة ١٧٨٤م عندما بدأ جورج بلدوين يرى إمكانية وجود هذا الطريق عبر البحر المتوسط وخليج السويس (١٦) ، وفي سنة ١٨٣٠م كلف البرلمان البريطاني لجنة من الباحثين للبحث عن طريق أقصر إلى الهند (١٧) ووجدت هذه اللجنة أن الطريق عبر مصر يبلغ ثلث الطريق عبر رأس الرجاء أو يزيد قليلاً ، فبدأ التجار والشركات يتجهون نحوه ، وانشأت بريطانيا قنصلية لها في مصر (١٨)

ولما بدأ الفرنسيون بدرسون موضوع حفر قناة السويس ، رأى بالمرستون أن هذا المشروع سيجر أخطاراً ومشاكل سياسية عديدة ، فعارضته بشدة ، ورأى أن سكة حديد عبر الخليج أكثر أهمية وأقل تكلفة ، وأن الطريق عبر الفرات والخليج الفارسي (العربي) ليس أكثر أهمية فقط . بل ويجنب الخطورة في البحر الأحمر والرياح الموسمية التي كانت تهب أربعة شهور في السنة ، ولذا فضل الطريق الذي كان تحت إشراف السلطان مباشرة ، وكان اهتمامه بطريق قصير عبر سورية والفرات سبباً في نفس الوقت في تقوية رغبته في نمو صداقة بريطانيا مع السلطان والحفاظ على امبراطوريته ضد كل من يريد تدميرها (١٩)

وعلى رغم أن تجارة بريطانيا مع الهند والشرق ، كانت تمر في معظم سنوات القرن ١٩ بطريق رأس الرجاء فإنه مع ذلك لم يبد أن هذا الممر ، أو هذه الموانئ التي أقيمت على الساحل الغربي لأفريقية ، كانت تشجع على نمو هذه التجارة ، أو فتح أبواب جديدة لتنمية رأس المال ، وهذه المشروعات كانت مركزة في المناطق النامية في شمال إفريقيا في مصر وتونس ومراكش ، وكانت هذه المنطقة مهمة ، ليس فقط من أجل تجارتها ، واحتياجها لرأس المال بل وأيضاً لمكانتها في سياسات البحر المتوسط (٢٠)

إذن صار محور السياسة البريطانية بعد سنة ١٨٣٣م في أوسع أبوابه متأثراً بالموقع الجغرافي للامبراطورية العثمانية واملاكمها في آسيا وأفريقية ، ونظراً لازدياد العلاقات التجارية بين بريطانيا وبينها ، فقد رغبت الأولى في عقد معاهدة تجارية معها ، ولكن العقبات كانت في الضرائب العالية التي تفرضها الدولة العثمانية على المنتجات المستوردة من بريطانيا وغيرها ، وفي احتكار كثير من السلع ، وقد تحمس كثير من رجال المال والتجارة لخفض ثمن البضائع البريطانية لعل هذا يفتح باب السوق العثماني أمامها . بل تحمسوا أيضاً لتخفيض عوائد الواردات البريطانية إن لم يكن الغاؤها (٢١) ، ورأى بالمستون أن الدولة العثمانية يمكن أن تحقق بحرية التجارة مع بريطانيا أرباحاً أكثر مما تحقّقه بالاحتكارات التي تسبب الثروة فقط لفئة مختارة من الشعب التركي (٢٢) وبونسونبي سفير بريطانيا في القسطنطينية كان يرى في الدولة العثمانية مورداً لامكانات اقتصادية ضخمة ستفيد بريطانيا كثيراً ، فأخذ يلح على السلطان في ضرورة مراجعة النظم الموجودة والاحتكارات التي تحد من التجارة ، وبعد سنوات وافق السلطان على بدء المفاوضات في نوفمبر سنة ١٨٣٦م ، وقام بونسونبي بمناقشة موضوع عقد معاهدة تجارية تحدد فيها التعريف الجمركية ، واشترك معه بعض رجال المال البريطانيين ، ورغم العقبات التي تخللت هذه المفاوضات ، ومنها قيام فرنسا بمفاوضات مماثلة جعلت بريطانيا تخشى على خضطها ، فقد تم عقد المعاهدة في ١٦ أغسطس سنة ١٨٣٨م وسميت معاهدة بلصة ليان ، وتم الاتفاق فيها على أن :

- ١ - تلغى تركيا الاحتكارات التجارية .
- ٢ - تعترف بالامتيازات التي منحت من قبل للرعايا البريطانيين .
- ٣ - يسمح للتجار البريطانيين بالمتاجرة في أي بلد من ممتلكات الدولة العثمانية .
- ٤ - تفرض على الواردات في التجارة الداخلية نسبة ٣٪ ، وعلى الصادرات ٩٪ .
- ٥ - تنفذ المعاهدة من أول مارس سنة ١٨٣٩م .

أما الهدف السياسى من معاهدة بلطة ليمان ، فقد كان كما قال بالمستون (أن الزيادة فى التبادل التجارى بين الرعايا فى الدولتين سوف يؤدى حتماً إلى تقوية الاتحاد السياسى بين الحكومتين) (٢٤) ، وكذلك فإن رفع الاحتكارات سوف (يقطع قوة محمد على فى مصر وسوريا من جذورها) (٢٥) ، ذلك لأن السلطان بتوقيعه هذه المعاهدة فانه يستطيع أن يفرض تنفيذها فى ممتلكاته ومنها مصر ، وبذلك يدمر محمد على واحتكاراته ويقلص سلطانه (٢٦) .

وكانت سياسة بريطانيا فى تعاملها مع الدول فى نحو منتصف القرن ١٩ ، وفيما قبل ذلك تقوم على أساس العمل على تشجيع التقدم الثقافى والخلقى والمادى فى العالم ، ولذا فيجب أن تتحلى الحكومة البريطانية بالعدالة والاعتدال واحترام النفس ، وأن تعامل الدول الأخرى بنفس معاملتها لها ، وبما أن التجارة الخارجية كانت ذات أهمية كبرى لبريطانيا ، وتحمل وسائل الحضارة ، فلهذا كان أول واجبات الحكومة البريطانية هو تدعيم الأمن والحرص عليه ، والذي هو أساس نجاحها وتقدمها ، ثم العمل على حماية رعاياها فى الخارج ، كما تتولى حمايتهم فى الداخل ، ولذا فذلك يعتمد على علاقات الصداقة بين بريطانيا والدول التى يعيشون فيها ، هذا وفى الوقت نفسه تعمل على عدم التدخل فى شئون الدول الداخلية . محافظة على عظمة بريطانيا وأمنها ، ولتقوية النفوذ الأدبى لها أمام الرأى العام فى العالم ، وتعمل كذلك على تقديم العون للدول حين تريد مساعدتها فى تدعيم مؤسساتها الحرة ، وتقدم للدول المستشارين حين يطلبوا . (٢٧)

أما سياستها ازاء الدولة العثمانية فقد كانت تقوم على أساس أن هذه الدولة دولة ضعيفة ، وجيشها ضعيف ، وروسيا دولة أقوى منها ، وهى تريد المضايق وتريد القسطنطينية ، ولو وصلت اليها لأصبحت خطراً على أوروبا وخاصة بعد تزايد أطماع المسيحيين والعناصر السلافية فى اليونان الذين أصبحوا على درجة من الثقافة والثورة ، والذين تطلعوا إلى روسيا ، وأصبح العلاج هو دفع الدولة العثمانية إلى تحسين معاملتها للمسيحيين التابعين

لها في البلقان درعا لادعاءات روسيا ، ثم مساعدة السلطان في الدفاع عن عاصمته وعن عرشه واملاكه ، ويستحسن في هذه الحالة العمل على محالفة فرنسا والنمسا (٢٨) ، فقد كانت هاتان الدولتان تشاركان بريطانيا في الحرص على ألا تقع القسطنطينية في يد روسيا ، وعلى هذا فيجب العمل ..

١ - على تجنب الأعمال الحربية والبحرية التي تهدد الدولة العثمانية وأمنها.

٢ - على تجنب الخلافات والمنازعات بخصوص الأمور التي تؤثر على الدولة العثمانية وحلها بواسطة التضامن الحيوى بين دول أوروبا ، وعدم دفع هذه الخلافات لتضعف هذه الامبراطورية وتفككها . (٢٩) .

وهذه الأسس العامة أثرت على تصرفات بريطانيا وسياستها في البحر المتوسط خلال القرن ١٩ م.

ولذلك فقد حرص بالمرستون وأنصاره من ساسة بريطانيا في خلال النصف الأول منه على أن يمنعوا الفرنسيين من اقامة امبراطورية لهم في شمال افريقية تهدد مصالحهم في الهند ، وتوازن امبراطوريتهم ، وصمموا أيضاً على منعه من اقامة مراكز نفوذ لهم في طريق السويس إلى الهند (٣٠) ، فرغم الصداقة التي كانت بين بريطانيا وفرنسا ، لم يكن البريطانيون ووزيرهم بالمرستون مستعدين للتضحية بمصالح بريطانيا من أجل هذه الصداقة ، فقد قال بالمرستون لجيزو (... وكل الساحل من مراكش إلى خليج الاسكندرونة يصبح حينئذ تحت سيطرتكم ... إن هذا لا يناسبنا بالتأكيد) (٣١) وذلك عندما بدأت فرنسا في احتلال الجزائر ، وعندما أخذت تتطلع بعدها إلى تونس ومراكش .

فعندما احتلت فرنسا الجزائر عارض البريطانيون هذا العمل واحتجوا عليه ، بل أنهم هددوا بالحرب إذا كانت فرنسا تريد احتلالاً دائماً للجزائر (٣٢) وهنا تلقوا تأكيدات من وزراء شارل العاشر أن هذا الاحتلال لن يستمر

بدون موافقة التوى الأخرى ، وعندما جاءت حكومة لويس فيليب بعد شارل العاشر أعلنت أيضاً تمسكها بهذه الوعود ، ثم ظهر أن فرنسا تريد البقاء في الجزائر مهما كانت آراء ومواقف الدول الأخرى ، وفي ذلك الوقت لم تكن بريطانيا تستطيع أن تدخل معها في حرب ، ولذا فقد سكت الدبلوماسيون البريطانيون عن هذا الموضوع رغم عدم موافقتهم عليه ولكنهم بقوا يصرون على الرفض (٣٣) ، حتى إذا ما نجحت فرنسا في اخضاع مقاومة الأمير عبد القادر اعترفت بالاحتلال الفرنسي للجزائر سنة ١٨٤٣م ولكنها عندما رأت فرنسا قد بدأت تضرب مراکش وطنجة احتجت بشدة وهددت بالحرب لو أقدم الفرنسيون على احتلال المناطق التي تحيط بجبل طارق فراجع الفرنسيون . (٣٤) .

وكانت فرنسا في ذلك الوقت قد بدأت نشاطاً استعمارياً في الباسفيك والأرجنتين وفارس والهند ، فأثار ذلك بريطانيا بشكل ملحوظ ، وأثار شكوكها ، حتى أن بالمرستون تصور أن محمد علي الذي استقل بإدارة شئون مصر عن السلطان العثماني واحتل سورية وبلاد العرب والسودان ، وأصبح واثق الصلة بفرنسا، سيضع هذه الامبراطورية تحت النفوذ الفرنسي (٣٥)

هكذا نظرت بريطانيا إلى أن فرنسا تريد أن تصارع سيادتها في البحر المتوسط ، فقد أعلن الملك لويس فيليب ذلك في سنة ١٨٣٠م (٣٦) ، ولهذا أولى بالمرستون الوصول إلى اتفاق مع فرنسا حول تحديد التسليح فلم ينجح ، دارت في البرلمان البريطاني مناقشات حول تقوية الأسطول البريطاني ، وخاصة البحر المتوسط . (٣٧) .

ظلت بريطانيا على شكوكها من احتلال فرنسا للجزائر ونشاطها في المناطق المجاورة ، وخاصة بعد أن ظهر أنها لا تريد ترك الجزائر ، وأثار ذلك الارتياح في مراکش ، فأرسل بالمرستون إلى سفيره في باريس ليذكر الحكومة الفرنسية بوعودها فيما يختص بمراكش وتونس ، وليذكرها بأن أى حصار

للشاطيء سيقابل بتأثير سىء فى الرأى العام البريطانى ، كما أن السفير أخبر ملك فرنسا فى ٩ مارس سنة ١٨٤٠م بأن بريطانيا لاتريد من فرنسا التفكير فى معاقبة سلطان مراكش لأنه ساعد الأمير عبد القادر ، وفعلأ أكد له الملك بأنه لاتفكير فى ذلك ، ومع ذلك ظل بالمرستون قلقاً حتى حصل من وزير الخارجية الفرنسى على وعد مكتوب بذلك (٣٨) ، وإن كانت فرنسا قد قالت أنها سوف لاتسكت إذا ما حاول السلطان العثمانى استرجاع سيادته المباشرة على تونس بعمل عسكرى . (٣٩)

وظلت بريطانيا لمدة نصف قرن تقريباً تقف فى وجه فرنسا وتطلعاتها الواسعة على الساحل الشمالى لأفريقيا ، وأخذ طابع الصراع بين الدولتين يأخذ طابع الصراع على الأمور الاقتصادية ، حتى أنه مع مرور الوقت بدأ البريطانيون يدركون أن احتلال فرنسا للجزائر كان سلاحاً قوياً موجهاً ضد السيادة التجارية البريطانية فى البحر المتوسط ، وظلت هذه الفكرة تسيطر على العلاقات بين الدولتين وعلى موقف كل منهما من شمال أفريقيا . (٤٠)

وكانت احدى المسائل التى لاتقبل الجدل عن المسألة الشرقية هى أن الدولة العثمانية كانت لايمكن تقسيمها لارضاء كل الدول الكبرى . ولذا فان فرنسا رغم استيلائها على الجزائر . ورغم تطلعها إلى تونس ، فقد ظلت تعمل مع بريطانيا على الحفاظ على كيان هذه الدولة ، وعلى سيطرتها على المضائق ، فقد دخلتا بأسطولهما فى حرب القرم سنة ١٨٥٦م ضد روسيا ، وأجبرتا الاسطول الروسى على العودة إلى مقره فى ميناء Sebastopol ، ومعنى ذلك كما يقول تيلور ، أن بريطانيا كانت تريد أن تكون الدولة العثمانية دولة مستقلة حفاظاً على الأمن فى شرق البحر المتوسط ، وأنها ودول غرب أوربا دخلت الحرب ضد الروس ليس من أجل الترك فى حد ذاتهم ، وإنما حفاظاً على ميزان القوى فى البحر المتوسط وفى أوربا لصالح أوربا ، وأن مؤتمر باريس الذى عقد بسبب هذه الحرب فى باريس فى ٢٥ فبراير سنة

١٨٥٦ - ١٦ أبريل سنة ١٨٥٦م كان بمثابة مؤتمر نوقشت فيه مسائل أوروبا أكثر منه صلحا لحل مشاكل الشرق الأدنى (الأوسط) (٤١).

حتى سنة ١٨٧٥م حين ثارت المسألة الشرقية من جديد بثورة السلاف ثم أهل البوسنة ضد الترك ، كانت بريطانيا لاتزال تحتاج إلى الدولة العثمانية ، والحفاظ على كيائها كحاجز حيادي للحفاظ على الأمن في شرق البحر المتوسط وفي الشرق الأدنى بصفة عامة ، ثم احتاجت لها أكثر بعد افتتاح قناة السويس للملاحسة سنة ١٨٦٦م ، ولذا ففسد كانت حريصة على عدم فتح المسألة الشرقية (٤٢) ، ولكن عندما ثارت هذه المسألة - كما قلنا - كان أمر الدفاع عن الامبراطورية العثمانية هو أمر هام بالنسبة لبريطانيا .

ولكن يجب أن نفهم أن الرأي العام البريطاني في ذلك الوقت قد انقسم حيال هذه المسألة ، فقد كان هناك فريق يرى أن الامبراطورية العثمانية قد اضمحلت تماماً ، وأن السياسة القديمة في المحافظة عليها لم تعد ممكنة ، نظر هذا الفريق إلى كل اقتراح جديد بشك وريبة ، ومن هؤلاء لورد دربي ، لكن الفريق الآخر كان يتساءل ؟.... ولكن كيف نحصى الطريق إلى الهند ، من تهديدات روسيا ، وكيف نحفظ الأمن والميزان في البحر المتوسط ؟

وكان هذا الفريق وعلى رأسه دزرائيلي ، وكان رجلا (انجليزيا . انجليزيا حتى عموده الفقري ، كل كلمة من كلماته كانت لها معنى لدى الجمهور الانجليزى . فالمصالح البريطانية فقط ، والرغبات البريطانية ، والمزايا بدت في تصرفاته (٤٣) ، ولذا كان في خلال حياته حريصاً على حماية ومساندة استقلال الامبراطورية العثمانية كأفضل وسيلة للحفاظ على المصالح البريطانية في الشرق وفي البحر المتوسط ، وكان أفضل الرجال الذين عملوا معه هو لورد سالسبرى الذى تولى وزارة الخارجية ، وصار الاثنان معا حجير الزاوية في في هذه السياسة التى اتبعتها بريطانيا منذ ذلك الوقت . (٤٤) .

وكانت الصحف تلعب دورها في هذا الموضوع ، وخاصة صحيفة

التأخر التي تبنت الرأي الأول ، وكانت ترى عدم الثقة في امكانية الاصلاح العثماني ، وتكره ما تسميه (الاستبداد الاسلامي) (٤٥) .

وكان هناك فريق ثالث يدعو إلى حماية مصالح بريطانيا في عالم واسع ، ولكنه لم يكن مع الدولة العثمانية ولا ضد روسيا (٤٦) .

وكان دزرائيلي رجلاً يحب الشهرة ، ومغامراً مستعداً لارتكاب المخاطر في سبيل تحقيق أهدافه بعكس دربي وكان مستغرقاً في الاهتمام بأمور الدولة العثمانية ، وكان البريطانيون في ذلك الوقت ينظرون إلى أهداف النمسا وروسيا بتوجس ، وكذلك إلى أهداف بسمارك ، وان كانت هناك ظلال من الشك حول هذه الأهداف ، فرغم أن بسمارك امتدح سياسة دزرائيلي في حماية مصالح بريطانيا ، وشراء أسهم قناة السويس ، رغم أنه أنكر أنه توقع في ذلك الوقت عملية تحطيم الامبراطورية العثمانية ، فان أثر تلميحاته عن السياسة التي كانت تنتهجها بريطانيا كانت واضحة (٤٧) .

وفي يناير ١٨٧٦م أسر بسمارك إلى رسل أنه لا يجد أن الوقت قد حان لاقتسام أملاك الدولة العثمانية ، ولكنه يرى أطماع روسيا والنمسا ، وهو عموماً لا يرغب في مقاومتها . وهنا كانت تنور عدة تساؤلات :

أ (هل كان بسمارك يرغب في أن يقيم لألمانيا نفوذاً مع بريطانيا في البحر المتوسط ؟

ب (وهل كان بسمارك يرغب في أن يحوز مقاطعات أخرى بعيداً عن الصراع الذي سيصاحب اقتسام أملاك الامبراطورية العثمانية ؟

ج (أو هل هو يرغب فقط في أن يستعين بالمقاومة البريطانية ضد روسيا وفرنسا ؟ (٤٨)

هذه التساؤلات أثارت الحكومة البريطانية وأثارت شكوكها ، وفي نفس الوقت أثار شراء دزرائيلي لأسهم قناة السويس الشك في نفس فرنسا ،

فقد قال ديكاز للورد ليونز أن هذا نذير بقيام الخلاف بين بريطانيا وروسيا ، وأن فرنسا قد تجد نفسها مضطرة لاتخاذ أحد موقفين . اما مع بريطانيا ، أو عليها ، أما المانيا فكانت تعارضهما معا ، ومع هذا فان ليونز كان يرى أن فرنسا بالرغم من هذا الغضب الظاهر قد تتجنب القيام بعمل خطير .

وفي روسيا علقت الدوائر السياسية على أن عملية شراء الاسهم ، ليست عملية تجارية ، وانما هى مسألة تهتم كل دول البحر المتوسط وبالأخص فرنسا ينبغي أن تكون هذه المسألة موضوعاً لتسوية دولية .

ولأن دزرائيلي كان لا يريد أن يلقى بفرنسا فى أحضان روسيا ، فانه لم يرد اثارها (٤٩) أما دربي ، فقد كان يريد التحالف والتعاون مع فرنسا فى منطقة البحر المتوسط فأخذ يوضح لفرنسا عندما كانت تثور اشاعة اعتزام بريطانيا ضم مصر أن هذا العمل لأساس له . (٥٠)

وكانت كلما اثيرت اشاعة اقتسام ممتلكات السلطان . تثور اشاعة أن بريطانيا تريد جزيرة قبرص .

وحقيقة فقد كانت الصحف البريطانية تعد الرأى العام لموضوع اقتسام املاك السلطان والابتيلاء على مصر (٥١) .

ومهما قيل عن الافلاس والضعف العثماني ، فقد ظن بعض رجال المال أن الامبراطورية العثمانية يمكن أن تقف على قدميها فى خلال خمس سنوات وذلك لو تولى الادارة فيها رجال اكفاء مخلصون ، أو بعض موظفى الهند المختارين ، وهذا هو مادعا رجل مثل سالسبرى إلى أن يتبنى سياسة العمل على الدعوة إلى اصلاح الدولة العثمانية وشتونها .

وعادت بريطانيا ، محافظة على مواصلاتها مع الهند ، وعلى ميزان القوى فى البحر المتوسط ، إلى سياستها فى الحفاظ على كيان الامبراطورية العثمانية وممتلكاتها (٥٢) ، ولذا فعندما وجدت أن روسيا بدأت تنتصر فى حربها معها سنة ١٨٧٥ ودخلت بأسطولها إلى مياه الدردنيل بعد أن تقدم الروس نحو

المضايق ونحو القسطنطينية ، وأصبح الخطر محدقاً ، وأرسلت لهذا الغرض الاميرال هورنبي Hornby ، وحذرت الروس من التقدم نحو العاصمة أو الساحل الأوربي أو الآسيوي للدردنيل . (٥٣) .

وبعد انتهاء الحرب فرضت روسيا على الدولة العثمانية اتفاق سان استفانو ولكن بريطانيا تدخلت فعمد مؤتمر برلين ١٣ يونية - ١٣ يولية سنة ١٨٧٨م (٥٤)

وهنا رأى السبري أن روسيا أخذت كثيراً ، فخشى من تهديدها للبحر الأسود ، ولآسيا الصغرى بحصولها على باطوم ، فعمل على عقد اتفاق مع الدولة العثمانية ، يضمن فيه سيطرة بريطانيا ، وتحرك أسطولها في منطقة المضايق حين يريد أن يحمي منطقة البحر الأسود حفاظاً على مواصلاتها في البحر المتوسط ، وحصل بذلك على حق إدارة جزيرة قبرص فأصبحت بريطانيا من جبل طارق ومالطة وقبرص تحمي مصالحها في البحر المتوسط والشرق (٥٥)

٢ - أهمية تونس في الاستراتيجية البريطانية

يقع شمال أفريقيا (المغرب العربي) بين روما شرقاً ولندن غرباً ، بحيث تقع مدينة تونس غربي روما ، وتقع مدينة طنجة غربي لندن ، ولتونس أحد هذه الدول ساحل يطل على البحر المتوسط شرقي جبل طارق بنحو ٩٠٠ ميل وغربي قناة السويس بنحو ١٣٠٠ ميل ، ويفصل سواحل تونس عن صقلية ٨٥ ميلاً فقط ، وتونس العاصمة وصقلية يقسمان البحر المتوسط تقريباً ، وتونس بموقعها بساحل شمالي وساحل شرقي كانت ملتقى حضارات البحر المتوسط ، أتت منها أقوى التيارات السياسية والعسكرية ، فقد كانت مركزاً قوياً حين خرجت منها غزوات العصر القرطاجي أيام هانيبال ، ثم أصبحت بعد ذلك مركز امتداد النفوذ الروماني في افريقيا ، وكذلك في العصور الوسطى صارت هي والجزائر مركزاً لامتداد المسيحية فيها . ثم أصبحت

بعد ذلك مركزاً لامتداد الاسلام والثقافة العربية في شمال وغرب أفريقيا وجنوب غرب أوروبا ، وصارت إحدى مراكز الثقافة العربية الاسلامية ، وأصبحت تتوسط العالم الاسلامي ، ومنها خرجت غزوات لفتح صقلية وكريت ، ولنشر الاسلام في الجزر حول شبه جزيرة ايطاليا ، ثم عندما ضعفت القوى الاسلامية في العصر الحديث تعرضت تونس لغزوات النورمان من صقلية في القرن ١٢م والاسباني في القرن ١٦ ولموجة الحصار الغربية الحديثة في القرن ١٩ ، ولما صارت ولاية خاضعة للدولة العثمانية في القرن ١٦ ظلت ولاية عثمانية حتى غزتها فرنسا سنة ١٨٨١م (٥٦) .

وفي القرن ١٩ كانت تونس في نظر بريطانيا تلعب دوراً هاماً في استراتيجيتها في البحر المتوسط ، فقد كانت دولة حاضرة Buffer State تلعب دوراً هاماً في حماية مستعمراتها عبر البحار ، وكانت الدولة التي تستولى على تونس ، وتستطيع أن تقيم في بنزرت ميناء حريياً قوياً كانت تعتبر خطراً كبيراً على بريطانيا . ولذا فقد كان الحفاظ على استقلال تونس أمراً هاماً ، إذ لو حدث واحتلت دولة مثل فرنسا أو ايطاليا - وهما الدولتان اللتان كانتا تطمعان في تونس - لازداد نفوذ فرنسا وايطاليا في البحر المتوسط ولا نقاب ميزان القوى فيه ، بل وفي أوروبا نفسها ، ولأدى أيضاً إلى تمزيق أوصال الدولة العثمانية ، التي حرصت بريطانيا على بقائها وتدعيم وجودها . (٥٧) .

وكان حكام الهند ينظرون إلى فرنسا على أنها العدو اللدود لهم ، ولو أنها احتلت تونس لأحالت بنزرت إلى طولون أخرى ، ولقطعت أحد طرق المواصلات الهامة إلى الهند ، ولذا فقد احتلت تونس في نظرهم مركزاً هاماً في الامبراطورية العثمانية (٥٨) .

وقد اختلف المؤرخون حول عوامل التدخل والاهتمام لدى القوى الكبرى بجهات تونس وشمال أفريقيا ، فعلى حين يرى ولف (٥٩) أن ذلك كان يرجع إلى رغبات ومصالح فئة من رجال المال في فرنسا وايطاليا

وبريطانيا ، نرى أن غيره من أصحاب الدراسات الحديثة ومنهم ستالي (٦٠) يرجع ذلك الاهتمام إلى عوامل سياسية ويستشهد في ذلك بأن الصراع بين هذه القوى الثلاث حول تونس ، وان كانت عوامله الظاهرة مشاكل اقتصادية فانه كانت وراءها دوافع سياسية ، كما أن القناصل البريطانيون في تونس وخاصة رتشاد وود عام (٥٦ - ١٨٧٩م) كان يرى أن وراء النمو الاقتصادي البريطاني في تونس أهمية سياسية ، وأن في الوقوف البريطاني في وجه التنافس الفرنسي الايطالي واطماعهما في تونس ، يمكن حفظ البلاد وتقويتها ، ومن أجل تقويتها يجب العناية بمصالحها الاقتصادية .

وفرنسا منذ أن استولت على الجزائر ، وهي تريد السيطرة على تونس فوقفت لها بريطانيا تحذرها من هذا العمل في صرامة لأن معنى استيلائها على تونس بعد الجزائر هو السير خطوة كبيرة في تحويل البحر المتوسط إلى بحيرة فرنسية ، وكان هذا يؤدي بالطبع إلى تهديد المواصلات البريطانية مع الشرق ، وكان رجال البحرية البريطانية يرون في ذلك الوقت أن فرنسا بامتلاكها ميناء كبيرا في طولون ، ثم بسيطرتها على الميناء التونسي ببونز وكذا ميناء فارنا لا يمكنهم من فرض السيطرة البحرية البريطانية دوماً ، وهو أمر كانت السياسة البريطانية عليه جد حريصة ، وصار من ثم أمر الحفاظ على الحالة الراهنة في تونس والحالة الراهنة في البحر المتوسط هو أساس السياسة البريطانية حتى منتصف السبعينات تقريباً .

وقد أثر هذا الموقف على السياسة البريطانية بشكل قوى ، برهنت عليه الأحداث بشكل واضح ، فبريطانيا كانت تنظر إلى تونس ، -بعكس فرنسا - على أنها جزء من الامبراطورية العثمانية ، وكان أمر الحفاظ على الامبراطورية العثمانية وتكامله موضوعاً شغل الساسة البريطانيين حتى نهاية القرن التاسع عشر تقريباً ، وقد رأينا أن بريطانيا وقفت في وجه محمد علي عندما هدد الدولة العثمانية ، لأن هذا صحبة بالتالي تهديد روسيا لمصالح بريطانيا ورغبتها في السيطرة على المضائق وعلى القسطنطينية . (٦١)

ومرة أخرى في سنة ١٨٧٦ عندما أوشكت الدولة العثمانية على الانهيار

أمام الروس ، ذهبت بريطانيا إلى حد التفكير في الدخول في حرب ضدهم إذا لم يترجعوا عن القسطنطينية مثلما فعلت سنة ١٨٥٦م في حرب القرم وعندما تم الصلح وعقد صلح سان استفانو ، صمم البريطانيون على ضرورة مراجعة موضوع الصلح لأنه كان يعطى روسيا مواقع ، رأت بريطانيا أنها تهدد مصالحها ومواصلاتها في الشرق ، وعقد لهذا الغرض مؤتمر برلين ، وحصلت فيه بريطانيا من الدولة العثمانية على حق إدارة جزيرة قبرص (٦٢) .

وأصبح السبب يرى أنه من الضروري إعاقة أى اتفاق يردى بالدولة العثمانية إلى التبعية وذلك بتقديم المساعدات الضرورية حتى لا يؤدي ذلك إلى تهديد المضائق ، أو يضر بالمصالح البريطانية في الأماكن التي تظللها السيادة العثمانية . وأنه وإي كان من الصعب أن تقف هذه الدولة على قدميها كقوة يعتمد عليها فلذا رأى :

٦ - دفع السلاف إلى البلقان ، ووضع الامارة الاغريقية تحت سيادة السلطان .

٢ - ضمان حرية المرور في المضائق .

٣ - أن تحصل بريطانيا بجانب قبرص على ليمنوس مع احتلال مكان آخر مثل الاسكندرونة كضمان للحماية . (٦٣) .

وكان يقول أن الدولة العثمانية تمتد إلى مناطق جغرافية هي مناط اهتمام بريطانيا في الظروف الراهنة ، وكان يقول (أن السيادة الشرعية لتلك الحكومة تمتد إلى مناطق جغرافية يجب - تحت كل الظروف - أن تكون مثار الاهتمام العميق لبريطانيا العظمى ، فسيادتها معترف بها في الخليج الفارسي ، وعلى شواطئ الشرق وفي المناطق المحيطة لقناة السويس) ، ولذا فيجب دفعها إلى اصلاح أحوالها تحت حكم آل عثمان ، وإزالة كل أسباب الشكوى حتى تحافظ على امبراطوريتها حتى يحين الوقت الذي تصبح فيه قادرة على السير ، ولا يتم هذا إلا بالمساواة بين الرعايا من كل الأجناس والأديان ليصبحوا وطنيين مخلصين للدولة ومستعدين للدفاع عنها ، ورعايا مخلصين للسلطان (٦٤) .

ثم أننا نراه في هذه الرسالة لا يذكر المناطق الأفريقية مثل تونس وطرابلس ومصر على أنها أجزاء من الإمبراطورية العثمانية ، ويتكلم عن الأجزاء الآسيوية والأوربية مع أن هذه كانت تخضع للسلطان وخاصة طرابلس التي استعاد فيها نفوذه المباشر بحملة سنة ١٨٣٥م وتونس التي كانت بريطانيا ترى أنها جزء من هذه الإمبراطورية (٦٥) .

وكان دزرائلي بعد عودته من برلين قد أطلع الملكة على فكرته في اقامة تحالف وعصبة الأمم في البحر المتوسط ، وأخذت هذه الفكرة طور النمو عندما قامت المحادثات بين سير أغسطس باجت سفير بريطانيا في روما ودبريتيس Depretis رئيس الوزراء الإيطالية ، وكانت فكرة دزرائلي هي العمل على تكوين تحالف من دول البحر المتوسط بدءا بإيطاليا واليونان ، ثم بعد ذلك العمل على ضم النمسا وفرنسا ، ويمكن اعطاء إيطاليا ألبانيا ، وفرنسا تونس (٦٦) . ولكن لورد ليونز كان يعارض هذه الفكرة على أساس خبرته بالفرنسيين ، ويرى أن ما هو مهم للمصالح السياسية البريطانية في البحر المتوسط تضره مشاركة كل أو أغلب القوى (٦٧) ، وشاركه في الرأي لورد تندرل ولورد دربي ، ولما عرض الأمر على الكونت كورتني وزير خارجية إيطاليا رفض خوفاً من أن يجر ذلك إيطاليا إلى حرب ، وجريا وراء سياسة إيطاليا في الحياد في أوربا (٦٨) ولذا فقد حرص لورد دزرائلي (بيكونز فيلد) على البحث عن جبل طارق جديد في الشرق الأدنى .

وبعد حصول بريطانيا على قبرص سنة ١٨٧٨م بدأت تغير نظرتها إلى تونس ، فلم تعد تنظر إليها بنفس المنظار الذي نظرت به إليها في العقود السبعة من القرن ١٩ ، لأنها رأت أن جبل طارق ومالطة وقبرص ، وأسطول قوى في البحر المتوسط كاف للحفاظ على مصالحها ومواصلاتها ، وهي كذلك فكرت في ذلك الوقت في مصر وقناة السويس فلم تعد تخشى من وجود فرنسا في تونس ، ولكنها لم تكن ترضى بوجود إيطاليا فيها (٦٩) ، ذلك أن بريطانيا وجدت غضباً فرنسيا لحصول بريطانيا على قبرص ،

فأرادت أن تعوضها بعرض تونس عليها ، ثم لأنها كانت تود أن تتعاون معها فرنسا في مصر ، ولأنها أيضاً وجدت أن تونس بموقعها الجغرافي أقل خطورة على مصالح بريطانيا آنذاك من التضحية بمراكش أو بمصر ، ولأنها كذلك كانت تنشئ الصداقة الفرنسية نظراً للموقف الدولي . إذ في بداية العقد التاسع من القرن ١٩ كانت قد بدأت تظهر قوى بحرية ذات شأن منها فرنسا ثم ألمانيا ثم إيطاليا والنمسا وروسيا ، وكل من هذه الدول انشأت أسطولا حديثاً (٧٠) ، فأصبحت الولايات الإسلامية الضعيفة ليست بذات شأن كبير في الاستراتيجية الدفاعية البريطانية ، بل لقد وجدت من ينادى في ذلك الوقت بالتخلي عن سياسة الدفاع عن الامبراطورية العثمانية لأن هؤلاء رأوا أن بريطانيا لن تستطيع حماية بقائها ، فقد كانت حكومة الأحرار برئاسة جلادستون في أواخر العقد الثامن ترى نفسها مضطرة للتسليم بتونس لفرنسا بسبب الوعد الذي أعطاه سالسبري لودا نجتون في برلين سنة ١٨٧٨م ولأن رجال البحرية البريطانية غيروا من نظرهم إلى تونس وبنزرت ، فقد رأى لورد نورثبروك Northbrook أن بنزرت ووقوعها في يد فرنسا لا يعرض مالطة للخطر ، ولا يفقدها قيمتها كما يقول البعض (١٧١) ولذا فقد أثر جلادستون ألا يخاطر بالعلاقات البريطانية الفرنسية الطيبة .

وفي ذلك الوقت كان الأحرار قد نظروا إلى أن التضامن الأوروبي يمكن أن يحمي ويسوى الأهداف ويقضي على الأنانية ، ووجدوا أن حماية الطريق إلى الهند هو في الحفاظ على الحالة الراهنة في البحر المتوسط ، وليس الضرورة اتباع السبيل الذي اتخذته حكومة دزرائيلي في الحفاظ على الامبراطورية العثمانية في آسيا ، بل فكروا في إعادة قبرص إلى تركيا (٧٢) ، وكذلك كان الاعتماد على القوة البحرية ، ولذا نظرت هذه الحكومة إلى أن اقتسام مناطق النفوذ سيكون حينذاك سهلاً ، فقد كانت بريطانيا تروم مصر ، وترى أن فرنسا تعارض في الوقت الذي كانت فيه النمسا تريد البوسنة وإيطاليا تريد ألبانيا ، وفرنسا تريد تونس ، وهكذا بالتفاهم يمكن حل المشاكل عن طريق

تعويض كل دولة بما تريد عناما يحين الوقت لمناقشة أمر مصر (٧٢) ومع كل فقد كان ليونز يرى أن هذا التحالف وهذا التفاهم غير ممكن .

ولما ذهب فرنسا إلى تونس سنة ١٨٨١ م ، وبدأت إيطاليا تخشى من وجود فرنسا في تونس بعد ذلها منها ، وتخشى منها كذلك على طرابلس التي بدأت تفكر فيها بعد ضياع تونس ، دخلت معها بريطانيا وفرنسا في حلف البحر المتوسط من أجل الحفاظ على الحالة الراهنة فيه Status Quo وفي البحر الأسود كذلك ، فقد أصبح التحدي الحقيقي لبريطانيا في الثمانينات هو حرب في البحر المتوسط ، وكانت القوة الفرنسية فيه كبيرة : ودخول بريطانيا في حرب مع فرنسا ، ناهيك عن تحالف روسيا معها في أواخر العقد التاسع ، كان يعني سحب عدد لا يقل عن تسع أو عشر سفن من بحر الشمال ، مما يترك القنال الإنجليزي بلا قوة دفاعية كافية (٧٤) ، ولذا فعندما فرضت فرنسا حمايتها على تونس ، وبدأت تجهر بنزرت كميناء حربي : وأخذت إيطاليا تلح على بريطانيا أن تتخذ موقفاً حاسماً ، وأن تنظر إلى الموضوع نظرة اهتمام أكثر ، وجدنا سالسبري يسوف ، ويعد دون أن يتخذ موقفاً وتصرفاً حاسماً يرضى حليفتها ، بل لقد نظر إلى الحلف الثلاث كعيب ، وأنه ما دخل فيه إلا لأنه أراد له لموضوعات ومواقف كان يراها أكثر أهمية من تونس وتصرفات فرنسا فيها وموقف إيطاليا منها ، ثم أنه نظر إلى الألمان والنمساويين كحلفاء أكثر نفعاً في تعامله مع الدولة العثمانية ، ومع روسيا وفي تصرفاته في مصر وفي تعامله مع الفرنسيين .

ومنذ ذلك الوقت بدأ البريطانيون يعملون ليكون الأسطول البريطاني في البحر المتوسط كقوة لقوتين ، وكان الصراع حول مدغشقر وحول زنبار وحول وادي النيل كافياً لكي ترى فرنسا أنها أحق بأن تتنازل لها بريطانيا عن تصرفاتها في تونس ، وأن تعترف بوضعيتها في مدغشقر في مقابل اعترافها هي بالحماية البريطانية في زنبار ووادي النيل ، أي أن تونس في ذلك الوقت كانت ورقة تلعب بها بريطانيا وتساوم بها فرنسا في

مقابل أوضاع ومصالح بريطانيا رأتها أكثر أهمية ، وبالمثل ورقة في يد فرنسا تساوم بها بريطانيا لتعترف بوضعيتها في يد فرنسا في مقابل اعترافها هي بهذه المصالح البريطانية .

والغريب أن هيئة الاستطلاعات الحربية البريطانية قدمت مذكرة في سنة ١٨٨٨م تقول أن بنزرت (أفضل بقعة استراتيجية في البحر المتوسط) ثم عادت لتقول بعد سنتين تقريبا في يناير سنة ١٨٩١م أن بنزرت هي عبء على البحرية الفرنسية ، وأن إنشاء قاعدة بحرية فيها لا يهدد ولا يغير ميزان القوى في البحر المتوسط ، وأن إنشاء هذه القاعدة سيضيع وقت الفرنسيين ، وسيضيع ما لهم وجهدهم ، ولعل هذا هو مادعا سالسبرى ينصرف عن مساندة حلفائه الايطاليين عندما احتجوا على الفرنسيين وثاروا ضد تصرفاتهم في تونس وطرابلس . (٧٥) .

ثم سرعان ما جاءت التقارير تقول أن الأسطول البريطاني في البحر المتوسط في حاجة إلى تدعيم ، فقد أصبح لا يفي بالحاجة الدفاعية بعد أن حالفت روسيا مع فرنسا ، وبعد أن خرج الأسطول الروسى الحديث من البحر الأسود إلى البحر المتوسط (٧٦) وقيل أن فرنسا تزمع منح روسيا قاعدة في بنزرت ، فأصبحت القوة البحرية البريطانية لا تستطيع الدفاع عن القسطنطينية والسلطان قد حصن الدردنيل ولم يحصن البسفور ، ولذا فقد تمكن الاسطول الروسى من الخروج إلى البحر المتوسط وتهذت قوة بريطانيا فيه (٧٧) .

ووجد روزبرى أنه لا بد من معاونة الحلف الثلاثي وخاصة بعد الموقف غير المتعاون من ألمانيا ، وذلك في حالة تحالف روسيا مع فرنسا ، وكان الحل هو ضرورة تدعيم هذه القوة البحرية (٧٨) . فقد رأى البريطانيون أن في هذا التقارب الفرنسي الروسى عملا متوقعا ضد بريطانيا في البحر المتوسط ، فشعروا بضرورة تدعيم قواتهم البحرية (٧٩) ، فقد كان هذا الأسطول تعوزه المدافع الكبيرة ، والسفن الجيدة ، وكان رجاله في حاجة إلى مزيد من التدعيم والتدريب (٨٠) ، وكذلك كان الجيش نفسه في حاجة إلى تدعيم

وتقوية وإلى رجال جدد (٨١) ، وقد نوقشت مسألة الجيش والأسطول ،
وتدعيمهما في البرلمان البريطاني ، ولكن مجلس الوزراء انقسم على نفسه
حول هذا الموضوع فعلى حين أيد لورد روزبري ذلك ووقف معه وزير
البحرية إرل سبنسر لم يقتنع بذلك جلادستون ووليم هاركورت وزير الخزانة
وأعلن جلادستون أن الأسطول البريطاني كفاء للقيام بما يناط به في البحر
المتوسط ، ولضمان السيادة البريطانية (٨٢) ثم عندما اخذت الشائعات تردد
أن فرنسا ستعطى روسيا قاعدة بحرية في بنزرت ، وأن الأسطول الروسي في
البحر الأسود سيمر إلى البحر المتوسط ، وأن الروس سيركزون أنفسهم في
إحدى الجزر قرب Mount Athos (٨٣) بدأوا يشعرون بضرورة تدعيم هذه
القوات البحرية (٨٤) . وأدى ذلك إلى تحلف بريطانيا عن نصره إيطاليا ،
كما تود في صراعها مع فرنسا في مسألة الحدود التونسية الطرابلسية بعد أن
رأت فرنسا أنه من الضروري لها ضم المنطقة حول غدامس وغات للسيطرة
على طريق القوافل مع تشاد (٨٥) ، وكل هذا لم يذهب ببريطانيا إلى حد
التخلي عن حقوق رعاياها وحقوقها التي كفلتها لها معاهدة يوليو سنة ١٨٧٥ م
مع تونس (٨٦) .

ثم تغيرت السياسة البريطانية تجاه الدولة العثمانية ، فعندما جاء سالبيري
إلى الحكم مرة ثانية ، وجد أن روسيا تستطيع الاستيلاء على القسطنطينية ،
وأنه من الضروري تغيير سياسته نحو العثمانيين ، فبدأ يتخلى عن مبدأ توجيه
السياسة البريطانية نحو تدعيم الامبراطورية العثمانية والحفاظ عليها إلى ضرورة
الاحتفاظ بمصر والسيطرة على وادي النيل بل ومحاولة التفاهم مع الروس .

ثم برهنت الأحداث على أن فرنسا في عنفوان قوتها لم تستطع نقل ١٥
ألف جندي إلى مدغشقر (٨٧) ، وهنا فكر البريطانيون في الوصول إلى تفاهم
مع فرنسا حول تونس وغيرها مثل سيام والنيجر .
ولم يكن سالبيري أيضاً يريد للتحالف الثلاثي أن ينفطر عقده ، مع

أنه لم يكن يستطيع أن يقدم للنمسا ماتريد من حماية المضائق ، ولم يكن مستعداً لتقديم ماتطلبه ايطاليا في تونس وضد سياسة فرنسا فيها وفي الحدود الطرابلسية حتى أصبح أمر خروج ايطاليا من حلف البحر المتوسط أمراً محتملاً في سنة ١٨٩٦م ، ولكن بعد معركة عدوة وهزيمة ايطاليا أمام الأحباش صار احتمال التفاهم الانجلوا ايطالى كبيراً ، فقد كان كذلك تدعيم الموقف البريطانى في حملة دنقلة أمراً مطلوباً ، وقد كسبت بريطانيا بهذه الحملة مركزاً استراتيجياً واضحاً . (٨٨) .

ومع هذا فان تقارير وزارة الحربية ، والادميرالية جاءت لتقول أن بريطانيا في مركز لا تستطيع فيه مواجهة كل الاحتمالات ، فهناك حليف أفقدته الهزيمة في عدوة روجه ، وهناك ألمانيا التى أخذت تبعد عن بريطانيا وهناك النمسا التى أخذت علاقتها مع بريطانيا تفتّر ، وهناك الخلافات مع الولايات المتحدة ، وهناك ثورة في جنوب أفريقيا ، وحملة فرنسية معادية على النيل قادمة من الكونغو ، وهناك تحالف فرنسى روسى ، وفي حالة الحرب كان أمر تدعيم جبل طارق ومالطة أمراً لا يمكن الاعتماد عليه بشكل جدى ، ولذا فقد أصبح أمر التمسك بمصر والحفاظ على الحالة الراهنة في مراكش أمر ضرورى ، وصار أمر الحفاظ على الحلف الثلاثى في البحر المتوسط ، أمراً لا مناص منه ، وأصبح أمر تجنب الحرب مع فرنسا وحليفها الروسياً أمراً ضرورياً أيضاً . (٨٩) .

ومع ذلك فان سالسبرى وبنثقة ، وكان يرى أنه يمكنه التعامل مع فرنسا وروسيا في البحر المتوسط (٩٠) ، وهو مع ذلك كان لا يريد الاصطدام بالروس ولا بحلفائها ، ولذلك فقد قدم تنازلات واضحة وتصرف تصرفات ودية مع فرنسا في مفاوضاتها معها ، وذلك على أسس سياسية عامة (٩١) ، وأصبح في سنة ١٨٩٧م قلقاً يريد تسوية كل الخلافات حول هذا الموضوع وظهر أثر ذلك عندما أخذت المفاوضات البريطانية الفرنسية حول تونس

تتخذ موقفاً وخطاً صلباً ، فالأسس العامة للسياسة البريطانية لم تخضع تماماً لما ارتأته وزارة الحربية والبحرية ، وقد تشدد وزير المستعمرات تشمبرلين (٩٢) ووزير الخزانة كيرزون وجعلوا سالسبرى (٩٣) نفسه كرئيس للوزراء ووزير للخارجية يتخذ هذا الموقف المتشدد (٩٤) ، وكان الحظ في ذلك الوقت في جانب بريطانيا لأن روسيا اتجهت بأنظارها بعيداً عن المضائق إلى الشرق الأقصى .

وكانت البحرية البريطانية تحبذ تركيز قوات بحرية في مالطة لأسطول البحر المتوسط تدعمها قوات من بحر الشمال متمركرة في جبل طارق (٩٥) ، ولكن رئيس هيئة الاستطلاعات الحربية كان يخشى من توغل برى فرنسى من تونس إلى مصر ، مع أن الأحداث وضيق الأهالى في تونس بفرنسا وحكمها برهنت على أن هذا كان غير ممكن ، ولم تبرهن بنزرت على أنها كما قال هانوتو (تمسك البحر المتوسط من خناقة) ، وأن كان الايطاليون حلفاء لندن قد ظلوا يخشون التوغل الفرنسى من تونس إلى طرابلس ، فان سالسبرى لم يعر ذلك الخوف الاهتمام الكافى .

ومع نهاية القرن التاسع عشر ، كانت بريطانيا قد دعمت قواتها في البحر المتوسط وطرحت فكرة الحفاظ على كيان الامبراطورية العثمانية . ولم تكن تهتم جيداً بتدعيم ايطاليا أثر تخوفها من سياسة فرنسا في تونس وطرابلس ، وحافظت على الحالة الراهنة في مراكش ، وبدت مستعدة لركوب كل المخاطر من أجل تدعيم مركزها في حوض النيل (٩٦) ، فقد كان اهتمام الروس بمد خطوط السكة الحديد عبر سيبيريا ، واهتمامهم بالشرق الأقصى عاملاً جعل بريطانيا تهتم بطريق قناة السويس حتى تحمى الهند (٩٧) .

وظلت البحرية البريطانية ترى أن ماتم بالنسبة لتدعيم الأسطول غير كاف وحبدت عملية تركيز القوة البحرية البريطانية بأقصى درجات الاستعداد والقوة في المياه الاقليمية ، وفي البحر المتوسط ، ومن أجل هذا حدث تحالف مع الأمريكيين ، ومع اليابانيين لدعم دفاعات بريطانيا في الشرق

الأقصى ، ولمنع اليابان من التحالف مع الروس .

ظل التحالف الإيطالي مع بريطانيا دعما لقوة بريطانيا في البحر المتوسط في منطقة جديدة بالنسبة لمصالحها ، وفي نفس الوقت تبين أن استعدادات الألمان إنما هي للعمل في بحر الشمال وضد بريطانيا ، وأدى هذا الموقف بكل محاذيره إلى التقارب الأنجلو فرنسي ، ثم انتهى إلى أن يعقد لاندزدون Landsdowns الاتفاق الودي مع فرنسا عام ١٩٠٤م ، وفيه تركت بريطانيا لفرنسا الحرية في شمال أفريقيا بما فيه مراکش ، في مقابل أن تترك فرنسا الحرية لبريطانيا في مصر . (٩٨) .

- 1) E.A. Benians; The Cambridge history of the British Empire. Vol. ii. The growth of the new Empire. 1983. Cambridge 1940. P. 567.
- 2) The Cambridge Modern History. Vol. IX. Cambridge. 1907 P. 751.
- 3) The Cambridge history of the British Empire. Vol. ii. P. 568.
- 4) Ibid. P. 568.
- 5) A.W. Wood and G.P. Gooch; Cambridge history of British foreign policy. 1783—1919. Cambridge. 1923. Vol. ii. PP. 7—35.
- 6) Frank E. Bailey; The Economics of British Foreign policy. 1825—1850. (J.M.H. Vol. xii. No. 4. 1940. PP. 449—451).
- 7) Halford Lancaster Hoskins; British Routes to India (Longmans. Green & Co.) Lond. 1928 PP. 108—112 and P. 231.
- 8) The Cambridge history of the British Empire. Vol. ii. PP. 570—571.
- 9) Ibid. P. P. 570—571.
- 10) The Cambridge history of British foreign policy. Vol. ii. P. 182.
- 11) Hoskins; Op. Cit. P. 268.
- 12) The Cambridge history of British foreign policy. Vol. ii. P. 263.
- 13) David Urkhart; Turkey and its resources, its municipal organization and free trade ... Lond. 1833 & David Ross; Opinions of the European Press, on the Eastern Question. Lond. 1836.
- 14) F.O. 78/220. Palmerston to Ponsonby. 6th Dec. 1833. & Hansard's. Parliamentary Debates. 3rd. Series Vol. 22, 1833. PP. 307—349.
- 15) Bailey; Op. Cit. PP. 451—455.
- 16) Francois Charles Rous; Autour d'une Route; L'Angleterre, l'Isthme de Suez et l'Egypte au XVIII^e siècle. (Plon-Nourrit et Cie) Paris. 1922. PP. 201—219.

- 17) Hansard 3rd Series. Vol. 24. P. 142.
- 18) Charles-Rous; Op. Cit. PP. 207—219.
- 19) Hansard. 3rd Series. Vol. 147. PP. 652-662. & 676—683.
- 20) D.C.M. Platt; Finance, Trade, and Politics in British Foreign Policy. 1815—1914. (Clarendon Press).
Oxford. 1968. P. 249.
- 21) Baily; Op. Cit.; PP. 455—478.
- 22) F.O. 78/220. Palmerston to Ponsonby . No. 22. 6th Dec. 1833.
- 23) F.O. 78/240. From Ponsonby No. 187. 25th Nov. 1834.
- 24) Baily; Op. Cit. PP. 482—483.
- 25) F.O. 78/330 Ponsonby to Mezani. 17th April. 1838.
- 26) Philip Mosely; Russian diplomacy and the opening of the Eastern Question in 1838 and 1939 (Russel and Russel) New York. 1969.
P. 99.
- وكان محمد علي ذكيا ، فقد وافق في ١٦ أغسطس سنة ١٨٣٨ على تنفيذ هذه السياسة وعدل عن بعض نظمه التجارية وأعلن أن هذا ليس من باب الخضوع للسلطان وظل سيد الصناعة والتجارة في مصر . فخاب ظن بريطانيا (موصلى ص ١٠١) .
- 27) P.R.O. 30/29/18 A. Granville to Russel 12th Jan. 1852. (Granville private papers in the Public Record Office).
- 28) Ibid. 30/29/11 A. Russel Memorandum. 19th June 1853 & Palmerston Memorandum 20th June 1893.
- 29) Kenneth Bourne; The foreign policy of Victorian England. 1830—1902. (Clarendon Press). Oxford. 1970. PP. 313—316.
- 30) Ronald Robinson & John Gallagher & Alice Denny; Africa and the Victorians. (Macmillan and Co. LTD.) Lond. 1961.
PP. 76—77.
- 31) Lady Francis Balfour; The Life of George Fourth, Earle of Lord Aberdeen. In Two Vols. (Hodder and Stoughton LTD) Lond.
P. 252.

- 32) Ibid. PP. 249—250.
- 33) Francis Rosebro Flourney; British Policy towards Morrocco. In
The age of Palmerston. 1830—1865. Lond. 1935. PP. 54—55.
(P. Sking & Son. LTD).
- 34) Robinson (Roland) & John Gallagher and Alic Denny; and Africa
and the Victorians. (Macmillan and Co. Press) Lond. 1961. PP.
76—77.
- 35) F.O. 27/578. Palmerston to Granville No. 413. Dec. 10, 1839,
- 36) Rosebro; Op. Cit. PP. Rosebro; Op. Cit. PP. 57—58.
- 37) F.O. 27/578. Palmerston to Granville No. 413. Dec. 10, 1839.
- 38) Rosebro; op. Cit. PP. 59—60.
- 39) F.O. 27/626. Bulwer to Palmerston. Confidential and Secret. July
30, 1841.
- 40) Leonard Sideny Woorf; Empire and Commerce in Africa. London.
1919.P. 81—82.
- 41) A.J.P. Taylor; the Struggle for mastery in Europe. The Oxford history
of Modern Europe. PP. 59—66. and 228—285. Oxford 1957—
2nd Edit.
- 42) Ibid. P. 228.
- 43) Dwight E. Lee; Great Britain and the Cyprus Convention policy of
1878. (Cambridge. Harvard Univrsity Press. 1934). P. 5. Margin.
- 44) Ibid. PP. 4—12.
- 45) The Times. Nov. 26 & Dec. 7, 1875.
- 46) Dwight C. Lee; Op. Cit. P. 8.
- 47) Lord Newton; Lord Lyon s. Arcord of British diplomacy. 2 Vols.
(Edward Arnold) Lond. 1913. Vol. ii. PP. 87 — 90.

- 48) Ibid, PP, 96—97 & William Langer; The diplomacy of Imperialism 1890 — 1902. London 1935. Vol. 1. PP. 75—81.
- 49) Hansard. 3rd Series Vol. 228. PP. 500—501.
- 50) Newton; Op. Cit. PP. 104—105.
- 51) Lee; Op. Cit. P. 27.
- 52) Ibid; P. 11.
- 53) Arthur Marder; British Naval Policy in 1878 (J.M.H.) Vol. 12. No. PP. 367 — 369.
- 54) Dwight E. Lee; A memorandum Concerning Cyprus. 1878. (J.M. H. Vol. iii. No. 2 June 1931) PP. 235 — 241.
- 55) Carl Brown; The Tunisia of Ahmed Bey 1837 — 1855. (Princeton University Press. 1974) PP. 19 — 21.
- 56) Jean Ganiage; Les Origines du Protectorat Français en Tunisie. 1861 — 1881. (Presses Universitaires de France). Paris 1959. P. 37.
- 57) Robin Hallet; Africa to 1875 — (Hein mann) London 1880. P. 391.
- 58) Woolf; Op. Cit. P. 104.
- 59) Eugene Staley; War and the Private investor. A. Study in the relations of international politics and international investment. (A University of Chicago Book. Dundleday Poran Inc. New York ? PP. 327 — 352.
- 60) Edmond Fitzmaurice; The life of Granville George Leveson Gower, Second Earle Granville. 2nd Edition. 2 Vol.s Lond. 1905. Vol. 2.P. 234.
- 61) Jean Darcey; Cent année de rivalité coloniale. L'Afrique; Paris 1904. PP. 197— 205.
- 62) Salisbury to Disraeli. Private March 21, 1878. Lady Gwendolen Cecil; Life of Robert Marquis of Salisbury. 4 Vols. (Hadder and Stroughton LTD). Lind. 1921. Vol. ii. PP. 213 — 214.
- 63) Parliamentry Papers. From Salibury. 1st April. 1878. PP.765— 772. Vol. 81.

- 64) Salisbury to Henry Layard. May 9, 1878 & Temperley and Penson; Foundations of British foreign policy from Pitt (1792) to Salisbury (1902) or Documents old and new. Lond. 1938. PP. 384 — 385.
- 65) Lee; Great Britain and the Cyprus Convention policy. PP, 40—42.
- 66) Ibid; P. 42.
- 67) Stephen Gwynn M.P. and Gertrude M. Tuckwell; The life of the Rt. Hon. Sir Charles Dilke. 2 Vols. (John Murray....) Lond. 1918. P. 249.
- 68) F.O. 363/1. To Tenterden July 2, 1878.
- 69) Arthur J. Marder; The anatomy of British sea power. A history of British naval policy in the pre-Dead-nought Era. 1880—1905. (Octagon Books) New York 1976 — P. 120.
- 70) W.N. Melicott; Bismark, Gladstone and the Concert of Europe. (University of London. The Antelope Press) Lond. 1956. P. 910.
- 71) Callagher; Op. Cit. P. 93.
- 72) Melicott; Op. Cit. P. 310.
- 73) Marder; The anatomy of Sea-power. PP. 129 — 131. & P.146.
- 74) Ibid; Chapter 9 P. 145 and Squ.
- 75) Ibid; PP. 146 — 153
- 76) P.R.O. 30/40/14. John Ardagh memorandum No. 5. Secret. Oct. 1896.
- 77) Arthur Marsden; British diplomacy and Tunis, 1875 — 1902. A case study in Mediterranean Policy (Scotch Academic Press). London. 1971. PP. 216 — 217.
- 78) Salisbury to Ponsonby May 4, 1888 : George Earle Buckle; The letters of Q-Victoria. 3rd Serie. Vol. 1. 1886—1890. (John Murray) Lond. 1930. PP. 409 — 410.
- 79) Ibid. Salisbury to the Queen. F.O. May 8, 1888 P. 410.

- 80) Ibid. Ponsonby to the Queen. May, 10 & 13. 1888. PP. 410—11.
- 81) Hansard 4th Series Vol. 18. PP, 349. & 1151.
- 82) William L. Langer; Franco Russian Alliance (Octagon Books) New York 1977. PP. 360 — 362.
- 83) Queen Victoria to Salisbury. Very Confidential. June 8, 1888 PP. 413 — 414. & Salisbury to the Queen June 12 1888 F.O.PP. 414—415. (Lettrs ofQ-Victoria Vol. 1).
- 84) Arthur Marsden; Britain and the Tunis Rase 1894—1899.(E.H.R.) Vol. Lxxix. No. 1. January 1964. PP. 68 — 70.
- 85) J.L. Garvin; The life of Joseph Chamberlain Empire and World policy. Vol. 3. 1895—1900. (Macmillan and Co. LTD).Lonb—1934 PP. 231 — 232.
- 86) Arthur Marsden; Britain and The End of the Tunis Treaties 1894 —1897. (E.H.R.) Supplement. P. 12.
- 87) F.O. 45/747. Salisbury to Clairford, No. 65. Conf. May 20, 1896.
- 88) Marder The anatomy of sea power. PP. 268 — 273 & PP. 569—580.
- 89) Marsden; British diplomacy and Tunis. P. 220.
- 90) Marsden, Britain and the End of the Tunis Treaties. P. 58.
- ٩١ — جوزيف تشمبرلين (١٨٣٦ — ١٩١٤م) كان ابنا لصانع أحذية تعلم في جامعة لندن وعمل في مجال التعليم حتى سنة ١٩٧٥م — تولى رئاسة هيئة التجارة ٨٠ — ١٨٨٥م — ثم رئيسا لإدارة الحكومة المحلية ١٨٨٦ — قاد تضامن الأحرار في مجلس العموم ١٨٩٢ . وأصبح وزيراً للمستعمرات من ٩٥ — ١٩٠٣م ص ٤٨ .
- Richard Shannon, The Crisis of Imperialism 1865 — 1915. Paladin) London,

٩٢ — روبرت آرثر جاسكوين سيسل . ثالث مركز أوف سالسبري (١٨٣٠ — ١٩٠٣) تعلم في تشرش ايتون وكوست . جامعة اكسفورد . التحق بحزب المحافظين (٥٣ — ١٨٦٨م) عمل في الصحافة . أصبح فيكونت

كرانبورن في سنة ١٨٦٥ م .. نال لقب مركيز في سنة ١٨٦٨ م أصبح
سكرتيراً لحكومة الهند ٦٦ - ٦٧ ثم مرة ثانية في ٧٤-١٨٧٨ م . أصبح
وزيراً للخارجية في ٧٨-١٨٨٠ م - عين رئيساً للوزراء ثلاث مرات في
٨٥ - ١٨٨٦ م وفي ١٨٨٦ - ١٨٩٢ م وفي ١٨٩٥ - ١٩٠٢ م .. وفي نفس
الوقت شغل منصب وزير الخارجية ماعدا بضعة شهور سنة ١٨٨٦ م ، ومن
١٩٠٠ - ١٩٠٢ م .. كان خالاً لآرثر بلفور .. كان يمتاز بالحنو وأحب
العلوم الرياضية (اقترن اسمه بقضية تونس كثيراً) .. (ص ٤٨٩ .. ج Ibid.)

(93) Marsden; Britain and the End of the Tunis Treaties. P. 70.

(94) Marder; The Anatomy PP. 321 — 328.

(95) Marsden; British diplomacy and Tunis. PP. 221 — 222.

(96) Granville; Lord Salisbury and Foreign Policy. PP. 294—296.

(9) G.P. Gooch and Harold Temperly; British documents on the
Origins of the war. Lond. 1926 Vol. ii.

„The Anglo-French Treaties of April 8. 1904— PP. 285—
407.”.

مراجع الدراسة

أولاً : وثائق غير منشورة

موجودة في

The Public Record Office.

(P.R.O.)

١ - المراسلات مع تركيا

F.O. 78.

٢ - المراسلات مع فرنسا

F.O. 27.

٣ - المراسلات مع إيطاليا

F.O. 45.

٤ - أوراق لورد جرانفيل الخاصة

P.R.O. 30/29.

٥ - أوراق لودر تنسترون الخاصة

F.O. 363.

٦ - أوراق لورد ارداغ الخاصة

P.R.O. 30/40.

ثانياً : وثائق منشورة

- 1) Parliamentary papers.
- 2) Hansard's parliamentary Debates. (Hansard).
- 3) Lord Newton; Lord Lyons. A Record of British diplomacy. 2 Vols. Lond. 1913.
- 4) Temperley and Penson; Foundations of British Foreign Policy from Pitt (1772). to Salisbury (1902) or Documents old and new Lond. 1938.
- 5) George Earle Buckle : The letters of Queen Victoria 3rd Serie. Vol. 1. 1886 — 1890.
- 6) Gooch and Harold Temperley, British Documents on the origins of the War. Lond. 1926. Vol. ii.

ثالثاً : تراجم وسير

- (1) Balfour (Lady Francis); The life of George Fourth Earle of Lord Aberdeen. 2 Vols. (Hodder and Stroughton LTD.) Lond. 1923.
- 2) Cecil (Lady Gwendohlen); Life of Robert Marquis of Salisbury. 4 Vols. (Hodder and Stroughton LTD) Lond. 1921. Vol. ii.
- 3) Fitz maurice (Ddmond.); The life of Granville George Gower, Second, Earle Granville. 2nd Edit. 2 Vols. Lond. 1905.
- 4) Garvin (J.L.) The life of Joseph Chamberlain. Empire and World policy. Vol. 3. 1895—1900. Lond. 1934.
- 5) Gwenn (Stephen) & Gertrude Tukwell; The life of Rt. Hon. Sir. Charles Dilke. 2 Vols. (John Murray) Lond. 1918.

رابعاً : مقالات

- 1) Bailey (Frank E.); The Economics of Foreign Policy 1825—1850. 1850. ((The Journal of Modern History Vol. xii. No. 4. Dec. 1940). (J.M.H.)
- 2) Lee (Dweught E.); A memorandum Concerning Cyprus. 1878. (The Journal of M. Hist. Vol. iii. No. 2 June 1931. PP. 235—241).
- 3) Lee (Dweight E.) The proposed Mediterranean League of 1878. (The Journal of M. Hist. Vol. iii. No. 2 March, 1931).
- 4) Marder (Arthur); British Naval Policy in 1878. (The Journal of M. Hist. Vol. xii).
- 5) Marsden (Arthur); A. Britain and the End of The Tunis Treaties 1894 — 1897. (The English of Historical Review. Supplement No. 1).
- 6) B. Britain and the Tunis Base 1894—1899. (The English Hist. Rev. Vol. Lxxix No. 1. 1964).
- 7) Walters (Eurof); Unpublished Documents. Lord. Salisbury's refusal to revise and renew the Mediterranean Agreements. (The Salvonic and East Europe Review Vol. 29).

خامساً : مؤلفات بلغات أوروبية

- 1) Benians (E.A.); The Cambridge history of British Empire. Vol. ii. The Growth of the New Empire. 1783 — 1876. Cambridge 1940.
- 2) Bourne (Kenneth); The foreign policy of Victorian England. 1830—1902. (Clarendon Press.) Oxford. 1970.
- 3) Brown (Carl); The Tunisia of Ahmed Bey 1837 — 1855. (Princeton) University Press. 1974).
- 4) Darcey (Jean), Cent Année de revalité coloniale. l'Afrique. Paris. 1904.
- 5) Flourney (Francis Rosebro); British Policy towards Morrococco in the age of Palmerston. 1830—1865. Lond. 1935.
- 6) Ganiage (Jean); Les origines du protectorate Francais en Tunisie 1861—1881. Paris. 1959.
- 7) Granville: Lord Salisbury and Foreign policy.
- 8) Hallet (Robin); Africa to 1875. (Heinmann) Lond. 1880.
- 9) Hoskins (Halford Lancaster). British Routes to India (Longmans Green & Co.) Lond. 1928.
- 10) Langer (William), The diplomacy of Imperialism 1890 — 1902. Lond. 1935.
- 11) Lee (Dweight E.); Great Britain and the Cyprus Convention policy of 1878 (Cambrdige Harvard University Press, 1934).
- 12) Marder (Arthur); The Anatomy of British Sea power. A history of British Naval policy in the re Dread-nought Earra. 1880 — 1905. New York. 1976.
- 13) Marsden (Arthur); British diplomacy and Tunis. 1875—1902. A case study in Mediterranean Policy. (Scotch Academic Press). Lond. 1971.
- 14) Medlicott. (W.N.); Bismark, Gladstone and the concert of Europe. (Univrsity of Lond.) 1956.

- 15) Mosely (Philip); Russian diplomacy and the opening of the Eastern Question in 1838 and 1939. Russel and Russel.) New York. 1969.
- 16) Platt (D.C.M.); Finance, Trade, and Politics in British foreign policy 1815—1914. (Carendon Press.) Oxford. 1968.
- 17) Roux (Francois Charles); Autour d'une Route L'angleterre, l'Isthme de Suez et l'Egypte au xviiié Siécle. Paris. 1922.
- 18) Staley (Eugene); War and the private Investor. A study in the relations of international poitics and international investement New York.
- 19) Shannon (Richard); The Crisis of Imperialism. 1865—1915. Lond.,
- 20) Taylor (A.J.P.) The striggle for mastery in Europe. The Oxford history of Modern Europe. Oxford. 1957.
- 21) Woolf (Leonard Sidney). Empire and Commerce in Africa. Lond. 1919.
- 22) The Cambridge of Modern history. Vol. ix. Cambridge. 1907.

ملحقات

مجموعة مختارة من الوثائق غير المنشورة

من محفوظات وزارة الخارجية البريطانية (F.O.)

F.O. 102/49

— 1 —

Translation from the Arabic.

Parise to God

To the select among the great and the Noble, whose praises are re-echoed in every land-; The Glory of the Eminent, whose virtues no words can sufficiently describe, the Minister for foreign Affairs of Great Britain Lord Clarendon, may he ever be exalted, and never cease to be guarded by Presidential care

After the salutations the most convenient to Your Lordship,

We wish indeed that our communications could find opportunities for being renewed every minute, rather than every hour, according to the rules of intimate friendships.

The Bearer is our Minister of Marine, the trusty, confidential and dearest, the select among his Equals for the nobility of his rank, our Son General Keredine whom we have permitted to visit London, considering that the accomplished cannot see enough of it; we accompany him with this letter, and have desired him to proceed to your Lordship's presence, (should you so far honor him as to allow him to do so) for the object of expressing our feelings of friendship and amity towards your Great Government, as well as the extent of our reliance and confidence in it.

That your Lordship may honor him with a hearing, is what we trust he may obtain from your Lordships friendship, and what we know from your favor.

My you live Long, and may your grandeur be everlasting, on the passage of days and nights

Written by your Lordship's Friend, the humble Servant of God, Mohammed Basha Bey of the Tunisian Kingdom, the 1st Regeb (25 February, 1857).

A true Translation

M'Santillana.

تعليق :

نلاحظ هنا أن الباي يرسل هذه السفارة في سنة ١٨٥٧م أي عقب اتفاق باريس سنة ١٨٥٦ عقب حرب القرم ينشد الصداقة البريطانية ، وكان قد قدم للسلطان العثماني - وبتشجيع من بريطانيا التي وقفت مع السلطان في حربه ضد روسيا ، وبطلب من السلطان - مساعدة عسكرية نقلت على سفن بريطانية ، في الوقت الذي لم تجذب فرنسا هذه المساعدة جريا على سياستها في الفصل بين تونس - التي تراها ولاية مستقلة لاتربطها بالدولة العثمانية أي رابطة سوى الاتفاق في الدين ، ويلاحظ كذلك أن الباي يستخدم عبارة (المملكة التونسية) معتبرا نفسه مستقلا عن الدولة العثمانية ، وكما عبر عن ذلك حين قال عن المساعدة التي قدمها للسلطان في حرب القرم أنه فعل بدافع من الشعوب الاسلامي لا بحكم أنه وال خاضع للدولة العثمانية .

— 2 —

F.O. 102/74. From Vice Adml (Admiral) Ismast

Malta 3May 1864. 12,35 P.M.

The Secretary of the Admiralty

“Three French ships of the levant and troop Under Mr. Admiral have arrived at Tunis where all is tranquil at present. Three Italian Frigates have arrived at Tunis. Pellesiers aide camp is at Tunis. It is said that French Consul General has insisted upon Bey's removing minister. On the Bey's declining he threatend to send French officer to manage Bey's affairs, and it is said that five thousand French Troops are on the frontier”.

— 3 —

F.O. 102/74 Admiralty

7 May 1864

Sir,

I am commanded by my lord Council of the Admiralty to acquaint you that a Telegram — as follows — dated Malta 6th May has been received from Vice-Consul. March Vigt.

„Consul General of Tunis has asked me if I am

prepared to authorise landing of mariners if requested
by Bey in case French or other troops are landed".

Ammot My lord's reponse, you will move Earl Russell
Esf. because (?) me to be informed what answer should be
Foreign sent to xice admiral Mast.
Officer.

I am

Sir

Your most obdeient Servant.

P.S. My lords have informed Admiral mastly Telegraph that mariners
are to be landed at Tunis without further Orders and that Captain Wode
(of the Millance) is to give every assistance in his power to the British
Residents who may desire to embark and to afford them such protective
as the means at his disposal will afford, without having been from his ship.

— 4 —

F.O. 102/90

Tunis

No. 10

January 29. 1871.

My Lord,

I have the honour to transmit herewith for your Lordship's consideration a copy of a Despatch, which, owing to the unsatisfactory state of the relations between Italy and Tunis, I have thought it prudent to address to the commander - in chief of Her Majesty's Naval Forces in the Mediterranean.

I have the honour to be, My Lord,
with the greatest respect,
Your Lordship's most obedient
humble servant.

Richard Wood

(to)

The Right Honble

The Earl Granville. K.G.

Foreign Office.

مصادر التحقيق

- ١ - الإحاطة في أخبار غرناطة ، ابن الخطيب ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، ط ، القاهرة ، ١٩٧٣
- ٢ - درة المجال في أسماء الرجال ، ابن القاضي (أبو العباس أحمد ابن محمد المكناسي ، تحقيق د . محمد الأحمدى أبو الأنوار نشر المكتبة العتيقة بتونس ، ودار التراث بالقاهرة ، ١٩٧٠ - ١٩٧٢ .
- ٣ - الكتيبة الكامنة في من لقيناه من شعراء الأندلس من شعراء المائة الثامنة ابن الخطيب ، تحقيق د . احسان عباس ، ط ، بيروت
- ٤ - لسان العرب ، ابن منظور ، دار المعارف ، القاهرة .
- ٥ - نشر فرائد الجمان في نظم فحول الزمان لابن الأخرم تحقيق الداية ، دار الثقافة ، بيروت .
- ٦ - نفخ الطيب ، المقرئ ، تحقيق د . إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٨

حرف الضاد

٣	ايضاض	المتقارب	٣٩	يشوق فؤادى زهر الرياض
٢	غارض		٤٣	قالت أتحبه على عارضه
٢	ايضاض	المتقارب	٢٧	أراعى درارى زهر الرياض

حرف الطاء

٤	تخليط	الكامل	٦١	والدوح ينسقيها الحيا سر الصبا
---	-------	--------	----	-------------------------------

حرف العين

٢	بدعا	الطويل	٣٨	غذيرى من ساجى اللواظف فائن
---	------	--------	----	----------------------------

حرف الفاء

٥	يشرف	الكامل	٥٤	الموطئين الخليل من أقرانهم
٢	يوسف	الكامل	٥٣	غرناطة مصر ألا هي أشرف

حرف الكاف

٢	مشكك	الطويل	٦	تباين فى القول قدمات لم يمت
٤	انتاك	الكامل	٦٣	يا دمع أجفانى اطرء
٣	ضحك	السريع	٥١	طير يغنى ومزاهر تبيكى

حرف اللام

٢	أوجال	الكامل	١٠	يارب أوحى للضنا بجفونه
٣	غليل	الطويل	١٧	إذا ما النوى أذكت بقلبي جرة
٢	عليل		٧	سفهنى عاذلى عليه
٢	معول	الطويل	١٢	يقولان أقصر قد أضربك البكا

٢٣	دعونا الخطيب أبا البركات	الأجل	المتقارب	٤
٣	أجاذبة بالفكر فهو منادى	بديلاً	الطويل	٢

حرف الميم

٥٧	أفدى التي لولا سقام سرى	السقام	السريع	٣
٥٦	لاحت وقد أرخت فضول الوثام	الغمام	السريع	٥
٥٨	يامن لصب خانة كتبه.	المنام	السريع	٣
٤٩	اشمس الغرب حقاً ما سمعنا	الإقامة	الوافر	٣

حرف النون

٣٤	وروضات آداب تداعو الروضة	عين	الطويل	٤
٢٢	ما رأى عين صنصر في صفاء	بعين	الخفيف	٢
٢٨	ديوان نظمك مطلبى فاسمع به	بالاحسان	الكامل	٥
١٦	عمر لحظ وكسرة في اللسان	ألساني	الخفيف	٣
٤٥	أية خابلي كم تذايل الكرى	ثمن	السريع	٥

حرف الهاء

٢٦	ما على من به سقامى وبرئى	لاه	الخفيف	٢
----	--------------------------	-----	--------	---

حرف الياء

١٩	أنا فوق عطف الملك أسعد ملبس	سمس	الكامل	٤
٦٠	عمر الحيا عطف القضيبي المنتشى	العشى	الكامل	٥
٥	قلت والشعر يشى في خده	على	الرمل	٢
١٨	يا قاضياً أصبح ذا سيرة	مسارية	السريع	٣

مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ م

والمسألة التونسية

بقلم الدكتور عبد القادر محمد حسين

أستاذ مساعد - تربية طنطا

١ - مؤتمر برلين سنة ١٩٧٨ م

تحرّكت المسألة الشرقية من جديد سنة ١٨٧٥ م بثورة أهل البوسنة والهرسك ، واهتمت بها روسيا وبريطانيا والنمسا وأصبحت المعركة الرئيسية فيها بين روسيا وبريطانيا ، والنمسا وكانت دولة عنصرية مثل الدولة العثمانية تهددها العناصر السلافية ، وقد راقبت الموقف ، وفضلت الحفاظ على الامبراطورية العثمانية ، وصممت في الوقت نفسه على الحصول على نصيبها من الغنيمة لو أن الدولة العثمانية تقلصت وقسمت بعض أملاكها أما روسيا فقد تحرّكت تريد فرض حمايتها على المسيحيين الارثوذكس وتريد اختيار بسارابيا ، ولذا دخلت في حرب مع الدولة العثمانية .

أما بريطانيا : فقد عارضت هذا الاتجاه الروسي ، فقد كانت سيادتها التقليدية - كما رأينا - تقوم على أساس الحفاظ على الامبراطورية العثمانية وحدودها ، ونتج عن هذا الاتجاه وبسبب الخوف من روسيا واتجاهها نحو الهند أما بالتوغل نحوها أو قطع طرق المواصلات البريطانية اليها - والأسطول البريطاني لم يكن في امكانه القضاء على هذا التهديد لو خرجت روسيا إلى البحر المتوسط ، وخاصة أن طريق المواصلات البريطاني الرئيسي أصبح منذ سنة ١٨٦٩ م عبر قناة السويس ومصر ، وتحت سيادة الدولة العثمانية .

وقد بدأ هذا الاتجاه ينمو في بريطانيا ، منذ الثلاثينات ، ومنذ أن رأى
دزرائيلي أن القسطنطينية هي مفتاح الهند ، وأن روسيا لو وصلت إليها
لامكنها تهديد قناة السويس ، وذلك بتسيير قواتها عبر سورية إلى النيل .
وقد قال دزرائيلي رداً على سؤال وجهه إليها لورد بارنيتون في أكتوبر
سنة ١٨٧٦ م .

„Our strength is on the sea. Constantionople is the key of India, and
not Egypt and the Suez Canal”(1)

ولكن سالسبرى ، وكان يشغل وزارة الهند ، ثم شغل سنة ١٨٧٨ م
وزارة الخارجية كان يرى أن هذه السياسة كانت سياسة قديمة . ظلت
الأجيال تحافظ عليها ، واستمرت حتى ذلك الوقت مع الزمن والظروف
قد تغيرت . (٢)

ولم يكن دزرائيلي أيضاً يهتم بالشعوب الصغيرة تجاليد في سبيل الحرية
ومع أنه كان يؤمن بسياسة الحفاظ على الامبراطورية العثمانية ، فانه غالباً
ما كان يفضل التقسيم إذا كان ممكناً ، ولغايدة الدول العظمى وبواسطتها
وليس من أجل المسيحيين الذين ادعوا بأنهم ظلموا . وفي هذه المرحلة كان
هدف دزرائيلي هو الحفاظ على مصالح بريطانيا واستقلالها ضد دول الشمال
فبريطانيا كانت لها مصالح تعادل مصالح هذه القوى .

وكان دزرائيلي قد اشترى في سنة ١٨٧٥ م نصيب مصر في أسهم قناة
السويس ، وامتلكت بريطانيا بذلك ثلاثة أخماس أسهم الشركة . وأصبحت
قناة السويس ذات أهمية كبيرة لها ، وسبباً في زيادة أهمية الهند . وخطاً
دفاعياً له أهميته لدى بريطانيا . (٣)

وحين بدأت اخبار انتصارات الروس في جبهة القوقاز . وحين سقطت
في أيديهم Plevna في ٩ ديسمبر سنة ١٨٧٥ م أنقسم البرلمان البريطاني
على نفسه حول دخول بريطانيا الحرب لمعاونة الدولة العثمانية . وقد استعجل
دزرائيلي قرار البرلمان ، ثم عارض وتردد حين عارض لورد دربي (٤)

وزير الخارجية الدخول في هذه الحرب ، ولكن الملكة أيدت في ١٥ منه موقف دزرائيل ، ثم وافق مجلس الوزراء كذلك على قرار دزرائيل ، وحينما اتصل رئيس الوزراء باورد سالسبرى للحصول على رأيه ، طلب أن يؤخذ رأى لورد دربي أولاً . ولكنه عندما وجد أن الروس قد تقدموا بشكل أصبح يشكل خطراً على ممتلكات بريطانيا وافق على قرار الدخول في حرب ، فقد كان الروس يهددون دون المضايق . (٥)

وفي يناير سنق ١٨٧٦ م حسم الأمر ، وبدأت بريطانيا تخاطر النمسا ، ثم قرر البرلمان في ٣١ يناير ارسال الأسطول البريطانى إلى الدردنيل ، وأرسل لورد هورنبى Hornby ومعه ٦ مدرعات في ١٥ فبراير إلى لمجزيرة برنكيو Prinkipo ، وهددت الاوضاع بنشوب الحرب بين بريطانيا وروسيا ، واتخذت الوزارة البريطانية قرار الدخول في الحرب إذا لزم الأمر ، وعين لورد نابيير Napier قائداً عاماً يساعد سير جانت ولزلى Garent Wolseley وتلقى هورنبى الأوامر بمنع الروس من دخول خطوط بولير Bulair ومن احتلال غاليبولى ، فأعلن جورتشيكوف في ٢١ فبراير أن الروس يتهاكون أعصابهم ظالماً فعل البريطانيون ذلك .

ثم فرض الروس على الدولة العثمانية صلح سان استيفانو (٦) ، وفيه حصلوا على جزء كبير من بلغاريا يمتد من جنوب البلقان إلى بحر ايجيه ، وغرباً حتى حدود ألبانيا ، وحصلوا في آسيا على منطقة امتدت نحو ٥٠ ميلاً في آسيا الصغرى على امتداد ساحل البحر الأسود ، ونحو مائة ميل في بعض الأماكن الأخرى ، واحتلوا باطوم واردهان وقار وبايزيد ، وأخذوا جزءاً كبيراً من طريق القوافل عبر بيرون وأرضروم - تبريز .

وبالطبع لم يرض ذلك بريطانيا والنمسا ، كما اغضب العناصر غير البلغارية وأرادت روسيا أن تأخذ رأى دول أوروبا في التعديلات التي تمت ولذلك فقد كان من الضروري عقد مؤتمر دولى لبحث هذه الموضوعات .

فأما بريطانيا ، فلم يكن يرضيها ما حصلت عليه روسيا في بلغاريا وفي آسيا الصغرى ، وبالأخص في باطوم وقار لأنها بذلك تستطيع عبر آسيا الصغرى أن تتجه جنوباً بشرق إلى الخليج الفارسي (العربي) (٧) ، وكذلك فقد دارت مفاوضات سرية بين بريطانيا والدولة العثمانية من أجل الحصول على قاعدة في البحر المتوسط تمكنها من مراقبة تحركات روسيا ، وتمكنها من مد نفوذها العسكري والسياسي في آسيا الصغرى ، وفي ٢٦ مايو سنة ١٨٧٨ م وفي مقابل تعهد بريطانيا بالدفاع عن أملاك تركيا في آسيا ، وقعت معها معاهدة أخذت فيها جزيرة قبرص من تركيا والتي استقر عليها رأى الخبراء البريطانيين كأفضل قاعدة لهم في شرق البحر المتوسط . (٨)

وقد ساعد هذا على أن يصل سالسبري مع شوفالوث إلى اتفاق مرضي يعتبر نجاحاً للسياسة البريطانية والدبلوماسية البريطانية بشكل واضح ، فقد سلم شوفالوف لبريطانيا فيما يختص ببلغاريا ، التي اتفق على أن يبقى الجزء الأكبر منها وهو الجزء الجنوبي خاضعاً للدولة العثمانية ، ويتروك أمر تفصيل هذه التبعية والحدود إلى مؤتمر يعقد لذلك ، وكذلك أمر المضائق ، وسلم البريطانيون لروسيا بباطوم وقار في مقابل تعهد الروس بعدم المطالبة بأجزاء أخرى في آسيا الصغرى ، ونجح سالسبري في اخراج الروس من بايزيد حتى لا يهددوا خط القوافل عبر طرابزون - تبريز .

كذلك أجرى اتفاق آخر مع النمسا حول البوسنة ، وحول حدود بلغاريا . فقد اتفق على ألا يمتد حدود بلغاريا الشمالية إلى ما وراء نهر المورافا

Morava وامتنع سالسبري عن التعهد حيال الهرسك بأي شيء ، وهنا أراد بسمارك تحديد موعداً للمؤتمر بعد أن علم بنجاح هذه الخطوات التهديدية ، وبذل جهده لانجاحه ، وحدد للمؤتمر يوم ١٣ يونية سنة ١٨٧٨ م . (٩)

وعندما دعت فرنسا إلى المؤتمر اشترط وادنجتون، وزير خارجيتها الاتناقش موضوعات سورية والاماكين المقدسة وتونس ومصر في المؤتمر (١٠)

بينما كانت بريطانيا ترى أن كل الموضوعات يجب أن تطرح أمام المؤتمر ليرى المجتمعون أيها يقبلون وأيها يرفضون . (١١) ولكن فرنسا كانت تريد تونس ، وكانت لا تريد أن تحتل بريطانيا مصر ، وكان موضوع تونس لا يقلق بريطانيا في ذلك الوقت الا قليلا بينما كان يقلق ايطاليا إلى حد كبير (١١) وهي أحد الدول التي دعيت إلى حضور المؤتمر .

وحضر عن بريطانيا رئيس وزرائها دزرائيلي ووزير خارجيتها اللورد سالسبري . وحضر عن فرنسا وزير خارجيتها وادنجتون ، عن ألمانيا المستشار بسمارك ، وعن روسيا جورشاكوف Gorchakov وشوفاوف Shuvalov

وكان دزرائيلي رجلا عابلا كبير السن ، ولكنه كان شجاعاً ذا قدرة على اتخاذ القرار بسرعة . ويفضل عدم الدخول في التفاصيل ، وترك لسالسبري التباحث حول المسائل الثانوية لأنه لم يكن يمتلك المرونة ، ولم يستطع أن يجعل عناده مقبولا ، وقد لعب دزرائيلي وبسمارك دوراً رئيسياً في انجاح المؤتمر والوصول به إلى تحقيق النتائج المرجوة كما كان شوفاوف حاد القريحة يتذكر كل شيء فساهم بدوره في هذا النجاح .

أما المباحثات التي تمت قبل عقد المؤتمر بين بريطانيا وروسيا فقد تركت ثلاث مسائل أصرت عليها بريطانيا وهي :

- ١ - يتولى السلطان الحقوق الحربية على الجزء الجنوبي من بلغاريا .
- ٢ - ويتولى الاشراف على الممرات في جنوب البلقان .
- ٣ - وأن يطلق على الجزء الجنوبي من بلغاريا الروملي الشرقي لا جنوب بلغاريا .

وفي بداية المؤتمر - وكنصيحة لورد أودورسل ، ألقى دزرائيلي خطابه خطاب الافتتاح باللغة الانجليزية لا الفرنسية وذلك ليضايق الروس .

وفي المؤتمر نجح دزرائيلي فيما يختص ببلغاريا . ولكنه لم يجح فيما يختص بباطوم، فقد أصر الروس على موقفهم، ثم اتفقت الدولتان على أن تكون هذه المدينة ميناءً حراً، وميناءً تجارياً فقط . وان كان الروس بعد ثمانى سنوات قد حولوها إلى قاعدة جربية حصينة ، كما نجح الروس أيضاً فيما يختص بمسائل الحدود ، ولذلك فقد أعلن البريطانيون عن الاتفاق السرى الخاص بقبرص ، وهنا رضى بسمارك بينما غضب الآخرون وخاصة فرنسا «(١٣٢) كما رفض أيضاً حزب الأحرار ووصفه جلادستون بأنه (معاهدة مجنونة) و(عمل من أعمال الخداع) (١٤) . بينما كانت هذه الاتفاقية تعتبر نصراً للدبلوماسية البريطانية .

أما باقى البلقان فقد كانت روح الوطنية والاستغلال عاملاً وقف في وجه الروس ، وأطماعهم أكثر مما كان يستطيع السلطان العثماني في ذلك الوقت .

وهنا تثور عدة تساؤلات :

١ - هل كان من الضروري أن تتبنى بريطانيا الدفاع عن الدولة العثمانية وحمايتها ؟ من أجل الطريق الى اخند؟ وما هي المناطق التي كانت تريد تريدها ؟ وما هي المناطق التي كانت لا ترى بأساً من منحها للغير إذا لزم الأمر .

٢ - هل كان العمل على تحطيم سياسة Dreikaiser bund

(أى حلف الابطارة الثلاثة) يستحق كل هذه المشقة ؟

٣ - ما هي قيمة قبرص والحصول البريطاني عليها ؟

حقيقة أن الروس قد توقفوا عن الزحف على التمسطنطينية ، وكان بإمكانهم الزحف عليها لولا تهديد البريطانيين لهم .

وكانت بلغاريا الكبيرة أقدر على الوقوف حاجزاً بين الروس وبين هذه المدينة من تلك (البلغاريا) المقسمة التي أقامها المؤتمر .

ولذا فقد أعلن دزرائيلي لممثلي الدول أنه لا بد أن تصلح الدولة العثمانية أحوالها الداخلية لتستطيع الانتعاش ، وأعلن سالسبرى أنه لا بد من الحفاظ على القسطنطينية بعيداً عن أيدي الروس ولو بالحرب ، وكانت حكومة دزرائيلي ترى أن بريطانيا دولة عظمى أوربية ، أي لا بد أن تكون لها اليد العليا في شئون القاهرة ، ولدى حلف الإباطرة الثلاث الذي لم يستطع أن يستعيد قوته ودزرائيلي في الحكم ، بينما استعادته عندما جاءت وزارة الأحرار برئاسة جلاستون .

لقد أراد دزرائيلي أن يحفظ من أملاك الدولة العثمانية ما يستطيع وبدون الدخول في حرب ، وأن يمنع الروس من دخول القسطنطينية ، وأن يحطم سياسة التحالف الثلاثي وذلك بدون الدخول في الحرب . وأن يعود (بالنصر مع الشرف) ، وأ. يحقق أهدافه وأهداف سياسة وزارته رغم الانقسام بين أعضائها ، ورغم معارضة لورد دربي أقوى أعضاء حزب المحافظين ، ورغم الانقسامات العميقة في البلاط ، ورغم معارضة الأحرار برئاسة جلاستون . ورغم تدهور صحته (١٥)

وقد حدث كل هذا برغم اختلاف وجهات النظر لدى الدول وتباين مطامعها ، وأهدافها فقد كان الموقف الأوربي واتجاهات السياسة الألمانية لها أثر كبير في ذلك الوقت ، فألمانيا كانت تصر على أن يكون لها مركز مركز مساو لمركز الآخرين (١٦) ، ثم بدأت الأشاعات تثور حول اعتداء فرنسا على تونس في ذلك الوقت (١٧) ، وكان بسمارك يريد أن يمنع عدوته فرنسا من الافاقة ، ثم بدأ يتجه نحو استدراج فرنسا إلى البحر المتوسط ، فقد كان يعتقد أن النشاط الفرنسي فيه ، وفي الشرق الأدنى (الشرق الأوسط حالياً) وهي المنطقة التي لم يكن لألمانيا فيها مصالح مباشرة هي الميدان الذي يجب أن تعمل فيه فرنسا بعيداً عن التفكير في الالزاس واللورين (١٨) ، وانتهاز فرصة تلميذ ديكاز Decazes في أثناء الحرب سنة ١٨٧٢ م ، وأخذ يتصرف بوضوح ولكن فرنسا لم تكن تثق حينذاك في عدو الأمس ، وخشيت

أن يكون فحاً ، ولذلك عملت أولاً على اختيار صدق نية بسمارك (١٩) ، وخاصة وأن الوقت حينذاك لم يكن ملائماً مملاً ، فقد كانت هناك إيطاليا وهي تطمع في تونس كذلك ولها فيها مصالح عديدة ، وهناك أيا المعارضة البريطانية المتوقعة ، وكان بسمارك أيضاً يريد المحافظة على السلام في وسط أوروبا . ثم كانت هناك اتفاقات سرية بين روسيا والنمسا وهي التي أدت إلى التحالف المزعج في Kaunitz . ثم تطورت الأمور بسرعة ، وحدث نزاع بين الدولتين وأخذت روسيا تهدد النمسا ، ثم لجأت روسيا إلى ألمانيا تطلب منها المعاونة في صنزاعها مع النمسا ولكن ألمانيا لم توافقها على ذلك ، ثم سرعان ما انفرط عقد الإباطرة الثلاث .

أما فرنسا وإيطاليا فقد لعبتا دوراً بسيطاً ، ومع ذلك فقد كان يعمل حساب كل منهما ، فكل طرف من أطراف النزاع كان يخشى انخياز أحد هاتين الدولتين إلى عدوه . (٢٠)

وفي مؤتمر برلين لعب بسمارك دوراً ناجحاً في حفظ السلام بين القوى الكبرى ، وقد أطلق عليه لذلك لقب الوسيط الأمين Honest Broker فلم يكن عقد المؤتمر هو كل شيء ولم يكن حل النزاع بين روسيا والدولة العثمانية هو كل شيء أيضاً ، وإنما كانت لكل دولة أطماعها وكان المطلوب هو ارضاء كل الدول وذلك بأن تحتل كل دولة ما تريد وعلى حساب الامبراطورية العثمانية المتداعية .

فالروسيا كانت تريد بلغاريا ، والنمسا كانت تريد البوسنة والهرسك ، وبريطانيا كانت تود مصر ، وفرنسا وإيطاليا كانتا تريدان تونس ، وإيطاليا تريد البانيا وطرابلس وفرنسا تريد سورية كذلك ، وكانت الصعوبة هي في رضاء الدول عن هذا .

(أ) فبريطانيا والنمسا لم توافقا مطلقاً على اعطاء روسيا بلغاريا

(ب) والروسيا وإيطاليا لم تكونا توافقان على أن يقوى مركز النمسا في البلقان باجتيازها للبوسنة والهرسك .

(ج) وفرنسا كانت لا تريد التسليم بمطالب بريطانيا في مصر .

(د) وإيطاليا كانت تناقش فرنسا في تونس . (٢١)

وقد بذل بسمارك كل مساعيه ، فنذ نوفمبر ١٨٧٥ م وهو يدعو بريطانيا لاحتلال مصر (٢٢) ويقول لانجر أن اندراسى Andrassy اقترح في أغسطس سنة ١٨٧٦ م أن تحتل إيطاليا تونس ، ثم عاد وكرر هذا الاقتراح على السفير الايطالى روبيلانت Robilant في أكتوبر فرفض لمعارضة وزارة الخارجية الايطالية ، ثم عرض الاقتراح مرة ثالثة في سنة ١٨٧٧ م (٢٣) .

وكان معنى ذلك ، أن بسمارك وحتى عام ١٨٧٧ م كان لا يفرق بين ما تريده إيطاليا وما تريده فرنسا (٢٤) ، فهو لم يكن يريد لفرنسا نجاحاً في السياسة الخارجية ، وفي نفس الوقت لم يكن يريد أن تعارض إيطاليا في حصول النمسا على البوسنة والهرسك ، وكانت روسيا أيضاً تؤيد مثل ذلك الموقف .

وعندما انتصرت روسيا في حربها مع الدولة العثمانية ، أصبح الموقف الدولى حرجاً ، وأخذت بريطانيا والنمسا تقفان في وجه روسيا وانتصارها خوفاً على القسطنطينية والمضايق ، ونظر كل منهما حوله للبحث عن حليف

أما بسمارك فقد انتهج سياسة الحياد الايجابي ، بينما كسب دربي واندراسى الايطاليين اليهما ، ولما جاءت وزارة جيمينا في فرنسا ، وكان يكره الروس وعين وادنجتون وزيراً للخارجية وكان متجاوباً مع سياسة كل من بريطانيا والنمسا فيما يختص بالبلقان . (٢٥)

وفي إيطاليا تغيرت الوارثة أيضاً وجاءت وزارة كايرولى Cairoli محل وزارة دبرتيز ، وكان لورد دربي يعمل على أن يكون لإيطاليا دور في

عصبة من دول البحر المتوسط ، وكان اندراسى يود أن توافق إيطاليا على حصول النمسا على البوسنة والهرسك في مقابل تونس لها (٢٦) وكان الكونت نجرا Nigra سفيراً إيطاليا في بطرسبرج من أنصار قيام تحالف روسي إيطاليا ، ولكن كايرولى كان يكره النمسا كرهاً عميقاً ، وكان وزير خارجيته كونت كورتى Corti ضعيف العزيمة يرى أن إيطاليا ليست من القوة بحيث تمارس سياسة المغامرة ، ويرى أن بلاده وقد حققت وحدتها فمن الأفضل لها أن تحسن مركزها وتدعمه . وأن تكسب صداقة النمسا وغيرها من الدول . ولكنه لم يقبل عرض ألمانيا ، فهو لم يكن يؤمن بسياسة التعويض هذه . فبلاده لم تكن مستعدة لتجهيز حملات عسكرية يستلزمها هذا الموقف . وكان رفاقه يريدون الترتيبا وترستا .

ثم وافقت إيطاليا على احتلال النمسا للبوسنة والهرسك على أن تظل سيادة السلطان عليها وعلى أن تنال إيطاليا تعويضاً . (٢٧)

وكانت بريطانيا - التي تهدف إلى الحفاظ على مصالحها في البحر المتوسط قد اقترحت على إيطاليا في مارس سنة ١٨٧٨ م الاشتراك في تكوين عصبة البحر المتوسط ، وأرسل لورد دربي في ١٣ مارس لسفيره في روما لیسأل إيطاليا إذا كانت ترغب في الالتحاق بهذه العصبة مع فرنسا والنمسا واليونان على أن تكون (مهمتها الحفاظ على مصالحهم التجارية والسياسية في البحر المتوسط ، وكذلك مقاومة أى عمل يهدف إلى تهديد هذه المصالح كمسائلهم الجميع (٢٨) ، ولكن عندما جاءت وزارة كورتى ترددت ثم رفضت لأنها لم ترد أن تربط نفسها بأى سياسة قد تدخلها في الحرب ، وذلك رغم إيمانها بأهمية ارتباط مصالحها بمصالح بريطانيا . (١٩)

أما فرنسا فكانت تطرح في داخلها فكرة التحالف مع روسيا، بينما كان بسمارك يطرح على بريطانيا فكرة غزو مصر منتهزاً فرصة زيارة أمير ويلز لبلاده وعارضاً عليه ذلك ، وحين رد عليه الأمير أن فرنسا في تونس أقل خطراً

من ايطاليا فيها ، ويدركون جيداً أن بريطانيا لن ترضى بأن تذهب تونس
لايطاليا .

وحينما اقترح الألمان تونس لفرنسا في عام ١٨٧٨ م لم يبد سالسبرى
معارضة (٣١) ، وكان ليونر عمهد لذلك أيضاً ، كعملية تعويض في حالة
حصول بريطانيا على قبرص أو أى قاعدة في الجزء الشرقى من البحر
المتوسط . (٣٢)

هكذا صارت قضية تونس تسيطر على العلاقات بين بريطانيا وألمانيا
وفرنسا قبل أن يبدأ المؤتمر أعماله ، ثم تم الاتفاق بينهم تقريباً قبل أن ينهى
أعماله ، وربما كان اندراسى على علم بالاتفاق السرى بين بريطانيا والدولة
العثمانية بخصوص قبرص .

٢ - سالسبرى يلوح بتونس لفرنسا :

عندما علم وادنجتون بانباء حصول بريطانيا على قبرص غضب بشدة
لسماعه أنباء هذا الاتفاق ، ولذا فقد وجد الوزير البريطانى نفسه في مركز
لا يحسد عليه ، فأراد أن يهدىء من ثائرة هذا الوزير ، فعرض عليه تونس
وقال له (أنكم لا تستطيعون ترك قرطاج في يد البرابرة) (٣٣) ، فأخذ
وادنجتون هذا العرض ، وأكدته من بسمارك (٣٤) ، ثم انتظر الفرصة المناسبة
لتحقيقه ، حتى أنه قال عند عودته من المؤتمر وهو يضع يده في جيبه (هنا .
أنا أعود ومعى تونس (٣٥) ويقول لانجر ، أنه قال للجامبتا بعد عودته ، إذا
كنت تريد تونس فخذها حالا والمؤتمر مازال .

ولما كان سالسبرى ، وكذلك بسمارك ، حريصين على ألا ينجاز
الفرنسيون إلى صف الروس ، فانهما لم يهتما بما كان يصبوا اليه الايطاليون
بل ان سالسبرى ذهب إلى حد عدم اخبارهم باتفاق قبرص ، وانما علم به
كورتى من الصحف في ٨ يوليو وحين طار الخبر إلى الصحف أعد سالسبرى

نسخة منها ليرسلها إلى المندوب الإيطالي (٣٧) وتذهب كثير من المصادر (٣٨) إلى أن كورتى عندما علم باتفاق قبرص ذهب إلى بياوف المندوب الألماني في المؤتمر ليسأل عن الايضاحات فألح له بأنه يمكن لإيطاليا أخذ تونس ، وأن هذا الرأي لم يكن من عنده وإنما كان كذلك رأى بسمارك .

ولكن إيطاليا كان اهتمامها الأول هو الحصول على التيرول وترستا ، ولذا فلم تؤمن بمبدأ التعويض في ذلك الحين ، ولم تكن تريد الدخول في نزاع مع فرنسا ، كما أن كايرولى كان يشك في امكانية نمو إيطاليا في البحر المتوسط وأخذ يبحث عن الحصول على شيء في مكان آخر (٣٩) .

ومسألة موافقة بريطانيا ، وتقديم سالسبرى تونس إلى وادنجتون مسألة ثار عليها كثير من الجدل والنقاش . البعض يؤكدها والبعض ينفيها والبعض يشك فيها وفي نوايا سالسبرى .

فأما لانجر ، فيؤكد أن تونس قدمت لفرنسا من سالسبرى في ٧ يولية سنة ١٨٧٨ م ، وأن بسمارك قدمها كذلك لفرنسا قبل يوم ٨ يولية ، بل ويقول أنه كانت هناك بعض الترتيبات بين بسمارك وسالسبرى ، ولا بد أن سالسبرى حين قدم تونس لوادنجتوى كان ذلك بموافقة المستشار الألماني وان الاثنان سالسبرى وبسمارك لم يكونا يكثران كثيراً بالإيطاليين . (٤٠)

وعندما عاد وادنجتون من برلين أراد أن يستوثق من كلام سالسبرى ووعوده فبحث عن لورد ليونز ، في ١٦ منه يوم عودته وأبلغه بما قال سالسبرى (٤١) ، فلما علم سالسبرى أن وادنجتون أراد أن يضعه أمام مسؤوليته ، وأمام ما صرح به في برلين (٤٢) تضايق ، فهو قد قال له أن فرنسا لم تحتل تونس من الغد فان بريطانيا لن تحتج ، (٤٣) ولكن أن يعطيه وعداً صريحاً مكتوباً فهو شيء لا يستطيعه ، فهو لا يستطيع أن يعطي الآخرين ممتلكات أناش آخرين بدون موافقتهم ، كما أنه لا يستطيع أن يعلن مقدماً موافقته لأن إيطاليا تريد تونس كذلك (٤٤) ، ولكن وادنجتون استمر

في خطته فأرسل رسالتين يريد أن يحصل بهما من بريطانيا على موافقة صريحة مكتوبة ، وكانت الضعوبة أمام مجلس الوزراء البريطاني هي العمل على تجنب إثارة إيطاليا ، وذلك بعدم اعطاء رد وموافقة صريحة معلنة لفرنسا فاجتمع مجلس الوزراء واستمرت مناقشاته خلال الخريف والشتاء ، وهو يتوقع أن فرنسا ستحتل تونس في القريب العاجل ، فأراد أن يتباطأ في في مناقشاته لعل فرنسا تحتل تونس قبل أن يعطى المجلس رده فيجنب نفسه الحرج ، أما سالسبري فقد قال انه حين أخبر وادنجتون بما قال ، فانه كان كان يعنى أنه لو حدث شيء من هذا القبيل وذهبت فرنسا إلى تونس ، ولم توجد عتبة تحول دون ذلك الا معارضة بريطانيا فان بريطانيا لن تعارض وانه ما صرح بهذا الكلام الا ليقول ويبرهن على أن بريطانيا ليست لها أغراض معينة في هذه المنطقة ، وانها لا تريد تغيير ميزان القوى في البحر المتوسط وان كل انظار البريطانيين موجهة نحو الشرق ، ولكن وادنجتون استدرجه في الكلام عن تونس ، كأن تونس ملك خاص له . (٤٥)

وهنا أدرك الايطاليون أن البريطانيين باعوهم بتنازلهم عن تونس لفرنسا وحينما ظهر في الصحف أنباء وقوع اتفاق بريطاني / فرنسي حول تونس (٦) تحركت إيطاليا فأرسلت إلى تونس مبعوثاً يدعى موسى Mussi يعرض على الباي

٢ - أما عقد معاهدة صداقة يعترف فيها بأولوية النفوذ الايطالي

٢ - وأما أن يقام في بنزرت ميناء حر تحت ضمان بريطانيا وإيطاليا وفرنسا . (٤٧)

وكان يبدو أن إيطاليا في ذلك الوقت كانت تفكر في ارسال حملة إلى تونس أو طرابلس ، ولكن المسئولين الايطاليين عرفوا بالتراحي ، كما اعترل كورتى ، ووزير الحربية والبحرية في أكتوبر : (٤٨) ثم عندما

استفسر كايرولى من لندن وباريس عن حقيقة الوضع ، رد سالسبرى بأنه يفضل الابقاء على الأحوال القائمة فى تونس ، وأيضاً ادرك السفير الايطالى أن بريطانيا ليست قلقة من الخطط الفرنسية فى تونس ، أما وادنجتون فقد رد على كايرولى بأنه يود الحفاظ على الأحوال القائمة فى البحر المتوسط ، والمحافظة على ميزان القوى فيه . وان فرنسا تعارض التوسع . بل لقد أخبره أيضاً بأنه لن يفعل شيئاً دون اطلاع ايطاليا عليه ، وانذر ايطاليا من فعل أى شىء فى تونس . وكان من نتائج ذلك كله أن تراجعت ايطاليا . (٤٩)

وفى ذلك الوقت كان وود يقاوم التدخل الفرنسى فى تونس . فعمل على أن يتعاون مع القنصل الايطالى ماشيو . وذلك دون انتظار تعليمات حكومته ، فتصور وادنجتون أن الحكومة البريطانية قد قصدت بذلك إلى تحرير نفسها من وعودها بطريق ملتو ، ولذلك فقبل أن يتصرف وكان رجلاً حذراً قرر أن يجس النبض ليتأكد ، فزار سانت فالير Vallier بسمارك فى يناير سنة ١٨٧٩ م بعد أن أخبر بيلوف أنه قرر انذار الباي ، وارسال حملة لاحتلال بعض السواحل (٥٠) ، وكان الألمان بدورهم مستعدين لهذا الموقف ، فقد كان سفيرهم فى باريس هو هنلوهى قد كتب لحكومته فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٧٨ م ، ولذلك فقد بدأ بسمارك الكلام أولاً ، وقال لفالير (اننى أعتقد أن الكهبرى التونسية ناضجة ، وأن الوقت قد حان لكم لتقطفوها) ثم حذره من أنهم لو تركوا (هذا الباي) الذى أصبح (معزولاً) لا تقتنص تونس آخرون .

إذن أعطت ألمانيا موافقة صريحة ، وخاصة حين اتصل بسمارك بسالسبرى . لكى لا يترك السحب تخيم حول المنطقة ، وحول الموقف ، وذكره بارتباطه فى برلين ، وطلب منه سحب القنصل وود منعاً لتعكير الجو ضد فرنسا فى تونس . (٥١)

ويؤكد نابلد (٥٢) ماذهب اليه المؤرخون من أن وادنجتون حصل من

سالسبرى على وعد بتونس - كما ذكر لانجر - وكذلك يؤكد كينيدي هذه الرواية ، فهو يقول أن سالسبرى حينما أخبر وادجتون بنياً الاتفاق حول قبرص ، أبرق الأخير إلى طولون بهذا الخبر ، وأخذ يجذب شعره غيظاً فما كان من سالسبرى إلا أن قال له لئمنعه من ذلك وليهدى غضبه (أنا يجب أن لا يكون لدينا أدنى حسد أو خوف إذا ما فكر رجال السياسة في فرنسا في صد حدودهم الافريقية في اتجاه تونس) (٥٣) . ثم يستطرد فيقول ان سالسبرى كان يريد الحفاظ على وحدة أوروبا ، ولذا فقد أجرى كثيراً من الترضيات والمواقفات ، ومنها الموافقة كذلك على مد نفوذ فرنسا إلى تونس وغرب افريقيا ، وانه كان من عيوب سالسبرى أنه كان يفتقد الأمانة ، ولذلك فقد اقترح على الفرنسيين أن يستولوا على قرطاج ، ثم عاد فقال أنه لم يقل ذلك » (٥٤)

ونيوتون يؤكد ذلك أيضاً ، ويقول وادجتون عندما علم بخبر اتفاق قبرص ، هدد بالانسحاب من المؤتمر ، ولذلك فقد عرض عليه سالسبرى تعويضاً هو تونس ، وقال له (أنكم لا تستطيعون ترك قرطاج في يد البرابرة افعلوا ما تريدون ، انه لا يهمننا لو احتلت فرنسا تونس غداً ، اننا حتى يجب ألا نعترض ، بل اننا نعد علانية أن هذا سيكون أمراً بسيطاً) (٥٥)

وكان بسمارك ، الذى أراد أن يضع تسوية للمسألة الشرقية على حساب الدولة العثمانية قد اقترح على بريطانيا منح فرنسا الحرية في تونس ، بل أنه أخذ يضغط عليها في شيء من الدبلوماسية ، ويقول لها أن هذا أفضل من ارتقاء فرنسا في احضان روسيا وانتهاك سياسة معادية لبريطانيا (٥٦) ، ثم أن إيطاليا كانت تريد تونس ، وكان النمساويون يريدون أن يعطوهم اياها حتى تؤيدهم في الحصول على البوسنة والهرسك ، وكذلك الروس كانوا يريدون أن يعطونها اياها حتى لا تؤيد حصول النمسا على هذين الاقليمين ولم تقبل إيطاليا عموماً هذا العرض الذى تردد أن بيلوف المبعوث

الألماني قد عرض على كورتى ، وذلك لعدم رغبة ايطاليا فى الدخول فى تعقيدات مع فرنسا ، وليس لايطاليا ، فقد كان بيلوف يجهل رغبة رئيسه الحقيقية .

وعندما تساءل المبعوث الايشالى عن حقيقة موقف سالسبرى رد بأن فى البحر المتوسط متسع للجميع ، ويمكن أن تحصل ايطاليا على طرابلس وان كان هذا العرض فيه شك ، حيث ان موقف سالسبرى بعد ذلك من هذا الموضوع كان فيه تردداً (٥٧) والفرنسيون أنفسهم كانوا يؤيدون هذا الموقف . (٥٨)

وكانت هذه التوضيحية من جانب بريطانيا بمصالحها المتزايدة فى تونس ضرورية وذلك لشراء موافقة فرنسا فى حصولها على قبرص ، بينما كان بسمارك يريد تسوية المسألة الشرقية على حساب الدولة العثمانية ، ويريد ابعاد فرنسا عن روسيا - كما قلنا - ثم انه كان أيضاً يريد ابعادها عن التفكير فى الالزاس واللورين . (٥٩)

ولا نجر يعزو العجز الايطالى التى تردد المسئولين وضعفهم عن اتخاذ أى قرار حاشم وهى وان كانت قد ارسلت قنصلاً نشطاً هو ماشيو الذى ظل فى معركة عنيفة مع روستان حتى احتلت فرنسا تونس ، فان فرنسا التى كانت تملك موارد مالية وعسكرية أكثر كانت - بالإضافة إلى تشجيع ألمانيا وبريطانيا لها - فى موقف يسمح لها بفرض حمايتها على تونس سنة ١٨٨١ م (٦٠)

وهناك من يحاول أن يشكك فى الموافقة البريطانية على ضم فرنسا لتونس (٦١) ، ولعل هذا هو الذى دعا فرنسا إلى العمل على الحصول على موافقة كتابية ، فهذه المصادر تذكر أن بريطانيا كانت تخشى المعارضة الفرنسية فى حصولها على قبرص ، ولذلك فقد أبطأت الاتفاق البريطانى العثمانى سرّاً حتى انتهى المؤتمر ، ثم عندما انتهى أرسل سالسبرى رسالة مطولة

إلى وادنجتون يخبرهم في ٦ يولية بنأ الاتفاق ، وبأن بريطانيا لا تستطيع الدفاع عن تركيا الاسيوية بدون الحصول على موقع كقبرص ، وفي نفس الوقت أرسل رسالة مطولة إلى ليونز في باريس يقول له أن فكرة استيلاء فرنسا على تونس كانت (امتداداً للحدود والنفوذ الفرنسي ، والتي يجب ألا يكون عندهم أدنى حسد أو خوف بسببها) أى أن بريطانيا أبدت موافقة على استيلاء فرنسا على تونس ، ومع ذلك فقد أوضح سالسبرى أنه لا يعنى أنه لا يعنى بكلامه هذا ان الدولة العثمانية ستوافق على هذا ، وبعد يومين من هذا التصريح أبرق الوزير الفرنسي إلى باريس يقول أنه مع تأكيد سالسبرى هذا فانه (منزعجاً جداً)

وكان من نتيجة ذلك أن أصبح الموقف في باريس «انفجار واضح من الغضب والاحتجاج» فقد احتجت صحيفة La Republique Française وهي صحيفة كانت موالية لحمتنا ، على الحجة البريطانية ، وأشارت إلى أن اتفاق قبرص يعتبر كرصاصة أصابت فرنسا ، كما ترددت الأنباء أن وادنجتون قد تلقى تعليقات بالانسحاب من المؤتمر ، وإلكنه كان قد وقع على الاتفاق ، ويستطرد فيقول أن سالسبرى أراد أن ينجح في مهمته في برلين ، ولذا فلم يكثر من التقارير والأخبار ، واعتمد على التاكثيك المنجز فأعطى هذا الكلام لليونز كتهدة للجانب الفرنسي ، ثم بعد انتهاء المؤتمر رجع وادنجتون إلى باريس فأرسل إلى روستان يجبره أن فرنسا بصدد فرض الحماية على تونس بموافقة بريطانيا وألمانيا ، وأرسل في نفس الوقت إلى ليونز يقول له أن موضوع قبرص يمكن أن يؤدي إلى الحرب (أو شيء يشبه الحرب جداً) فان هذا (ضروري جداً لموقفه الخاص) ولتهدة الشعب الفرنسي الثائر ويقول له أن هذا الاستيلاء لن يخدم المصالح الفرنسية جيداً ، وإنما كل ما يريده هو (تحالف مبادئي) بين البلدين ، وهنا استاء سالسبرى لأنه أدرك أن الفرنسيين فهموه خطأ ، فهو لا يمانع ، في زيادة النفوذ الفرنسي في تونس ولكن على شرط ألا ينشر هذا الخبر علانية ، لأنه سيؤدي إلى مشكلة ، فهو

لا يستطيع أن (يمنح ممتلكات أناس آخرين) ، كما أن الاطالين سوف يشورون ويتساءلون عن هذا الموقف ، وكل ما يمكن عمله هو أن يرسل وادنجتون رسالة إلى سالسبرى يشرح فيها بصفة عامة (مراكز الحدود على الساحل الافريقي التي تهتم بها فرنسا) ، وسوف يقوم سالسبرى وفي رسالة ودية باعطاء (ما يراه سليماً) .

وعلى ذلك فقد أرسل وادنجتون رسالة اليه يذكره فيها بما قاله اثناء المؤتمر ويذكره بما فاه به مثل (الضم الخالص والسهل) و(خذو تونس لو أردتم .. ان انجلترا سوف لا تعارضكم هنا وسوف تحترم قراراتكم) و(انكم لا تستطيعون أن تتركوا قرطاج في يد البرابرة) ، ثم أرسل رسالة إلى هاركورت يطالب فيها اجابة شافية من الحكومة البريطانية تعطى فرنسا موافقة صريحة على ضم تونس ، وكذلك اجابة شافية فيما يختص برغبات مصر وسورية وقد غضب سالسبرى بشدة من هذه الرسائل ، وقال أنه لم يزد على أنه اعطى اقتراحاً وملاحظات في أحاديث ومناقشات خاصة واستتاجية عن مجرى أحداث في ضوء الظروف المحتملة ، وأن وادنجتون بذلك يظهره بأنه قال ما لم يقاله فعلاً ، واعطى ما لا يستطيع بريطانيا أن تعطى ، وأنه لم يقدم عملية الضم كما يدعيها وادنجتون وانما كل ما فعله هو أنه قال له أن بريطانيا تنظر بسرور إلى (أى امتداد شرعى للنفوذ الحضارى الفرنسى) ، ولكن وادنجتون نسي وأنكر اشاراته الواضحة نحو حقوق ومطالب القوى الأخرى وخاصة إيطاليا والدولة العثمانية .

وأما هاركورت فقد كان يرى أن سالسبرى لم يعارض الحماية الفرنسية على تونس . وانما عارض فقط اللغة والأسلوب الذى نسب اليه ، فقد نسب اليه فقد نسب إلى سالسبرى قوله (أنا لا أنكر اننى قلت هذه الكلمات ولكنها كانت فى صورة مناقشة ودية كانت لأول وهلة ، اننى لا أفضل أن أراها متضمنة حرفياً فى رسالة ، وأنا أحب أن أرى رأي مصاع فى صورة أكثر دبلوماسية) (٦٢)

ولسوء الحظ فإن الرسالة الدبلوماسية التي كانت تحوى ملاحظات ساسبرى لم تصل قبل أن يناقش ليونز الرسالتين الفرنسيتين مع وادنجتون وكان قد فهم خطأ رغبة ساسبرى ، فاقترح على الوزير الفرنسى أن يعيد كتابة رسالة إلى ساسبرى ، واستمر الوزير الفرنسى يشكو من أن ساسبرى ينكر ما صرح به ويقول أن كلامه مع وادنجتون كان (دردشة) ولم يكن (بصفة رسمية) وذلك فليكن هناك سبيل لها . وكان وادنجتون يرى في كلام ساسبرى عموماً تحريضاً على العدل إذا ماتزقت الامبراطورية العثمانية .

أما مجلس الوزراء البريطانى فقد ناقش مسودة الرد الرسمى وصاغها حذره ، وكان قد وصل من ليونز رسالة توضح الاضطراب الذى حدث فى فرنسا عن اتفاق قبرص ، وعن الاقتراحات المباشرة التى يجب أن يرد عليها فرنسا ، وعن الهجوم الواسع على وادنجتون وكيف أنه اعتمد على أوهام فى برلين ، ولذا فقد صيغ الرد البريطانى كما قلنا فى حذر ، ولم يكتف ساسبرى بذلك بل أنه حذر من أن ذلك الرد إذا ما نشر فانه سوف يعكر العلاقات مع ايطاليا ، وكان ذلك الرد يقول (أن انجلترا ليس لها اهتمام خاص بهذه المنطقة يمكن أن يقودها لثرى بقلق وعدم ثقة النفوذ الفرنسى انشرعى المتزايد) (٦٣)

إذن هى كانت موافقة بريطانية صيغت فى أسلوب ملتو ، وهى أيضاً كانت غامضة . ولذلك ظل وادنجتون قلقاً ، وظن ساسبرى أنه عند ذلك ستسقط تونس فى يد الفرنسيين . ولم يكن واضحاً عند ذلك أيضاً الموقف الذى ستبديه ايطاليا . ومهما كان القول عن الردود البريطانية فقد رأى فيها بكل أنها تعنى الموافقة . فساسبرى فى رأيه قد قصد التقليل من (الشوشرة) على اتفاق قبرص بطريق اظهار أن بريطانيا لن تعارض نمو النفوذ الفرنسى فى تونس . (٦٤)

ووولف Woolf (٦٥) يقول أنه لا يمكن الجزم بما قال ساسبرى

لو اذنجتون . وانما يمكن الجزم بأن واذنجتون عاد من برلين وفي جيبه تونس ، فقد كانت سياسة بريطانيا عموماً قد تحولت إلى جهة أخرى بعد مؤتمر برلين ، وذلك لأنها بعد أن حصلت على قبرص لم تعد راغبة في مقاومة النفوذ الفرنسي المتزايد في تونس . وأن سالسبرى وبسمارك وواذنجتون قد جلسوا في احدى زوايا المؤتمر يتحدثون عن تونس وعن الباي ، وفي هذا الحديث دعا بسمارك فرنسا إلى احتلال تونس وذلك ليصرفها عن التفكير عن مشكلتي الالزاس والالورين ، بينما يقول الايطاليين أن بسمارك أراد بذلك أن يضرب فرنسا وايطاليا ببعضهما . فأعطى تونس مرة لفرنسا وأخرى لايطاليا ، ويروى وولف عن جيل فرى أنه قال أن بسمارك لم يكن يقلق على اعطاء تونس لأحد . وانما الذي قدمها لفرنسا هو سالسبرى .

ويقول استورنيل أن سالسبرى قال لو اذنجتون (ان قرطاج يجب ألا تبقى في يد البرابرة) .

وكان واذنجتون يرى أنه ما دامت بريطانيا قد خرجت من المؤتمر بقبرص . وهي احدى أملاك الدولة العثمانية فيجب أن تعطى فرنسا شيئاً في المقابل : وهذا المقابل هو تونس (٦٦)

ونيوتون ينكر أن سالسبرى أعطى تونس لفرنسا صراحة ويقول أن اتهام سالسبرى بهذا القول فيه عدم عدالة والعدوان الفرنسي على تونس عمل غير مقبول . ويساند في هذا إلى أنه عندما أرادت الحكومة الفرنسية أن تنشر ماتهودل من مذكرات ورسائل بين فرنسا وبريطانيا سنة ١٨٧٨ م بخصوص تونس وقبرص احتج سالسبرى على هذا النشر . ولم يكن حينذاك في الحكم . (٦٧)

أما لنج (٦٨) فهو يقول أن بريطانيا قد اعطت موافقتها لفرنسا خلال مفاوضات سرية في أثناء مؤتمر برلين حين تناقش واذنجتون مع زميله البريطاني لورد بوبرت سالسبرى . وعند عودته إلى باريس ذكر واذنجتون أن سالسبرى قال له :

(افعلوا في تونس ما ترون أنه سليم ، أن انجلترا لن تعارض وسوف
تخبركم قراركم) وان وادنجتون قال له ورد عليه (أنه من الممكن أن المستقبل
يمكن أن يفرض علينا فيما يخص تونس ، مساواة مباشرة أكثر مما هو علينا
الآن ، انه يجب علينا ألا تسمح لأية قوة أجنبية أن تفرض نفسها هناك ،
ويجب علينا أن نعارض بالقوة أية محاولة من هذا النوع) ، ثم يستطرد
فيقول أن سالسبري لم يعترف بما قاله وادنجتون ، ولم يعتبر نفسه مسؤولاً عنه
وعن صحة ما نطق به من عبارات ، فقد كان من الواضح أن رأى بريطانيا
هو أنها لا تخشى من التدخل الفرنسي في تونس ، وتريد من فرنسا أن
تدرك أنها لن تعارض ولن تتدخل في حالة ازدياد النفوذ الفرنسي في تونس
فهى ليست لها مصالح خاصة هناك ، كما أن سالسبري أراد أن يفهم فرنسا
أن بريطانيا ليست الدولة ذات العلاقة الوحيدة مع تونس ، فهناك أيضاً
إيطاليا ولها مصالح خاصة فيها . (٦٩)

ولم تكن إيطاليا تشارك ألمانيا وبريطانيا موقفها من النفوذ الفرنسي
في تونس ، فقد كان — كما عرفنا — لتجار جنوة والبندقية جولات في تونس
وقد تذكر الايطاليون الغزو الروماني لتونس ، والنفوذ الايطالي فيها ،
والمصالح الايطالية النامية ، وكذلك المدرسة الايطالية التي كانت أول
مدرسة أوربية تنشأ في تونس ، كما كانت إيطاليا كذلك أول دولة تحصل
لرعاياها على حق شراء الأراضي سنة ١٨٦٠ م ، وقد أدى ذلك إلى
الاستعداد الايطالي لغزو تونس سنة ١٨٦٠ م ، وكما تقول بعض المصادر
فإن الامبراطور نابليون الثالث قد شجع هذا الغزو ، ولكن معارضة
بريطانيا عاقت تنفيذ هذه الخطة . ثم انه عندما هزمت فرنسا في حرب
السبعين ، استيقظ حلم إيطاليا من جديد ولكنها فوجئت بالمعارضة البريطانية
من جديد ، وبالمعارضة الفرنسية أيضاً ، ولذلك فعندما استسلمت فرنسا
من إيطاليا عن نظرتها للمشكلة التونسية ، أجابت روما انها لم تحلم أبداً بمد
استعمارها إلى تونس ، ثم أن الموقف قد أصبح معقداً بعد مؤتمر برلين ،

فقد أعلن رئيس الوزراء الإيطالي فرنسكو كريسبي أن إيطاليا اسبيء إليها وعوملت على أنها أقل دولة في أوروبا ، ولم تنل إلا التحقير في هذا المؤتمر بما كان له أكبر الأثر بين الإيطاليين ، ولذلك فعندما عقد المؤتمر السري بين سالسبري ووادنجتون ، وعلمت به إيطاليا عارضت ، فأرسل وادنجتون رسالة سريه إلى الماركيز دي نواي De Noailles سفيره في روما يطلب منه أن يشرح للإيطاليين أن فرنسا بعد أن احتلت الجزائر وضعت عيونها على تونس ، ولن تسمح لأية قوة بفرض نفوذها فيها ، وهنا أدركت إيطاليا أنها لن تستطيع تحقيق أهدافها في تونس بدون وقوع نزاع بينها وبين فرنسا وأصبح أمامها أن تتجه وجهة أخرى ، وفي هذه الرسالة أيضاً طلب وادنجتون من دي نواي ألا يخبر الإيطاليين بما حدث بينه وبين سالسبري لأن الأخير طلب منه ذلك . (٧٠)

والمصارع الفرنسية نفسها تذكر أن بسمارك قد اقترح أن تعرض فرنسا بعد أن حصلت بريطانيا على قبرص ، وأن التعويض المناسب هو تونس (٧١) كما تذكر أيضاً أن كلا من سالسبري وذررائيل قد قدم تونس لفرنسا في برلين ، كما قدمها أيضاً أمير ويلز في باريس أثناء زيارته لها (٧٢) وأن بسمارك أيد هذه الموافقة حين نقلها إليه وادنجتون كما أنه حين أراد أن يتأكد من موقف الألمان مرة أخرى بعد قيام الصراع حول ضيعة الانفيدا ، أعطاه بيلوف تأييده ، وموافقته (٧٣) بل تزيد هذه المصادر فتذكر أن بسمارك حذر بريطانيا من تصرفات وود المعارضة لفرنسا في قضية دي سانسي وفي تونس . (٧٤)

ويؤكد جوين وتاكويل (٧٥) أن الفرنسيين قد أعلنوا أن سالسبري قال لوادنجتون في برلين (كيف يستطيعون ترك قرطاج للمتمردين) ، ولذلك فقد طلب منه وادنجتون أن يؤكد موقفه هذا كتابه ، ويقولان أن سير ذلك أراد التحقق من ذلك الموضوع ، فعلم أن سالسبري أعطى هذه الموافقة لوادنجتون

وقال له هذا الكلام فى سرية ، ثم عاد ونفى ذلك علانية ولم يرغب فى نشره ولكن دلكه تحقق من مستر ليون ساي Leon Say السفير الفرنسى فأعطاه فأعطاه تاييخا للمنزقشتين اللتين تمنا بين سالسبرى ووادنجتون وأنها كانتا فى ٢١ : ٢٦ يولية سنة ١٨٧٨ م : ولكن دلكه وجد فى أرشيفات الخارجية البريطانية بخط سالسبرى نفسه وبالمداد الآخر انكارا لهذا الموضوع ، ولكنه بتاريخ ١٦ يولية أى قبل اجراء تلك الحادثة والموافقة على وادنجتون - (٧٦)

ويؤكد كريسي (٧٧) أن بسمارك حين نصح فرنسا بأخذ تونس شجعها دزرائيلى كذلك على هذا العمل . فأخذ وادنجتون يفخر بهذا ، وبأن حصوله على تونس بعد احدى منجزاته اثرائة فى تاريخه ، وأعلن فى خلال ختمته الانتخابية لصحيف أنه من خلال نظام سرى بينه وبين بريطانيا حصل على موافقة صريحة Carte Blanche فى مؤتمر برلين لقيام فرنسا بفرض صريحة من الوزارة البريطانية بخصوص هذا الموضوع .

ويستدل تورنيللى على صحة ما حدث من جانب وادنجتون من محادثة جرت مع روزيرى (٧٨) فى يولية سنة ١٨٩٣ م يقول فيها الأخير أن حصول فرنسا على تونس كان أمراً مرتباً بين فرنسا والقوى الكبرى فى مؤتمر برلين . وانه جاء فى صحيفه التانيزر (أخيراً وبواسطة اتفاق سرى مع الانجلترا حصلت على موافقة صريحة لفرنسا فى تونس ، والتي سمحت لنا أخيراً أن نقيم هناك حمايتنا بدون معارضة أى ارتباط أوروبى) ، بل يذهب تورنيللى إلى حد القول أنه ما دام هناك موافقة فعنى ذلك وجود اتفاق مكتوب ، وكلام وادنجتون الذى صدر فى التانيزر يفيد أن هناك قوى أخرى وافقت أن هناك قوى أخرى وافقت على هذا مما يؤكد كلام روزيرى . (٧٩)

كما أن دى لونانى أبرق فى ١٨ ولية سنة ١٨٧٨م إلى روما (من الحكمة أن نبقى أعيننا مفتوحة فى باريس فيما يختص باتفاقيات خاصة محتملة بخصوص تونس) (٨٠)

وعندما كان مينابريا في محادثات له مع سالسبرى في ٧ يناير سنة ١٨٧٩م فيما يخص بعض تقارير الصحفي عن رغبة الحكومة البريطانية في أن تقدم لفرنسا تونس لضمها إليها ، فهي موجودة في الجزائر ، أجاب بأنه ملتزم بالوقوف على الحياد فيما يخص بهذا الموضوع ، وقال انه أعلن لفرنسا أنه (بما انه على علم بمعارضة فرنسا للاتفاق ، فانه لن يسمح للقوتين أن يسويا الموضوع فيما بينهما) .

وفي ١٣ فبراير سنة ١٨٨٠م عندما رجا مينابريا بريطانيا أن تعلن رغبتها في الحفاظ على الحالة الراهنة في تونس ، فان لورد سالسبرى (امتنع عن إعطاء أى فيما يخص بالاعلان المقترح) . كما أن مينابريا في ١١ يولية سنة ١٨٨٠م يذكر أن جرانفيل أعلن أن (تونس وكونها دولة مستقلة ، وفيما عدا حقوق الباب العالي ، فان انجلترا لا تستطيع التدخل في المسائل التي اختصت بها الحكومة الداخلية للإيالة) .

وفي ٢٩ ولية سنة ١٨٨٠م أعلن جرانفيل أن (انجلترا ولها فقط مصالح أقل أهمية في تونس ، لم ترغب في التدخل في تسوية سواء التفاهم الذي قام بين ايطاليا وفرنسا ، ما لم تدع صراحة لمثل هذا العمل) وفي نفس الوقت يعلم أن فرنسا لن تدعوه لهذا .

وفي ١٧ فبراير سنة ١٨٨١م أخبر لورد ليونز الجنرال كيالديني Cialdini أن (بريطانيا لها رغبة أكيدة في تجنب أى عمل يمكن أن لا يسر فرنسا) (٨١) ثم يستطرد كريسبي فيقول ان بريطانيا وجدت أنه من الأفضل لها أن تتعاون مع فرنسا ، وأن صحيفة ستاندارد البريطانية طبعت في نحو ٢٢ أو ٢٣ مايو سنة ١٨٨١م وثيقة تقول أنه قد اتفق في محادثة جرت بين وادنجتون وكونت كورتى ولورد سالسبرى أنه في حالة استيلاء فرنسا على تونس تقوم ايطاليا باحتلال طرابلس (٨٢) وحينها أرسل مينابريا إلى لورد سالسبرى يقول أن كورتى ينفي حدوث مثل هذه المحادثة رد سير

تشارلز دلكه بأنه لم يكن هناك اتفاق وأن مسألة تونس لم تصل فيها
بريطانيا إلى قرار بعد (٨٣)

ومهما ثار من جدل ونقاش حول حقيقة موقف سالبرى وبريطانيا
من موضوع تسليم بريطانيا بالنموذ الثرنسى المتزايد في تونس فان :

١ - بريطانيا كانت تدرك أن إيطاليا مع مضايق مسينا يجعلها حين
تستولى على تونس تعرض قاعدة مالطة للخطر ويهدد الطريق إلى الهند .

٢ - وإذا وقعت تونس في يد فرنسا فان مضائق البحر المتوسط
ستصبح في يد قوى متنافسة ، ولكن بريطانيا في مالطة ستظل تحافظ على
ميزان القوى في هذه المنطقة . (٨٤)

ولذا فن المرجح أن سالبرى قد أخبر وادنجتون أن بريطانيا لا تقصد
أن تقيم لها قاعدة في مصر ولا في تونس ، ولذلك فهي لا تمنع في أن تأخذ
فرنسا تونس حيث يتيح لها موقعها ووجودها في الجزائر هذا الحق . (٨٥)

وكانت بريطانيا قد بدأت تغير بصورة واضحة من تصرفاتها في تونس
فعندما احتج بيلوف لدى لورد رسل السفير البريطاني في برلين على تصرفات
وود (٨٦) وجدنا سالبرى يسحب وود لأنه لم يتبع السياسة الجديدة وخاصة
بعد أن وصلت إلى سالبرى مذكرة من وادنجتون يحتج فيها على تصرفات
وود أيضاً (٨٧) ، وقد رد عليه بأنه يحب وود من تونس وأنه لا يرغب في شيء
فيها ، وأن بريطانيا (لديها من المشاكل في أماكن أخرى ما يكفي و ترغب
ولا ترغب في إثارة المشاكل في تونس) (٨٨)

٣ - بريطانيا وإيطاليا وتونس :

كانت إيطاليا هي البلد الوحيد ذو المهدف المحدد في تونس ، والذي
تجاهله سالبرى في مؤتمر برلين ، ولقد قال وادنجتون أن سالبرى حين

قدم له تونس على ايطاليا طرابلس (٨٩) ، وقد تألم الايطاليون لحصول بريطانيا على قبرص أكثر مما تألم الفرنسيون ، حتى أن كورتى أصبح من المتوقع سقوطه . كما أن دي لوناى عندما شكاه من أنه لم يسمح بالاتفاق البريطاني العثماني قبل نشره رد الوزير البريطاني (تستخلص من كلامه لخصي أن ايطاليا يمكن أن تحلم بالتوسع في جهة طرابلس أو تونس) ، كما أن التقارير الإيطالية رأت أن سالسبرى ألمح أنه وجد على الساحل الافريقي (حجرة كافية) لفرنسا وايطاليا لترضيها ، واستخلص دي لوناى أنه كان يفكر في تونس لفرنسا وطرابلس لايطاليا . وقد استخلص أودوورسل السفير البريطاني في برلين مثل ذلك ، لأن فكرة الاحتلال والحماية الفرنسية على تونس أصبحت تحظى بتأييد كبير في فرنسا . كما أن كما أن ميناير السفير الايطالى في لندن أدرك أن سالسبرى قال في ١٣ أغسطس سنة ١٨٧٨ م شيئاً عن تونس والامال الفرنسية . (٩٠)

ولما بدأت فرنسا تتخذ خطوات ايجابية لفرض حمايتها على تونس ، وبدأت تعد مسودة معاهدة حماية لتقدم إلى الباي تتضمن احتلال بعض المواقع الهامة توقع وادنجتون بجانب موقف وود معارضة وموقف ايطاليا . (٩١)

وهنا بدأ وادنجتون بسبب ذلك يتجه إلى لندن ، ولكن سالسبرى أخذ يحذره من احساسات الايطاليين ، فما كان من وادنجتون الا أن كتب إلى ليونز في ١٧ أغسطس بأنه يمكن تعويض ايطاليا بطرابلس ولكن ليونز يحذر فرنسا من (ثورة عارمة) قد تحتاج تونس وتثير الايطاليين . وأنه من الأفضل لهم العمل على زيادة نفوذهم تدريجياً . (٩٢)

وكان البريطانيون يذكرون أن التعاون الايطالى بخصوص المسألة المصرية مفيد لهم ولذا كان من المستحب عدم اغضاب ايطاليا باعطاء فرنسا تشجيعاً علنياً بخصوص فرض الحماية الفرنسية السريع على تونس . ثم عاد فأذكر أنه قدم تونس لفرنسا في أغسطس سنة ١٨٧٨ م . (٩٣)

وكان وود لا يزال يعمل على الحفاظ على الاحوال الراهنه في تونس وخاصة بالنسبة لتزايد القلق في ايطاليا على رعاياها القائدين في تونس ، وكان قد تسلم رسالة في يوليو تفيد بأنه ليس هناك عرض بضم تونس . وكانت قد ترددت الاشاعات بأن روستان زار باريس من أجل ما أشيع عن عرض بريطانيا لفرنسا ، فما كان من دزرائيلي الا أن نشر تأكيداً باللغة العربية بالحفاظ على كيان الاملاك العثمانية . (٩٤) كما وصلت إلى الباي رسالة من سالسبري تدعوه لطرد أية أفكار قد تراوده عن نوايا عدوانية من جانب كل من فرنسا وايطاليا ، ويطلب منه أن يتجنب أى موقف قد يثير الشكوى . (٩٥)

معنى ذلك أنه كانت هناك فرصة للحفاظ على استقلال تونس بعيداً عن فرنسا المترددة وايطاليا صاحبة المصالح العديدة .

ولكننا نلاحظ ان الايطاليين لم يكونوا يدركون تغير السياسة البريطانية التي بدأت تتحدى التقدم الفرنسي (٩٦) ، وأن وود لم يكن محل ثقة سالسبري وقد أخبره أنه بسبب بعض الامتيازات التي اعطيت للايطاليين قد تنشب الحرب ، وكان وود قد أخذ هو وماشيو القنصل الايطالى يحفز ان الباي على العصيان والتمرد وانتهى الأمر بنقل وود كما رأينا . (٩٧)

وأخيراً فشلت محاولات ايطاليا لتجعل سالسبري يقطع لهم اثمرة من أيدي الفرنسيين ، وظل سالسبري على حياده المعلن خلال التوقفين الايطالى والفرنسى وان كان هناك شبه تأكيد أنه شجع فرنسا بشكل أو بآخر على أن تزيد من نفوذها في تونس .

وذهب وود وذهبت معه سياسة بريطانيا خلال نصف قرن من الزمن ولكن بقيت معاهدته ، وبقي الرجل الذى خلفه على عدااء أيضاً مع النفوذ الفرنسى . (٩٨)

(هوامش الدراسة)

Robert Blake; Disraeli, (Eyre and Spottis Woode). Lond. 1966. PP. 570—77.

Lady Gwendolen Cecil; Life of Robert Marquis of Salisbury. 4Vols. (I) 1830—68; ii) 1867—79; iii) 1880—86, iv) (1887—1892) Hodder and Staughton LTD. Lond. 1921. Vol. ii, P. 145.

Blake; Op. Cit. PP. 580—581.

٤ - هو ادوارد ستانلي ١٥ أول أوف دربي (١٧٩٩ - ١٨٦٩ م) تلقى تعليمه في ايتون وكرسست تشرش باكسفورد. انضم لحزب الويچ في ١٨٢٢ م وحتى سنة ١٨٣٤ م ثم انضم لحزب المحافظين سنة ١٨٣٥ م أصبح لورد ستانلي سنة ١٨٤٤ م. تولى رئاسة الوزارة في عام ١٨٥٢ م. ثم تولى وزارة الهند سنة ١٨٥٩/٥٨ م ، ثم وزارة الخارجية ١٩٦٨/٦٦ تعاون مع دزرائيلي في اصلاحات سنة ٦٦ ، ١٨٦٧ م تولى الخارجية سنة ١٨٧٨/٧٤ م وفي ٨٢ صار وزيراً للمستعمرات حتى سنة ١٨٨٥ م (ص ٤٨٢).

Richard Shannon; The Crisis of Imperialism 1865--1915 (Friadin) Lond. ? P.

Blake; Op. Cit. PP. 633—637. — 5

Ibid; PP. 637—639. — 6

Ibid; PP. 641—644. — 7

٨ - مذكرة - بقلم سيرج. ل. أ. سيمونز في ١٠ فبراير سنة ١٨٧٧

S/P. F.O. 358/1.

Ibid; P. 645. — 9

Bulow to Hohenlohe 3rd. March 1878. PP. 80—81. : E.T. Dugale; —10
German diplomatic documents. (Mathuen and LTD.) Lond.
1928. Vol. 1.

١١ - مذكرة من لورد دربي في ١٦ مارس سنة ١٨٧٨ م ص ٨٢

١٢ - من كونت هونستر إلى الأمير بهارك . في ١٠ ابريل

سنة ١٨٧٨ م ص ٩٢ - ٩٥ .

Blake; op. Ci PP. 646—649. —13

Ibid; —14

Ibid; Pi 650 Obid:PP. 650—653. —15

Lyons to Lord Derby. Feb. 24. 1978.; Lord Newton; Lord Lyons. A.—16
record of British diplomacy. (Edward Arnold). Lond. 1913. 2 Vols.
Vol. 2 PP. 54—55.

William Langer; The diplomacy of Imperialism. Vol. 1. 2 Vols.) New—17
York 1935. (Alfred Knapf.)P. 59.

Ibid; P. 59. —18

A.C. Coolidge; The Origins of the Triple Alliance. New York. 1919.—19
P. 203.

Langer: Op. Cit. P. 59. —20

Langer: OP. Cit. P. 60. —21

٢٢ - مذكرة مرفوعة من لورد دربي إلى لورد رسل . برلين

١٢ نوفمبر سنة ١٨٧٥ م : نيوتن ص ٨٧ - ٩٠

Ibid; P. 60. —23

Coolidge: Op. Cit. P. 201. —24

Langer: Op. Cit. P. 61. —25

Ibid; P. 62. —26

Ibid; PP. 63—64. —27

- ٢٨ - من دربي إلى باجت . رقم ١٤٣ في ١٣ مارس سنة ١٨٧٨ م
F.O.45-5333 ومذكرة (بدون تاريخ) F.O.45-337
- ٢٩ - من باجت إلى دربي . رقم ٢٣٨ ، في ١٨ مارس سنة ١٨٧٨ م
Sir, Sidney Lee; King Edward VII-a Biography. 2 Vols. (Macmillan &—30
CoLTD) Lond. 1925. P. 432. Vol. 2.
- Langer; Op. Cit. P. 66. —31
- Newton; Lord, Lyons. Vol. ii. P. 139. —32
- Cecil; Op. Cit. Vol. ii. PP. 386—7. —33
- C. Hanoutaux; Histoire de la France Contemporaine 1871—1900. —34
Tome iv-La Republique Parlementaire. (Ancien Librairie Furne).
Paris 1908. PP. 388—389.
- Jean Darcey; Cent Années de Rivalité Coloniales en Tunisie. Paris. —35
1964.. P. 204.
- Langer; Op. Cit. P. 67. —36
- Cecil; Op. Cit. Vol. ii. P. 295. —37
- Langer; Op. Cit. P. 68. & Gwynn and Tuckwell; Op. Cit. Vol. PP—38
3—27 & A. Billot; La France et L'Italie. Histoire des années.
troubles. Paris 1905. PP. 1881—99. Vol. ii) P. 53 & Edmond
Fitzmaurice, Life of Granville George Leveson Gower Second
Earl of Granville. 1815—9. Vol. ii) P. 234 (2nd Edit. 2 Vols. Lond.
1911.
- Langer; Op. Cit. P. 70. —39
- Ibid, P. 71.
- Gwynn and Tuckwell; Op. Cit. P. 382. —40
- ٤٢ - من لورد سالسبري إلى لورد ليونز في ٢٠ يوليو سنة ١٨٧٨ م

Newton, Lord Lyons. PP. 154—156.

Cecil; Op. Cit. Vol. ii. P. 333. — 43

٤٤ — من سalsبرى إلى ليونز فى ٢٠ يولية سنة ١٨٧٨ م

Newton; Op. Cit. PP. 154—156.

٤٥ — من سalsبرى إلى ليونز فى ٢٤ يولية سنة ١٨٧٨ م

Ibid; PP. 158—159.

State. papers (Accounts and papers) Vol. 73 PP. 439—440. — 64

Broadley (A.M.); The last Punic War. Tunis Past and Present with a-74
narrative of the French conquest to the Regency. 2 Vols. Lond.
1882. P. 171.Vol. .

Langer; Op. Cit. P. 74. — 48

Ibid; P. 75. — 49

Ibid; P. 76. — 50

٥١ — من سalsبرى إلى ليونز فى ٦ مارس سنة ١٨٧٩ م

Newton; Op. Cit. PP. 173—4.

Paul Knaplund; Gladstone's foreign policy. (Frاندlass & Co. LTD)— 52
Lond. 1970. P. 82.

A.L. Kennedy; Salisbury 1830-1902. Portrait of a statesman. Lond. - 53
1953. (John Murray) P. 128.

Ibid; P. 275. — 54

Newton; Lord Lyons. Vol. ii. P. 386. — 55

٥٦ — لن الكونت هربرت بسمارك إلى بيلوف . برلين ٣٠ يناير

سنة ١٨٧٩ م

G.D.D. PP. 126—7.

- William Langer; European Alliances and Allignments 1871—189.— 57
(Vingate) 2nd Edit. New York. 1950. P. 160.
- Documents Diplomatiques Francaise, 1ere Serie. Tome 11 Nos. 283, —58
285, 304 (D.D.F. 1 : 11/Nos. 283, 285, 304).
- Ibid. Nos.; 320, 336. — 59
- Langer, European Alliances. P. 221. &DDF. 1/11/Nos. 366, 369. — 60
- Marsden (Arthur); British diplomacy and Tunis. 1875-1902. Lond.— 61
1971. PP. 50—59.
- Ibid; P. 55. — 62
- Ibid; P. 57. — 63
- Buckle; Op. Cit. P. 373. — 64
- Woolf (Leonard Sidney); Empire and Commerce in Africa Lond. 1919.65
PP. 94—95.
- D'Estournelle de Constant; La Politique Francaise en Tunisie, Le — 66
Protectorat et ses origines. 1854—1891. ((Librairie Plon)
Paris. P. 86.
- ٦٧ — من لورد سالسبرى إلى ليونز . هاتفليد في ٢٤ أبريل سنة ١٨٨١ م
Newton, Lord Lyons P.242.
- Ling (Dweight); Tunisia from Protectorate to Republic, (Indiaua — 68
University Press). Lond. 1967.
- Ibid; P. 23. — 69
- D.D.F. 1/11 No. 352. — 70
- Ibid; No. 330. — 71
- Ibid; No. 330 & Sidney Lee; King Edward. New York 1925. Vol 1.72
PP. 366-367.
- Ibid; Nos. 364, 366, 368.

Ibid, No. 369. — 74

Gynn and Tuckwell; Op. Cit. P. 334. — 75

Ibid; P. 335. — 76

Tornielli to Crispi. Jan. 9. 1894 : Crispi The memoris of Francesco 77
Crispi. Translated by Mary Prichard Angetti. In 3 Vols. Vol.
ii. PP. 98—100.

٧٨ - ليبالد فيليب برمروز . خامس أرمل أوف روز برى . تلقى
تعليمه فى ايتون تشر وكست باكسفورد . نال لقب أرل فى سنة ١٧٦٨ م
كان من الأحرار . أصبح وزيراً للخارجية فى سنة ١٨٨٦ م . من ٩٢
إلى ١٨٩٤ م وفى سنة ١٧٩٤ م وحتى سنة ١٨٩٥ م صار رئيساً لوزارة
وكان رئيساً لمجلس كونتات لندن فى ١٨٩٠/٨٩ اعتزل حزب الأحرار
فى سنة ١٨٩٦ م . عرف بمناصرته لسياسة الاستعمار .
(Shannon; Op. Cit. 0.489).

٧٩ - فى هامش ٧٧

Crispi; The üMemoirs of Francesco Crispi. Vol. ii. P. 100. — 80

Ibid; P. 112. — 81

Ibid; P. 113. — 82

Ibid; P. 115. — 83

Ling; Op. Cit. P. 13. — 84

٨٥ - سالسبرى إلى هنرى لايارد فى ٢٩ اكتوبر سنة ١٨٧٨ م .
Cecil, Op. Cit. Vol. ii. P. 332..

L.J. 7th, August 1878 PP. 73—74. — 86

D.D.F. 1/11 No. 375. — 87

- ٨٨ — سالسبرى إلى ليونز في ٦ مارس سنة ١٨٧٩ م
 Newton, Lord Lyone Vol. ii. PP. 173—4.
- Marsden; British diplomacy and Tunis. P. 59. — 89
- Ibid; P. 60. — 90
- D.D.F. (1/11 Nos. 328, 329. — 91
- Marsden; Oo. Cit. P. 62. — 92
- Cecil; Op. Cit. Vol. ii. P. 331. — 93
- Marsden; Op. Cit. 63. — 94
- ٩٥ — من وود إلى سالسبرى في ١٢ أغسطس سنة ١٨٧٨ م
 F.O. 102/111 No. 40.
- ٩٦ — من سالسبرى إلى وود . في ٢٦ أغسطس سنة ١٨٧٨ م
 F.O. 102/111 No. 51.
- Marsen; Op. Cit. PP. 64—65. — 97
- Ibid; P. 66. — 98

(مراجع الدراسة)

(أولاً) وثائق غير منشورة

مجموعة الوثائق والمراسلات :

وثائق وزارة الخارجية البريطانية (F.O.) موجودة حالياً في

The Public Record Office (P.R.O.)

ومحفوظة كالتالى :

- | | |
|----------|----------------------------------|
| F.O. 45 | ١ - المراسلات مع إيطاليا |
| F.O. 27 | ٢ - المراسلات مع فرنسا |
| F.O. 102 | ٣ - المراسلات مع القناصل في تونس |
| F.O. 363 | ٤ - أوراق لورد تتردن الخاصة |
| F.O. 358 | ٥ - أوراق لورد سيمونز الخاصة |

(ثانياً) وثائق منشورة

(أ) وثائق فرنسية

- 1) Documents Diplomatiques Françaises. Affaires de de Tunisie.
1871—1881 (L.J.) واختصارها
- 2) Documents Diplomatiques Francaises. 1st Series. 1871—1900
(D.D.F. 1 : ../ واختصارها

(ب) وثائق المانية :

- 1) E.T.S. Dugale; German Diplomatic Documents. 1871—1913. 4
Vols. (Methuen and Co. L. T.D.) Lond. 1928.

(ج) وثائق بريطانية :

- 1) Buckle (George Earle); The letters of Q. Victoria. 2nd Series.
Vols. 1, 2, 3, 1862—1885.

- 2) Lord Newton; Lord Lyons. A record of British diplomacy. (Edward Arnold). Lond. 1913.
- 3) State Papers (Accounts and Papers).

(د) وثائق ايطالية

- 1) Crispi (Thomas Palamenghi); The memoris of Francesco Crispi. Translated by Mary Prichard Agnetti. in 3 Vols. (Hodder and Staughton LTD.) Lod. 1912.

(ثالثاً) سير وتاريخ حياة

- 1) Blake (Robert); Disraeli. (Eyre and Spottis Woode.) Lond. 1966.
- 2) Cecil (Lay Gwendohlen); Life of Robert Marquis of Salisbury. 4 Vols. (Hodder and Staughton) LTD.) Lond. 1921.
- 3) Fitzmaurice (Lord Edmond); The life of Granville George Leveson Gower second Earle of Granville. K.G. 1814—1891. with portraits. 2 Vols. 2nd. Edit. (Longmans Green and Co.) Lond. 1905.
- 4) Gwynn (Stephen) & Tuckwell (Gertrude); the life of the Rt. Hon. Sir Charles Dilke. (John Murray) Lond. 1918.
- 5) Kennedy (A.L.); Salisbury 1830—1902. Portrart of a Statesman. (John Murray)
- 6) Lee (Sir Sidney); King Edward vii . A. biography 2 vols. (Machillan & Co. LTD). Lond. 1926.

(رابعاً) مؤلفات بلغات أجنبية

- 1) Billot (A.); L'Italie. Histoire des années troubles. 2 vols. Paris 1905.

- 2) Broadly (A.M.); *The last Punic War. Tunis Past and present with an narrative of the French Conquest to the Regency.* 2 Vols. Lond. 1882.
- 3) Coolidge (A.C.); *The Origins of the Triple Alliance.* New York 1919.
- 4) Darcey (Jean); *Cent années de rivalité coloniale en Tunisie.* Paris. 1964.
- 5) D'Estournelle de Constant; *Lapolitique Francaise en Tunisie. Le Protectorat et ses origines 1854—1891.* (Librairie Plon). Paris
- 6) Hanoutaux (Gabriel); *Histoire de la France contemporaine 1871—1900. Tome iv. La Republique Parlementaire (Ancien Tome iv. La Republique Parlementaire (Ancien librairie Furve)* Paris 1908.
- 7) Knaplund (Paul.); *the scalities behind diplomacy (Background influences on British External policy 1865—1960.).* Fontana paper backs). Lond 1966.
- 8) Langer (William); *European Alliances and Alignments 1871—189.* 2nd edit. (Wingale) New York 1950.
- 9) Langer (William); *The diplomacy of Imperialism. 1890—1902. Vol. 1 (2 vols.)* (Alfred knapf) New York. 1935.
- 10) Ling (Dwight); *Tunisia from pratectorate to republique.* (Indiana University Press.) Lond. 1967.
- 11) Marden (Arthur); *British diplomacy and Tunis. 1875—1902. A case study of Mediterranean policy.* (Socotch Academic Press) Lond. 1971.
- 12) Shanon (Richard); *The Crisis of imperialism. 1865—1915.* (Paladin) Lond.
- 13) Woolf (Leonard Sidney); *Empire and Commerce in Africa.* Lond, 1919.

1st UNPUBLISHED DOCUMENTS

— 1 —

F.O. 27/2311

Lord Salisbury to Lord Lyons.

No. 24. Tel.

Foreign Office.

July 20, 1878.

What M. Waddington said to you is very much what he said to meat Berlin, though lurid touches about war have been filled in afterwards.

The precise answer to be given to his promised despatch must of course depend very much on the terms in which it is framed . But he may be certain that we shall answer it not only with the desire of cultivating to the utmost possible extent our good relations with France, but also with the aim of making his own personal task more easy, as far as it is in our power to contribute to that result.

The matter to which he has called your attention, as he did ours at Berlin, was difficult to make the subject of binding assurances, because the contingencies under which those assurances would receive a practical application are difficult to foresee.

It France occupied Tunis to-morrow, we should not even remonstrate. But to promise that publicly would be a little difficult, because we must avoid giving away other people's property without their consent, and also because it is no business of ours to pronounce before hand on the considerations which Italy would probably advance upon that subject. In the same way, with respect to Egypt. we have stated distinctly more than once that we do not entertain any intentin of occupying it; and that statement we are perfectly willing to renew. But, having done that, and having expressed our anxiety to work with France in Egypt., we have said as much as would be seemly or possible. We can hardly pledge the Khedive as to what he means to do, without in reality assuming a voice in his concerns which we do not, according to any international right, possess.

These considerations make me rather anxious that M. Waddington in his proposed despatch should avoid putting categorical questions which we might not be able to answer precisely as he wishes, and yet which we could not avoid answering without seeming to exhibit precisely that coolness which he very properly and justly deprecates, and any appearance of which we are as anxious as his to avoid. I think that his despatch-if I might suggest it-would more properly take the form of a statement, in general terms, of the territorial points on the African coast in which France takes an interest, leaving us to make such assurances as we think we can properly give, and which we will certainly make as cordial as we can.

To French influence in Egypt we do not offer any objection; and we have never taken any step calculated to oust it. But any detailed engagements as to questions of administration could not be taken without imprudence; for each step must be taken as the necessity for it arises. The two great points are to keep the Khedive on the throne, and to get the financial obligations satisfied. For these objects, the two countries will, I hope, co-operate heartily.

I am a little anxious as to the form he gives his despatch, for he makes it too peremptory, he may produce that very appearance of estrangement which it is our common object to avoid.

I will write to you more fully about the Newfoundland Fisheries when I have had time to study the papers. My conversations with him have put me fully in possession of the French case. I am not so certain that I know all the points of the English case.

— 2 —

P.R.O. 30/29/255 Vol. 19.

Confidential 2178.

Statement and explanations with reference to the Tunisian Question (showing views of France & Co.) by Richard Wood. (Extracts) (1).....

..... The conquest of Algeria by France having drawn more particularly the attention of Europe to Tunis, the foregoing order of things as by tacit consent recognized as forming the Political status of the

Regency. Its conditions are substantially detailed in memorandum No. 1.

France however, renewed very recently her attempt in furtherance of her own views to change the status in one of its most essential conditions namely, the recognition by the Beys of the Suzerainty of the Sultan, by affirming that the connection between the two Mussulman Princes was of a spiritual and not of a political character. The preambles of the ancient treaties between France and Tunis and the more recent provisions of the Treaties of 1824 and 1830, to the effect that the capitulations between France and the Sultan shall be likewise observed in the Regency, disprove the above assertion, and confirm on the contrary that France formally recognized in her international engagements with Tunis and Turkey, the Political connection that existed between them.

..... The object of France is to sever the connection between the Sultan and the Bey in order that by isolating the Regency, she may facilitate the submission of her own supremacy and Protectorate for the Turkey's connection.

..... Were France to carry out successfully the foregoing views, her military stations on the Madjerdah would be brought to within twelve miles of the Tunisian Capital, and its port would be commanded by her naval station to Port Farina. The seat of Government and the Tunisian authorities thus surrounded would inevitably succumb to French Supremacy, and the Protectorate once extended over the Regency, and the Protectorate once extended over the Regency, Tripoli, and afterwards Egypt, would be subjected to a similar ordeal preparatory to their subjugation in due course of time. The possession of formidable arsenals, both at Bizerta and Port Farina, would, by giving France preponderating naval and military forces in the centre of the Mediterranean, facilitate the realization of her policy.

As a step towards their attainment, she has directed her attention to the destruction and prevention of the development of the interests of England, Italy and Turkey in the Regency, in the expectation that, with the disappearance and cessation of those interests the British, Italian and Turkish Governments will interfere but feebly to save the Regency

..... should France however, further convey her secret designs upon this country, by raising insuperable obstacles to its closer union with the ottoman dominions it would then be in the interest of Tunis, that she should prevent their realization by consenting to its neutrality guaranteed by her and by Europe.

If unfortunately, however, every combination should fail for securing the independence of the Regency, the inevitable result will be the complete discouragement and prostration of the Bey, his compulsory submission to France, dictation and consequent production of a state of things so as to render its absorption into Algeria simply a question of time.

Richard Wood

Tunis 26th November, 1864.

١ - مقتطفات من تقرير طويل كتبه القنصل البريطاني العام ريتشارد وود يصف حالة تونس وإطاع فرنسا فيها سياستها تجاه تونس وبريطانيا وإيطاليا فيما يتعلق بتونس .

تعليق :

المصنف هـنا توضيح الهدف الحقيقي لسياسة فرنسا في تونس ، وكيف أنها كانت تعمل على اعتبار تونس دولة مستقلة وليست مرتبطة بالخلافة العثمانية ، تمهيداً لابتلاعها إذا ما جاء الوقت المناسب ، كما يوضح هذا التقرير ان بريطانيا كانت حتى سنة ١٨٧٥ م تخشى من امتداد النفوذ الفرنسي المباشر إلى تونس حتى لا تحول قاعدتي بنزرت ويورت فارينا إلى ميناءين حربيين بحريين ، وأيضاً أن إيطاليا كانت تطمع في تونس مثلاً مثل فرنسا

وكان القنصل البريطاني العام ريتشارد وود دائماً ما يحذر ساسة بلاده من المؤامرات والسياسة الفرنسية في تونس ، ويبدل جهده لتوثيق الرابطة بين تونس والخلافة العثمانية ليقاوم المؤامرات الفرنسية في تونس ولتتمتع تونس بما تتمتع به بقية الاملاك العثمانية من الحماية كما اتفقت الدول على ذلك في معاهدة باريس سنة ١٨٥٦ م عقب عر حرب القرم .

وسنرى أن الموقف البريطاني قد تغير نحو تونس بعد أن وقعت بريطانيا اتفاقاً سرياً مع الدولة العثمانية حصلت بمقتضاه على حق إدارة جزيرة قبرص في نظير قيامها بحماية الاملاك العثمانية في وجه الاطماع الروسية ، كما أن بريطانيا بدأت تفكر في مصر ، وكانت تخشى المعارضة الفرنسية فالت إلى شيء من التساهل مع فرنسا ولكن إذا كان ذلك هو موقف حكومة المحافظين برياسة دزرائيلي فان موقف حكومة الاحرار برياسة جلادستون وجرانفيل وزيراً للخارجية كان لا يزال يخشى على المصالح البريطانية في تونس ولا يؤيد وضع تونس تحت الحماية الفرنسية .

(ثانيا)

2ndly From,

Hansard's Parliamentary Debates 3rd Series.

— 1 —

Tunis-Suzerainty of the Porte.

Vol. CCLXI May 13 1881. P. 406.

Mr. MONTAGUE GUEST asked the under Secretary of state for foreign Affairs, Whether Her Majesty's Government did not recognize the Firman of 1871, in which the relations between the Porte and Tunis as "an integral part of the Ottoman Empire" were fully set forth; and, if he will lay upon the Table the Despatch congratulating the Bey of Tunis on the conclusion of the Convention between Khriedine Pasha and the Prorte?

Sir CHARLES W. DILKE : Sir, the Firman of 1871 was virtually recognized by Her Majesty's Government, who considered Tunis to be under the suzerainty of the Porte. The French Government, as may hon. Friend is aware, and as I have already stated in this House, have since 1838 held a contrary view. No despatch of the nature referred to by my hon. Friend exists.

France and Tunis

Vol. CCLXI May 16, 1881 PP. 659—572.

Mr. MONTAGUE GUEST said, Now, he would ask the House whether the French Government, after what they had just read,⁽¹⁾ were justified in saying that they did not mean to annex any territory ? He should, moreover, like to know whether, considering its position, this country had no interest in the question whether Tunis was or was not to be an independent State ? („No, no) To those hon. Members behind him who cried “No!” he would only reply that there were in the Regency of Tunis 10,000 British subjects, while the Italians numbered 15,000, and the French only 1,000, and that Tunis was situated at the entrance of the channel leading to Malta, cutting off the whole Eastern Mediterranean, and commanding the passage by which all traffic must pass to Syria, Egypt, the Black Sea, Turkey, and the Adriatic. To those who wished to enter the Black Sea, the Adriatic, or were going to the East, was it, he should like to know, a matter of no importance that a great nation like France should place herself so as to command such a channel ? What would be the consequence of her having done so in time of war ? At the first threatening of war with France insurances would at once group, and the whole carrying trade would be transferred from British ships to those of other neutral nations. Then traffic would be handed over from our vessels to those of other nations. Then he would ask the House to consider for a moment the position of Bizerta itself. His hon. Friend the Under Secretary of State for Foreign Affairs had informed him the other evening, in answer to a Question which he had put to him, that he was aware of its importance, thought he certainly would have imagined that he was not, for he said” that without the expenditure of a large sum of money it was almost impossible that it could be used as a harbour. He (Mr. Guest) would, however, refer hon. Members to a letter which appeared in ‘The Times’ newspaper that morning from Admiral Spratt, in which he stated on his professional authority that for a sum of less than L. E.250,000 all obstruction could be removed from the channel, and that Bizerta could be made at once a most important harbour. Moreover, in taking the position of Bizerta into account, it should not, he might add, be forgotten that it was the only commanding port in North Africa. When the present state of affairs was duly considered, it was only right that the House should bear

in mind that in 1871 a Firman had been granted by the Sultan to the Bey of Tunis. The substance of that Firman was —

„ 1. That the Regency of Tunis shall form, as heretofore, an integral part of the Ottoman dominions. 2. That the Beys on their accession shall apply for and receive their investiture from the Sultan, their suzerain. 3. That the Hutba (Friday's prayer) shall be as heretofore, said in the name of the Sultan (This shows the Sultan's spiritual supremacy). 4. That the money shall be coined in his name (this shows the Sultan's administrative supremacy). 5. That, in lieu of tribute, Tunis shall furnish a contingent of troops in case of war. 6. That, although the Bey might make Commercial Treaties with foreign Powers, he was entirely debarred from entering into political Treaties with them, or from yielding or ceding to them any part of Tunisian territory”.

Now having had it on good authority, he was, he believed, correct in saying that the Government of England had expressed their satisfaction to the Bey at that Firman having been granted, and that the Governments of Austria, Russia, and Germany had congratulated the Bey on the occasion. It was only the other day that he had put a Question to the Under Secretary of State for Foreign Affairs on the subject, and he had been informed in reply that the French did not recognize the Firman. He would, however, refer hon. Members to the Circular which had been addressed by the Sultan to the Ministers of Foreign Powers, in which it was shown most distinctly that so late as 1863 this suzerainty over Tunis was acknowledged by the French. When had they, he would ask, ceased to recognize it? There was not the slightest doubt that the authority of the Sultan over Tunis had existed for a great many years, and it had been acknowledged by Her Majesty's Government. Again, France had declared that Tunis was independent, and was perfectly able to make this Treaty with them; but if Tunis was independent in 1881, she was equally independent in 1871, and able to make the arrangement she had made with the Porte by the Firman of that year. What was the position of the Bey at the present moment France had annexed the country, and he should like to know, in the event of any question arising between this country and Tunis not of a commercial nature, whether the Government would pay attention to the Firman of 1871, the authority of which they said they recognized, or to the Treaty which had just been concluded with France? For his own part, notwithstanding the high-handed proceedings of the French in overrunning a friendly country, he hoped the Government would stick to the Firman

of 1871. He was aware that it was said that Lord Salisbury had made an arrangement with France in 1878. He would ask, however, what power Lord Salisbury had, after the Berlin Treaty, to make such an arrangement? Lord Salisbury had, he believed, denied that he had made any such arrangement was that attributed to him. "Oh, oh!" He was willing to abstain from going into the question whether Lord Salisbury had or had not made such an arrangement, because it was probable that the House would hear some authoritative statement on the point before the discussion closed. For his own part, he thought it was impossible that an English Minister could have agreed to hand over to the Government of France any portion of the Ottoman Empire. In any case, however, it had been thrown in the teeth of the Liberal Party that, in everything they had done since they had come into power, they had attempted to reverse the policy of their Predecessors in Office; and even assuming that Lord Salisbury had made the arrangement attributed to him, was it to be contended that on this question alone the present Government were bound to abide by and carry into effect the policy of their Predecessors? In his opinion, Her Majesty's Government were bound to protest against this high-handed-he was almost going to say this outrage us-attack which had been made by France upon Tunis. They had marched into a friendly country a Force of some 30,000 or 40,000 men, and had taken possession of one of the most important ports on the Mediterranean, and had forced the unfortunate Bey of Tunis to sign a Treaty at the point of the bayonet. He recommended the Government to join Italy in making a most determined protest against the course that had been taken. He apologized to the House for having occupied so much of their time on this occasion; but he felt that the subject was one on which that House and this country should speak out, in order that the public of Europe might know what their feelings were in reference to it, and that France-with whom we were on the most friendly terms-should be made aware without delay that her proceedings in this matter did not commend themselves to us. The fact was, led on by Germany and Prince Bismarck, France had fallen into a trap, although she was, for the moment, as proud as if she were marching on Berlin. He begged, in conclusion, to move the adjournment of the House.

(١) إذا كان لورد سالسبري قد فاه بعبارات فهم منها ودانجتون وزير خارجية فرنسا وممثليها في مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨م أن بريطانيا تقدم لفرنسا تونس كتعويض عن حصولها هي على قبرص فان الرأي العام البريطاني وحكومة الاحرار كانت تعارض ذهاب فرنسا إلى تونس وقد قاد لورد جرانفيل الذي أصبح وزير الخارجية في وزارة جلاستون منذ سنة ١٨٠٠م حملة معارضة ضد ذلك ، كما أن مجلس العموم البريطاني قد قام يستوجب هذه الوزارة عن مدى صحة ماذهب إليه الفرنسيون ، وأخذ وخاصة على لسان العضو مونتاجو جوست يحذر من مغبة التفريط في تونس والذهاب إلى حد الموافقة على السماح لفرنسا بفرض حمايتها على تونس حرصا على رعتها هناك البالغة عشرة آلاف ، وحتى لا تحول بنزوت إلى قاعدة عسكرية بحرية وحتى لاتضيع حقوق بريطانيا التجارية في تونس.

(٢) كان العضو مونتاجو قد قرأ على المجلس نص رسالة دورية أرسلها سانت هيلير وزير الخارجية الفرنسية إلى الدوائر السياسية البريطانية يقول فيها أن فرنسا ستقوم بسياسة إنشائية تعميرية في مدن تونس ومواصلاتها ، والعناية بالزراعة وإستغلال الغابات والمناجم فتونس بلد خصب ويجب إستغلالها ، ولو أن الباي وثق في الفرنسيين فان الادارة ستتحسن وليست فرنسا فقط هي التي يستفيد من إستغلال تونس بل كل الامم المتحضرة مثلما تفعل في الجزائر ومثلما تفعل بريطانيا في الهند (ص ٥٦٨ ، ٥٦٩ من نفس المجلد).

Mr. Waddington to by the Marquis of d'Harcourt.

July 27

Paris Le 26 Juillet 1878

M. Le Marquis;

Je vous ai transmis, il y a quelques jours, le texte de la communication que, j'ai reçue du Marquis de Salisbury à Berlin, concernant la convention d'Alliance Defensive signée à Constantinople le 4 Juin entre l'Angl. et la Porte Ottomane, je vous ai rendu compte en même temps des explications dans lesquelles à cette occasion. Le principal secrétaire d'Etat de la Reine avait bien voulu avec moi, au subject du maintien des intérêts français en Syrie et en Egypt.

J'est en outre point sur lequel nous avons été amenés à échanger aussi nos vues et dont je desire vous entretenir spécialement aujourd'hui. Au cours l'examen que nous faisons ensemble des conséquences qui devaient découler du nouvel état des choses en Orient pour les Puissances Riveraines de la Méditerranée, et en particulier pour la France et l'Angleterre, notre attention s'est portée sur la Régence de Tunisie. Lord Salisbury n'ignorait pas la sollicitude que devait causer au Gouvernement Français le sort de ce petit pays, dont la situation, intérieure et si précaire, et sur lequel son voisinage immédiat avec l'Algérie nous oblige à tenir constamment d'oeil ouvert. Allant de lui même à devant des préoccupations qu'il pouvait nous supporter, il s'est appliqué à faire entendre dans le langage le plus amical et le plus explicite à la fois, que l'Angleterre était décidée à ne nous susciter aucun obstacle de ce côté, que dans sa pensée il devait tenir qu'à nous seuls des régler au gré de nos convenances la nature et l'étendue de nos rapports avec la Bey, et que le gouvernement de la Reine acceptait d'avance toutes les conséquences que pouvait impliquer pour la destination ultérieure du territoire Tunisien le développement naturel de notre politique.

„Faites à Tunisie ce que vous jugerez convenable m'a dit sa Seigneurie; L'Angleterre ne s'y opposera pas et respectera vos décisions”. Revenant dans une autre occasion sur ce subject Lord Salisbury n'hésitait pas à me confier qu'il regardait comme moralement impossible que le régime actuel put durer à Tunisie et qu'aux yeux du Cabinet anglais il

appartenait à la France de présider à la régénération de ce pays consacré par de grandes souvenirs.

Je ne pouvais que reconnaître le sentiment amical pour notre nation qui inspirait ces paroles.

J'ai remercié Lord Salisbury de la largeur de vues qu'il apportait dans son appréciation spontanée de notre rôle à l'égard d'un pays placé par la force des circonstances dans l'orbite de notre action.

„Il est possible d'ici, dit-il", que l'avenir nous impose à l'égard de la Tunisie une responsabilité plus directe que celle qui nous incombe aujourd'hui. Les cours naturels des choses, je l'admets avec vous, destinent sans doute cette contrée à compléter un jour l'ensemble des possessions de la France en Afrique, aussi bien dès aujourd'hui ne permettrons-nous à aucune Puissance étrangère de s'y établir et repousserions-nous par les armes toute tentative de ce genre. Je considère donc comme engagé précieux de la bonne entente qui doit régner entre nos deux peuples les transmettre à mon Gouvernement. Bien que j'ignore quelles peuvent être les intentions à ce sujet je ne crois pas qu'il acceptât, dans les circonstances actuelles, une annexion pure et simple telle que vous êtes disposé à envisager dès à présent, un acte semblable ne serait pas en harmonie avec notre politique générale. Il ne serait pas suffisamment motivé aujourd'hui par les difficultés et les ennuis d'ailleurs que nous éprouvons souvent avec nos voisins de Tunisie, ce qui rentrerait à la vérité dans les données de la situation comme nous les comprenons, c'est que notre protectorat dans ce pays fût reconnu d'une manière formelle, avant tant ce pays nous importe c'est que nous une entière liberté d'y étendre notre influence mixte, sans nous heurter à des prétentions rivales.

Tel est M. le Marquis, le résumé des réponses j'ai faites, dans plusieurs entretiens, aux ouvertures de Lord Salisbury. Je vous prie de lui témoigner, à votre tour, l'impression favorable que j'en ai éprouvée le Gouvernement Français. Les paroles du principal secrétaire d'Etat m'avaient été confirmées à Berlin par la bouche du Comte de Bunsen et nous ne pouvons douter par conséquent du parfait accord de vues qui existe dans cette question entre les divers membres du Gouvernement de la Reine. En faisant connaître au Ministre des Affaires Étrangères

كتاب رائق التحلية في فائق التورية

من شعر

ابن خاتمة الانصارى

المتوفى سنة ٧٧٠ هـ

جمعه وصنفه تلميذه

(ابن رزقاله)

تحقيق ودراسة

دكتور فوزى سعد محمد عيسى

كلية الآداب جامعة الإسكندرية

التعريف بابن خاتمة مؤلف الكتاب :

عاش ابن خاتمة في مملكة غرناطة في القرن الثامن الهجري وهو عصر
برز فيه نفر غير قليل من مشاهير الأدباء أمثال لسان الدين بن الخطيب
وابن زمرك وشاعرنا ابن خاتمة وغيرهم .

وقد ولد ابن خاتمة في مدينة «المرية» وهي ثغر من ثغور الأندلس
الشهير ، أنشأها عبد الرحمن الناصر سنة ٣٣٤ هـ . وقد ورد اسم ابن خاتمة
ونسبه كاملا على صدر الورقة الأولى من كتاب رائق التحلية مثبتا بخطه
في صورة إجازة لتلميذه ابن زرقالة . وجاء اسمه على هذا النحو : — أحمد
ابن علي بن محمد بن علي بن محمد بن خاتمة الأنصاري ، المريني الأندلسي
ابو جعفر .

ويحتل ابن خاتمة منزلة رفيعة عند أصحاب التراجم ولا سيما لسان الدين
ابن الخطيب الذي ترجم له في كتابيه «الإحاطة» و «الكتيبة الكامنة» فقال
عنه في الإحاطة : «هذا الرجل صدر يشار إليه ، طالب متقن ، مشارك
قوى الادراك ، سديد النظر ، قوى الذهن ، موفور الأدوات ، كثير
الاجتهاد ، معين الطبع ، جيد القريحة ، بارع الخط ، ممتع المجالسة ، حسن
الخلق ، جميل العشرة ، حسنة من حسنات الأندلس ، وطبقة من النظم
والنثر ، بعيد المرقى في درجة الاجتهاد ، وأخذ بطرق الإحسان ، عقد
الشروط ، وكتب عن الولاة ببلدة ، وقعد للاقراء ببلده ، مشكور السيرة
حميد الطريقة ، في ذلك كله » . (١)

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة ١-٢٤٨ تحقيق محمد عبد الله عنان طبعة دار المعارف بمصر .

كما احتفى به ابن الخطيب في «الكتيبة الكامنة» فقال عنه : «وأما الأدب فهو فيه الحجة التي لا تجهل ، والمحجة التي قصدها الأسهل ، مطولاته بحور زاخرة ، ومقطوعات درر فاخرة ، ورسائله للرياض ساخرة ، وللنجوم الزهر مفاخرة» (١)

وفي كتاب الاحاطة إشارات لشيخ ابن خاتمة مثل أبي الحسن علي ابن محمد بن أبي العيش المري ، وأبي إسحاق إبراهيم بن العاصي التنوخي ومن أشهر شيوخه أبو البركات بن الحاج الذي سمع عليه الكثير وأجازه إجارة عامة وأبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن شعيب القيسي والقاضي ابن فركون وغيرهم (٢) .

كما تتلمذ على ابن خاتمة جلة من العلماء ومنهم ابن زرقالة جامع كتاب «رائق التحلية» . وتوفي ابن خاتمة في سنة ٧٧٠ هـ .

(١) الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة تأليف لسان الدين بن الخطيب تحقيق د. إحسان عباس ط. دار الثقافة بيروت . ص ٢٣٩ .
(٢) إلاحاطة ١-٢٤٩ .

مؤلفاته :

لم يكن ابن خاتمة شاعراً فحسب بل كان - إلى جانب ذلك - كاتباً
وفقيهاً ومصنفًا . ومن مؤلفاته :

١ - ديوان شعر : وهو مطبوع بتحقيق الدكتور محمد رضوان الداية
وقد كتبه ابن خاتمة بخط يده وقسمه إلى أربعة موضوعات هي :

١ - المدح والثناء .

٢ - النسيب والغزل .

٣ - الملاح والفكاهات .

٤ - الموشحات والأزجال .

ويعكس شعره بصفة عامة الذوق الذى كان سائداً فى عصره سواء من
حيث الميل إلى النظم فى موضوعات معينة أو من الناحية الفنية كالميل إلى
الصنعة وتوليد المعانى وتطلب الصور الجديدة الوقوع فى أسر التوريات
وغيرها من الفنون البديعية .

٢ - كتاب مزية المرية على غيرها من البلاد الأندلسية :

وهو مفقود ولكن يتضح من اسمه أنه يسير فى فلك الكتب الأندلسية
المهتمة بإفراد مدينة معينة بتاريخ مستقل مثل كتاب «الإحاطة» فى أخبار
غرناطة «لابن الخطيب» وكتاب أدباء مالقة لابن عساكر ، وفى نفع الطيب
فقرات مطولة نقلها المقرئ عن كتاب مزية المرية لابن خاتمة .

٣ - كتاب رائق التحلية فى فائق التورية :

وهو النص الذى نشره محققا .

وصف المخطوطة :

اعتمدنا في تحقيقنا على نسخة مصورة عن مخطوطة الاسكوريال وتحمل رقم (٤١٩) وصورت في عام ١٩٤٩ وتوجد نسخة مصورة منها بمكتبة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية برقم «١٧٦١ م» وهي التي عولنا عليها في التحقيق .

وتقع هذه المخطوطة في تسع ورقات ، وهي مكتوبة بخط مغربي وكان الفراغ من نسخها في الخامس عشر من جمادى الأولى عام أحد وستين وسبعائة للهجرة أى قبل وفاة ابن خاتمة بتسع سنوات .

والمخطوطة نسخة موثقة ، فعلى غلاف الورقة الأولى نجد العنوان (كتاب رائق التحلية في فائق التورية) ، ونجد اسم جامعها في نسب طويل وهو (أحمد بن محمد ابن علي بن أحمد بن علي بن أحمد بن محمد بن علي بن أبي القاسم ابن أحمد ابن علي بن زرقالة) .

ونظفر على الغلاف نفسه بإجازة ابن خاتمة — بخط يده — لتلميذه ابن زرقالة برواية هذه الأشعار حيث جاءت الإجازة على هذه الصيغة : «وأذنت له — يقصد ابن زرقالة — في روايتها عنى إن أحب ذلك» .

وذكر اسم الناسخ أيضا وهو (جعفر بن أحمد بن مشتمل الأسلمي) ، كما ذكر اسم ممتلك النسخة وهو أمير المؤمنين أبو فارس المرينى .

ابن زرقالة المصنف :

والمعلومات التى بين أيدينا عن ابن زرقالة المصنف ضئيلة ، ولكننا نجد ترجمتين في «درة الحجال» لعلمين من أعلام أسرة المصنف ، أحدهما جده ، والآخر جند أبيه .

أما جده فهو «علي بن أحمد بن علي القيسي . من أهل المرية ، يعرف
بابن زرقالة ، قرأ على أبيه الفقيه أبي جعفر أحمد ، وتأدب به ، وكتب
بين يديه الوثائق ، وعليه تمرن في عقد الشروط ، وعلى الشيخ الفقيه أبي القاسم
ابن خضر بن محمد خضر ، وأخذ القراءات عن الخطيب أبي جعفر الترياسي
وعن أبي الحسن الغافقي الشاري كتاب «الشهاب» للقضاعي ، و «فصيح
ثعلب» وطائفة من رسالة أبي محمد بن أبي زيد ، وتفقه عليه في بعضها ،
وقرأ عليه أكثر موطأ مالك ، وكان من أهل المعرفة والبصر بالتوثيق .
ولد سنة ٦٢٥ وتوفي في خامس شعبان سنة ٦٩٩ هـ (١)

(١) درة الحجال في أسماء الرجال تأليف أبي العباس أحمد محمد المكناسي الشهير بابن القاضي ،
تحقيق د. محمد الأحمدى أبو الأنوار ، نشر المكتبة العتيقة بتونس ودار التراث بالقاهرة خاص .
٢٣٢ - ٢٣٣ ترجمة رقم (١٢٥١) .

أما جد أبيه فهو «أحمد بن علي بن أحمد بن محمد بن علي بن أبي القاسم
ابن أحمد بن علي القيسي . من أهل المرية ، وبيته بها بيت عفة وعلم ، يكنى
أبا جعفر وأبا العباس . ويعرف بابن زرقالة .

كان من صدور العدول بالمرية ، ومن شيوخ المؤثقين بها ، فاضلا
أديبا له حظ من قرض الشعر ، وتقدم للشهادة بها بتقديم أميرها أبي عبد الله
ابن الرميمي ، وناب بالمرية عن قاضيها ، وكان حسن الخط ، ويضرب به
إلى الخط المشرقي وترك التوثيق في آخر عمره . أخذ القراءات عن الأستاذ
أبي محمد : عبد الله بن محمد الرهان ، وعن الخطيب أبي عبد الله : محمد
بن لب بن الصائغ الأبي ، وقرأ عليه موطأ مالك بن أنس ، وتفقه عليه في
رسالة الشيخ أبي محمد ، وأجاز له الرئيس المحدث أبو عثمان : سعيد بن حكم
القرشي المنورقي وغيره ، كان مولده في السابع والعشرين لرجب
سنة ٦٠١ وتوفي بالمرية سنة ٦٨٣ هـ» (١) .

وأورد له صاحب «درة الحجال» أبياتا من نظمه ينهى بها ابنه الفقيه
أبا الحسن بمولود . (٢)

وتدلنا هاتان الترجمتان على أن المصنف كان ينتمي إلى أسرة عريقة
في العلم فأجداده من جلة الفقهاء وقد توارثوا العلم جيلا بعد جيل ، وكان
الابن منهم يقرأ على أبيه ويتأدب به ، ونرجح أن ابن زرقالة المصنف هذا
حذو آبائه ، فأخذ عنهم الفقه والقراءات ، ونشأ شغوفا بالأدب ، وربما
كان له نصيب من قرض الشعر وإن كان لم يصلنا شيء من ذلك .

(١) درة الحجال ١-١٢٠ ترجمة رقم (١٤٩) .

(٢) نفسه ١-١٢٠ .

وقد صدر ابن زرقالة كتابه بمقدمة أشار فيها إلى شغفه بالأدب فقال
«وكان لي بمحاسن الأدب شغف، وباقتناء جواهره طلب أتشبت به تشبت
الولد بالوالد ، والموصول بالصلة والعائد..»

ونتعرف من مقدمته للكتاب على خصائص أسلوب ، فهو مغرم بالبديع
شغوف بضروبه وألوانه ، ويؤثر السجع في كتابته جريا على طريقة كتاب
عصره ، ويحشد في مقدمته كثيراً من التوريات التي تؤكد شغفه بهذا الفن
البديعي .

ويتحدث ابن زرقالة عن أستاذه ابن خاتمة بإعجاب فيقول :

«وكان شاعر عصرنا ببلدنا هذا - عصمه الله - الذى رفع سماء الأدب وبنائها ، ومهد أرض الشعر ودحاها ، فتنفس عنه صبح البيان ، وانبعس من سحاب علمه قطره الهتان ، وسبحت له قلوب الأدب بحباتها ، وألقت إليه بأفذاذها وثباتها ، فجرى مع الإحسان فى طلق مرير ، وكان له فيه شأو بعيد ..»

وفيه من كلام ابن زرقالة فى مقدمة الكتاب أنه لشغفه بفن التورية سأل أستاذه وشيخه ابن خاتمة أن ينشده ما وقع له فى هذا الفن من أبيات إلى طلبه ، يقول : «وكانت التورية من محاسن الشعر ، تشهد لصاحبها بجلالة القدر ، وتحل من النفوس محل النور من الرياض ، والسحر من الخلق المراض ، وتمتزج بالأرواح امتزاج الماء بالراح ، لهجة معناها ورحب مبنائها ، ودقة اشاراتها ، ورقة عبارتها ، استنشده - أبقاه الله - ما وقع له من المنظومات فيها ، ورغبت منه أن يستقنى جميعها ويستوفيها ، فأجابنى إلى ذلك عملا على شاكله فضله ، وما يليق من التخلق بكرم محله» .

كما يفهم من نص آخر ورد فى خاتمة الكتاب ان ابن زرقالة هو الذى سعى الكتاب بهذه التسمية وأنه وثق نصوصه بمراجعها وتصحيحها على ناظمها يقول «وهنا كمل ما أنشدنيه لنفسه من نظمه من البديع فى أسلوب التورية من ألقاب البديع وسميته برائق التحاية فى فائق التورية ، وقد صححته على ناظمه أنمى الله فخره وأبتهى ذكره ، ليكون أوثق فى روايته وحمله ، وأصح لمبتغى تقييده ونقله» .

والكتاب مقطعات قصيرة لا تتجاوز البيتين فى معظم الأحيان ، وبعضها أبيات مجزأة من قصائد ، ويحتوى الكتاب على خمس وستين مقطعة وعدد أبياتها ١٨٣ بيتا وتنفرد كل قطعة بتورية يستمد ابن خاتمة مادتها من ثقافته اللغوية والأدبية والفقهية ، ويستهل ابن زرقالة كل مقطعة بقوله : «أنشدنى مقترنه بجملة دعائية نحو : «أنشدنى أدام الله حياته » أو «أنشدنى أبقاه الله تعالى» .. الخ .

ويعمد ابن خاتمة إلى الإكثار من الإشارات النحوية واللغوية في تورياته
مثل قوله :

قلت والشعر يشي في خـده لام جـسـن سهلت لومي على
بحياة الحب كوني للرضا لام جـسـر لا تكوني لام كي
وقوله :

سـفهني عـاذلي عـليه وقـبال لي وده عـليهـل
فقلت : معتـل أو صـحـيـج يلقـيه في عينه الخـليـل

ويورى بكتاب «العين» للخليل وبصحاح الجوهري فيقول :

ولقد أقول لصـاحـبي ولحـاظه في ثغر من أهواه ذات تجمر
يا من يقابل نظمه ماذا دعـا «عين» الخليل إلى «صحاح» الجوهري

ويكثر ابن خاتمة من التورية بالمذاهب الفقهية كقوله :

من شافع لي عند مالك مهجتي مالى سوى حبي وليس بنافع
فمن الحق أن مذهب «مـالك» لا تستقيم لـديه حجة «شافع»

ويقتبس أيضا من الشعر القديم كقوله :

يقولان : أقصر قد أضربك البكا وهل عند رسم دارس من معول
مضي الحب والقلب الذي فيه قد ثوى «قفا نيك» من ذكرى حبيب ومزل

ويورى بالموشحات والأزجال فيقول :

وبديعة الأوصاف يندى جسمها ترفـها ولكن قلبـها لم يرشح
من ضمها عملت عليهـ حـلـها عرسـها بأزجـال وشـدو موشح

ويستمد تورياته من بحور الشعر العربي كقوله :

خضوع «طويل» ودمع سريع وخـد «بسيط» وشـجـو «مديد»

أهمية المخطوطة وقيمتها الأدبية :

يعد كتاب «رائق التحلية في فن التورية» من النصوص الأدبية النادرة التي لا نظير لها في المصادر الأندلسية الأخرى . وتكمن قيمته في أن ما فيه من شعر لم يرد في ديوان ابن خاتمة .

ويختص كتاب «رائق التحلية» بفن بلاغي هو فن التورية وهذا في حد ذاته بمنحه قيمة أخرى لأنه يصور الذوق الأدبي والبلاغي الذي كان سائداً في الأندلس في القرن الثامن الهجري .

كما يشير الكتاب إلى بعض صلات ابن خاتمة بمعاصريه مثل شيخه القاضي الخطيب أبي البركات ابن الحاج وأبي جعفر بن عبد الحق المالقي وأبي القاسم الحسني وأبي القاسم عبد الله رضوان وغيرهم . كما نجد فيه إشارات لمشاركة ابن خاتمة في بعض المناسبات الرسمية مثل وفوده على الحضرة لحضور الإعذار الإماري ، ودعوته إلى مأدبة بجنان الوزير أبي عبد الله الخطيب بعين الدمع خارج غرناطة ، ومبينه بحضرة غرناطة في منزل قاضي الجماعة أبي القاسم الحسني وتحت ضيافته . وهذه الإشارات لها أهميتها للمهتمين بأخبار ابن خاتمة وشعره .

وفضلاً عن ذلك فإن نشر أو تحقيق أى نص مخطوط — مهما صغر حجمه — يحمل قيمة في ذاته لأنه يصلنا بترائنا العربي الأصيل .

كتاب

رائق التحليه في فائق التوريه

من شعر

ابن خاتمة الأنصارى

جمع وتصنيف

أبو جعفر أحمد بن زرقالة

بسم الله الرحمن الرحيم — صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

قال الفقيه الجليل الوزير الحسيب الأصيل . الماجد ، الناضل ، المحيد
الأديب ، الشاعر ، الماهر ، والناظم الناثر الأكمل أبو جعفر أحمد ابن الشيخ
الفقيه الوزير الحسيب الفاضل الصالح الأرفع الأكمل أبي عبد الله بن زرقالة
أعزه الله (آمين) .

الحمد لله الذى خص هذه الأمة باللسان العربى المبين ، والبيان المتباج
الغرة الواضح الجبين ، فهصروا من ثمراته الدانية القطوف بفن مائل ،
وتفيثوا ظلالها عن دور الإيمان والشمالك ، وتحلوا من برودة الباهرة بأشرف
الحلى ونهلوا من موارده العذبة فى مشارع العلى فضلا من الله ونعمه ، ولطفاً
منه سبحانه ورحمة ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم الذى
آتاه جوامع الكلم ، حياه ببدايع الحكم . فيجلا بنور بيانه سدفة كل مشكل حتى
وضح وظهر ، وجلا صور المعانى على منصات الألفاظ سافرة الغور ،
ورضى الله عن آله الذين تبعوا سننه القويم ، وصراطه المستقيم .. وبعد

فلما كان الأدب حلية العرب الذى إليه انتهت وفصاحتها ، وبه ظهرت
رجاحتها ، وكان الشعر منه بمنزلة الروح من الجسد والقلب من الكبد ،
فهو طراز برده ، ووسطى عقده ، ولم يزل الناس خلفا عن سلف يتوارثونه
ويتبعون نهج العرب ويقتفونه ، هذا وان كانوا لا ينتجعون به الا من واديههم
ولا يستمطرون الا من غواديههم ، فلم يخل كل عصر من شاعر يكون شعراء
زمانه عيالا عليه ، ويحتاج (١) كل منهم إليه : تتحلى الأيام من نظمه بأنفس

(١) غير واضحة بالأصل ، ولعل الصواب ما أثبتناه .

من حلّ الليالي ، وثبته .. (١) بـمفرق المعالي ، وكان شاعر عصرنا يبلدنا هذا — عصمه الله — الذي رفع سماء الأدب وبنّاها ومهد أرض الشعر ودحاها فتنفس عنه صبح البيان ، وانبعس من سحاب علمه قطره المّتان وسبحت له قلوب الأدب بحباتها ، وألقت إليه بأفذاذاها؟ (٢) وثباتها ، فـجـرى مع الإحسان في طلق مريد ، وكان له فيه شأو بعيد ، شيخنا الأستاذ المتفنّن الجليل ، المصنّف الأعرف المثيل ، مشيد بنيان الأدب ، الذي أسس معالمه ، أبو جعفر أحمد بن خاتمة ، أبى الله بيت معارفه وأوتاده غير معتلة وأسبابه سالمة (٣) ، وكان لي بمحاسن الأدب شغف ، وباقتناء جواهره كلف ، أنشيت به تشبث الولد بالوالد والموصول بالصلة ، والعائد (٤) وأقصد غرب شئونه واعتمد أبكاره دون عونته وأنشوف للاستعلام منه على ما لم تمزق الأيام برده ، وتخلق الأقلام جدته ، والاستمتاع بـدره لأول خروجه من أصدافه ، وبزهرة لأول ظهوره في ألفافه ، وكانت التورية من محاسن الشعر ، تشهد لصاحبها بـلاله القدر ، وتخل من النفوس محل النور من الرياض ، والسحر من الخدق المراض ، وتمتزج بالأرواح امتزاج الماء بالراح لهجة معناها ، ورحب مبتاها ، ودقة إشارتها ، ورقة عبارتها استنشده — أبقاها الله — ما وقع له من المنظومات فيها ، ورغبت منه أن يسقيني جميعها ويستوفيها ، فأجابني إلى ذلك ، عملا على شاكلة فضله ، وما يليق من التخلق بـكريم محله .

(١) مطموه بمقدار كلمة .

(٢) لعلها (بأفرادها) .

(٣) يورى ببعض مصطلحات علم العروض .

(٤) يورى ببعض مصطلحات علم النحو .

(١)

فما أنشدني في ذلك :
(الكامل)
من شافع لي عند مالك مهجتي مالي سوى حبي وليس بنافع
فمن المحقق أن مذهب مالكي لا تستقيم لديه حجة شافع

(٢)

وأنشدني أيضا - أبقاه الله تعالى :
(الكامل)
ومحكم اللحظات في مهج الوري تحكيم نار هواه بين جوانحي
جرح الفؤاد فطار من ولع به كيف الخلاص لطائر من جراح

(٣)

وأنشدني أيضا - أدام الله حياته :
(الطويل)
أجاد به بالفكر فهو منادى على الدهر لا أبغى عليه بديلا
تملك قلبي فهو رهن اعتقاله فمن شاء يبصر «مالكا» «وعقيلًا»

(٤)

وأنشدني أيضا - أبقى الله عافيته : (١)
(الكامل)
ومعطر الأنفاس يبسم دائما عن در ثغر زانه ترتيب
من لم يشاهد منه عقد جواهر لم يدر ما «التنقيح» «والتهذيب» (٢)

(٥)

وأنشدني أيضا - رفع الله قدره - :
(الرملي)
قلت والشعر يشي في خده لام حسن سهلت لومي على
بحياة الحب كوني للرضا لام جر لا تكوني لام كي

(٦)

وأنشدني أيضا - أنسا الله في أجله - :
(الطويل)
تباين في القول قد مات لم يمت وظاهر حالي في حياتي مشكك
بعيشك قل كيف أقتل مسلما ويشرك غيري في الوري ثم يترك

(١) وردت في نفع الطيب دون خلاف ، أنظر نفع الطيب ٥ - ٥٣٧ .

(٢) يوري باسمي كتابين من كتب الفقه .

(٧)

وأنشدني أيضا - أعلى الله درجته - (١) :

سفهني عاذلي عليه وقسمال لي : وده عليه
فقلت : معتل أو صحيح يلقى في عينه الخليل (٢)

(٨)

وأنشدني أيضا - أعزه الله تعالى - : (الكامل)

وإني ومن أثر المداود على خديه مثل شفاهه اللعس
قالوا ألم تر كيف صورته فساذا به في صورة الشمس

(٩)

وأنشدني أيضا - نفع الله تعالى به - : (البسيط)

وشادان باكر الكتاب محتضناً للوحة ظاهراً في صورة القمر
سألته يا حبيبي ما بلوحتك قل فقال لي : إني في سورة القمر

(١٠)

وأنشدني أيضا - دامت حياته أمداً طويلاً - : (الكامل)

يارب أرمد للضنا بجفونه أثر وفي أنفاسه أوجال
كحل العشا عن ناظري بجماله ومن العجائب أعمش كحال

(١١)

وأنشدني أيضا - وصل الله رفعتة - : (الكامل)

ولقد أقول لصاحبي ولحاظه في ثغر من أهـواه ذات تجمر
يا من يقابل نظمه ماذا دعا غير الخليل إلى «صباح» الجوهري؟

(١) وردت في نفع الطيب ٥٣٧-٥

(٢) في رواية النفع : يودعه عينه الخليل .

(١٢)

وأنشدني أيضا - حرسه الله جلاله - :
(الكامل)
يقولان أقصر قد أضربك البكا - «وהל عند رسم دارس من معول» (١)
مضى الحب والقلب الذي فيه قد ثوى - «قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل»

(١٣)

وأنشدني أيضا - دام سعده - :
دارست قلبي الصبر أعتده - عن «عاصم» لى منك أو «نافع» (٣)
فلم يكن يرفع ما حل بي - ورب فعل ليس بالرافع
ظل بي المذهب يا مالكي - فهل لهذا الوجه من شافع (٤)

(١٤)

وأنشدني أيضا - أنماه الله تعالى - :
(الطويل)
يقولون لى حسنه بعذاره - كأنى لا أدرى على البعد ما جرى
وهل هو الا الحسن رف نعيمه - فأورق ريحان الخلود وأثمرا
دعوا القلب يفنى فى العذار فنونه - أخو الجهل لا يلوى على من تعذرا (٥)

(١٥)

وأنشدني أيضا - رفع الله مجده - :
(الطويل)
ألا إن حالى فى هواك خفيه - ولكن لعينى بالصباة تبريح
عجبت للدمعى لا يزال مرويا - فيقبل فى آثاره وهو مطروح
وأعجبت من ذا أن خدى شاهد - يصدق فى أقواله وهو مجروح (٦)

(١) يضمن عجز بيت امرئ القيس :

وإن شغائى عبرة مهراقية - وهل عند رسم دارس من معول

(٢) يضمن صدر مطلع معلقة امرئ القيس .

(٣) يورى — «عاصم» و «نافع» وهما من القراء السبعة .

(٤) يورى باسمى مالك والشافعى .

(٥) هنا موضع التورية ، فقلوه «تعذرا» تنسحب على «العذار» و «العذر» .

(٦) يورى بمصطلحات الحديث .

(١٦)

وأنشدني أيضا - والى الله لديه آلاءه - : (الخفيف)
عجز لحظ وكسرة فى اللسان ألبسانى للـسقم ما ألبسانى
نظـرتنى فـأنـدرتـم بـحـينى ودعتنى فـأودعتنى لـشانى
كيف يرجو المشوق جبر فؤاد بين كسر اللسان والأجفان

(١٧)

وأنشدني أيضا - حفظ الله مكانه - : (الطويل)
إذا ما النوى أذكت بقلبي جرة فهاج لها بين الضلوع غليل
برزت لاستشفى نسيم ربوعهم إذا هب بالأصهار وهو بليل
ومن أعجب الأشياء وهو تعلل طبيب يداوى الناس وهو عليل

(١٨)

وأنشدني أيضا والى الله سعده مما قاله شافعا إلى شيخنا القاضى الأستاذ
العلامة الأوحـد أبى البركات ابن الحاج (١) أبـقـى الله بركته فى امرأة أمر
بسجنـها بسبب دخولها الحـمام غير مستـرة وقد كان أمره خرج بالاشتداد
فى ذلك : (السريع)
بـى قاضـىـا أصـبـح ذا سـيرة بـكل عدل فى الورى سـارية
سـمـحـك فى جـارية ثـقـفت لـيـست على حـكم الـهـدى جـارية
وأعـجب لـما جـاء بـه وقـتـنا مؤتـزر يشـفـع فى عـارية

(١) يورى بالجبر والسر .

(٢) هو محمد بن محمد بن ابراهيم ابن الحاج البليقي السلمى أحد شيوخ ابن خاتمة كما كان
شيخاً لسان الدين بن الخطيب وقد توفى أبو البركات ابن الحاج سنة ٧٧١ هـ وقيل فى سنة ٧٧٣ هـ .
وقد ترجم له المقرئ فى نفع الطيب وذكره فى مواضع عديدة وتوجد ترجمة له فى الإحاطة ٢- ص
١٠١ ، والكتيبة الكامنة ص ١٢٧ ، والديباج المذهب ص ١٦٤ ، والمرقبة العليا ص ١٦٤ .

(١٩)

وأنشدني أيضا - أبقاه الله - مما طرز به بعض الملابس السلطانية :
(الكامل)

أنا فوق عطف الملك أسعد ملبس فن اكتسائي فالسلامة قد كسى
حاكتني الأيدي سماء زواهر ورياض أزهار وخلعة تتسندس
عزاً لسلطان لعزة ملكه فازدانت الدنيا برغم الخندس
ماذا على ولا بسى بدر الدجى أن لا أرى فوق الجوارى الكنس

(٢٠)

وأنشدني أيضا - أطل الله عمره - :
(البسيط)

قابلت ياقوت خديه فأخجله منى وقد لاح طرف فيه مبهوت
فقلت خمرة حسد ألهمت خجلا ثم انطفأ الجمر والياقوت ياقوت

(٢١)

وأنشدني - أنما الله تعالى - :
(البسيط)

هبت مع الفجر لميعادها فافتضح الشارق والغسارب
فجران ، ذاك الوجه أسنهما هل يستوى الصادق والكاذب

(٢٢)

وأنشدني أيضا - زاد الله بن فضله - مما قال وقد نزل على «عين صنصر»
«منصرفه عن وادى آش قافلا من حضرة غرناطة :
(الخفيف)

ما رأى عين صنصر فى صفاه ذو اعتبار فصد عنه بعين
مال قلبى له وليس بيدع فى الهوى أن يصاد قلب بعين

وأنشدني أيضا - أمتع الله ببقائه - قال : (١) قدم إلينا طعام بجنان
الوزير الجليل رئيس الكتاب ونظام الفضائل والآداب أبي عبد الله الخطيب (٢)
بعين الدمع (٣) ممن خارج غرناطة ، ونحن يومئذ ثلاثة نفر من الوافدين
على الحضرة لحضور الإعذار الإمازى بها : شيخنا القاضي الخطيب
أبو البركات ابن الحاج (٤) والقاضي الأستاذ الفاضل أبو جعفر بن عبد الحق
المالكي (٥) ومخاطبك (٦) فيمن انضاف إلينا ، فدعونا الخطيب أبا البركات
إلى الطعام فتخلف لعذر الصيام ، فلما فرغنا أنشدته :

دعونا الخطيب أبا البركات ت لأكل طعام الوزير الأجمل
وقد ضمننا في نداه جنان به احتفل الحسن حتى كمل
فأعرض عنا لعذر الصيام (م) ومما كل عذر لسه مستعمل
فان الجنان محل ثواب (٧) وليس الجنان محل عمل

« فقال شيخنا القاضي أبو البركات : لو أنشد تنبها والطعام حاضر لأكلت (٨)
معكم احتيازاً للطرب ، واسترسالا مع أريجيه الأدب ، أبقى الله بركته » (٩)

(١) ورد هذا الخبر مختصراً في الإحاطة ١-٢٦٠ كما وردت الأبيات في نفع الطيب
٦-٣٨ والكتيبة الكامنة ص ٤٥
(٢) هو لسان الدين بن الخطيب (٧١٣ - ٧٧٦ هـ) الكاتب والأديب والوزير والمؤرخ
الشهير .

(٣) عين الدمع : منزه معروف بغرناطة (أنظر الإحاطة ١-١٢٧ - ١٣٨) .

(٤) سبقت ترجمته

(٥) ترجم له ابن الخطيب في الإحاطة ١-١٨٦ وذكر أنه من أهل مالقة وأنه ولي خطة

القضاء بها .

(٦) يقصد ابن خاتمة .

(٧) في الإحاطة : محل الجزاء .

(٨) تكررت هذه اللفظة مرتين سهواً من الناسخ .

(٩) جاء في الإحاطة : « وعندما فرغنا من الطعام أنشدت الأبيات شيخاً أبا البركات فقال :

« لو أنشدتنها ، وأنتم بعد لم تفرغوا منه ، لاكلت معكم براً بهذه الأبيات وأحوالة في ذلك على

الله تعالى » أنظر الإحاطة ١-٢٦٠

(٢٠)

وأنشدني أيضا - زاده الله في العلم بسطة - قال : بتنا بحضرة غرناطة
في منزل السيد الشريف قاضي الجماعة وخطيب الحضرة وقُدوة الجلالة
أبي القاسم الحسني (١) حرس الله كماله - وتحت ضيافته ، وشيخنا القاضي
الأستاذ أبو البركات (٢) وصاحبنا القاضي العدل أبو اسحق بن شعيب (٣)
فأنشدت السيد الشريف صبيحة تلك الليلة :

(الخفيف)

من بيت ضيف آل بيت على بسات من برهم كس أهل البيت
إن يكونوا في الناس بيت قصيد فالشريف الشريف معنى البيت

(٢٥)

وأنشدني أيضا - حفظه الله رتبته - : (الطويل)
أروم تشبكي تمهكم فتصندين دموع لهما من دون رؤيتكم ستر
وكيف بصبر الصب عمن يحبه وقد حسال تيه دونه وطما بحر

(٢٦)

وأنشدني أيضا - بلغه الله أمانيه - : (الخفيف)
مسا على من به سقامي وبرئي وهسو في الحالتين غنى لاه
لو رثسا لي إذ أرفع الجفن مني لشه نماه عقيق تلك الشه نماه

(٢٧)

وأنشدني أيضا أدام الله فخاره - : (المتقارب)
أراعي دراري زهر الريساض وقد لحن في صفرة وايضاض
ولا غرو أن يعتنى بالنجسوم من كان يعنى بشه غل الرياض

-
- (١) ترجم له ابن الخطيب في الاحاطة ٢-١٨١ وما بعدها وكان قاضياً ، كاتباً ومولده
سنة ٦٩٧ هـ واشتهر بشرحه لمقصورة حازم القرطاجني .
(٢) مرت ترجمته .
(٣) لم أقف له على ترجمة .

(٢٨)

وانشدني أيضا وصل الله عزته : قال كنت إلى الفقيه الأجل رئيس
صاحب القلم الأعلى بالديوان السلطاني بالمغرب أبو القاسم عبد الله بن رضوان (١)
وهو يومئذ بالمرية يستدعى متى ديوان نظمي ، ووجه بها مع رجل ممن تقلد
حفاظه الديوان الاشتغالي ، (٢) موريا بذلك :
(الكامل)
ديوان نظمك مطلبى فسا سمع به لأرى انتظام الحسن بالإحسان
ولقد علمت بأن قصدك حفظه فبعثت نحوك حافظ الديوان (٣)
فكتبت مجيبا على البديهة ووجهت بها مع ديوان نظمي صحبه رسوله :
(الكامل)
يامهديا ريحانتين أنالنا بصرى وسمعى بهجة ولساني
مستدعيا نظمي وما نظمي لما يبدى ولو أنى بديع زماني
إن كنت قد أهديتها روحا فلا عجب : جنان جاء من رضوان (٤)

(٢٩)

وانشدني أيضا - أعلى الله مقداره - موريا بالنجاح من الآت الغناء :
(الطويل)
دعنا بجناح ثم سواه وانثنى بحيل به للقصف أى قداح
فطار إليه القلب من طرب به وليس يبدع طائر بجناح (٥)

(١) هو أبو القاسم عبد الله بن رضوان ، أديب مالى ، وفقه بارع ، درس فى تونس وتقلد وظائف عدة فى بلاد بنى مرين ، وتوفى سنة ٥٧٨٠هـ . أنظر نفح الطيب ٨-٢١٤-٢١٩ ، أزهار الرياض ٢-٣٤٥ ، ٣-١٩٦ .
(٢) عرف دوزى فى ملحقة الديوان الاشتغالي بأنه يشبه الإدارة المالية (أنظر ملحق دوزى للمعاجم العربية) .

(٣) هنا موضوع التورية

(٤) يورى باسم رضوان المالى صاحبه ، وباسم (رضوان) حارس الجنة .

(٥) يورى بلفظة (الجناح) حيث تنسحب على آلة الغناء وعلى جناح الطائر .

(٣٠)

وأنشدني أيضا - نفع الله به :
(البسيط)
من لي به شف أو شفا كبدى فمهجتى منه بعض راء المرء
أعضاء جسمى عليه تالفة وفي اللى منه حيلة البرء
وأنشدني أيضا حفظه الله جلاله وتنشد على ثلاث قواف :

(٣١)

وأنشدني أيضا حفظه الله جلاله وتنشد على ثلاث قواف :
مر بنا البرد في بسرود مصبوغة صبغة السماء (١)
فقال لي صاحبي مشيراً كيف ترى البدر في السماء

(٣٢)

وأنشدني أيضا دامت عافيته يخاطب القائد المعظم الماجد أبا عبد الله
ابن شعيب (٢) أيام ولايته قيادة قصبة المرية وقد نزل عند الفقيه الوزير
الأديب البارع أبي عبد الله بن جزى (٣) رحمهما الله بقصر خيران (٤)
من القصبة فغاب عن القصر لمقامه عنده . قال : قد منى الوزير أبو عبد الله
للاعتذار عنه فقلت ؛ :
(الطويل)

لفضلك عذر في المغيب عن القصر لمن لا يجيز البعد عنه بلا قصر
وإن مد مقصور النوى لضرورة فمن بعد ذاك المسد يرجع للقصر
وهل ذا وذا إلا محلك سيدى فعندك يلغى حالى المد والقصر (٥)

(١) القوافي الثلاث كما وردت بالأصل هي : السماء - الغمام - السحاب .

(٢) لم أعثر له على ترجمة .

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن القاسم بن جزى الفقيه ، الكاتب ، توفى بفاس سنة ٧٥٨ هـ
أنظر (نثر فرائد الجمان ص ٢٩٢) .

(٤) قصر بالمرية بناه خيران العامري (الروض المعطار ٥٣٨) .

(٥) يورى بالمد والقصر وهما من مصطلحات علم الصرف وينسحبان على البعد والقرب .

(٣٣)

وأنشدني أيضاً - زاده الله عزه ورفعته :
(السريع)
والثغ في الطساء (١) هاج الهوى فهل «حبيب» ليس بالطـأى (٢)
لا تعجبوا إن مال قلبي له فشأنه إماله السراء

(٣٤)

وأنشدني أيضاً - وكل الله سيادته قال : خرجنا في جمع من الطلبة
من المرية برسم واديا فنضحتنا غمامة تجهم عنها وجه الأفق فكان بعض
الأصحاب انقبض لذلك فقلت معذراً عن ذلك الشأن وناظمها له في معرض
الاستحسان :
(الطويل)

وروضات آداب تداعوا لروضة جلتها الغواذى في لجين وفي عين
تجهم وجه الأفق إذ برزوا له وفي ذلك عذر ليس يخفى لدى عين
تخوف عين الشمس تعدو عليهم فعوذهم بالمرسلات (٣) من العين
وحاذر عين الأنس تعدى جمالهم فتابع منه الغيث رقياً من العين (٤)

(٣٥)

وأنشدني أيضاً - أصعبه الله إلى مراق الأبرار :
(الطويل)
تعلقته في ملعب الخيل ترتعى به عن شهاب للقلوب مصيب
تسربل أثواب البسالة داعياً «نزال» وما قرن له بنجيب
فقال لا أبغى «الحماسة مؤثراً» لأشعارها وهي اختيار «حبيب» (٥)

(١) جاء في لسان العرب مادة (لغ) «الثقة أن تعدل الحرف إلى غيره . والألغ الذي
لايستطيع أن يتكلم بالراء وقيل هو الذي يجعل الراء غيناً أولاً أو يجعل الراء في طرف لسانه ،
أو الصاد فاء وقيل هو الذي يتحول لسانه عن السين إلى التاء» وقيل هو الذي لسانه عن موضع
الحرف ولحق موضع أقرب الحروف من الحرف الذي يعثر لسانه عنه» .

- (٢) يورى بأبي تمام الطائى واسمه (حبيب بن أوس) ويرجع ذلك ذكره لفظة (حبيب) قبلها .
(٣) يورى بسورة (المرسلات) .
(٤) يورى بالرق والتعويذ .
(٥) يورى بكتاب «الحماسة» اختيار أبي تمام .

(٣٦)

وأنشدني أيضا ختم الله له بالسعادة : «الخفيفه»
بني فتاة جرت لقتلي قوسها برباب حيسا الا له الربابا
شاقني صوته وماذا على من ظل يهوى من القيسان الربابا

(٣٧)

وأنشدني أيضا قضى الله له بالحسنى والزيادة : (المربع)
ما طيبة الدنيا سوى ظبية تنقذ المهاء عنها انقذاح
كأنما ضاربها إذ شيدا يحيل للأنس عليها قنراح
قد حاز من قلبي أعشقه فها فعلى صوته حين باح

(٣٨)

وأنشدني أيضا - أمتع الله به : (الطويل)
عذيري من ساجي اللواظ فاتن غداً حسنه من سحره آية بدعا
إذا القلب ألقى للعزاء حباله تلقفها من صدغه حية تسهي (١)

(٣٩)

وأنشدني أيضا - حرس الله وجوده : (المتقارب)
يشوق فؤادي زهر الرياض إذا لاح في صفرة وايضا
أراعي بسه أنجما طالعات إذا ما سميت آذنت بانقضاض
ولا غرو يعني مشوق الفسؤاد برعى النجوم وشغل الرياض

(٤٠)

وأنشدني أيضا - أبقاه الله تعالى : (الكامل)
وبديعة الأوصاف يندى جسمها تزفها ولكن قلبها لم يرشبح
من ضمها عملت عليه حلها عرسا بأزجال وشد موشح (٢)

(١) يورى بما جاء فى قصة موسى عن الحية .

(٢) يورى بالأزجال والموشحات اصطلاحاً ولغة .

(٤١)

وأنشدني أيضا - لا برح في نعمة شاملة : (الطويل)
أردد طرفي بين ظاهر روضة ومغنى غصون جيدها واضح النص
غداً ناظري بالفحص مستعبراً وما على ناظري يوماً إذا مال للفحص

(٤٢)

وأنشدني أيضا - ضاعف الله اعزازه : (الطويل)
تقول سليمى إذ رأت شيب لمتى لقد حال من ذاك الشباب سواده
وما تنكر الحسنة من خط كاتب قد ابيض من طول الكتاب مداده

(٤٣)

وأنشدني أيضا - أبقاه الله من اللوبيت :
قالت أتجبه على عارضه هذا وحياتكم جنون عارض
لم تدر بأن روضة وجنته (١) قل كيف ترى الرياض غب العارض

(٤٤)

وأنشدني أيضا - صان الله علاه - من قصيدة : (٢) (الحفيف)
كيف لى بالسلاو عنها وقلبي قد هوى حلمه بمهوى الخوص (٣)
ما تعاطيت ظاهر الصبر الا ردى جيدها بأوضح نص (٤)

(١) كذا وهو مختل الوزن .

(٢) ورد البيتان في الإحاطة ١-٢٥٧ .

(٣) رواية الاحاطة - الخوص .

(٤) يورى بكلمة (النص) .

(٤٥)

وأنشدني أيضا - سنى الله أمله من أخرى : (السريع)
إيه خليلي كم تطيل الكرى ليس لما ضيعته من ثمن
قم قد نضا الصبح خضاب الدجى وشاب فرع الليل مما أسن
وهزات الورق قد حركت من ألفت القضب ما قد عطن (١)
فبح صوت الطير ممنا شدا ومل عطف القصن مما أرجحن
ومما على صب إذا ما رأى مرأى جمال لا يطيل الشجن ؟

(٤٦)

وأنشدني أيضا أتم الله نعمته عليه من أخرى : (الطويل)
وسائلة ما بال طرفك شاخص فقلت لشخص طرفه الدهر ناعس
إذا مارنا فالظبي غير أن كانس ومهما انثنى فالغصن حيران ناكس
عجبت لألحانها له مع ضعفها يقام لحفظ الثغر منهن حارس (٢)

(٤٧)

وأنشدني أيضا - شكر الله افادته منها في المدح : (الطويل)
تسابق للمجد الكرام فبذهم كما قد شأى رجالة السبق فارس
أيشأى عقيل البخل ضنا بجوده وحابس مال من لهاه النفائس
وما زال معقولا عقيل عن الندى وما زال محبوبا عن المحد حابس (٣)

(٤٨)

وأنشدني أيضا أعلى الله مقامه منها : (الطويل)
له جيش نصر قد نصبا السعد دونه صوارم روع لا تنها القوانس
إذا ما قوافي الخيل منه تداركت بأبشر بنصر بحره متكأوس (٤)

(١) هنا موضع التورية باستخدام الهمزات. والألفات

(٢) التورية في كلمة (الثغر) .

(٣) يورى بكلمتى عقيل وحابس .

(٤) يورى ببعض مصطلحات العروض والقافية .

(٤٩)

وأنشدني أيضا — حفظ الله شأنه ، قال : لما تحدث شيخنا القاضي أبو البركات ابن الحاج بالرحلة إلى المشرق وظهرت منه عزيمة على ذلك على أن يكون وجهته في قرقورة (١) تجهزت برسم افريقية وذلك بتاريخ السادس والعشرين لجمادى الآخرة من سنة تسع وثلاثين وسبعمائة أنشدته مخاطبا له ومثبطا عن عزمته : (٢)

أشمس الغرب حتماً سمعنا بأنك قد سئمت به (٣) الإقامة
وأنتك قد عزمت على طلوع إلى شرق تلوح به (٤) علامة
لقد زلزلت منسا كل حلم (٥) بحق الله لا تقم القيامة
ثم إنه اتفق من قدر الله تعالى أن غرقت القرقورة المذكورة عشية يوم
اقلاعها عن موسى المرية للتاريخ المذكور (٦)

(٥٠)

وأنشدني أيضا — دام اسعاده : (الكامل)

يا لائما خبر ابن عباس ولم يعلم بما أودى من الأرواح
إن كنت جعدي الفؤاد عن الهوى فحذار هذى دولة السفاح (٧)

(١) القرقورة : نوع من السفن .

(٢) وردت في نفح الطيب ٥-٨٢ .

(٣) في نفح الطيب : من

(٤) النفح : سموت به .

(٥) النفح : قلب .

(٦) ورد الخبر على خلاف ذلك في نفح الطيب حيث جاء على هذه الصورة : «قال الحاكم :

فحلف أبو البركات أن لا يرحل من إقليم فيه من يقول مثل هذا» : أنظر نفح الطيب ٥-٨٢

(٧) يورى بالكتاب بعض الخلفاء مثل : الجعدي (مروان بن محمد) ، و (السفاح) أول

خلفاء بني العباس .

(٥١)

(السريع)

وأنشدني أيضا - حرس الله بهجة الأدب بصيانة مهجته - من مقطوعة :
طير يغنى ومزاهر تبكي وزهرات تنشق من ضحك
ووجنة السورد تلتطى خجلا مما رأت بين القصب من فتك
ألقى عليها النسيم برده فانتظمت للعشاق في سلك

(٥٢)

وأنشدني أيضا - حرس الله كماله من قصيدة : (المتقارب)
حياك عندي هلال سعيد فكل زمان ترى فيه عيد
وخسبك روض بديع الجمال به كل فصل ربيع جديد
وقسبك للقلب ربحانة عييد إليها إذا ما تميد
فزد كل يوم جمالا وحسنا فلي كل يوم غرام يزيد
خضوع «طويل» ودمع «سريع» وخذ «بسيط» وشجو «مديد» (١)

(٥٣)

وأنشدني أيضا - وفي الله من النقص كماله من أخرى في المديح :
(الكامل)

غرناطة مصر ألا هي أشرف والنيل شنل (٢) ويوسف يوسف (٣)
ملك غدت كل البلاد منازلا لسعوده وهي المقام الأشرف
قال لي أبقاه الله : يوسف الأول هو الثاني بعينه كما تقول (أنت أنت)
و (زيد زيد) أعظاما لشأن من تخبر عنه كأنه يضيق عنه الخبر إلا بأنه هو ؛
لا أستجيز غير هذا . ووجد التورية فيه بيوسف عليه السلام ، وهي مرشحة
بذكر مصر قبله .

(١) يورى بأسماء بعض بحور الشعر .

(٢) شنيل نهر شهير في غرناطة وكان شعراء الأندلس ويذهبون إلى تفضيله على النيل بزيادة
الشرين وعددها عند أهل المغرب ألف «فأعبروا نهر شنيل ألف نيل بالقياس إلى نيل مصر على عادة
متناهي الشعر في ذلك (الإحاطة ١-١٢٤) .

(٣) هو يوسف بن اسماعيل النصري حاكم غرناطة فيما بين سني (٧٣٣ - ٧٥٥ هـ) ويورى
فيه بيوسف عليه السلام ويرشحها ذكر (مصر) قبلها .

وأنشدني أيضا - أعلى الله محله منها :

الموطنين الخيل من أقرانهم	حر الوجوه وكل شلو يشرف
قد عقروا في الترب منهم أنجما	لو سويت بالشهب كانت تأنف
المعلمين بالفهم ضرب الطلي	والطعن في الأحداق وهو تخوف
... (١) قد غدا دون العدا	درعا على الدرع التي قد أهدفوا
وكذا الكماة إذا السمات تنكرت	بأليفها وبلامها تتعرف

وأنشدني أيضا شكر الله فضله من أخرى :

عنيتي من الوجد ما لو أن بادرة	منه تفض لعمت كل موجود
وخيق لي ، فضمير الحب في كبدي	ضمير شان (٢) سماعن كل معهود
هوى بشرعته ، قد دنت مجتهداً	لا مثل لاح أتى جحداً بتقليد (٣)
فمن يقل لي ثان في هوای فقد	رمى افتراء بشرك عقد توحيد (٤)

(١) غير واضحة في الأصل .

(٢) هنا موضع التورية .

(٣) يورى بكلمتي : الاجتهاد والتقليد وهما من مصطلحات للفقه .

(٤) هنا تورية أخرى بكلمتي الشرك والتوحيد .

(٥٦)

وأنشدني أيضا - حفظ الله عليه أدواته الباهرة من أخرى : (السريع)
لاحت وقد أرخت فضول الشام ما أملح البدر خلال الغمام (١)
ريحانة لبني من عطفتها قدام نديمي ونهمي سود قدام
بمقلة تفتن ظبي الفسلا ووجنة تفضح بدر التمام
مما رامت القضب يحما كينها إلا والزهر عينا ابتسام
ولا أدعى الروض شذنا عرفها إلا وأضحى فرية خصصام

(٥٧)

وأنشدني أيضا - أنسا الله في مدة حياته منها :
أفدى اتني لولا سقمام سري في لحظها ما شفى جسمي المنيام
يخلو لعيني أنفعا خديها ودرت خدي حين يلتناه لام (٢)
تهفو فأشدو طربا باسمها على قضيب البان يشاو الخمام

(٥٨)

وأنشدني أيضا بلننه الله أمنيته منها :
يسا من لصيب خديها كتمه وعزمسه وطبرفه والمنسام
من ذات دل زان... خديها ونم...ها وردفها والتسام
قد حمت الزم بسماي الطاملي فالتلب نهيب بين «سام» و«حام» (٣)

(٥٩)

وأنشدني أيضا - أمتع الله ببيتانه من أخرى : (الكامل)
نضج الخمام غداثر الأشجار فبكل عين منه دمع جسمار
يسكي وتبتسم البطساح طلاقة فاعجب لضحكك شيب باستبار
شجر قد اشتبكت بنسان غصونه فالطير فيه مسلسل الأخبار (٤)

(١) يورى بالبدر والغمام عن وجه المحبوبة .

(٢) يورى بمصطلحات الكتابة .

(٣) هنا موضع التورية .

(٤) يورى بمصطلح علم الحديث .

(٦٠)

وأنشدني أيضاً - وإلى الله سموه من أخرى : (الكامل)

نغمز الحيا عطف القضيب المنتشى	فعيونه تبيكي لتوديع العشى
سال الأصيل به نضارا فارتدى	عنه الرياض رداء حسن قد وشى
وكسته أزهار الربيع مطارفا	فستراه بين منمنم ومبرقش
ما إن يقيم الغصن فيه معطفها	طربا لتوشية الطيور إذا تشى
هب النسيم على رباه فقبولت	منه صبا نجهد بصفح المدهش

(٦١)

وأنشدني - أبقى الله رتبته سامية من قصيدة أخرى : (الكامل)

والدوح يستقيها الحيا سر الصبها	فتفيض في سكر وفي تخليط
لبست من الأوراق كل مرقع	وأنت بهام في الثرى مخطوط
والماء في صحف الحقائق مرسـل	روى عواليها بغير شروط (١)
بسط النبات بهـا خطوط محاسن	فاعجب لها ولخطها المبسوط

(٦٢)

وأنشدني - دامت عافيته من - أخرى :

ياربة الطوق ماذا بحث من حرق	على فؤاد يحمل الوجد مجهود
أكلها صغت لحنا في «الخفيف» ضحا	حركت ساكن أشواق بتشريد (٢)
ما مـد سمعك إلا ظلي يقصرني	فاعجب لتقييد مقصور بممدود (٣)
قل للذي ظـل نشواناً بلا سكر	من نغمة العود أو من نفحة العود
حسبي بذلك وذا روض وصادحة	عزف بعزف وتغريد بتغـريد

(١) يورى بمصطلح الحديث .

(٢) يورى بمصطلحات العروض .

(٣) يورى بمصطلحات الصرف .

(٦٣)

وأنشدنى أيضاً مكن الله عزه من أخرى : (الكامل)
يا دمع أجفاني اطرء ، يا حر أصلاعى انقد ، يا قرح أكبادى انتك (١)
ويقل إتلاف النفوس تلقفــــــا لفوات حظ منك لم يستدرك
أملئ يشك وعفوكم متواطىء فأحسار من متواطىء لمشكك
مالى سواك ، لمن أمد يد الرجا مسمتسكا يا ملجأ المستمسك

(٦٤)

وأنشدنى أيضاً أبقي الله شهاب علمه مشرقاً من قصيدته البائية الخافلة
المسماة بالوسيلة التى توسل بها للجانب النبوى الكريم .. عليه أفضل الصلاة
وأزكى التسليم :

(البسيط)
ويل الصليب لقد أمسوا به سلبا وويل ما نصبوا للشرك من نصب
قد عمها الخفض طرا عمن عوامله ما بين مرتفع منها ومثصب (٢)

(٦٥)

وأنشدنى أيضاً أطال الله بقاءه منها :
دهر يمر وآمال غيصة ولا احتقاب سوى وزر على الحقب
تمضى الفروع على حكم الأصول ولا استذكار قلب ولا تمهيد منقلب
خط المشيب على فوديك تذكره بأن تنيب وحتى الآن لم تنب
وقد نضا سيفه فاحذر صرامته «والسيف أصدق أنباء من الكتب» (٣)
سلت عليك الليالى منه ذا شطب «فى حده الحد بين الجد واللعب» (٤)

(١) كذا بالأصل ، ولعلها (انتكث) فى الأصل ولكن الشاعر استعملها مخدوفة قياساً
على ما أجازته النحاة من حذف فى بعض الكلمات .
(أنظر باب الحذف فى كتاب سيويه) .

(٢) يورى بمصطلحات نحوية

(٣) يضمن مطلع بائيه أبى تمام الشهيرة .

(٤) هذا عجز مطلع قصيدة أبى تمام .

وهنا كل ما أنشدنيه لنفسه من نظمه البديع في أسلوب التورية من ألقاب
البديع وسميته «رائق» التحلية في فائق التورية » وقد صححته على ناظمه أنمي الله
فخره ، وأبقي ذكره ، ليكون أوثق في روايته وحمله ، وأصح لمبتغى
تقييده ونقله والله سبحانه يوزعنا شكر آلائه ويلتفتنا بعباده الصالحين وأوليائه
وصلى الله على مولانا محمد خاتم أنبيائه وعلى آله وأصحابه وأستغنيائه وسلم
تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

كملت والحمد لله ذي الجلال ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا
محمد خاتم الأنبياء وعلى آله وصحبه خير صحب وآل ، وسلم تسليماً كثيراً
وكان الفراغ من نسخها في اليوم الخامس عشر لجمادى الأولى من عام واحد
وستين وسبعمائة على يد العبد الفقير إلى رحمة مولاه .. جعفر بن أحمد مشتمل
الأغلب سلمه الله في التاريخ المؤرخ به «وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد
وعلى آله .

فهرس الأعلام
الواردة بالمتن

أحمد بن خاتمة - أبو جعفر

أبو اسحق بن شعيب

أبو البركات بن الحاج - البلفيقي

جعفر بن أحمد بن مشتمل الأغلب

السفاح - أبو جعفر

ابن عباس

ابن عبد الحق المالكي - أبو جعفر

أبو عبد الله بن جزي

أبو عبد الله بن شعيب

عبد الله بن رضوان - أبو القاسم

أبو عبد الله الخطيب

أبو القاسم الحسني

فهرس بأسماء الأماكن الواردة بالمتن

أفريقية

شنيل

عين الدمع

عين صنصر

غرناطة

قصر خيران

المرية

مصر

النيل

وادی آش

فهرس الأشعار

رقم القطعة	صدر البيت	القافية	البحر	عدد الأبيات
حرف الهمزة				
٣١	مر بنا البرد في برود	السماء	البسيط	٢
٣٠	من لي به شف أو شفا كبدي	المرء	البسيط	٢
٣٣	والثغ في الطاء هاج الهوى	بالطائي	السريع	٢
٤٤	يقولون ولي حسنة بعذاره	ماجرأ	الطويل	٣
حرف الباء				
٢١	هبت مع الفجر لميعادها	الغارب	البسيط	٢
٦٤	ويل الصليب لقد أمسوا به سلبا	نصب	البسيط	٢
٦٥	دهر يمر وآمال مخيمة	الحقت	البسيط	٥
٤	ومعطر الأنفاس يبسم دائماً	ترتيب	الكامل	٢
٣٥	تعلقته في ملعب الخليل ترمى	معيب	الطويل	٣
٣٦	بي فتاة جرت لقتلى قوسا	الربابا	الخفيف	٢
حرف التاء				
٢٠	قابلت يا قوت خديه فأخجله	مبهوت	البسيط	٢
٢٤	من بيت ضيف آل بيت على	البيت	الخفيف	٢
حرف الحاء				
١٥	الا إن حالي في حواك خفية	تبريح	الطويل	٣
٢٩	دعا بجناح ثم سواه وانثنى	قداح	الطويل	٢
٣٧	ماطية الدنيا سوى طيبة	انقداح	السريع	٣

٥٠ يالأنما خبر ابن عباس ولم الأرواح الوافر ٢

٤٠ وبديعة الأوصاف يندى جسمها يرشح الكامل ٢

٥ ومحكم اللحظات في مهج الوري جوانحي الكامل ٢

٢ حرف الدال

أجاريه الطوق ماذا بحث من حرق مجهود البسيط ٥

٦٢ عندي من الوجد ما لو أن بادرة موجود البسيط ٢

٥٢ محياك عندي هلال سعيد عيد المتقارب ٥

٤٢ تقول سليمان إذ رأيت شيب لمتى سواده الطويل ٢

حرف الراء

٢٥ أروم تشكى تيهكم فتصايني ستر الطويل ٢

٤٩ نضج الغمام غدائر الأشجار جار الكامل ٣

٣٢ لفضلك عذر في المغيب عن القصر قصر الطويل ٣

١١ ولقد أقول لصاحبي ولحاظه تجمر الكامل ٢

٩ وشادن باكر الكتاب محتضنا القمر البسيط ٢

حرف السين

٤٦ وسائلة ما بال طرفك شاخصاً ناعس الطويل ٣

٤٧ تسابق للمجد الكرام فبذهم فارس الطويل ٣

٤٨ له جيش نصر قد نضا السعد دونه القوانس الطويل ٢

٨ وافي ومن أثر المداد على اللعس الكامل ٢

حرف الصاد

٤٤ كيف لي بالسلو عنها وقلبي الخرص الخفيف ٢

٤١ أردد طرفي بين ظاهر روضه النص الطويل ٢

مغيث الرومي وبنوه : دورهم السياسى والحضارى فى المغرب والأندلس

للككتور محمد أحمد أبو الفضل
كلية التربية — جامعة طنطا

تتميز الفترة الأولى من تاريخ الأندلس بوجود عدد من البيوتات من موالى بنى أمية ، التى أخلص بعضها للامويين اخلاصاً عيقاً ، وشاركوا الامويين جانباً كبيراً من المسئولية .. ومن أكبر هذه البيوتات بنو عبيدة وبنو حدير وبنو شهيد وبنو عبد الرؤف وبنو فطيس وبنو مغيث .

١ - مغيث الرومى مؤسس الاسرة :

أما بنو مغيث — موضوع بحثنا — فهم أبناء مغيث بن الحارث بن الحويرث بن جبلة بن الایهم الغسانى ، مولى الوليد بن عبد الملك وهو المعروف بمغيث الرومى وان كان غير رومى الأصل فى الحقيقة (١) ، فهو عربى من بنى الحارث الأكبر بطن من بطون الازد القحطانية (٢) .. ومنهم كان ملوك الشام قبل الاسلام وظل الملك فيهم حتى آخر ملوكهم جبلة ابن الایهم الذى أسلم فى زمن الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ثم

-
- (١) المقرئ (أحمد بن محمد) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، المجلد الثالث ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ١٢ .
(٢) أنظر : ابن حزم (محمد على بن أحمد بن سعيد) : جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، الطبعة الرابعة دار المعارف ، ١٩٧٧ ، ص ٣٧٢ ، القلقشندى (أبى العباس أحمد) : نهاية الأرب ، تحقيق ابراهيم الاييارى ، الطبعة الثانية دار الكتب الاسلامية ، ١٩٨٠ - ١٤٠٠ هـ ، ص ٤٦ .

ثم ارتد وتنصر ولحق ببلاد الروم (٣) .

وفصل البلاذرى سبب هذا الارتداد ، فيروى أن هرقل امبراطور
بزنطة حشد قوات كبيرة من الروم وأهل الشام وأهل الجزيرة وأرمينية
قارب عددها مائتا ألف جندي وولى عليهم رجلاً من خاصته ، وبعث على
مقدمته جبلة بن الایهم الغسانی فی مستعربة الشام من لحم وجذام وغيرهم ،
وعزم على محاربة المسلمين ، ولما بدأ الاشتباك يوم الرموك انحاز جبلة
ابن الایهم إلى الأنصار وقال لهم «انتم أخوتنا وبنو أئینا وأظهر الاسلام» (٤)
غير انه مالبث ان وقعت حادثة غيرت من نفس جبلة وأدت إلى ارتداده إذ
يذكر البلاذرى أنه ، لما قدم عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالشام سنة ١٧ هـ
لمح جبلة رجلاً من مزينة فلطم عينه ، فأمر عمر الرجل بالاقتصاص من جبلة
فقال جبلة «أو عينه مثل عيني والله لا أقیم ببلد على به سلطان فدخل بلاد
الروم مرتداً» (٥) ، يؤيد ذلك ما رواه المسعودى أن جبلة بن الایهم «أسلم
وارتد عن دينه خوف العار والتعود من اللطمة» (٦) وفي رواية أخرى
للبلادى أن جبلة بن الایهم أتى عمر بن الخطاب وهو على نصرانيته «فعرض
عليه الاسلام وأداء الصدقة ، فأبى ذلك ، وقال : أقیم على ديني وأودى
الصدقة ، فقال عمر : ان أقمت على دينك فأد الجزية ، فأنف منها فقال
عمر : ما عندنا لك الا واحدة من ثلاث : اما الاسلام ، واما أداء الجزية
واما الذهاب إلى حيث شئت ، فدخل بلاد الروم في ثلاثين ألفاً ، فلما بلغ
ذلك عمر ندم ، وعاتبه عبادة بن الصامت ، فقال : لو قبلت منه الصدقة

(٣) القلقشندي : المصدر السابق ، ص ٢١٧ ، وأنظر أيضاً ، ابن قتيبة (أبو محمد عبدالله
ابن مسلم) : كتاب المعارف ، القاهرة ، ١٣٠٠ هـ ، ص ٢١٧ .
(٤) . البلاذرى (أبي العباس أحمد بن يحيى بن جابر) : كتاب فتوح البلدان تحقيق دى غوية ،
بريل ، ١٨٦٦ ، ص ١٣٥ ، ص ١٣٦ .

(٥) نفس المصدر ، ص ١٣٦ .

(٦) المسعودى (أبي الحسن على بن الحسين) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، الجزء الثاني
القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ١٠٩ .

ثم تألفته لأسلم» (٧) .

على أية حال ، رحل جبلة بن الأيهم وقومه إلى بلاد الروم وأقاموا بها وانخازوا اليهم في صراعمهم الطويل مع الدولة العربية وعلى الأخص في العصر الأموي الذي جرت العادة فيه بتوجيه حملتين على بلاد الروم كل عام حملة كبرى في الصيف (صائفة) وحملة ثانية على نطاق أصغر في غضون الشتاء (شائية) واستمرت حملات الصوائف التي وجهها الأمويون إلى منطقة الثغور طوال العصر الأموي ، ولا نستبعد أن يكون مغيث بن الحارث بن الحويرث ابن جبلة ابن الأيهم وهو أحد أحفاد جبلة قد سبي في إحدى هذه المعارك ربما في معركة سبستبول سنة ٧٤ هـ (٦٩٣ م) بالذات التي انتصر فيها الأمويون بقيادة محمد بن مروان على البيزنطيين (٨) ، يؤيد ذلك ما أورده المقرئ من أن مغيثاً «سبي من الروم بالمشرق وهو صغير» (٩) ، فأدبه الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان مع ولده الوليد في دمشق (١٠) ، ولذلك عرف فيما بعد بمغيث الرومي مولى الوليد بن عبد الملك .

ولا شك أن مغيثاً كان لديه الملم باللغة اللاتينية بحكم مولده وتربيته في الأراضي البيزنطية ، كما أتقن العربية أيضاً بحكم إقامته في الشام ، ويذكر الحجاري أنه «تأدب بدمشق مع بني عبد الملك فأفصح بالعربية

(٧) البلاذري : المصدر السابق ، ص ١٣٦ .

(٨) أنظر ،

Finally (G) : History of Greece, I, Oxford, 1877, P. 389,

وأيضاً : وسام عبد العزيز فرج ، العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادي ، الهيئة العامة للكتاب ، الاسكندرية ، ١٩٨١ ، ص ٥٠ ، ص

١٠١ .

(٩) المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الثالث ، ص ١٢ .

(١٠) نفس المصدر والمجلد والصفحة .

وصار يقول من الشعر والنثر ما يجوز كتبه ، وتدريب على الركوب ، وأخذ نفسه بالأقدام في مضايق الحروب ، حتى تخرج في ذلك تخرجاً أهله للتقدم على الجيش الذي فتح قرطبة ، وكان مشهوراً بحسن الرأي والكيد « (١١) فلا عجب أن يتمسك به موسى بن نصير والى المغرب ، ويضمه إلى قواته في المغرب ، بل ان الحملة التي أعدها موسى بن نصير لفتح الاندلس سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) تحت قيادة طارق بن زياد تألفت من سبعة آلاف بربري منهم ما يقرب من ثلاثمائة من العرب وموالى الروانين مثل عبد الملك ابن أبي عامر المعافري وعلقمة اللخمي ومغيث الرومي مولى الوليد بن عبد الملك (١٢) وهذا يوضح أن مغيثاً اشترك في الحملة الأولى لافتتاح الاندلس وليس كما يذكر بعض المؤرخين أنه كان ضمن طالعة موسى بن نصير عندما دخل الاندلس لاستكمال الفتح عام ٩٣ هـ (٧١٢) (١٣) .

وهكذا شارك مغيث الرومي في حملة طارق بن زياد الذي حقق نصراً

(١١) في ، المقرئ : نفس المصدر والمجلد ، ص ١٢ ، ص ١٣ ، ينص المقرئ على أن مغيثاً كان لديه المام باللغة اللاتينية ، على الرغم مما هو معروف أن اللغة اليونانية أصبحت منذ عهد الامبراطور هرقل ٦١٠ م هي اللغة الرسمية للامبراطورية البيزنطية .

(١٢) مؤلف مجهول : أخبار مجموعة في فتح الأندلس ، تحقيق ابراهيم الايباري ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، ١٩٨١ ، ص ١٧ ، الضبي (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة) : بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، دار الكاتب العربي ، ١٩٦٧ ، ص ٤٧٥ ، ترجمة رقم ١٣٨٨ ، والذي يذكر أن مغيثاً الرومي مولى الوليد بن عبد الملك حضر فتح الأندلس مع طارق وكان على خيله ، وأنظر أيضاً : اخميدى (أبي عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي) : جذوة المقتبس ، الدار المصرية لتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ ، ترجمة رقم ٨٣٤ ، ص ٣٥٥ ، حسين مؤنس : فجر الأندلس ، دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح إلى قيام الدولة الأموية (٧١١ - ٧٥٦) ، الطبعة الأولى ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٦٨ ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ انسلمين وآثارهم في الأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ، ١٩٨٢ ، ص ٧٢ .

(١٣) أنظر ، سعد زغول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ، ص ١ ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٧٩ ، ص ٢٥٠ وما بعدها .

كبيراً على القوط في معركة كورة شذونة (٢٨ رمضان - ٥ شوال سنة ٩٢ هـ / ١٩ - ٢٦ يوليو ٧١١ م) (١٤) .. ورأى طارق بن زياد أن يواصل زحفه نحو طليطلة عاصمة القوط الغربيين للاستيلاء عليها قبل أن تتجمع فلول القوط مرة أخرى ويستفحل أمرهم مخالفاً بذلك أوامر قائده الأعلى موسى بن نصير الذي أمره - بعد أن علم بأخبار الفتح وما حازاه المسلمون من الغنائم - أن لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به (١٥) ، فزحف طارق إلى مدينة شذونة وحاصرها حصاراً شديداً ثم فتحها عنوة ، وغنم منها غنائم هائلة ، ومضى بعد ذلك إلى حصن المدور (Almodovar) ثم عطف إلى قرمونة (Carmona) ، فربعين نسبت إليه بعد ذلك فاشيليه (Sevilla) فصالحه أهلها على الجزية ، ثم زحف بقواته إلى استجة (Ecija) وأخذها عنوة (١٦) .

ويبدو أن جيش طارق قد أخذ يزداد عدة بمن كان ينضم إليه من أهل العدو المغربية ، الأمر الذي جعل يليان صاحب سبته ينصح طارقاً بأن يفرق بعض قواته في بعوث جانبية ، «فقال له : قد فتحت الأندلس ، فخذ من أصحابي أدلاء ففرق معهم جيوشك وسر أنت إلى مدينة طليطلة» (١٧)

(١٤) أحمد مختار العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، الطبعة الأولى ، الاسكندرية ١٩٦٨ ص ٣٢ وما بعدها .

(١٥) ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، المجلد الرابع ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص ٢٥٤ .

(١٦) مؤلف مجهول : أخبار مجموعة ، ص ١٩ ، المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ص ٢٦٠ ، وأنظر أيضاً ، سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ٨٢ ،
Simonet (Francisco Javier) : Historia de los mozarabes de Espana, Madrid, 1904, P.27; Saavedra (Eduardo) : Estudio sobre la invasion de los Arabes en Espana, Madrid, 1892, P. 81.

(١٧) ابن عذاري المراكشي : كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، ج ٢ تحقيق كولان وليني بروفنسال ، دار الثقافة ، بيروت لبنان ، ص ٩ ، وأنظر أيضاً :
Saavedra : Ibid, P. 77.

فجعل طارق بنصيحة يليان ففرق جيوشه من استجبه ، فبعث مغيثا الرومي مولى الوليد بن عبد الملك إلى قرطبة في سبعمائة فارس ، وبعث جيشاً آخر إلى مالقه (Malaga) وأمر عليه قائداً وجعل معه دليلاً من رجال يليان ، كما بعث جيشاً ثالثاً إلى البيرة (Elvira) ، وسار طارق بمعظم جيشه إلى كورة جيان (١٨) في طريقه إلى طليطلة .

سار مغيث الرومي على رأس فرقة من الفرسان تنفيذاً لتعليمات طارق ابن زياد لا يزيد عددها عن سبعمائة فارس من استجبه متجهاً نحو قرطبة وهي «من مدنهم العظام» (١٩) ، ويبدو أن الغرض من انفاذ هذه الحملة علاوة على فتح قرطبة كان تأمين طريق الجيش الاسلامي الرئيسي المتجه إلى العاصمة طليطلة بقيادة طارق بن زياد خوفاً من مفاجأة العدو له أثناء زحفه شمالاً .

على أية حال وصل مغيث بقواته حتى اقرب من الضفة اليسرى لنهر الوادي الكبير المقابلة لقرطبة وكن بقواته في غيضة أرز شاحخة تقع بين قريتي شقنده (Secunda) . وتعرف اليوم (Campo de la verdad)

(١٨) المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٦٠ ، ص ٢٦١ ، ابن عذارى : نفس المصدر والجزء ، صفحات ٩ ، ١٠ ، ١١ وأنظر أيضاً :

A Guado Beleye (Pedro): Manual de Historia de Espana, tomo I, Sexta edición, Espasa calpe, 1947, P. 398.

(١٩) المقرئ : نفس المصدر ونجد ، ص ٢٦٠ ، ص ٢٦١ ، وقارن ماورد في المقرئ أيضاً (نفس المجلد : ص ٢٦١) من أن طارق هو الذي سار لقرطبة بنفسه لا مغيث ، لكن هذه الرواية لا تستند على أي أساس من الصحة لأن كتب الفتح الموثوق فيها تنص على أن مغيثاً الرومي هو فاتح قرطبة ، راجع على سبيل المثال ، ابن عذارى : البيان المغرب ، ص ٢٠ ، أخبار مجموعة هو فاتح قرطبة ، راجع على سبيل المثال ، ابن عذارى : البيان المغرب ، ص ٢٠ ، أخبار مجموعة في فتح الأندلس ، وإذا أضفنا إلى ذلك أن بلاط قرطبة الرومان القديم عرف بعد الفتح باسم بلاط مغيث نسبة اليه وهو ما يؤكد قيم مغيث بمهمة فتحها ، راجع أيضاً ، السيد عبد العزيز سالم : قرطبة حاضره الخلافة في الأندلس ، الجزء الأول ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧١ ص ٢٢ ، ١٨ .

وطرسيل (Tercios) (٢٠) .. وظل مغيث متربصاً بها فترة متجنباً فرصة العبور إلى الضفة الأخرى لاسيما وأن القنطرة التي نصل الشاطئين كانت مهدامة في ذلك الحين (٢١) .

وكانت قرطبة في ذلك الوقت مدينة حصينة يدور حولها سور من الحجر الضخم وتقوم على حراستها حامية قوطية وكانت المدينة تتألف من قسمين يفصل بينهما سور حاجز أقامة الرومان قديماً يبدأ جنوباً من La Cruz del Rastro. ليصل شمالاً حتى La puerta del Rincon ، وكان الغرض من إقامة السور الحاجز هو فصل الأهالي الذين يسكنون القسم الشرقي من المدينة عن القسم الغربي الذي يشتمل على المؤسسات الحكومية مثل قصر الحاكم وثكنات الجند ، واستمر الوضع على ما هو عليه أيام القوط ، وهذا القسم الغربي هو ما عرف في العصر الاسلامي بالمدينة (٢٢) .

وكان على مغيث الرومي أن يواجه هذا الموقف وأن يتغلب على حصانة قرطبة لاسيما وقد أشارت المصادر العربية إلى القنطرة الواقعة على نهر الوادي الكبير وكيف خربها القوط لزيادة حصانة المدينة ، فيذكر ابن عذارى أن المسلمين ، « إذ فتحوا قرطبة ، وجدوا بها آثار قنطرة فوق نهرها ، على حنايا وثاق الاركان من تأسيس الأمم الدائرة قد هدمها مدود النهر على مر الأزمان » (٢٣) ، كما يذكر صاحب أخبار مجموعة « وكان لها جسر يعبر عليه نهرها ، ووصفه بخموله وامتناعه عن الخوض الشتاء عامة » (٢٤) .

(٢٠) أخبار مجموعة ، ص ٢٠ ، ابن عذارى : نفس المصدر والجزء ، ص ٩ ، المقرئ : نفس المصدر والجزء ، ص ٢٦١ ،

(٢١) أخبار مجموعة ، ص ٢١ ، ابن عذارى : نفس المصدر والجزء ، ص ٣٦ .

(٢٢) أنظر :

Saavedra : OP. Cit., P. 81.

السيد عبد العزيز سالم : قرطبة ، ١٠ ، ص ١٦٣ .

(٢٣) البيان المغرب ، ح ٢ ، ص ٣٦ .

(٢٤) أخبار مجموعة ، ص ٣٠ .

أما ابن حيان فيذكر «وقيل: لأنه قد كانت في هذا المكان قنطرة من بنيان الأعاجم» قبل دخول العرب بنحو مائتي سنة أثرت فيها الازمان بمكابدة المدود حتى سقطت حناياها ، ومحيت أعالها ، وبقيت أرجلها وأسافلها» (٢٥) ويستفاد من النصوص السابقة أنه كانت هناك بالفعل قنطرة تصل ضفتي نهر الوادي الكبير ، وأن حالتها كانت سيئة عند الفتح الاسلامي ، ولا نستبعد أن القوط قد قاموا بهدم القنطرة عندما علموا بزحف المسلمين إلى استججه ، ليزيدوا موقعهم حصانة ومنعة .

[وازاء حصانة قرطبة وتخریب قنطرتها ووجود حاميتها القوطية ، أثر مغيث الرومي التريث متربصاً في غيضة أرز — كما سبق القول — وأرسل من فوره نفرأ من ادلائه للاستطلاع ، فتمكنوا من أسر راعي غنم من أهل قرطبة فأمسكوا به واقتادوه هو وغنمه إلى مغيث ، فسأله عن قرطبة وحاميتها فأجابه بأنه قد رحل عنها عظماء أهلها ، ثم سأله مغيث عن حصانة سورها فأخبره الراعي انه حصين الا أن فيه ثغرة فوق باب الصورة ، وهو الباب المعروف بباب القنطرة ، ووصف له الثغرة (٢٦) .

أقام مغيث الرومي في مكانه طوال اليوم إلى أن غابت الشمس ، فتحرك بقواته ليعبر نهر الوادي الكبير ، وقد شاركت الظواهر الطبيعية في نجاح عبورهم دون أن تفتن اليهم حامية المدينة ، إذ هيأت لهم العناية الالهية أسباب الفتح بأن أرسلت السماء برذاذ أخفى حوافر الخيل ، فوصلوا إلى الضفة اليمنى

(٢٥) في ، المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٤٨٠ .

(٢٦) أخبار مجموعة ، ص ٢٠ ، ابن عذاري : المصدر السابق ، ص ٢٠ ، ص ١٠ .

المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٦١ ، وسمى بباب الصورة بسبب تمثال قديم يمثل العذراء صاحبة قرطبة ، وكان قائماً على هذا الباب ، وقد ظلت الصورة التي على باب القنطرة قائمة في موضعها إلى أن خربها ابن حفصون برمجة في عهد الأمير عبد الله بن محمد ، أنظر أخبار مجموعة ، ص ٢٠ ، ص ١٣٣ ، السيد عبد العزيز سالم : قرطبة ، ص ١٠ ، ص ١٧٢ .

من النهر سالمين ، وتجمعوا هناك في الفضاء الواقع بين النهر والسور بالقرب من باب القنطرة الذي كان اتساعه لا يزيد عن ثلاثين ذراعاً (٢٧) ، وقد صادف ان حراس باب القنطرة أغفلوا الحراسة تلك الليلة لشدة البرد مع تساقط الرذاذ (٢٨) ، فتحرك مغيث وقواته بحرية بحثاً عن الثغرة التي وصفها لهم راعي الغنم ، ولما لم يعثروا عليها ، استدعوه ليدلهم على مكانها ، فدلهم عليها ، فاذا بها غير سهلة الارتقاء (٢٩) ، فعزموا على أن يجعلوا منها منفذاً لحجومهم — خصوصاً وأن في أسفلها شجرة تين — وتسلق رجل منهم شجرة تين إذ كان أكثرهم نشاطاً وأشدهم حمية ، ثم وثب منها إلى السور ، حتى إذا استقر به ، خلع عمامته وأرسل بطرفها إلى بعض رفاقه ، ثم جذبهم إليه واحداً واحداً والحامية في غفلة عما يجري وراء السور طمعاً في طلب الدفء ، وركب مغيث وبقية قواته ووقفوا ازاء باب القنطرة وتأهب لدخول المدينة بعد أن نزل رجاله من السور إلى داخل المدينة وداهموا حراس الباب المذكور وقتلوا نفرًا منهم ، وكسروا الاقفال وفتحوا الباب فدخل مغيث بمن معه واستولوا على المدينة عنوة (٣٠) .

(٢٧) أخبار مجموعة ، ص ٢٠ ، ص ١٣٣ : المقرئ ، المجلد الأول ، ص ٢٦١ .

(٢٨) أخبار مجموعة ، ص ٢٠ ، المقرئ : نفس المصدر والمجلد والصفحة .

(٢٩) المقرئ : نفس المصدر والمجلد ، ص ٢٦٠ ، وراجع أيضاً ، أخبار مجموعة ،

ص ٣٠ .

(٣٠) مجموعة ، ص ٢٠ ، ص ٢١ ، ابن عذاري : المصدر السابق ، ص ٢٠ ، ص ١٠ ،

المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٦١ ، وأنظر أيضاً : حسين مؤنس : المرجع السابق ، ص ٨٠ وما بعدها ، السيد عبد العزيز سالم : قرطبة ، ص ١٠ ، ص ٢٢ وما بعدها ، ولنفس المؤلف : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ٨٤ وما بعدها ، وهناك من المؤرخين من يرى بأن مغيث الرومي وأصحابه اقتحموا المدينة من سورها الغربي الذي كان مهدها ، في ذلك الحين ، أنظر :

Ocana Jimenez : La basiclica de San Vicente Y la gran mezuquita de Cordoba, Al-Andalus, 1942, PP. 347 — 363; =

وعلى أثر دخول مغيث وقواته المدينة حدثت بها ضجة أفادت على أثرها الحامية القوطية التي لم يكن عددها يزيد على أربعمائة فارس في قول (٣١) والحمسمائة في قول آخر (٣٢) ، والتي كانت مقيمة مع الحاكم في القسم الغربي من المدينة ، وكان الحاكم مقيماً في قصره المقام في الضاحية التي عرفت أيام المسلمين بربض الوراقين بغرب المدينة ، فما كاد يبلغه نبأ دخول المسلمين قرطبة حتى أسرع إلى حاميته ، ولكن لم يمض له من العرب إذ فاجأوه ففر بجنده «من باب المدينة الغربي الذي يقال له باب اشبيلية ، فتحصن بكنيسة في غربي المدينة حصينة ذات بنيان وتقانة وهي شنت أجلح فدخلها» (٣٣)

وهكذا استطاع مغيث أن يستولى على مدينة قرطبة عنوة بعد أن فر عنها حاكمها وحاميتها وتحصنوا داخل كنيسة سانت أجلح الواقعة خارج باب اشبيلية المعروف أيام العرب باسم باب العطارين (٣٤) ، فتبعهم مغيث بقواته محاصراً خيم ، وكتب من فوره إلى طارق بن زياد يبشره بالفتح (٣٥) وأقام مغيث على محاصرتهم في الكنيسة ثلاثة أشهر ، حتى استطاع المسلمون

= وأنظر أيضاً النقشة الرائعة التي عقدها الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم في هذا الموضوع والتي خرج منها برأى يقول «فاننى أشك في دخول المسلمين مدينة قرطبة من جهة السور الغربي ، ولا استبعد دخولهم من الباب الجنوبي المواجه لربض شقته» ، (راجع : قرطبة - ١٠ صفحات ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦) .

(٣١) أخبار مجموعة ، ص ٢١ ، وراجع أيضاً : ابن عذارى : المصدر السابق ، ص ٢٠ ، ص ١٠ ، المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ص ٢٦١ .

(٣٢) أخبار مجموعة ، ص ٢١ .

(٣٣) أخبار مجموعة ص ٢١ ، ابن عذارى : المصدر السابق ، ص ٢٠ ، ص ١٠ ، المقرئ :

المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٦٢ ، وكنيسة شنت أجلح هي (San Acisclo)

وأنظر أيضاً : حسين مؤنس : المرجع السابق ، ص ٨١ ، سالم : قرطبة ، ص ٢٤

Saavedra : Op. Cit., P. 83;

(٣٤) أنظر :

Saavedra : Ibid, P. 83.

(٣٥) أخبار مجموعة ، ص ٢١ ، ابن عذارى : المصدر السابق ، ص ٢٠ ، ص ١٠ ، المقرئ :

المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٦٢ .

قطع الماء عنهم ذلك الماء الذى كان يجرى إلى الكنيسة في مجرى تحت الأرض ولم يظن اليه المسلمون حتى اكتشفه عبد أسود «ذو بأس ونجدة» يدعى رباح من كانوا ضمن قوة مغيث (٣٦) ، وفي خلال فترة الحصار حدث أن خرج حاكم المدينة القوطى هارباً وحده ، وهو ينوى التحصن في جبل قرطبة ليلحق به أصحابه (٣٧) ، أو «رغب بنفسه عن بليتهم عند ايقان الهلاك» (٣٨) فمني خبر فراره إلى مغيث ، فانطلق مغيث في أثره ، وكان الحاكم قد جد في سره حتى وصل إلى ضاحية قطلبره (Cutelobera) ، وكاد ينجو لولا أن عثر به جواده فأدركه مغيث وأسرّه وحبسه عنده ليقدّم به على الخليفة الوليد بن عبد الملك « ولم يوشر من ملوك الاندلس غيره لأن منهم من عقد لنفسه اماناً . ومنهم من هرب إلى أتاصى البلاد مثل جليآقمية وغيرها » (٣٩) ورجع به مغيث إلى الكنيسة في الوقت الذى صمد فيه المحاصرون ولم يستسلموا فدعاهم مغيث إلى الاسلام أو الجزية الا أنهم رفضوا ، ويذكر المقرئ نقلاً عن الرازى أن مغيثاً أشعل النار في المحاصرين حتى احرقهم فسميت كنيسة الحرقى « والنصارى تعظمها لصبر من كان فيها على دينهم من شدة البلاء » (٤٠) ، بينما يذكر ابن عذارى أن مغيثاً استتر لهم أسراً ، وضرب أعناقهم صبراً ، وسميت كنيسة الأسرى (٤١) . وبعد أن تخلص مغيث من الحامية القوطية ، رجع إلى المدينة وأقام بقصر قرطبة أو البلاط الذى اختطه مغيث الرومى لنفسه ونسب اليه (٤٢) ، وأقام جنده في المدينة

(٣٦) المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٦٢ .

(٣٧) ابن عذارى : المصدر السابق ، ص ٢٠ ، ص ٨٥ ، ٨٤ Saavedra: Op.Cit., PP. 84, 85; .

(٣٨) المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٦٣ .

(٣٩) ابن عذارى : المصدر السابق ، ص ٢٠ ، وأنظر أيضاً :

حسين مؤنس : المرجع السابق ، ص ٨٢ ، السيد عبد العزيز سالم : قرطبة ، ص ١٠ ، ص ٢٨ .

(٤٠) المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٦٣ .

(٤١) ابن عذارى : المصدر السابق ، ص ٢٠ ، ص ١٠ .

ثم عمد إلى يهود المدينة فجعلهم بعض جرسها «استنامة اليهم ، دون النصارى للعداوة بينهم» (٤٣)

والمعروف أن موسى بن نصير نزل إلى الاندلس في جيش كبير والتقى بطارق بن زياد وأساء معاملته ، ويذكر ابن عبد الحكم أن موسى بن نصير أخذ طارقاً «فشده وثاقا وحبسه وهم بقتله» (٤٤) . وكان مغيث الروم غلاماً للوليد بن عبد الملك فبعث اليه طارق وقال له : «ان رفعت أمرى إلى الوليد ، وأن فتح الاندلس كان على يدي ، وأن موسى حبسنى يريد قتلى أعطيتك مائة عبد ، وعاهده على ذلك» (٤٥) . ويفهم من رواية ابن عبد الحكم أن طارقاً استدعى مغيث الروم من قرطبة ، فسار اليه بطليطلة بعد أن عاهد طارقاً على ما أراده ، والتقى مغيث بموسى بن نصير وحده في أمر طارق وحده على ألا يسىء الى طارق قائلاً له : «لا تعجل على طارق ولك أعداء ، وقد بلغ أمير المؤمنين أمره وأخاف عليك وجده» (٤٦)

وكان مغيث الروم أحد رجلين أرسلهما موسى بن نصير إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك يعلماه أنباء فتح الاندلس ، وكان الرسول الثانى هو على بن رباح التابعى (٤٧) . وصل الرسولان إلى دمشق وأبلغا أخبار الفتح العظيم للخليفة ، وذكر أنه لما دخل وفد موسى إلى الوليد في دمشق ، قال على بن رباح للخليفة ، «تركت موسى بن نصير في الاندلس ، وقد أظهره

(٤٣) المقرئ : نفس المصدر والمجلد والصفحة .

(٤٤) ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله) : فتوح أفريقية والاندلس ، تحقيق عبد الله انيس الطباع ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ٨٠ .

(٤٥) نفس المصدر ، ص ٨٠ ، ص ٨١ .

(٤٦) نفس المصدر ، ص ٨١ .

(٤٧) نفس المصدر ، ص ٨١ ، ابن قتيبة (أبي محمد عبد الله بن مسلم) : الامامة والسياسة ، الجزء الثانى ، تحقيق طه محمد الزينى ، مؤسسة الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٦٢ .

الله ، ونصره ، وفتح على يديه ما لم يفتح على يد أحد ، وقد أوفدني إلى
إلى أمير المؤمنين في نفر من وجوه من معه بفتح من فتوحه فدفع اليه الكتاب
من عند موسى ، فقرأه الوليد ، فلما أتى على آخره خر ساجداً» (٤٨) .

ويبدو أن مغيثا الرومي كان ناقما على موسى بن نصير . نلهم يأل جهداً
في نقده وتشويه سمعته ، اما لأنه استاء ان ينسب موسى فضل الفتح كله
كله إلى نفسه مغفلاً جهود طارق بن زياد ومغيث الرومي نفسه في ذلك الفتح
وأما للمعاملة السيئة التي عامل بها طارقا بن زياد قرب طليبره ، فضلاً عما
حدث من ظلب طارق من مغيث الرومي ابلاغ الخليفة بما حدث له على
يد موسى بن نصير حسب رواية ابن عبد الحكم .

ويبدو كذلك أن الخليفة الوليد بن عبد الملك لم يقر موسى بن نصير
على المعاملة التي عامل بها طارقا بن زياد بل بادر بارسال مغيث الرومي
بكتاب إلى الأندلس وحين قرأه مرسى بن نصير سارع بإطلاق سراح
طارق ، فوفى طارق لمغيث بما وعده به من قبل ومنحه المائة عبد .

وكان مغيث الرومي قد وصل إلى الأندلس في الوقت الذي كان فيه موسى
ابن نصير يعد العدة للدخول في بلاد جليقية فدفع اليه رسالة الخليفة الذي يأمره
فيها بالخروج من الأندلس والكف عن التوسع في البلاد وعدم التوغل فيها ،
والرجوع إلى دمشق «فساء ذلك وقطع به عن ارادته ، إذ لم يكن في الأندلس
بلد لم تدخله العرب إلى وقته غير جليقية ، فكان شديد الحرص على
اقتحامها» (٤٩) . فلم يكن امام موسى الا أن يلاطف مغيثا ويسترضيه

(٤٨) ابن قتيبة : المصدر السابق ج ٢ ، ص ٦٢ ، وأنظر أيضاً :

السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين ، ص ١٠٠ .

(٤٩) المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٧٥ ، ص ٢٧٦ .

ويعنيه يحمي في استكمال فتح بلاد الأندلس فعرض عليه أن يمنحه نصف ما يغنم من البلاد التي يقوم بفتحها و«أن يكون شريكه في الأجر والغنيمة» (٥٠) فضلاً عن منحه الموضع الذي نسب إليه بعدئذ ، وهو بلاط مغيث بجميع أرضه من أرض الخمس (٥١) ، بدلا من القصر الذي كان قد اختطه لنفسه بمدينة قرطبة بحجة أن هذا القصر لا يصلح لمغيث وإنما يصلح للعامل الذي يتولى قرطبة ، وعوضه عنه بدار شرقية ذات سقى وزيتون وثمار يقال لها اليسانه (Lucena) كانت من أملاك الحاكم القوطي ، فتنحى مغيث عن القصر المذكور ونزل الدار التي عينها له موسى غربي مدينة قرطبة والتي عرفت فيما بعد ببلاط مغيث (٥٢) ، فلما اطمئن موسى إلى ذلك بادر بالسير وبصحبته مغيث لاستكمال فتح مدن شمال الأندلس حتى وصل المسلمون في فتوحهم إلى البحر المحيط ، وأراد موسى أن يفتح جليقية ويبدو أنه استولى على مدينة لك جليقية ، وهي من أهم مدن هذا الإقليم (٥٣) وفيها أتاها رسول آخر من الخليفة الوليد بن عبد الملك يكنى أبا نصر بعثه إلى موسى عندما استبطأه في العودة ، وكتب إليه يوبخه ويأمره بالخروج (٥٤) فبادر موسى وطارق وبصحبتهم الرسولان مغيث وأبو نصر بالعودة إلى

(٥٠) المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٧٦ .

(٥١) أنظر ، نبذه من أخبار فتح الأندلس مأخوذة من الرسالة الشريفة إلى الأقطار الأندلسية في ، ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ٢٠٩ .

(٥٢) ابن الخطيب (لسان الدين) : كتاب أعمال الاعلام فيمن بويغ قبل الاحتلال من ملوك الاسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام ، نشرة ليبي بروفنسال ، بيروت ، ١٩٥٦ ، ص ٢٠٣ ، المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٤٦٥ .

(٥٣) أنظر Gonzalez Palencia : Historia de la Espana

musulmana, C. Labor, Madr8d, 1945, P. 11;

وأنظر أيضاً : السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين ، ص ١٠٣ ، ص ١٠٤ .

(٥٤) المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٧٦ .

جنوب الاندلس ، وفوصلوا إلى طليطلة ومنها اتجهوا إلى قرطبة فاشييلة
 التي استخلف موسى فيها ابنة عبد العزيز في ذى الحجة سنة ٩٥ هـ بعد أن
 اختارها له حاضرة للاندلس (٥٥) . ويروى المقرئ نقلا عن الحجارى
 أن طارق بن زياد طمع في أن يأخذ الأمير القوطى حاكم قرطبة أسير مغيث
 منه فلما رفض «أغرى به سيده موسى بن نصير ، وقال له : يرجع إلى
 دمشق وفي يده عظيم من عظماء الاندلس ، وليس في أيدينا مثله ، فأى فضل
 يكون لنا عليه ؟ فطلبه منه ، فامتنع من تسليمه» (٥٦) ويضيف ابن حيان
 قائلا : «فنهجم موسى على العليج وانتزعه من مغيث ، فقيل له : ان سرت
 به معاك حيا ادعاه مغيث والعلج لا ينكر ، ولكن اضرب عنقه ، ففعل
 فاضطغنفا عليه مغيث وبالف في أذيته عند سليمان ؟» (٥٧)

على أية حال عاد مغيث الرومى في صحبة موسى بن نصير وطارق بن زياد
 إلى المشرق : وعبر مرسى بما غنمه من أموال وذهب وفضة وجواهر
 في المراكب إلى طنجة (٥٨) ، ويصف المؤرخون موكب النصر الذى
 سار فيه موسى خلال رحلته في المغرب وصفا يفوق الخيال فالذهب والجواهر
 والأموال حلت من طنجة على العجالات «فكانت وسق مائة عجلة وأربعة
 عشرة عجاء ، أما السبايا فلم يسمع قط بمثل سبايا موسى بن نصير في
 الاسلام » (٥٩) .

ويذكر المؤرخون أن مغيثا الرومى حرص بعد عودته على تشويه صورة

(٥٥) المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٧٦ .

(٥٦) في المقرئ : نفس المصدر ، المجلد الثالث ، ص ١٣ ، وأنظر أيضاً .

نفس المصدر ، المجلد الأول ، ص ٢٧٩ .

(٥٧) في ، المقرئ : نفس المصدر ، المجلد الثالث ، ص ١٣ ، أخبار مجموعة ، ص ٢٧ .

(٥٨) ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٠ ، ص ٤٣ .

(٥٩) نفس المصدر والجزء والصفحة .

كل من موسى بن نصير وطارق بن زياد والاساءة اليهما عند الخليفة سليمان ابن عبد الملك ، على حين يروى صاحب أخبار مجموعة ان مغيثا وطارقا ابن زياد هما اللذان رميا موسى بن نصير بأقبح الصفات ونقلوا للخليفة أخبار اساءاته لهما في الأندلس ، ولم ينس مغيث أن ينجر الخليفة بقصة أسيره حاكم قرطبة ، وبالغا فيما أصابه موسى هناك من كنوز ونفائس وجواهر ، فأوغرا صدر سليمان فبادر بعزل موسى واعفائه من كل أعماله بل أمر بسجنه في النهاية (٦٠) .

أما موقف مغيث من طارق بن زياد - حسب رواية الحجاري خاصة عندما أراد سليمان بن عبد الملك أن يصرف ولاية الاندلس إلى طارق ، استشار مغيثا في هذا الأمر «فقال : لو أمر أهلها بالصلاة إلى أى قبلة شاءها لتبعوه ولم يرو أنهم كفروا ، فعملت هذه المكيدة في نفس سليمان» (٦١) .

وكيفما كان الأمر فان مغيثا بتصرفه هذا أساء اساءة كبرى إلى التابعي الجليل موسى بن نصير وإلى قائده طارق بن زياد ، وربما كان يدفعه إلى ذلك مصلحة شخصية وهي طمعه في ولاية الاندلس أو العودة إليها أو أنهما لم يوفياه حقه وليس أبلغ على ذلك من قول مغيث نفسه :

أغثتكم ولكن ماوفيتم فسوف أعيث في غرب وشرق (٦٢)

ولهذا فقد عاد مغيث الرومي فعلا إلى الأندلس وعاش في بلاطه وأملاكه وأنجب بنينا سيكون لهم ولاحقاهم شأن كبير في تاريخ الأندلس ، إلى أن استدعاه الخليفة هشام بن عبد الملك للاشتراك في الحملة التي يعدها للثأر من هزيمة العرب في غزوة الاشراف .

(٦٠) أنظر : أخبار مجموعة ص ٣٥ ، المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٨٠ .

(٦١) المقرئ : نفس المصدر ، المجلد الثالث ، ص ١٣ .

(٦٢) في ، المقرئ : نفس المصدر ، المجلد الثالث ، ص ١٤ .

ولعب مغيث الرومي بعد ذلك دوراً هاماً في الأحداث التي تجرت في المغرب ، فقد كان أحد رجلين اختارهما الخليفة هشام لمعرفتهما بالمغرب والأندلس ليكونا مستشارين لقائده كلثوم بن عياض القشيري على الجيش الذي جهزه الخليفة وسيره إلى المغرب ، ومع أن جيش كلثوم قد بلغت عدته نحو سبعين ألف على قول بعض المؤرخين بما انضاف اليه من قوات افريقية ، الا أن الانشقاق والانقسام دب بين صفوفه بشكل أصبح من المستحيل سيطرة كلثوم عليه ، ويرجح سبب ذلك في رأى «أن أهل الشام أتوا يزهون بعددهم وعديدهم ، وبما أباح لهم الخليفة من الأباحت ، على المناكيد من أهل أفريقية والمغرب الذين حطمهم البربر في أكثر من موقعة ، ولم يكن أهل افريقية ليرضوا من أهل الشام بتلك المعاملة الغريبة بعد جهادهم وحسن بلائهم » (٦٣) ، فتجنب كلثوم النزول في القيروان وسار إلى سيبه على مسيرة يوم منها (٦٤) ، كما أن ابن أخيه بلج بن بشر طلب من أهل افريقية ألا يغلقوا أبوابهم حتى يعرف أهل الشام منازلهم ، «ومع ذلك كلام كثير يغيظهم به» (٦٥) . أثارت هذه التصرفات عرب افريقية وأغضبت حبيب بن ابن عبيده الذي كان معسكراً على وادى شلف فكتب إلى كلثوم يندد بما فعله ابن أخيه بلج بن بشر بل يطلب منه الرحيل

-
- (٦٣) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي - ص ١ ، ٢٩٤ ، وأنظر أيضاً : ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ٩٦ ، ابن عذارى : المصدر السابق ، ص ١٠ ، ص ٥٤ ، أخبار مجموعة ، ص ٣٦ ، ص ٣٧ ، وأنظر أيضاً : Isidoro de las Cagigas : Los Mozarabes, T.I, Madrid, 1947, P. 53; السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين ، ص ١٥٦ ، ولنفس المؤلف ، المغرب الكبير ، ص ٢ (العصر الاسلامي) ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٦ ، ص ٣٠٨ .
- (٦٤) ابن عبد الحكم : نفس المصدر ، ص ٩٧ ، ابن عذارى : المصدر السابق ، ص ١٠ ، ص ٥٤ .
- (٦٥) ابن عذارى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

بعسكره من افريقية «والا حولنا أعنة الخيل اليك» (٦٦) ، ورغم اعتذار كلثوم لابن أبي عبيدة فقد كانت تلك التصرفات بداية للتصديق بين قوات الخلافة الشامية وعرب افريقية .

على أية حال خرج كلثوم على رأس قواته ، وجعل على رجالة افريقية مغيث الرومي وعلى فرسانها هارون القرني وذلك لمعرفتهما باحوال افريقية وخبرتهما في معارك البربر ، صوب أرض طنجة لتأديب الثوار الذين خرجوا بقيادة خالد بن حميد الزناتي في جموع هائلة واعداد غفيرة ، وتم اللقاء على الضفة الشمالية لاسافل وادي سبو في موضع يقال له بقدورة ، ويذكر صاحب اخبار مجموعة أن مغيثا الرومي وهارونا القرني نصحا كلثوم عندما استشارهما بحفر خندق حول عسكر المسلمين وقالوا له : «خندق أيها الأمير وتلوم بالكراديس ، وأعطنا الخيل نخالفهم إلى قراهم وذرايرهم» (٦٧) لكنه عاد واستمع إلى نصيحة ابن أخيه بلج ، وكان كلثوم لا يعصيه ، إذ قال له : «لا تفعل ، ولا يركك كثرة هؤلاء ، فان أكثرهم عريان وأعزل لا سلاح لهم» (٦٨) فناوشهم كلثوم القتال ، وجعل بلج ابن أخيه على قيادة الخيل الشاميين ليدوسهم بها ، وكانت الخيل أوثق في نفس كلثوم من الرجاله (٦٩) . وفاجأ بلج بن بشر البربر صباحاً ، فاستقبلوه بالصياح والحجارة فكانت الخيل تنفر منهم ، كما عمدوا إلى الرمك الصعبة فعلقوا في أذنانها القرب والانطاع اليابسة ثم وجهوها نحو معسكر كلثوم فنفرت الخيل (٧٠) واضطر كلثوم إلى المناداة بالنزول عن الخيل « وكان ذلك حاجة البربر

(٦٦) ابن عذاري : المصدر والجزء والصفحة ج ١ ، ص ٥٤ .

(٦٧) أخبار مجموعة ، ص ٣٧ ، ص ٣٨ .

(٦٨) نفس المصدر ، ص ٣٧ .

(٦٩) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ٩٨ .

(٧٠) أخبار مجموعة ، ص ٣٨ .

لكثرتهم ، وانهم لم تكن لهم خيل تكافئ خيل المسلمين» (٧١) ، مما ترتب عليه اضطراب صفوف جيش كلثوم ، فالتحم البربر بصفوف أهل الشام ، رغم محاولات بلج المتكررة لوقفهم ، ونجح البربر في عزل بلج عن قوات كلثوم ، وأحاطوا به وبقوات عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة ، بينما وجه خالد بن حميد الزناتي قواته الرئيسية نحو كلثوم فهزموه ، وقتل حبيب ابن أبي عبيدة ، ومغيث الرومي ، وهارون القرني وسليمان بن أبي المهاجر ، وكثير من وجوه العرب ، وألزمت قوات إفريقية من الحيلة والرجالة ، وثبت كلثوم ولكنه قتل وهزمت الشامية هزيمة نكراء (٧٢) .

وهكذا لقي القائد مغيث الرومي مصرعه في موقعة بقدورة بعد أن أدى خدمات جليلة لدولة الاسلام ، فقد اشترك مع طارق بن زياد في موقعة كورة شذونة ، تلك الموقعة التي كانت بداية انهيار السيادة القوطية على اسبانيا وخضوعها لدولة الاسلام في الأندلس التي استمرت ما يقرب من ثمانية قرون ، كما يسجل لمغيث الرومي فتح مدينة قرطبة التي أصبحت حاضرة الاسلام في الأندلس فيما بعد ، وكان أحد شخصين أرسلهما أمير المغرب موسى بن نصير إلى دمشق حاضرة الدولة الأموية لابلاغ الخليفة الوليد بن عبد الملك بانتصارات المسلمين في اسبانيا ، ورغم ما ينسبه المؤرخون العرب من دور غير كريم قام به مغيث في الوقعة بين الخليفة سليمان بن عبد الملك وموسى بن نصير من جهة وطارق بن زياد من جهة أخرى مهلين ذلك بطمعه في ولاية الاندلس ، فان مغيثا الرومي كان تابعيا جليلا أدى للاسلام ولدولته خدمات مجيدة سجلها له التاريخ ولاسرتة التي لعبت من بعده دوراً بالغ الأهمية في الامارة الاموية بالاندلس .

(٧١) أخبار مجموعة ، ص ٣٨ .

(٧٢) - أخبار مجموعة ، ص ٣٩ ، ابن عذاري : المصدر السابق ، ١٠ ، ص ٥٥ ، ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ٩٩ ، وأنظر أيضاً .

Chejne (Anwar) : Historia de Espana musulmana, ediciones catédra, Madrid, 1980, P. 23.

٢ - أبناء مغيث :

فقد كان ابنه عبد الواحد بن مغيث من أكابر رجال الدولة المروانية في الأندلس ، تولى الحجابة للأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام المعروف بالداخل (١٣٨ - ١٧٢ هـ) (٧٣) ، ولابنه الأمير هشام الأول (١٧٢ - ١٨٠ هـ) (٧٤) ، وكانت وفاته في أيام الحكم الأول عام ١٩٨ هـ (٧٥) .

كما لمع أبناء عبد الواحد بن مغيث الثلاثة عبد الكريم وعبد الملك وعبد الحميد الذين كانوا من كبار رجال الدولة الاموية سياسة وقيادة وكياسة وعلماء ، فقد كان عبد الكريم وعبد الملك من أعظم القادة العسكريين في عهدى الأمير هشام الأول والحكم الأول ، وبدأ نجم عبد الكريم ابن عبد الواحد بن مغيث يلمع منذ اماره هشام الأول إذ عهد اليه بولاية كورة جيان ، ثم كلفه بقيادة جيوشه في غزواته للممالك النضرانية في شمال اسبانيا وفرنجه ، ثم استحجبه (٧٦) . وفي عهد الحكم الأول تولى الحجابة له طوال عهده «وكان من العقل وحسن الرأى بمكان كبير» (٧٧) ، إلى أن توفى الحكم ، فتولى الحجابة والوزارة والكتابة والقيادة لابنه عبد الرحمن

(٧٣) ابن عذارى : المصدر السابق ، ٢ ، ص ٤٨ ، وأنظر أيضاً :

النباهى المالى : كتاب المراقبة العليا ، ص ١٢ .

(٧٤) ابن الأبار (أبي عبد الله محمد بن أبي بكر القضاعى) : كتاب الخلة السراء ، الجزء الأول ، تحقيق حسين مؤنس ، الطبعة الأولى ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٦٣ ، ص ١٣٥ .

(٧٥) ابن سعيد المغربي : المغرب في حلى المغرب ، ١ ، ص ٤٤ .

(٧٦) ابن عذارى : المصدر السابق ، ٢ ، ص ٦١ ، ابن الأبار : المصدر السابق ، ١ ، ص ١٣٥ .

(٧٧) ابن القوطية : المصدر السابق ، ص ٦٧ ، ابن حيان : المقتبس من أنباء أهل الأندلس ، تحقيق محمود على مكي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ص ٢٥ .

الأوسط حيث توفي في صدر امارته عام ٢٠٩ هـ (٧٨) ، يذكر ابن الخطيب ان عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث تولى بجانب الحجابة ، القيادة والكتابة (٧٩) ، وفي رواية لابن القوطيه أنه «لم يختلف مختلف من شيوخ الاندلس أنه يخدم بنى أمية بالاندلس أكرم منه عناية وأكثر طاعة لا أنه كان يقبل الهدية والمكافأة على قضاء الحاجة (٨٠) . ويصفه ابن حيان بأنه «أكمل من حمل الاسم وأجمعهم لكل حسنه» (٨١) . ويسميه لبني بروفنسال بحق أعظم رجال دولة الحكم على الاطلاق (٨٢) ، فقد كان يجمع خصالا لم تكن تتوفر للكثيرين من رجال الدولة في عصره ، فقد كان سياسيا محنكا وعسكريا ممتازاً ، وكاتباً أدبياً عالماً ، وكان على حد قول الرازي أكمل من ولى الحجابة لبني مروان (٨٣) .

وحظى أخوه عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث بمكانة رفيعة في عصر الأمير هشام الأول فولاه الوزارة والقيادة (٨٤) ، فاشترك في قيادة الجيوش الاسلامية إلى شمال اسبانيا وبلاد الفرنجة وفي عصر الحكم الأول تولى القيادة وعهد اليه بولاية سرقسطة قاعدة الثغر الأعلى الاندلسي (٨٥) .

-
- (٧٨) ابن حيان : المصدر السابق ، صفحات ٢٧ ، ٢٨ ، ٣١ ، ابن القوطية : المصدر السابق ، ص ٦٧ ، ابن عذارى : المصدر السابق ، ص ٢٠ ، ص ٨٢ .
 (٧٩) ابن الخطيب (لسان الدين) : الاحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، المجلد الأول ، دار المعارف ، مصر ، ص ٤٨٨ .
 (٨٠) ابن القوطية : المصدر السابق ، ص ٩٤ ، ابن حيان : المصدر السابق ، ص ٣٠ .
 (٨١) ابن حيان : نفس المصدر ، ص ٢٥ ، ص ٢٨ .
 (٨٣) أنظر :

Lévi-Provençal : Op. Cit, T.I, P. 102.

- (٨٣) في ، ابن حيان : المصدر السابق ، ص ٢٥ ، وأنظر أيضاً ، نفس المصدر ، حاشية رقم ٨٢ ، ص ٤٤٤ ، ص ٤٤٥ .
 (٨٤) المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٣٣٧ ، ص ٣٣٨ .
 (٨٥) ابن الابار : المصدر السابق ، ص ١٠ ، ص ١٣٥ .

أما عبد الحميد بن عبد الواحد بن مغيث فقد برز نجمه وعلا شأنه في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) فعهد اليه بولاية غرب الأندلس (٨٦) .

كما برز من هذه الأسرة أيضا عبد الملك بن عبد الله بن محمد بن عبد الحميد بن عبد الواحد بن مغيث الذي تولى قيادة الأسطول الأندلسي في حملة بحرية على ساحل جليقية شمالا سنة ٢٢٦ هـ (٨٧) .

وتفصل الروايات العربية الدور الهام الذي لعبه أفراد هذه الأسرة في الجهاد ضد الممالك النصرانية شمالا إسبانيا ثم بلاد الفرنجة ، وفي إخماد بعض الثورات التي قامت ضد الدولة الأموية في الأندلس ، ففي سنة ١٧٦ هـ (٧٩٠ م) بعث الأمير هشام الأول قائده ووزيره عبد الملك ابن عبد الواحد ابن مغيث لغزاة العدو ، فبلغ ألبه والقلاع فأثنى في نواحيها (٨٨) ، بعد وقت قليل من ارتقاء ألفونسو العفيف (Alfonso II El Casto) (٧٩١ - ٨٤٢ م) خليفة برمود الأول الذي نقل عاصمته إلى أبيب (Oviedo) (٨٩) .

وفي العام التالي ١٧٧ هـ (٧٩٣ م) بعث به الأمير هشام الأول بالصائفة في جيش كثيف إلى أرض الروم في أربونه (Narbonna) وجرنده (Gerona) (٩٠) ، وكانت جرندة قد سقطت في أيدي الفرنجة سنة

(٨٦) ابن حيان : المصدر السابق ، ص ١٥٤ ، ص ١٥٥ .

(٨٧) نفس المصدر ، ص ٣٩٨ ، ص ٣٩٩ .

(٨٨) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٦ ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ص ١٣٣ ، المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٣٣٧ .

(٨٩) أنظر :

Lévi-Provençal : OP. Cit., T.I, P. 102.

(٩٠) ابن عذارى : المصدر السابق ، ص ٢٤ ، ص ٦٤ ، المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٣٣٧ ، الخشني (أبي عبد الله محمد بن حارث) : قصة قرطبة ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، دار الكتب الإسلامية ، ١٩٨٢ ، ص ٩١ .

١٦٩هـ (٧٨٥م) (٩١) قبل وفاة عبد الرحمن الداخل بقليل. فلما توفي عبد الرحمن الداخل ١٧٢ هـ (٧٩١ م) ، وخلفه ابنه هشام الأول ، فانتهاز الفرنجة فرصة نشوب الحرب بين هشام الأول وأخوته واستولوا على المنطقة الساحلية في جنوب سبتانيا وعلى أرجل (Urgel) سنة ١٧٣ هـ (٧٨٩م) (٩٢) ، فكان ان وجه الأمير هشام هذه الصائفة لمحاربة الفرنج وعدم السماح لهم بالتدخل في شئون امارته ، فبدأ القائد عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث بمحاصرة جرندة شمال شرق برشلونه وثلثم أسوارها بالمجانيق (٩٣) ، ولما لم يفلح في افتتاحها مضى إلى سبتانيا فعاث في نواحيها وبقي شهوراً يحرق قراها ويخرب حصونها ، حتى وصل إلى حاضرتها أربونة في الوقت الذي كان فيه شارلمان ملك الفرنجة مشغولاً بمحاربة الأفار ، وعدم استطاعته ارسال نجدات فورية إلى الحدود الاندلسية (٩٤) ، وتذهب الرواية الاسلامية إلى أن عبد الملك قد افتتح مدينة أربونة في هذه الغزوة (٩٥) ، ولكن يبدو ان عبد الملك اكتفى باحراق ضواحيها وذهب إلى قرقرشونه لمواجهة الجيش الذي بعثه لويس ملك اكويتين بقيادة جيوم دوق طولوشه المعروف بندي الأنف القصيرة ، فالتقى الجيشان على ضفاف نهر اونيرو (Onbeu) بين

(٩١) أنظر :

Lévi-Provençal : OP. Cit., T.I, P. 102.

Jackson : The making of medieval Spain, California, 1976, P. 18. (٩٢)

(٩٣) ابن عذارى : المصدر السابق ، ٢٠ ، ص ٦٤ ، وأنظر أيضاً :

Lévi-Provençal : OP. Cit., T.I, P. 102.

(٩٤) أنظر :

Oman (Sir Charles) : The dark Ages, (476 — 918)

London, 1962, P. 356;

وأنظر أيضاً :

محمد محمد مرسى الشيخ : دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، ١٩٨١ ، ص ١٦١ .

(٩٥) ابن عذارى : المصدر السابق ، ٢٠ ، ص ٦٤ ، ابن الأثير المصدر السابق ، ٢٠ ،

المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الاول ، ص ٣٣٧ ، ص ٣٣٨ ، محمد الشيخ : نفس المرجع ،

ص ١٦١ .

أربونه وقرقشونه ، جرت معركة كبيرة انتصر فيها المسلمون ومنى فيها الفرنجة بخسائر فادحة ، بالرغم مما أبداه جيوم دوق طولوشة من شجاعة فائقة (٩٦) ، وغنم المسلمون غنائم كثيرة وعدداً وافراً من السبي ، فقد بلغ فيه «خمس السبي إلى خمسة وأربعين ألفاً من الذهب العين» (٩٧) ، وأرغم عبد الملك أسراه من الفرنج على جر أحمال من الأحجار ومواد البناء من سور أربونه إلى باب قصر الامارة بقرطبة ، ومنها بنى المسجد الذى يقع تجاه باب الجنان من أبواب قصر الامارة (٩٨) .

وأما صائفة ١٧٨ هـ (٧٩٤م) فقد كانت أقل توفيقاً ، إذ بعث الأمير هشام جيشين فى وقت واحد ، احدهما بقيادة عبد الملك بن عبد الواحد ابن مغيث ووجهته بلاد اشتوريش ، والآخر بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد ابن مغيث ووجهته ألبه والقلاع فغنم وسلب (٩٩) ، وقد نجح عبد الكريم فى التغلب على الجلالقة واتهمى إلى استرقه (Astorga) ، أما عبد الملك فوصل إلى مدينة أبيض ونهبها وأثنى فيها، وفى أثناء عودته فوجىء بهجوم قام به نصارى اشتوريش فى بطيحة ثار فيها النصارى من المسلمين وقتل منهم عدد كبير (١٠٠) .

(٩٦) ابن عذارى : المصدر السابق ، ص ٢٤ ، وأنظر أيضاً
Lévi-Provençal : OP. Cit., IT., P.102.

(٩٧) ابن عذارى : نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٩٨) المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٣٣٧ ، بينما ينسب ابن القوطية فتح أربونه إلى عبد الحميد بن مغيث فيقول : «وافتح عبد الواحد بن مغيث أربونه فى أيامه ، وفى الخمس الحاصل منها بنى القنطرة والجامع ، راجع : (تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ٦٥) .
(٩٩) ابن الأثير : المصدر السابق ، ص ٢٤ ، ص ١١٤ ، المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٣٣٨ .
(١٠٠) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء والصفحة ، وراجع أيضاً : المقرئ : نفس المصدر والجزء والصفحة ،

Barrau Dihigo : Royaume Asturien, P. 123, N.2;

Lévi-Provençal : OP. Cit., T.I, P. 102;

السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين ، ص ٢١٧ .

وكان من الطبيعي أن تحدث الهزيمة رد فعل كبير عند المسلمين ، فبادر الأمير هشام الأول بتجهيز جيش أسند قيادته لقائده عبد الكريم بن عبد الواحد ابن مغيث للانتقام من الاشتوريين ، فسار في صيف ١٧٩ هـ متوجهاً إلى استرقه فلما انتهى استولى عليها (١٠١) ، أما ألفونسو الثاني عندما بلغته أخبار سقوط إحدى حواضره ومسير الجيش الاسلامي اليه ، أخذ من فوره في جمع حشوده وابستمد عون البشكنس وأهل البلاد المجاورة ، فانهى اليه جمع كبير ، فحشد جيوشه «ما بين حيز جليقية و الصخرة» وأفرغ المناطق السهلية من سكانها ونقلهم إلى المناطق الجبلية الساحلية تمهيداً للاشتباك مع جيوش المسلمين (١٠٢) ، عندئذ قدم عبد الكريم احد كبار قواده هو القاضي فرج بن كنانة (١٠٣) على رأس أربعة آلاف من الفرسان من جند شذونه لمواجهة جيش أشتوريش ، ورحل باقي الجيش الاسلامي بقيادة عبد الكريم في أثره ، ففضى على كل مقاومة في طريقه ، وأحدث الخراب والدمار في بلادهم ومزارعهم (١٠٤) ، والتحم جيش فرج بن كنانة مع فرقة مسيحية عدتها ثلاثة آلاف فارس بقيادة غند مارة في واد يقال له وادي كوثيه ، ونجح القائد العربي ابن كنانة في إلحاق الهزيمة بها «وأسر غندمارة وقتل من أصحابه عدد كبير » ، وغنم المسلمون جميع ما في تلك

(١٠١) ابن عذارى : المصدر السابق ، ٢٠ ، ص ٦٤ ، المرقى : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٣٣٨ ، وراجع أيضاً :

Lévi-Proyengal : OP. Cit., T.I, P. 102;

السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين ، ص ٢١٧ ، ص ٢١٨ .

(١٠٢) ابن عذارى : نفس المصدر والجزء والصفحة ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، القسم الأندلس ص ١٢ .

(١٠٣) ابن عذارى : نفس المصدر والجزء والصفحة ، عن ترجمة القاضي فرج بن كنانة راجع ، النباهي المالقي (أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن) : كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، بيروت ، ص ٥٤ ، الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ٩٥ .

(١٠٤) ابن عذارى : المصدر السابق ، ٢٠ ، ص ٦٤ .

الناحية (١٠٥) . ثم واصل فرج بن كنانة تقدمه لتنفيذ مهمته الأصلية وهي ملاقاتة ألفونسو الثاني ، الذي تحصن في حصن له على ضفاف وادي نلون (Nalon) ، ف ضرب الحصار عليه ووافته هناك جيوش عبد الكريم واشتركت معاً في حصاره ، غير أن ألفونسو الثاني استطاع الفرار من الحصن متوجهاً إلى حاضرة ملكه ، فاحتل عبد الكريم الحصن وغنم المسلمون ما وجدوه فيه من الأطعمة وضروب الزخرف ، وفي اليوم التالي بعث عبد الكريم قائده فرج بن كنانة على رأس عشرة آلاف فارس لملاحقة ألفونسو ، ونجح في مهمته فأوقع بالملك الاشثوري وجيشه الهزيمة « وقتل فيهم قتلاً ذريعاً » ، واستولى على جميع معداته وذخائره (١٠٦) .

وفي عهد الأمير الحكم الأول (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) أسند إلى حاجبه عبد الكريم بن الواحد بن مغيث قيادة حملة عام ١٨٥ هـ موجهة إلى جليقية فأثنى عبد الكريم بقواته في أراضيها وتعقب أهلها بالقتل ، وظفر بهم وعاد إلى قرطبة ظافراً (١٠٧) .

وهناك رواية غربية منسوبة إلى الرازي ، وقيل لابن حبان ، مفادها ان الأخوين عبد الملك وعبد الكريم ابني عبد الواحد بن مغيث كانا قد انضما سنة ١٨١ هـ في بداية عهد الحكم الأول إلى عمه عبد الله بن عبد الرحمن الداخل

(١٠٥) ابن عذاري : المصدر السابق - ٢ ، ص ٦٤ ، ص ٦٥ .

(١٠٦) ابن عذاري : نفس المصدر والجزء ، ص ٦٥ ، وراجع أيضاً : النباهي المالقي : المراقبة العليا ، ص ٥٤ .

Lévi-Provençal : Op. Cit, T.I, P. 102.

(١٠٧) المقري : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٣٣٩ .

في ثورته ضد الأمير الحكم ، وأنهما سارا إلى سرقسطة ، لكن أبا صفوان عاملها من قبل الحكم استطاع أن يهزمهم ويأسر «زعيمهم» عبد الكريم ابن عبد الواحد بن مغيث ، ويذكر ان الأخوين عادا بعد ذلك إلى الطاعة واستأمنوا في أوائل عام ١٨٦ هـ ، فأمنهما الحكم ، وفودا على قرطبة ، وقدمتا خضوعهما وإخلاصهما ، ويميل مؤرخ محدث إلى تأييد هذه الرواية بدليل أنه لم يرد للأخوين ذكر خلال الأعوام الخمسة من ١٨١ - ١٨٦ هـ مع خضوعهما وإخلاصهما ، ويميل مؤرخ حديث إلى تأييد هذه الرواية بدليل أنه لم يرد للأخوين ذكر خلال الأعوام الخمسة من ١٨١ - ١٨٦ هـ مع «أنهما كانا دائما في الطليعة في قيادة مختلف الحملات والغزوات» (١٠٨)

على أن هذه الثورة المزعومة تبدو صعبة في تحقيقها ، ولو فرض أن الأخوين نجحا في تحقيقها ، فإنهما بذلك لن ينالا مجداً ونفوذاً أكبر مما في أيديهما فعلا ، فعبد الكريم ظل حاجبا طوال عصر الحكم الأول ، وقاد له حملة على جليقية سنة ١٨٥ هـ كما سبقت الإشارة ، أما عبد الملك فبرز نجمه أثناء قيادته للجيش الاسلامي في بلاد الفرنجة ثم في شمال اسبانيا .

وفي سنة ٢٠٠ هـ (٨١٥ - ٨١٦ م) سبر الأمير الحكم وزيره عبد الكريم ابن عبد الواحد ابن مغيث لغزو اشتوريش (١٠٩) ، وكان سبب انفاذ هذه الصائفة أن أهل مدينة بنبلونه كانوا قد ثاروا على عاملها مطرف بن موسى بن قسى وقتلوه وأقاموا عليهم واحداً منهم يدعى فلاسكو (Velasco) وانضموا إلى الملك ألفونسو الثاني Alfonso II (١١٠) ، فسار اليهم

(١٠٨) أنظر : محمد عبد الله عنان : دولة الاسلام في الأندلس ، العصر الأول - القسم الأول ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٢٣١ ، وهامش (١) .

(١٠٩) ابن عذاري : المصدر السابق ، ص ٢٠ ، ص ٧٥ ، المقرئ : المصدر السابق ، ص ١٠٠

ص ٣٤٠ .

(١١٠) أنظر :

Lévi-Provençal : Op. Cit. T.I, P. 124.

عبد الكريم ودخل بقواته أراضى أشتوريش وتوسطها وأهلك معائشها ومرافقها ، وحطم زروعها وهدم منازلها وحصونها ، حتى استوفى جميع قرى وادى أرون» (١١١) واشتبك مع قوات الفونسو الثانى على نهر أرون (Oron) وانتصر على الفونسو الثانى انتصاراً حاسماً مع قوات الفونسو الثانى ومرافقها ، وحطم زروعها وعدم منازلها وحصونها ، حتى استوفى جميع قرى وأودى أرون» (١١١) واشتبك مع قوات الفونسو الثانى على نهر أرون (Oron) وانتصر على الفونسو الثانى انتصاراً حاسماً وقتل من قواته عدداً عظيماً لا يحصى (١١٢) ، كما لقي عدد كبير من قواته مصرعهم من بينهم غرسيه بن لب خال ألفونسو الثانى ، وشانجه احد زعماء البشكنس ، وعاد عبد الكريم ظافراً فى السابع من ذى القعدة سنة ٢٠٠ هـ (يونيه ٨١٦ م) (١١٣)

وكان للحاجب عبد الكريم دور فعال فى القضاء على ثورة الربض الشهيرة بقرطبه عام ٢٠٢ هـ (٨١٧) ، تلك الثورة التى كانت تهدف إلى الاطاحة بدولة الحكم ، فعهد إلى حاجبه عبد الكريم ووزيره فطيس بن سليمان بالدفاع عن قصر الامارة ، بينما خرج عبيد الله بن عبد الله البلمسى فى قوة من الفرسان والمشاه وعبرت نهر الوادى الكبير إلى الربض الثائر ، وأضرمت فيه النار ، فلما حاول أهل الربض الرجوع الى بيوتهم لاطفاء النار وانقاذ أهاليهم ، تلقتهم سيوف جند الحكم من ورأهم ومن أمامهم واستبدر القتل والنهب فى أهالى الربض ثلاثة أيام حتى مزقوا شر ممزق ، عند ذلك أشار الحاجب عبد الكريم على الأمير الحكم بإيقاف تلك المذبحة ، ولعله أشار

(١١١) ابن عذارى : المصدر السابق ، ٢٠ ، ص ٧٥ ، المرقى : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٣٤٠ .

(١١٢) ابن عذارى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(١١٣) أنظر :

Lévi-Provençal : Op. Cit., T.I, P. 124.

عليه بتغريب أهل الربرض خارج الأراضى الأندلسية (١١٤) .

وفى سنة ٢٠٨ هـ (٨٢٣ م) كانت الغزوة المعروفة بغزوة ألبه والقلاع غزاها عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث بالصائفة ، فاقتحم المسلمون ألبه من فج معروف لعبد الكريم تمام المعرفة له وهو فج جرنيق (١١٥) ، ويذكر ابن عذارى المراكشى أن وراء هذا الفج ارضا مستوية للعدو يحتفظ فيه بنجرائته الحربية وذخائره ، فوقع جند عبد الكريم على هذه الأرض فهبوها ودمروا الأراضى والبقاع التى مروا عليها وأقفروها (١١٦) ، وهزموا النصارى فى عدة مواقع ، واشترط عبد الكريم عليهم ان يدفعوا جزية كبيرة ، وان يطلقوا اسرى المسلمين ، وعاد الحاجب عبد الكريم إلى قرطبة محملا بالغنائم والسبي (١١٧) .

وتوفى الحاجب النابه والقائد المظفر عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث

(١١٤) عن ثورة الربرض ، أنظر : أخبار مجموعة ، ص ١١٨ ، ص ١١٩ ، ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ٦٧ وما بعدها ، ابن عذارى : المصدر السابق ، ص ٢٠ ، صفحات ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، القسم الأندلسى ، ص ١٥ ، محمد عبد الله عنان : المرجع السابق ، ص ٢٤٣ وما بعدها ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين ، ص ٢٢٢ ، ص ٢٢٣ وأنظر أيضاً :

Lévi-Provençal : OP. Cit., T.I, P. 188.

(١١٥) ابن عذارى : المصدر السابق ، ص ٢٠ ، ص ٨١ ، ص ٨٢ ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، القسم الأندلسى ، ص ١٩ ، ص ٢٠ ، ويرى ليني بروفنسال أن فج جرنيق لعله الممر المعروف اليوم باسم Guernics أو El Puerto de Hernechu-Guernu الواقع بين سيراى أنثيا Sierra de Encia وجبال اتورييتا Iturieta فى ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين ، ص ٢٣٨ ، ص ٢٣٩

(١١٦) ابن عذارى : نفس المصدر والجزء ، ص ٨١ ، ص ٨٢

(١١٧) المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٣٤٤ ، ص ٣٤٥ ، محمد عبد الله عنان : المرجع السابق ، ص ٢٥٦ .

في غزاته بالصائفة إلى أوريط سنة ٢٠٩ هـ (٨٢٤ م) (١١٨) ، بعد أن أدى خدمات جليلة للإسلام ولدولته بالأندلس .

أما عبد الحميد بن عبد الواحد بن مغيث فقد ولاه الأمير محمد بن عبد الرحمن ولاية غرب الأندلس ، وفي توليته يروى ابن حيان (١١٩) رواية طريفة ملخصها ، ان الأمير محمد أمر حاجبه عيسى بن الحسن (١٢٠) في حضور وزرائه باستدعاء عبد الحميد بن عبد الواحد بن مغيث ، الذي كان الأمير عاتباً عليه ثم صفح عنه لما لأسرته من مكانة كبيرة في الدولة ، وأمر كذلك بكتابة سجل بتوليته ولاية غرب الأندلس كلها إلى قلمريه (Coimbra) (١٢١) ويذكر ابن حيان أن الحاجب عيسى بن الحسن نسي مكان ولاية عبد الحميد ،

(١١٨) ابن عذارى : المصدر السابق ، ص ٢٠ ، ص ٨٢ .

(١١٩) المقتبس ، تحقيق محمود علي مكي ، ص ١٥٤ .

(١٢٠) هو الحاجب عيسى بن الحسن بن أبي عبده ، تولى الحجابة للأمير محمد عبد الرحمن بعد حجاب عيسى بن شهيد ، راجع ، (ابن حيان : نفس المصدر ، ص ١٥٢ ، ابن عذارى : المصدر السابق ، ص ٢٠ ، صفحات ٩٣ ، ٩٦) ، وقد أشار العذري إلى أنه قاد الجيوش الأندلسية التي صدت غارات المجوس (النورمان) في هجومهم الثاني على سواحل غرب الأندلس في سنة ٢٤٥ هـ (٨٥٩ م) ، راجع ، (نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك ، تحقيق عبد العزيز الأهواني ، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ، ١٩٦٥ ، ص ١١٨) .

(١٢١) قلمريه (وتكتب أيضاً : قلمبريه) Coimbra ، مدينة تقع على مقربة من مصب نهر منديق Mondego في المحيط الأطلسي على الساحل الغربي لشبه جزيرة أيبيريا ، وهي تقع إلى الشمال منحرفة قليلاً إلى الشرق بالنسبة إلى الأشبونة على مساحة نحو ٢٢٠ كم وتقع إلى الجنوب من برتغال (بورتو Porto) على نحو ١٢٠ كم ، راجع ، الأدريسى (الشريف) : وصف المغرب والأندلس من كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» ، نثرة دوزي ودي جويه ، ليدن ، ١٨٦٦ ، ص ١٨٣ الحميري (أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم) : صفة جزيرة الأندلس - منتخبة من كتاب الروض المطار في خبر الأقطار ، نشر ليبي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٣٧ ، ص ١٦٤ من النص العربي ، ص ١٩٧ من الترجمة الفرنسية) .

فسأل عنها الوزير هاشم بن عبد العزيز (١٢٢) ، فلم يصدقه القول وذكر له باغه (Priego) (١١٣) فصدقه . فلما حضر عبد الحميد بن عبد الواحد ابن مغيث ، وأبلغه الحاجب عيسى بصفح الأمير عنه وبأمر تكليفه له على باغه «تنمر ابن مغيث وقال : ما هي علاقة رضى عني ، بل اركاس بنى والله ما أرضاها لغلامي ، وأنه ليرتفع عنها .. فقال له عيسى اكتب عن نفسك ، فانه أصلح ، وفعل » (١٢٤) . ومن الواضح ان حنق حفيد مغيث وغضبه لم يكن الا لأن باغه لم تكن سوى بليدة صغيرة قليلة الخطر ضئيلة الشأن بالنسبة لفرد من أسرة بنى مغيث ، ومن هنا نرى عبث الوزير هاشم ابن عبد العزيز بالحاجب عيسى بن الحسن وتعمية أمر الأمير عليه ، فلما بلغ الأمير محمد كتاب ابن مغيث ضحك وعلم بما فعله وزيره المقرب اليه ، فأغضى عن عبثه ، وأوضح للحاجب عيسى بن الحسن مكان ولاية حفيد مغيث على غرب الأندلس كله ، فرضى حفيد مغيث عن ولايته وشكراً الأمير (١٢٥) .

(١٢٢) الوزير أبو خالد هاشم بن عبد العزيز كان من أشهر وزراء الأمير محمد بن عبد الرحمن وأحظاهم عنده ، وأكبر رجال الدولة في عهده ، وأقربهم إلى قلبه ، راجع في ترجمته ، ابن حيان : المصدر السابق ، ص ١٤٣ ، والحاشية رقم ٣٣٠ ض ٥٣٣ والمراجع التي وردت بها . (١١٣) يعتقد الأستاذ الدكتور محمود على مكي أن الأمير محمد أشار بتولية ابن مغيث على باجه (Beja) وأعمالها ، فقد كانت باجه مركزاً غرب الأندلس ، فعمد هاشم إلى تعمية الأمر مستغلاً ذلك الشبه اللفظي بين باجه وباجة ، راجع (ابن حيان : المصدر السابق ، ص ٥٢٩ ، حاشية رقم ٣٢١) ، وباجة بضم النين وسكون الهاء ، وتكتب أيضاً باغو ويغو (Priego) ، وقد كان اسمها اللاتيني القديم (Ipagrum) بلدة كانت من أعمال غرناطة وتقع الآن على بعد نحو مائة كيلو متر إلى شمال غرب غرناطة ، وعلى مسافة نحو ١١٠ كم إلى الجنوب الشرق من قرطبة ، وتتبع حالياً مديرية قرطبة ، راجع ، الأدرسي : المصدر السابق ، ص ٢٠٤ ، ابن سعيد : المغرب ، ٢٠ ، ص ٥٤ ، الحميري : المصدر السابق ، ص ٦٠ ، ص ٦١ من النص العربي ، وص ٧٦ - ٧٧ من الترجمة الفرنسية .

(١٢٤) ابن حيان : نفس المصدر ، ص ١٥٤ .

(١٢٥) نفس المصدر ، ص ١٥٤ ، ص ١٥٥ .

برز أيضاً من أسرة مغيث الرومي عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الواحد ابن مغيث عامل الأمير محمد بن عبد الرحمن على الثغر ، فقد شارك في القضاء على ثورة عمرو بن عمرو بن عمرو بن يوسف الذي ثار على موسى ابن غلند عامل وشقه (Huesca) وانتزعها منه وقتله سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠م) ، وعمروس هو حفيد عمرو بن يوسف بطل واقعة الحفرة بطليطلة زمن الأمير الحكم الأول ، وقد كان بنو عمرو بن مولدين من أصل نصراني ، لا يشعرون بأى ولاء حقيقى للحكومة قرطبة ، فأخرج الأمير محمد اليه أحمد بن شاهد العريف المعروف بالتدميرى فى جيش كثيف ، فوصل إلى مدينة لارده وأقام بها ، وفى نفس الوقت حشد عبد الوهاب ابن أحمد بن عبد الواحد بن مغيث حشوده وقدم عليهم عبد الأعلى العريف الذى انضم إلى جيش أحمد بن شاهد ، وتقدما فى طريقها إلى مدينة وشقة فلما بلغ بن عمرو المنتزى بوشقه قريهما ، خرج عنها هارباً إلى شرطانية فدخلت قوات الأمير محمد وشقه ، وأسرت بها حفيده لب بن زكريا ابن عمرو (١٢٦) . وقتل وعلق رأسه على سور المدينة .

كما شارك عبد الوهاب ابن أحمد بن عبد الواحد بن مغيث بقواته فى سنة ٢٥٧ هـ (٨٧١م) والقوات التى أرسلها الأمير محمد بقيادة عبد الغافر ابن عبد العزيز فى مطاردة فلول عمرو بن عمرو ، فسار إلى مدينة تطيلة (Tudela) وأسرت بها ولده زكريا وابناءه وجماعة من أهله ، وقتلهم على باب مدينة سرقسطة ، وقتل عبد الغافر بن عبد العزيز إلى قرطبة ورؤسهم بين يديه (١٢٧)

(١٢٦) ابن حيان : المصدر السابق ، ص ٣٢٥ ، العذرى المصدر السابق ، ص ٦١ ، ٦٢ ، ابن عذارى المصدر السابق ، ص ٢٠ ، ص ١٠٠ ، محمد عبد الله عنان : المرجع السابق ص ٣٠١ .

(١٢٧) ابن حيان : المصدر السابق ، ص ٣٢٦ ، العذرى : المصدر السابق ، ص ٦٢ ، ابن عذارى : المصدر السابق ، ص ٢٠ ، ص ١٠١ .

وحدث في نفس العام أن ثار لب بن موسى بأرنيط (١٢٨) وظاهر غرسية بن ونقه Gancia Iniguez ملك نبره أخوه لأمه (١١٩) ، وتغلب في العام التالي ٢٥٨ هـ (٨٧٢ م) على الثغر الأعلى كله (١٣٠) ، فاستولى على مدينة تطيلة في الرابع من شهر ربيع الأول من نفس العام وأسر عبد الوهاب ابن أحمد بن عبد الواحد بن مغيث المعروف بوهيب عامل الأمير محمد على الثغر الأعلى الذي كان متراجداً بالمدينة ، وقدم لب بن موسى أخاه فرتون عايبها (١٣١) ، ثم قدم أخاه اسماعيل بن موسى على مدينة سرقسطة في ٧ ربيع الأول من العام المذكور ، ويبدو أنه وجد مقاومة عنيفة من عاملها محمد بن عبد الوهاب وعرب سرقسطة ، يذكر العذري أن لب بن موسى انضم إلى قوات أخيه بعد ثلاثة أيام أي يوم ١٠ ربيع الأول وتمكن من أسر عاملها محمد بن عبد الوهاب وأخوته وسجنهم مع أبيهم وقتل عرب سرقسطة (١٣٢) وبعد أن استولى على تطيلة وسرقسطة سار إلى مدينة وشقة وانتزعها من عاملها عباس بن عبد البر وقدم عليها أخاه مطرف (١٣٣) ، وللأسف

(١٢٨) هو لبيب بن موسى بن موسى القسوى ، كان رهينا عند الأمير عبد الرحمن الأوسط بقرطبة حتى خرج الجيوس في عام ٢٤٥ هـ (٨٥٩ م) ، فأخرجه الأمير محمد من محبسه ووجهه اليهم ، فأبلى في قتالهم ، فأطلق الأمير سراحه وأهدى إليه جارية تسمى عجباً البلاطية أنجبت له ولده محمد بن لب ، وأمر الأمير محمد لب بن موسى بالتوجه إلى الثغر فقدم وبني حصن بقره Vigueras ودارت بينه وبين أخوته اسماعيل ومطرق وفرتون حروب حتى اضطروه إلى تسليم أرنيط والخروج من بقره ، راجع (العذري : نفس المصدر ، ص ٣١) .

(١٢٩) ابن حزم الأندلسي (أبو محمد علي بن سعيد) : جمهرة أنساب العرب ، تحقيق وتعليق عبد السلام محمد حارون ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، ١٩٧٧ ، ص ٥٠٢ ، ٥٠٣ .

(١٣٠) ابن حيان : المصدر السابق ، ص ٣٢٦ ، وراجع أيضاً :

Lévi-Provençal : OP. Cit., T.I, P. 388.

(١٣١) العذري : المصدر السابق ، ص ٣١ .

(١٣٢) العذري : نفس المصدر ، ص ٣١ - ٣٢ ، ابن حيان : المصدر السابق ، ص

٣٢٦ ، ابن عذري : المصدر السابق ، ص ٢٠ ، ص ١٠١ .

(١٣٣) العذري : المصدر السابق ، ص ٣١ ، ابن حيان : المصدر السابق ، ص ٣٢٦ ،

وأنظر أيضاً :

Afif Turk: El Reino de Zaragoza, en el siglo XI, Fondo de Cultura Económica (México)
Madrid, 1978, PP. 14-15.

لم تمدنا المصادر الاسلامية بشيء عن مصير عامل الثغر عبد الوهاب بن أحمد ابن عبد الواحد بن مغيث ، وان كان من غير المستبعد أن يكون قد أطلق سراحه بعد ذلك .

وإذا كان بنو مغيث قد برزوا في الحروب البرية في شمال اسبانيا وفي أراضي الفرنجة ، فقد ظهر منهم من برز في ميدان البحر أيضاً ، فيستفاد مما رواه المؤرخ ابن حيان القرطبي في حوادث ٢٦٦ هـ (٨٧٩م) أن الأمير محمد قد علم من بعض أمراء أسطوله ان جليقية من ناحية البحر المحيط عوره لا معقل لها ولا حصن ، وان ساحلها نزهة لمن قصده ، فطمع الأمير في غزوها ، وأصدر أوامره في الحال بانشاء المراكب وجمع لها البحارة فلما تم اعدادها وتجهيزها أمر عليها ابن مغيث المعروف بالدك وهو عبد الله ابن محمد بن عبد الحميد بن مغيث ، وعقد لواءه في المسجد الجامع بقرطبة ويضيف ابن حيان أن أمير البحر عبد الملك «خرج في أفخم خروج خرج به قائد من قرطبه» ، وما كاد الأسطول الأموي يدخل في مياه المحيط حتى تعرض لعاصفة عاتية فرقت قطعه ولم يجتمع بعضها إلى بعض ، وغرق معظمها ، ولم يعد منها الا اليسير ونجا قائد الأسطول مع قليل من جنده (١٣٤) مما يرجح أن بناء هذا الأسطول كان سيئاً ، وأن بحارته لم يكن لديهم دراية بالملاحة حتى أنه غرق بمجرد بلوغه لمياه المحيط ، وهذا يعني أن البحرية

(١٣٤) راجع في أخبار هذه الحملة البحرية ، المقتبس ، تحقيق محمود علي مكي ، ص ٢٩٨ ، ص ٣٩٩ ، وأنظر أيضاً : ابن عذراي : المصدر السابق ، ص ٢٠ ، ص ١٠٣ ، ص ١٠٤ ،
أورد ابن حيان لقب قائد الأسطول الأموي ابن مغيث المعروف بالدك في حين رسمه ابن عذراي الرعيطي المعروف بابن مغيث ، راجع ، (البيان المغرب ، ص ٢٠ ، ص ١٠٤) ، غير أن ابن حيان أورد اسمه كاملاً وهو عبد الملك بن عبد الله بن محمد بن عبد الحميد ابن مغيث ، راجع ، لابن حيان ، نفس المصدر ، ص ٣٩٨ والخاصية رقم ٦٣٠ ، وراجع أيضاً في أخبار هذه الحملة ، أرشيالدي لويس : القوى البحرية التجارية في حوض البحر المتوسط ، ترجمة أحمد عيسى ، مكتبة النهضة المصرية ، ص ٢٣٢ ، السيد عبد العزيز سالم (بالاشتراك مع أحمد مختار العبادي) : تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، ص ١٦٦ .

الاموية لم تبلغ مرحلة النضج بعد ، وان كانت قد بلغت في عهد الناصر في القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى .

* * *

من هذا العرض يتبين لنا الدور الهام الذى لعبه أبناء مغيث الرومى فى الاندلس ، فقد تولوا مناصب رفيعة وأسندت اليهم أعمال خطيرة فى الاندلس كالحجابه والوزارة والكتابة والقيادة البرية والبحرية وولاية بعض الكور ، وكانوا أوفياء لدولة بنى أمية ، وظلوا مواليين لأمراء هذه الدولة ولا غرو فقد كان مؤسس هذه الأسرة مولى للوليد بن عبد الملك ، فرابطة الولاء هذه للامويين دفعتهم للمشاركة بكل اخلاص - وليس كما يذكر البعض أنهم تأمروا عليهم - فى قمع الثورات الداخلية ، كما قادوا الجيوش بغرض الجهاد ضد الممالك النصرانية فى الشمال الاسباني وبلاد الفرنجة وأحرزوا فيها انتصارات رائعة .

ويمكننا أن نؤكد القول أن أسرة مغيث الرومى ساعدت إلى حد كبير فى استقرار ملك الامويين ببلاد الاندلس فقد شاركت هذه الأسرة فى جميع مظاهر الحياة الاندلسية أدبية ومادية .. ومن الجدير بالذكر أن بروز بنى مغيث لم يقتصر على نبوغهم فى المجالات السياسية والحربية ، وانما تجاوز ذلك إلى المجال العلمى والأدبى ، فقد ظهر منهم شعراء عظام مثل الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث الذى نظم شعراً حماسياً فيقول :

طارت بنا الخيل ومن فوقها شهب بزاة الحمام الحمام
كأنما الأيدى قسى لها والطير أهداف ومن السهام (١٣٥)

(١٣٥) فى ، المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الثالث ، ص ٢٤١ ، ص ٢٤٢ .

وكذلك أخوه أحمد بن عبد الواحد بن مغيث الذى قال فى الغزل والأنس
ياالمحجوب :

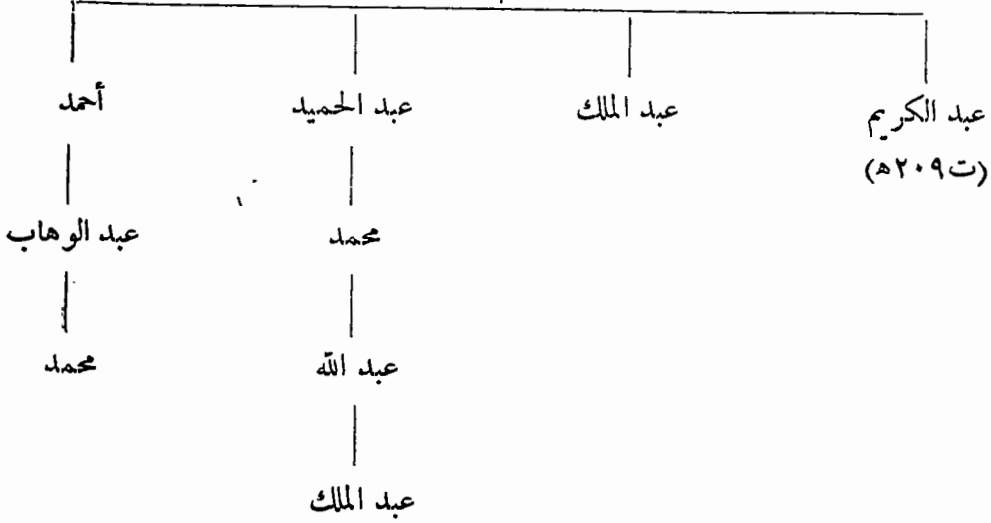
أشرب على البستان من كف من يسقيك من فيه وأحداقه
وأنظر إلى الإيكة فى برده ولاحظ البدر بأطواقه
وقد بسدا السرو على نهـره كخائض شمر عن ساقه (١٣٦)

(١٣٦) فى ، المخرى : المصدر السابق ، المجلد الثالث ، ص ٢٤٢ .

قائمة نسب بنى مغيث

مغيث الرومى

عبد الواحد



مصادر ومراجع البحث

(أولا) مصادر عربية قديمة :

ابن الأبار : أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م) :
الحلة السبراء ، الجزء الأول ، تحقيق حسين مؤنس ، الطبعة الأولى ،
الشركة العربية للطباعة والنشر (القاهرة ١٩٦٣) .

ابن الأثير : أبو الحسن علي بن محمد الجزري (ت ٥٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م) :
الكامل في التاريخ ، الجزء السادس (بيروت ١٩٦٥) .

الادريسي : أبو عبد الله محمد الشريف السبتي (ت حوالى ٥٤٨ هـ /
١١٥٤ م) : وصف المغرب والاندلس ، من نزهة المشتاق فى اختراق
الافاق ، نشره دوزى ودى خوية ، (ليدن ١٨٦٦) .

البلاذرى : أبى العباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م)
فتوح البلدان ، تحقيق دى غوية ، (بريل ١٨٦٦) .

ابن حزم : أبو محمد على بن أحمد الاندلسى (ت ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م)
جمرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، الطبعة الرابعة
دار المعارف (القاهرة ١٩٧٧) .

الحميدى : أبى عبد الله محمد بن أبى نصر فتوح بن عبد الله الازدى -
جدوة المقتبس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، (القاهرة ١٩٦٦) .

الحميرى : أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم (ت فى أواخر القرن التاسع
الهجرى) : الروض المعطار فى خبر الأقطار ، نشر وترجمة ليفى
بروفنسال (القاهرة ١٩٣٧) .

ابن حيان : أبو مروان (ت ٤٦٩ هـ / ١٠٧٩ م)
المقتبس من أبناء أهل الأندلس ، تحقيق محمود علي مكي ، دار الكتاب
العربي ، (بيروت ١٩٧٣) .

الحشني : أبي عبد الله محمد بن حارث
قضاة قرطبة ، تحقيق ابراهيم الاياري ، دار الكتب الاسلامية ،
(القاهرة ١٩٨٢) .

ابن الخطيب : لسان الدين بن الخطيب محمد بن عبد الله (ت ٧٧٦ هـ /
١٣٧٤ م) أعمال الاعلام فيمن يبيع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام
وما يجر ذلك من شجون الكلام ، نشره ليفي بروفنسال ، (بيروت ١٩٥٦)
الاحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، المجلد الأول
دار المعارف (مصر) .

ابن خلدون : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥٦ م)
كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن
عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، المجلد الرابع ، القسم الأول ،
منشورات الكتاب اللبناني (بيروت ١٩٦٨) .

ابن سعيد المغربي : المغرب في حلى المغرب ، الجزء الأول ، تحقيق شوقي
ضيف (القاهرة ١٩٥٣) .

الضبي : أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (ت ٥٩٩ هـ / ١٢٠٣ م)
بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، دار الكاتب العربي
(القاهرة ١٩٦٧) .

ابن عبد الحكيم : عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م)
فتوح افريقية والأندلس ، تحقيق عبد الله أنيس الطباع ، دار الكتاب
اللبناني ، (بيروت ١٩٦٤) .

بن عذاري المراكشي : أبو العباس أحمد بن محمد
البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، الجزء الثاني ، تحقيق
كولان وليفي بروفنسال ، دار الثقافة (بيروت بدون تاريخ)

العذري : أحمد بن عمر بن أنس المعروف بابن الدلائل (ت ٤٧٨ هـ /
٩٨٨ م) .

ترصيع الاخبار وتنويع الاثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك
إلى جميع الممالك ، تحقيق عبد العزيز الهاواني ، مطبعة معهد الدراسات
الاسلامية (مدريد ١٩٦٥) .

ابن قتيبة : أبي محمد عبد الله بن مسلم
الامامة والسياسة ، الجزء الثاني ، تحقيق طه محمد الزيني ، مؤسسة
الحلبي (القاهرة ١٩٦٧)

القلقشندي : أبي العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م)
نهاية الارب ، تحقيق ابراهيم الاياري ، الطبعة الثانية ، دار الكتب
الكتب الاسلامية (القاهرة ١٩٨٠) .

ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ، تحقيق عبد الله أنيس الطباع ،
دار النشر للجامعيين ، (بيروت ١٩٥٧) .

المسعودي : أبي الحسن علي بن الحسين
مروج الذهب ومعادن الجوهر ، الجزء الثاني ، (القاهرة ١٩٢٨) .

المقري : شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني (ت ٨٤٥ هـ /
١٤٤١ م) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، المجلدان الأول
والثالث ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر (بيروت ١٩٦٨) .

مؤلف مجهول : أخبار مجموعة في فتح الاندلس ، تحقيق ابراهيم الاياري
دار الكتاب المصري ، (القاهرة ١٩٨١) .

النباهي المالتي : أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن (ت في أواخر القرن
الثامن)

تاريخ قضاة الاندلس (كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا)
(بيروت بدون تاريخ) .

(ثانياً) مراجع عربية حديثة وأوربية معربة :

أحمد فكري «دكتور» :

قرطبة في العصر الاسلامي ، تاريخ وحضارة ، مؤسسة شباب الجامعة
(الاسكندرية ١٩٨٣) .

أحمد مختار العبادي (دكتور) :

دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ، الطبعة الأولى ، (الاسكندرية
١٩٦٨) .

ارشيالد لويس : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، ترجمة
أحمد محمد عيسى ، مكتبة النهضة المصرية .

حسين مؤنس (دكتور) :

فجر الاندلس ، دراسة في تاريخ الاندلس من الفتح إلى قيام الدولة
الاموية (٧١١ - ٧٥٦م) الطبعة الأولى ، الشركة العربية للطباعة والنشر
(القاهرة ١٩٥٩) .

سعد زغلول عبد الحميد (دكتور) :

تاريخ المغرب العربي ، الجزء الأول ، منشأة المعارف ، (الاسكندرية
١٩٧٩)

السيد عبد العزيز سالم (دكتور) :

تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس (من الفتح العربي حتى سقوط
الخلافة بقرطبة) ، مؤسسة شباب الجامعة ، (الاسكندرية ١٩٨٢) .
قرطبة حاضرة الخلافة في الاندلس ، الجزء الأول ، دار النهضة العربية
(بيروت ١٩٧١) .

المغرب الكبير ، الجزء الثاني (العصر الاسلامي) ، الدار القومية للطباعة
والنشر ، (الاسكندرية ١٩٦٦) .

السيد عبد العزيز سالم (دكتور) بالاشتراك مع أحمد مختار العبادي (دكتور)
تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس ، مؤسسة شباب الجامعة
(الاسكندرية ١٩٨١) .

محمد عبد الله عنان :

دولة الاسلام في الاندلس ، العصر الأول ، القسم الأول ، الطبعة الرابعة
(القاهرة ١٩٦٩) .

محمد محمد مرسى الشيخ (دكتور) :

دولة الفرنجة وعلاقتها بالامويين في الاندلس ، مؤسسة الثقافة الجامعية
(الاسكندرية ١٩٨١) .

محمود مكي (دكتور) :

تاريخ عبد الملك بن حبيب ، القسم الخاص بالاندلس ، نشر محمود
مكي ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمadrid ، العدد الخامس (Madrid
١٩٥٧) .

وسام عبد العزيز فرج (دكتور) :

سجلات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الاموية حتى منتصف
القرن الثامن الهجري ، الهيئة العامة للكتاب ، (الاسكندرية ١٩٨١)

Aguado Beleye (Pedro) :

- Manual de Historia de Espana, tomo I, sexta edicion ; Espasa Calpe, (Madrid 1947).

Afif Turk :

- El Reino de Zaragoza en el siglo XI de Cristo (V de la Hegira), (Madrid, (1978).

Chejne (Anwar) :

- Historia de Espana musulmane, ediciones Catédra, (Madrid, 1980).

Finaly, (G) :

- History of Greece, T.I, (Oxford, 1877).

Isidoro de laes cagigas :

- Las Mozarabes, T.I, (Madrid, 1947).

Jackson :

- The making of medieval Spain, (California, 1976).

Lévi-Provença l (E) :

- Historia de l'Espagne musulmane tome premier, L'institut Français, (Cairo, 1944).

Ocana Jimenez:

- La basilica de San Vicente Y la gran mezquita de Cordoba, Al-Andalus, (Madrid 1942).

Oman (sir charles) :

- The dark Ages, (476—918), (London, 1962).

Palencia (Gonzalez) :

- Historia de la Espana musulmana, C. Labor, (Madrid, 1945).

Saavedra (Eduardo) :

- La invasion de los Arabes en Espana, (Madrid, 1892).

Simonet (Fracisco Javier) :

- Historia de los Mozarabes de Espana, (Madrid, 1904).

الخوارزمية ودورهم في الصراع الصليبي الاسلامي
في عصر بني ايوب

(١٢٢٥ - ١٢٤٦م - ٦٢٢ - ٦٤٤هـ)

اعداد

دكتور أسامة زكي زيد

مدرس تاريخ العصور الوسطى
كلية التربية - جامعة طنطا

بسم الله الرحمن الرحيم

شهد القرن الثالث عشر الميلادى (القرن السابع الهجرى) كثيراً من الظواهر التاريخية الهامة المؤثرة فى تطور العلاقات الصليبية الاسلامية مما كان له أكبر الأثر فى تحول ميزان القوى فى الصراع بين المسلمين والصليبيين لصالح المسلمين . ومن أهم هذه الظواهر عودة بيت المقدس عودة نهائية إلى المسلمين فى يولية ١٢٤٤م - صفر ٦٤٢ هـ ، وقد ظل تحت الحكم العربى الاسلامى منذ هذا التاريخ حتى بدايات القرن العشرين .

وإذا كان المسلمون قد فقدوا بيت المقدس عام ١٠٩٩م - ٤٩٣ هـ بسبب ضعفهم وأنقسامهم وعدم إدراكهم التام لطبيعة الحركة الصليبية وأهدافها إلا أن حركة اليقظة الاسلامية التى تمت خلال القرن الثانى عشر الميلادى (القرن السادس الهجرى) أخذت تسرى كالتيار فى المنطقة . وأثمرت عن ظهور شخصيات اسلامية لامعة كان لها دورها فى بذر بذور الوحدة العربية الاسلامية مثل عماد الدين زنكى وأبنة نور الدين محمود ثم صلاح الدين الأيوبي مؤسس الاسرة الأيوبية فى مصر ، الذى نجح بعد جهاد كبير فى تكوين وحدة اسلامية عربية امتدت من النيل إلى الفرات ، وتطويق ممتلكات اللاتين وإخراجهم من بيت المقدس ومعظم مدن الساحل بعد أن الحق بهم الهزيمة فى موقعة حطين عام ١١٨٧م - ٥٨٣ هـ فاعتدل بذلك ميزان القوى لصالح المسلمين .

وإذا كانت موقعة حطين تمثل الضربة الأولى القاسية التى تلقاها الصليبيون على أيدي المسلمين ، فهناك ضربة أخرى أشد منها مرارة راح ضحيتها آلاف من الصليبيين وفقدوا فيها للأبد سيطرتهم على بيت المقدس

ونعنى بها هزيمتهم على أيدي الخوارزمية الأتراك في بيت المقدس في يوليو ١٢٤٤م - صفر ٦٤٢ هـ ثم هزيمتهم للمرة الثانية في أكتوبر من نفس العام في معركة غزة أمام جيوش الخوارزمية المتحالفة مع الجيش المصرى ، ونظراً لأن هذه المعركة كانت أكبر كارثة حلت بالصليبيين منذ موقعة حطين عام ١١٨٧م - ٥٨٣ لكثرة ماتكبدوه فيها من خسائر في الأرواح والعتاد فقد أطلق بعض المؤرخون عليها اسم «حطين الثانية» (١) .

وقبل القاء الضوء على هذه المعركة من كل جوانبها والدور الذى لعبه الخوارزمية خلالها لابد من التعريف بالخوارزمية وأصلهم وأحوالهم ثم كيفية وصولهم إلى منطقة الشرق الأدنى الاسلامى وأثر هذا على طبيعة علاقاتهم بأفراد البيت الأيوبي وانعكاس ذلك على العلاقات الصليبية الاسلامية والتي تتمثل في معركة غزة ١٢٤٤م - ٦٤٢ .

ينتمى الخوارزمية إلى محمد بن أنوش تكين وكان والده مملوكاً لأحد أمراء البيت السلجوقى . وقد رباه والده فأحسن تأديبه فنشأ عارفاً وأديباً ، واشتهر بالكفاية وحسن التدبير فعلا شأنه بين كبار السلاجقة وتدرج في المناصب العليا في الدولة حتى أسند اليه حكم مدينة خوارزم (١) عام ١٠٩٥م - ٤٨٩ هـ ، ولقب «خوارزم شاه» . وتفانى في خدمة ولايته ، وقرب أهل العلم والدين اليه فعظم شأنه وارتفعت منزلته في شتى أنحاء الدولة

(١) Grousset, Histoire des Croisades, t. III, p. 416.

(٢) تمتد خوارزم من بحر قزوين إلى بحر آرال أى بين فارس وبخارى . وهذه الأراضى أكثر خصوبة من الأراضى المجاورة لها . وهى على حد قول القزوينى «ذات مدن وقرى كثيرة وسيطة الرقعة و فسيحة البقعة جامعة لا شتات الخيرات وايداع المسرات» . وبها نهر جيحون ، ورغم كثرة مياه هذا النهر فهو يتجمد في فصل الشتاء . ويوجد بالقرب من خوارزم بحيرة صغيرة تستمد مياهها من نهر جيحون . أنظر القزوينى : أخبار العباد وآثار البلاد ص ٢٥٣ - ٢٥٤ وكذلك :

Eracles, Cf. R.H. C. H. Occ., II, p. 428.

السلجوقية . وعندما توفي تولى بعده ابنه أئمز (١) . وعلى هذا يعتبر محمد ابن أنوش تكيين المؤسس الحقيقي للدولة الخوارزمية . (٢) .

وكان لضعف السلجقة عقب وفاة السلطان ملكشاه عام ١٠٩٢م - ٤٨٥هـ أثر كبير في بزوغ نجم الدولة الخوارزمية وظهورها كدولة مستقلة على أنقاض الدولة السلجوقية . فبعد وفاة السلطان ملكشاه حدث صراع شديد بين أولاده على الملك (٣) ولم يحل عام ١٠٩٦م . ٤٨٩هـ حتى كانت الدواة مقسمة إلى خمس ممالك متنافسة هي سلطنة فارس «أصبهان» وعلى رأسها السلطان بركيا روق ومملكة خراسان وما وراء النهر وعلى رأسها أبو حرث سنجر ومملكة حلب وعلى رأسها رضوان بن تنش ومملكة دمشق وعلى رأسها شمس الملوك دقاق بن تنش ، وأخيراً سلطنة سلجقة الروم في آسيا الصغرى وعلى رأسها تاج ارسلان بن سليمان بن قتلмыш . (٤)

واستغلت الدولة الخوارزمية هذه الظروف لتحقيق أهدافها . فنجحت في تكوين امبراطورية واسعة الأرجاء بلغت أقصى اتساعها في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي - بدايات القرن السابع الهجري في عهد السلطان علاء الدين خوارزم شاه (١١٩٩ - ١٢١٩هـ - ٥٩٦ - ٦١٧هـ) . فامتدت من حدود العراق غرباً إلى حدود الهند شرقاً ، ومن شمال بحر قزوين وبحر آرال شمالاً إلى الخليج الفارسي والمحيط الهندي جنوباً . وضمت هذه الدولة مدناً

(١) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ٢ ص ٢٠٩ ، ابن الوردي : تنبيه المختصر في أخبار البشر ٢ ص ١٠-٨ .

(٢) حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية ونفول ص ١٩ .

(٣) الاصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٧٦ .

(٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ١ ص ١١٤ محمد الشيخ : الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها ص ٣٦ . راجع كذلك :

CaM. Med. Hist., IV, p. 317.

من أمهات المدن الإسلامية نخص بالذكر منها بخارى وسمرقند (١). ويرجع الفضل الكبير في اتمام هذه الفتوحات إلى جلال الدين منكبرتي (٢) .

ووجد علاء الدين خوارزم شاه أنه ليس من اليسير عليه السيطرة التامة على كل هذه الأراضي وضمان بقائها على ولائها لأسرته . ولذلك قسمها بين أبنائه الأربعة بحكم كل منهم جزءاً منها ويتولى تصريف أمور الأقاليم الذي من نصيبه على أن يكون الأب هو المرجع الأول لكل من هؤلاء الأبناء إذا ما صادفوا أي عائق (٣) .

وجدير بالذكر أن علاء الدين خوارزم شاه كان قد أوصى بالملك بتأثير من أمه إلى ابنه الأصغر از لانج شاه ، ولكنه ما لبث وأن تراجع في قراره وحول ولاية العهد لأبنته الأكبر جلال الدين منكبرتي (٤) .

وكان لظهور المغول بقيادة جنكيز خان آنذاك أثره السيئ على هذه الامبراطورية . فكانت جيوشه تعمل التخريب في كل ما صادفه في البلاد التي وطلتها ، وكان من ضمنها ممتلكات الدولة الخوارزمية . ولما يأس علاء الدين خوارزم شاه من الوقوف أمام جحافل المغول صمم على الابتعاد عن مسرح أحداث الحرب والسياسة وهرب إلى الأقاليم الغربية من الدولة

(١) ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ج٤ ص ٣٢٣ ، حافظ حمدي : المرجع السابق ص ١٩ .

(٢) ابن واصل : المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(٣) كان الركن الشرقي من الدولة الخوارزمية من نصيب ابنه الأكبر جلال الدين منكبرتي ويتكون من مدينة غزنة وباميان الواقعة في أعلى نهر جيحون فضلاً عن بعض البلاد الواقعة غرب حوض نهر السند . أما الأقاليم الشمالية تشمل خوارزم وخراسان ومازندان فكانت من نصيب ابنه قطب الدين از لانج شاه . بينما كانت الأقاليم الجنوبية وتشمل كرمان ومكران من نصيب غياث الدين شيرشاه ، أما ابنه ركن الدين غورشاہ فقد حكم الأقاليم الغربية وتشمل العراق ، أنظر ابن الوردي : المصدر السابق ص ٢٠٤ ، حافظ حمدي : المرجع السابق ، ص ٢٩ .

(٤) ابن الوردي : المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

الخوارزمية . فأرسل جنكيز خان في أثر السلطان الخوارزمي فرقتين تتكون كل منهما من ألف مغولي لمطاردته وهو ينتقل من بلد إلى آخر حتى وصل الأمر إلى إقليم مازندان جنوبي بحر قزوين ثم اتجأ إلى إحدى جزره . ولم يستطع المغول الوصول إليه . فمات أخيراً في هذه الجزيرة عام ١٢٢٠م - ٦١٧ هـ . (١) وواصل المغول تخريبهم للمدن الخوارزمية ، وكانت خاتمة انتصاراتهم في إقليم غزنة حيث أخذ جلال الدين منكبرتي على عاتقه مهمة مقاومة المغول والثأر لأبيه . فقاد جيشاً كبيراً وسار للملاقاة المغول شمال مدينة غزنة وانتصر عليهم انتصاراً مؤقتاً . ولكن سرعان ما انقسم جيشه على نفسه وشعر جلال الدين بعدم استطاعته للملاقاة قوات جنكيز خان فاضطر إلى الانسحاب إلى السهل الواقع غرب نهر السند وفي نيته عبور هذا النهر إلى الانسحاب إلى السهل الواقع غرب نهر السند . وفي نيته عبور هذا النهر إلى بلاد الهند لعله يجد هناك ملجأً أميناً . ولكن قابلته جيوش المغول وهزمته مرة أخرى شر هزيمة . غير أنه تمكن من الهروب إلى الهند ومنعه أربعة آلاف من اتباعه . وبعد أن اطمأن جنكيز خان على سيطرته على كل أقاليم الدولة الخوارزمية وتشريد وقتل الأسر الخوارزمية ، شرع في العودة إلى بلاده عام ١٢٢٣م - ٦٢٠ هـ . ولذلك عاد جلال الدين إلى بلاده ، عام ١٢٢٥م ٦٢٢ هـ ونجح في أن يعيد نفوذه مرة أخرى على أقاليم خوارزم وغزنة وفارس وخراسان وغيرها ثم أخذ يوسع نفوذه على حساب القوى الموجودة شمال الدولة الخوارزمية ، ومن أهمها أذربيجان وجورجيا . (٢) .

ووجد الخوارزمية في صراعات البيت الأيوبي في مصر والشام فرصة طيبة لتقوية نفوذهم في منطقة الشرق الأدنى على حساب أمراء هذا البيت .

(١) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ١١ .

(٢) المصدر السابق : نفس الصفحة ، المقرئى : السلوك ج ١ ، ق ١ ص ٢٥٢ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١٢ ص ٢١٣ - ٢١٤ .

غير أن الملك الأشرف بن العادل تنبه إلى خطرهم فهرع إلى أخيه المعظم عيسى صاحب دمشق عام ١٢٢٦م - ٦٢٣ هـ طالباً منه العمل بسرعة لتوحيد جبهة البيت الأيوبي أمام خطر الخوارزمية الذين باتوا يهددون كل أرجاء الدولة الأيوبية . وكان الأشرف أكثر احساساً بخطرهم بحكم متاخمة بلاده - في الجزيرة وخلاط - لهم في إقليم جورجيا . (١) وقد استقبله المعظم عيسى استقبالا حسناً ، ولكنه بعد ذلك أراد أن يستغل الفرصة التي اتاحت له فقبض على أخيه الأشرف في دمشق ورفض أن يطلق سراحه إلا بعد أن تعهد له بمساعدته في الاستيلاء على حمص وحماه وكانتا تابعتين لأسد الدين شيركوه وقليج أرسلان على التوالي (٢) ثم مهاجمة أخيهما الكامل محمد سلطان مصر . فوافق الأشرف مضطراً بعد أن وصلته الأخبار بخصار الخوارزمية لعاصمة ملكه «خلاط» . وعند ذلك سمح له المعظم بعد عشرة شهور من سجنه بالعودة إلى أرضه في جمادى الآخر ٦٢٤ هـ - يونيو ١٢٢٦م . والواقع أن المعظم عيسى لم يكن يهدف إلى تدمير سياسة أخيه الأشرف ، وإنما تحديد قوته وحماية نفسه ضد أي تحالف يمكن أن ينشأ بين الأشرف والكامل محمد ضده . (٣)

وبمجرد وصول الأشرف إلى الرقة أعلن رسمياً عدم التزامه بجميع ما تقرر بينه وبين أخيه المعظم ثم اتجه إلى الملك الكامل وأخبره بحقيقة الأمر وأكد تحالفه معه . (٤) فثار المعظم عيسى لتصرف أخيه الأشرف في الوقت الذي كانت فيه المفاوضات مفتوحة بينه وبين الخوارزمية . ففكر عند ذلك في

(١) سعيد عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٩٩٨ .

(٢) كان الملك المعظم قد طمع في حماه وبعض أعمالها فحاصرها واستولى عليها . ولكن الأشرف والكامل انزعجا لذلك ، ووحدا جيودهما وأجبرا المعظم على الرحيل عنها فتركها حائقاً فكان ذلك بداية لخلاف بين الأخوة الثلاثة . انظر : المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٢٥٠ .

(٣) Humphrey, Frome Saladin to the Mongols, pp. 182-183. (٣)

Humphrey, Op. cit., p.183.

الاستعانة بهم لمناصرته ضد أخويه فكتب إلى جلال الدين منكبرتي واتفق معه على التحالف ضد الملكين الكامل والأشرف (١) .

وهكذا التهب الموقف في الشرق الأدنى ، وأصبحت الأمور تنذر بقيام حرب أهلية جديدة بين أفراد البيت الأيوبي .

وجدير بالذكر أن وجه الخطورة في هذا النزاع الذي نشب بين أبناء العادل ، هو أن كلا من الفريقين استعان بقوى خارجية . ففي الوقت الذي تحالف فيه المنظم حيدري مع الخوارزمية نجد أن الملك الكامل محمد قد استعان بالأميراطور فردريك الثاني ليحبر أشعيه المنظم على التخلي عن حلفائه الخوارزمية ، ويعيد خضوعه إليه مرة أخرى . (٢) .

فأرسل الملك الكامل إلى الامبراطور فردريك في صقلية مبعوثاً خاصاً هو الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ وطاب منه الحضور إلى الشام والساحل ليتسلم بيت المقدس وكل فتوح صلاح الدين بالساحل مقابل مساعدته ضد المعظم وحلفائه الخوارزمية (٣) . وقد أحسن فردريك الثاني استئصال مبعوث الملك

(١) المقرئى : المصدر السابق ، ج ١ ق ١ ص ٢٥٨ راجع أيضاً :

Hymphrcyop. cit., Loc,cit

ولمزيد من التفاصيل عن علاقة الخوارزمية بأمرأى بنى أيوب أنظر : ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ص ٤٨٩ ، ٤٩١ - ٤٩٥ .

(٢) المقرئى : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٥٨ راجع أيضاً :

Humphrey, op. cit., p. 184

(٣) المقرئى : المصدر السابق ، ج ١ ق ١ ص ٢٥٨ - ٢٥٩ ، ابن الفرات : تاريخ

الدول والملوك ، المجلد العاشر لوحة ٨٨ . راجع أيضاً :

Richard, The Latin Kingdom, p. 232, Frawer, Histoire du Royaume Latin de Jerusalem, II, p. 176, Setton, A History of the Crusades, II, p. 449, Runciman, History of the Crusades, III, P. 184, Stevenson, The Crusaders in the East, p. 310 Blochet, Le Relations Diplomatiques des Hohenstaufen avec les Sultans D'Egypte, cf. Revue Historique, Vol. 80 (pp. 51-69), 1902, p. 54.

الكامل . ثم رد عليه بسفارة مماثلة برياسة بيرارد وئيس اساقفة بالرمو والكونت توماس أوف أسرا Thomas of accerra تحمل هدايا وتحنفاً غربية . فتلقى السلطان الكامل رسول الامبراطور وهداياه بالسرور وكان قد أعد للامبراطور هدايا فاخرة من تحف الصين والهند والعراق ومصر (١). وفي طريق عودة السفارة مرت بدمشق لتطالب من الملك المعظم تسليم بيت المقدس للامبراطور ولكنه أغاظ لرئيسها وقال له «قل لصاحبك ما أنا مثل غيري ، ما له عندي إلا السيف» (٢) .

وجدير بالذكر إذا كان الملك الكامل قد أكثر في الالحاح على الامبراطور فردريك لسرعة الحضور إلى الشرق لمساندته ضد الخوارزمية والمعظم عيسى صاحب دمشق إلا أن هذا المطلب لم يجد له فائدة عند وصول فردريك إلى عكا في ابريل ١٢٢٨م - ربيع أول ٦٢٦ هـ بسبب وفاة الملك المعظم في نوفمبر ١٢٢٧م - ذى القعدة ٦٢٥ هـ والذي كان مصدر الخطر ثم تعيين ابنه الناصر داود خلفاً له . وهو شاب صغير له من الخبرة والقوة ما يجعله مصدر خطر على الملك الكامل . وقد ساعد هذا كثيراً كلا الأخوين الكامل محمد والأشرف إذا تمكنوا بنوع من التحايل تارة وباستخدام القوة والعنف تارة أخرى ، من الوصول إلى اتفاق مع الناصر دواود يرضى جميع الأطراف ويؤدى في نفس الوقت إلى استقرار الأوضاع بين أبناء البيت الأيوبي في الشام (٣). وعلى ذلك لم تعد هناك حاجة إلى الملك الكامل في معونة الامبراطور

(١) المقرئى : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ص ٢٦٠ .

(٢) أبوشامة : الذيل على الروضتين تحقيق عزت العطار ص ١٥١ .

(٣) المقرئى : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ص ٢٧٤ . أنظر أيضاً :

Humphrey, op. cit, p. 193.

وقد تم الاتفاق بينهم على أن يتنازل الناصر داود عن دمشق للأشرف ، ويعوض عنها بالكرك والبلقاء والشوبك والاغوار . بينما حصل الكامل لنفسه على البلاد الشرقية التي كانت قد عينت لناصر دود وهي حران والرها وغيرهما التي كانت بيد الملك الأشرف. وتنازل الناصر =

فردريك ، خاصة وأنه بعد موت الملك المعظم قد انحل الاتفاق المبرم بين دمشق والخراسمية ، وعادت الأمور في منطقة الشرق الأدنى مرة أخرى إلى مجراها الطبيعي .

على أية حال ، عندما وصل الإمبراطور فردريك إلى عكا في إبريل ١٢٢٨ م - ٦٢٦ هـ ، أصيب بخيبة أمل شديدة عندما علم بزوال سبب استدعائه إلى الشرق ، فأصبح في موقف لا يحسد عليه . لأنه عندما خرج من بلاده كان متأكداً من إعطائه بيت المقدس . ولم يدر به أنه فكرة نشوب قتال بينه وبين المسلمين ، بل دليل أنه لم يخضر منه سوى خمسمائة فارس وهي قوة صغيرة لا تستطيع منازلة المسلمين في معركة محيطة محدودة . وفي نفس الوقت كان لا يستطيع الاعتماد على صفوف الصليبيين في بلاد الشام ، لأنه كان محروماً من الكنيسة ، ويأتي أي فرد التعاون مع رجل مطرود من رحمة الكنيسة حتى ولو كان هذا الرجل هو الإمبراطور . وعلى ذلك لم يعد أمامه سوى الاستعطاف والتذلل لدى السلطان الكامل ، واستخدام كل الوسائل الدبلوماسية للوصول إلى غرضه والحصول على بيت المقدس . لأنه إن لم يحصل عليه فسوف يهتز عرشه في الغرب الأوروبي بل وربما ينفقده (١) . والدليل على ذلك ما قاله فردريك إلى المسلمين في الشرق من أنه «ماله غرض القدس ولا غيره ، وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج» (٢) .

=داود عن الشوبك لعمه الكامل فقبلها . ولمزيد من التفصيلات عن كيفية استقرار الأوضاع بين أبناء البيت الأيوبي بالشام ، وإعادة تقسيم الممتلكات الأيوبية بين الكامل والأشرف والناصر داود أنظر : المقرئ : المصدر السابق ، ج ١ ق ١ ، ص ٢٦٤ - ٢٦٥ ، ٢٧٣ - ٢٧٤ ، ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ص ٤٧٣ - ٤٧٥ .

(١) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ٢ ص ١٠٠٨ - ١٠٠٩ راجع أيضاً : Blochet, op. cit., p. 56, Humphery, op. cit., pp. 197—198.

(٢) المقرئ : المصدر السابق ج ١ ق ١ ، ص ٢٦٩ . راجع أيضاً : Eracles, cf. R.H.C.-H. Occ., II, p. 369—370.

وبعد مفاوضات طويلة استمرت بين سلطان مصر الملك الكامل
والامبراطور فردريك الثانى تخللتها استعطافات كثيرة من جانب الامبراطور
وافق الكامل محمد فى فبراير ١٢٢٩ - ربيع اول ٦٢٦ هـ على عقد اتفاقية
يافا بين الطرفين لمدة عشرة سنوات حصل الصليبيون بموجبها على بيت
المقدس وبيت لحم والناصره. على أن يبقى بيت المقدس على ما هى عليه من
الخراب ، ولا يحدد أسوارها ، وأن يحتفظ المسلمون بالمسجد الأقصى فى
القدس (١) .

وكان لهذه المعاهدة أثر كبير فى قيام المسلمين بثورة ضد الكامل ، لأنه
فرط فى حقهم وفى بيت المقدس بصفة خاصة دون حرب أو قتال وأصبحت
هذه المعاهدة وصمة عار فى جبين البيت الأيوبي بصفة عامة والملك الكامل
بصفة خاصة (٢) .

ومع ذلك يرى الدكتور سعيد عاشور أن الكامل عندما وافق على شروط
هذه المعاهدة كان بعيد التفكير ، لأنه أدرك بثاقب نظره أن قيام الامبراطور
بتحصين يافا فى نوفمبر ١٢٢٨ م - ذى الحجة ٦٢٥ هـ أثناء سوء موقعه فى
المفاوضات إنما يشكل خطراً كبيراً يخشى معه اتفاق الامبراطور مع بقية
الجموع الصليبية بالشام للقيام بعمل حربى ضده . وفى هذه الحالة لا يجرؤ
الكامل دخول حرب ضد الامبراطور والصليبيين ، لأنه سيقع بين ثلاث قوى

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ص ١٥٤ ، المقرئى : المصدر السابق ، ج ١ ق ١ ،

ص ٢٦٨ راجع كذلك :

Eracles, op. cit., II, p. 374, cf also : Grousset, op. cit., III, p. 307,
Lamonte, The world of the Middle Ages, p. 504 Conder, The Latin
Kingdom of Jerusalem, p. 313, Runciman, op. cit., III, p. 187, King,
The Knights Hospitallars in the Holy Land, p. 208, Blochet, op. cit. Loc.
cit., Stevenson, op. cit., p. 311.

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ص ١٥٤ ، المقرئى : المصدر السابق ، ج ١ ق ١ ،

ص ٢٦٩ .

هى : الصليبيين من ناحية، وابن أخيه الناصر داود من ناحية ثانية ، ثم الخوارزمية وسلطانهم جلال الدين منكبرى الذى استنجد به الناصر داود ضد عمه — من ناحية ثالثة (١) .

ومهما كان من أمر فليس هناك أدنى شك فى أن الخوارزمية كان لهم دور كبير فى تطور العلاقات الصليبية الإسلامية فى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى (النصف الأول من القرن السابع الهجرى) . فمن الواضح أنه لولا سياسة السلطان الخوارزمى جلال الدين منكبرى ورغبته فى تثبيت نفوذه وسلطانه عن حساب الصراعات الدامية بين أمراء البيت الأيوبي فى الشام ، ولولا تحالفه مع المعظم عيسى حاكم دمشق لمساندته فى صراعه ضد السلطان الكامل محمد لتغير وجه التاريخ بالنسبة للعلاقات بين الصليبيين والمسلمين . لأنه ما كان هناك أى داع فى الاتصالات السلمية وتبادل السفارات التى تمت بين سلطان مصر والأمبراطور الألمانى لطلب تأييده . ولربما كانت الحملة الصليبية السادسة بقيادة فردريك قد اتخذت شكلاً مغيراً عما تمت عليه ، ومثالاً لباقى الحملات الصليبية السابقة من ناحية جلب ما يمكن جمعه من الرجال والسلاح والخيل لمنازلة المسلمين ، وليس الاكتفاء برفقة خمسمائة فارس فقط وفق ما جاء بهم فردريك . وفضلاً عن هذا ما كان السلطان الكامل قد اضطر ، وهو بغير حاجة إلى مساعدة فردريك ، إلى الموافقة على إبرام معاهدة الصلح بينهما عام ١٢٢٩ م — ٦٢٦ هـ والتفريط فى حق المسلمين فى بيت المقدس بتسليمه إلى الأمبراطور فردريك . فكان ذلك بسبب الخوارزمية أيضاً وما استجد من نشاطهم فى المنطقة عندما تحالفوا مع الناصر داود وأيدوه ضد عمه سلطان مصر . فخاف الكامل محمد أن يدخل فى صراع ضد الأمبراطور فيجد نفسه بين فكى الكاشة : قوات الصليبيين بالشام من ناحية ، وقوات الخوارزمية المؤيدة للناصر داود من

(١) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٠١٠ - ١٠١١ .

ناحية أخرى ، فيسلم نفسه إلى مصير تعس . كما أن هجبة الخوارزمية في منطقة الشرق الأدنى قد أفرغت أحكام المسلمين ، وجعلتهم لا يحاولون استغلال الظروف السيئة التي بات فيها الصليبيون بعد عودة فردريك إلى الغرب تاركاً الصليبيين في الشام دون ملك قوى أو شخصية بارزة ترعاهم . فلم يفكروا في تلك الفترة في استرداد بيت المقدس رغم بقائها غير محصنة وهائلة الأسوار ، وبدون جيش كبير للصليبيين يحميها .

على أية حال ، كان لتزايد خطر الخوارزمية في المنطقة أثر كبير في تقارب وجهات النظر بين حكام المسلمين في البلدان الخاضعة ، وتناسيم ما بينهم من خصومات للقضاء على الخوارزمية . فتحالف الأيوبيون مع عدوهم السابق علاء الدين كيقباد الأول سلطان سلاجقة الروم ضد جلال الدين منكبرتي بعد نجاحه في الاستيلاء على خلاط عاصمة ملك الملك الأشرف (١) واجتمع الجيش الأيوبي بقيادة الملك الأشرف مع قوات السلاجقة بقيادة كيقباد في سواس ، ومنها زحفوا على خلاط ، ولما سمع السلطان جلال الدين منكبرتي بأمره هذه الحشود توجه بجيشه ولقيهم بـناحية ارزكان من بلاد أرمينيا ، وتقاتل الفريقان في أغسطس ١٢٣٠ - رمضان ٦٢٧ هـ وانتهى الأمر بهزيمة الخوارزمية . وفر جلال الدين إلى آذربيجان بعد أن قتل معظم عسكره ، أما في ميدان القتال ، أو تردياً من رؤوس الجبال التي كانت في طريقهم ، واسترد الأشرف خلاط . واضطر جلال الدين في النهاية إلى طلب الصلح بينه وبين الملك الأشرف وسلطان سلاجقة الروم ، فوافقا وتم الصلح بينهم (٢)

وفي غمرة هذه الأحداث مات جنكيزخان ، وتولى من بعده ابنه اجتاي عام ١٢٣١م - ٦٢٨ هـ الذي أرسل جيشاً كبيراً ضد الخوارزمية نجح في

(١) المقرئى : المصدر السابق ، ج١ ، ق١ ، ص ٢٧٧ راجع أيضاً :

Setton, op. cit., II, p. 703.

(٢) ابن واصل : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٢٩٨ - ٣٠٠ ابن تقي بردي : النجوم

الزاهرة ج٦ ، ص ٢٧٣ .

هزيمتهم ، وقتل منهم عدداً كبيراً وأسر البعض الآخر . أما الجزء الثالث المتبقى فقد نجح في الحرب مع جلال الدين ودخلوا ميفارقين . وبذلك نجح المغول في الاستيلاء على كل أقاليم الدولة الخوارزمية . أما بالنسبة لجلال الدين منكبرتي فقد تم اغتياله بيد رجل كردى انتقاماً من الخوارزمية لما فعلوه بعائلته من قبل (١) .

وإذا كانت نهاية الدولة الخوارزمية قد تحددت بمقتل سلطانها جلال الدين منكبرتي ، واستيلاء المغول على أقاليمها ، فليس معنى هذا القضاء نهائياً على مجموعهم ونهاية دورهم في التاريخ . لأنهم بعد هزيمتهم على يد المغول ومقتل سلطانهم تشتتوا في كثير من بلاد الشرق الأدنى يعرضون خدماتهم على كل من يبذل لهم الأرزاق من حكام المسلمين (٢) . فكان الصالح أيوب سلطان مصر أكثر هؤلاء الحكام استخداماً لبعض جموع الخوارزمية منذ عام ١٢٣٦م - ٦٣٤ هـ (٣) . وكانوا يجوبون أقاليم الجزيرة وشمال الشام يشنون الغارات ويمارسون عمليات السلب والنهب أينما ساروا . ولكن نجح حلف مكون من أمراء حمص وحلب في انزال هزيمة قاسية بهم في معركة دارت بين الفريقين عند حران عام ١٢٤١م - ٦٣٩ هـ (٤) . وسرعان

(١) النسوى : المصدر السابق ص ١٧ ، ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣١٧ راجع كذلك :

Hayton, La Flor des Estoire de la Terre d'Orient, cf. R.H.C.-Doc. Arm., II, p. 146, Micahud Bibliotheque des Croisades, IV, p. 444, cf also : Humphrey, op. cit., p. 220, Setton, op. cit. II, p. 561.

(٢) النسوى : المصدر السابق ص ١٧ ، المقرئى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٠٩ ، ص ٢٤١ .

(٣) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٦٢ ، ابن الوردي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٦٥ .

(٤) سبط ابن الجوزى : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٤٨٧ ، أبو الفدا : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٧٥ راجع كذلك :

Runciman, op. cit., III, p. 224.

ما أعاد الخوارزمية تنظيم صفوفهم ، ونجحوا في إقامة مراكز لهم في القرى الواقعة بين الرها وحران ، واستمروا في عرض أنفسهم كمرتزقة لدى الحكام المسلمين (١) . وقد ساعدتهم الظروف إلى حد كبير إذ وجدوا في انقسام البيت الأيوبي على نفسه في هذه الفترة ، وكثرة الصراعات القائمة بين ملوكه مرعى خصباً يجتهدون فيه نشاطهم ويستملكون منه قوتهم ، فجاء وجودهم في ذلك الوقت مصلحة كبرى لمستقبل العالم الاسلامي ، لأن الضربة القاضية التي تلناها الصليبيون في موقعة غزة عام ١٢٤٤م - ١٢٤٢م إنما يرجع الفضل فيها إلى الخوارزمية ، للدور الكبير الذي لعبوه خلال هذه المعركة وقبلها عندما نجحوا في إعادة بيت المقدس إلى المسلمين مرة أخرى وفق ما سيتضح فيما بعد .

وجدير بالذكر أنه على الرغم من ظلم جلال الدين منكبرتي وسفكه للدماء إلا أنه كان سداً منيعاً بين المغول وتقدمهم في بلاد المسلمين . فبهاكه تمكن المغول بعد ذلك من العراق وبلاد الروم والجزيرة ثم التطرق إلى الشام (٢) . ولم يتنبه الأيوبيون إلى هذه الحقيقة ، واستمروا في انقسامهم على أنفسهم لاهم لكل منهم إلا توسيع حدود دولته حتى ولو كان هذا على حساب تماسكهم ووحدتهم ومستقبل العالم الاسلامي . ولعل ذلك يتضح في انشقاق الملك الأشرف صاحب دمشق على أخيه الأكبر سلطان مصر الكامل محمد ، وتدمير ثورة شاملة ضده ، ولكنه مات قبل تنفيذ هذا (٣) . ولما خلفه أخوه الصالح عماد الدين اسماعيل في حكم دمشق كون حلفاً ضد الكامل محمد يضم جميع ملوك بني أيوب باستثناء الناصر داود صاحب الكرك ، وتقى الدين الثاني صاحب حماه . ولكن سلطان مصر نجح في القضاء على هذا

Ibid, Grousset, op. cit., III, p. 410.

(١)

(٢) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٢٣ .

(٣) المقرئ : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٩٤ ، ٤٩٦ ، ابن تغري بردي :

المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣٠٠ .

الحالف أوائل عام ١٢٣٨م - ٦٣٥ هـ ، واستولى على دمشق (١) . وجاءت وفاة السلطان الكامل محمد كبداية حلقة جديدة في سلسلة انهيار البيت الأيوبي لأنه بعد أن استولى الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد على دمشق عام ١٢٣٩م - ٦٣٦ هـ ، أوقعه هذا في صراع عنيف ضد أخيه العادل الثاني سلطان مصر . كما حدث أيضاً في نهاية العام نفسه أن نجح الصالح اسماعيل في استرداد دمشق ، وأن يطرد منها الصالح أيوب (٢) . ولكن في عام ١٢٤٠م ٦٣٨ هـ نجح الأخير في تدبير مؤامرة ضد أخيه العادل الثاني وعزله عن حكم مصر ، وجعل نفسه سلطاناً على مصر ودمشق . وعند ذلك دب الخلاف بينه وبين عمه الصالح اسماعيل ، مما أوقع الدولة الأيوبية في حالة شديدة من الفوضى والاضطراب في الوقت الذي كان فيه أعداؤها يتربصون بها منتظرين الفرصة المواتية للانقضاض عليها .

ولكن في عام ١٢٤٣م - ٦٤١ هـ أعرب كل من الطرفين عن رغبته في اتمام الصلح بينهما ، وفتح صفحة جديدة في تاريخ العلاقات السلمية بين البلدين من ناحية ، وبين كل أمراء الدولة الأيوبية من ناحية أخرى (٣) . وبعد تكرار تبادل المراسلات بين جميع الأطراف المعنية تم الاتفاق على أن تكون دمشق وأعمالها للصالح اسماعيل ، ومصر للصالح أيوب ، وتبقى حمص وحماه على ما هي عليه (٤) . وأن تكون الخطبة والسكة في جميع هذه البلاد للملك الصالح أيوب بعد أن أنكرتها عنه طوال المدة السابقة (٥) . ووافق

(١) المقرئى : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٩٧ .

(٢) المصدر السابق ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٧٩ - ٢٨١ ، ٢٨٧ .

(٣) سبطاين الجوزى : المصدر السابق ، ج ٨ ، ٤٩٠ ، ابن الوردي : المصدر السابق ،

ج ٢ ، ١٧٣ .

(٤) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٢٧ ، المقرئى : المصدر السابق ،

ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣١٤ راجع أيضاً :

Humphrey, op. cit., p. 272.

(٥) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٢٧ ، المقرئى : المصدر السابق ،

ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣١٤ .

أيضاً صاحب دمشق على إطلاق سراح جميع الأسرى الذين تم القبض عليهم في دمشق عندما استولى عليها بما فيهم الملك المغيث فتح الدين عمر بن الصالح أيوب والوريث الشرعي لأملاكه من بعد (١). وتمت الموافقة أيضاً على تقسيم ممتلكات الناصر داود بين كل من مصر ودمشق حتى يتخلصوا منه ، ومن المشاكل التي كان يثيرها في المنطقة ، ومن تهديده لكل منهما (٢). ولكن لم تلبث وأن دبت الفتنة مرة أخرى بين مصر ودمشق ، وأنهار الصلح بين الطرفين ، وعادت الأمور بينهما إلى ما كانت عليه من بغض وعداء : وصراع دامي ساعد على التهاب الموقف في شتى أنحاء منطقة الشرق الأدنى الإسلامي ، مما كان له أكبر الأثر في نشوب معركة غزة عام ١٢٤٤م - ٦٤٢ هـ (٣).

(١) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٢٧ - ٣٢٨ - ، انقريزي : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ٣١٤ ابن تغري بردي : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣٢١ راجع أيضاً :

Humphrey, op. cit., Loc. cit.

(٢) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٢٨ أنظر أيضاً :

Humphrey, op. cit. Loc. cit.

(٣) بعد أن وافق جميع الأطراف على شروط الصلح اتفقوا على أن يجتمع سفراء الدول الثلاث دمشق وحمص وحلب في القاهرة ليقسموا يمين الولاء للصالح أيوب ويسمعوا قسمه على المحافظة على ممتلكات وحقوق الأمراء السوريين. وكادت الأمور تسير في مجراها الطبيعي لولا أن تسلم جلال الدين الإخلاطى ، مندوب الصالح اسماعيل في مصر ، قبل اتمام القسم الأخير لاقرار عملية السلام ، خطاباً من سيده مرفق به خطاب موجه من سلطان مصر إلى الخوارزمية يؤكد لهم أنه تظاهر بموافقة على عملية السلام حتى يتخذ ابنه من الأسر ، وأنه باق على عدوانه نعمة ، وأخذ يحثهم على غزو سوريا دفعة واحدة ، وضرورة الاستيلاء على دمشق . وفي الحال قدم جلال الدين الإخلاطى هذه الوثيقة إلى معين الدين بن الشيخ وزير سلطان مصر فحجز عن شرح أى شيء ينشأ به هذا الاتهام . وعند ذلك انقطعت المفاوضات وأعيد الملك المغيث إلى سجنه مرة أخرى ، وقطعت الخطبة للصالح أيوب ومسح اسمه من السكة . لمزيد من التفاصيل أنظر : ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٣١ ، ابن تغري بردي : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣٢٢ ومن المراجع الأجنبية أنظر :

Humphrey, op. cit. pp. 273—274.

وقد تكاثفت ملوك الشام بعد ذلك ضد سلطان مصر ، وكونوا خلفاً قوياً شمل دمشق وحمص وحلب . هذا ، في الوقت الذي حسن فيه الصالح اسماعيل علاقته مع الناصر داود وضمه إلى هذا الحلف . وعلى الرغم أن هذا الحلف كان يشكل قوة كبيرة ، إلا أنه كان لا يستطيع الوقوف أمام تحالف سلطان مصر والخوارزمية (١) . ولهذا فكر أمراء الشام وعلى رأسهم الصالح اسماعيل في الاستعانة بالفرنجة ، ولكن آثروا التريث قليلاً قبل الموافقة على تأييدهم ، لأنهم وجدوا في انقسام البيت الأيوبي على نفسه فرصة كبيرة لهم ، لكن يتبعوا سياسة ذات وجهين مع ملك دمشق وسلطان مصر حتى يحققوا في النهاية أكبر قدر من المكاسب على حساب المسلمين جميعاً دون عناء (٢) ، خاصة وهم يدركون تماماً أن الصالح أيوب يبحث بدوره عن حليف يشد أزره في صراعه ضد صاحب دمشق (٣) .

في بداية عام ١٢٤٤م - ٦٤٢ هـ كتب مقدم الداوية أرماند أوف برينجورد Armand of Perigord إلى السلطان الصالح أيوب يعرض عليه مساعدة الفرنج له مقابل منحهم غزوة وحبرون ونابلس والداروم . وقد وافق السلطان في بداية الأمر ، ولكن ماثب وأن رجع في موافقته بعد أن أدرك أن هذا التنازل سوف يقطع حلقة الصلة بين مصر والشام مما يشكل خطراً كبيراً على ممتلكاته في كل من البلدين (٤) . هذا ، وإن كان يتضح من نص الخطاب الذي أورده المؤرخ الانجليزي مني الباريزي في كتابه «التاريخ الانجليزي» والصادر من أرماند مقدم الداوية إلى الواعظ الانجليزي روبرت أوف

(١) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٣٢ ، المقریزی : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٤ ، ابن تغري بردي : المصدر السابق ج ٦ ، ص ٣٢٢ . راجع أيضاً :

Humphrey, op. cit., Loc. cit

(٢) Smail, the Crusaders in Syria and the Holy Land, p. 33, Richard, op. cit., p. 333, CaM. Med. Hist., V, p. 315.

(٣) Prawer, Histoire du Royaume Latine de Jerusalem, I, p. 307.

Ibid.

(٤)

سائد فورد Robert of Sandford عام ١٢٤٤م - ٦٤٢ هـ، أن من أسباب فشل المفاوضات مع الصالح أيوب هو عدم موافقة بارونات المملكة اللاتينية ورجال الدين على عقد هدنة مع سلطان مصر ، وتفضيلهم التعاون مع الصالح اسماعيل صاحب دمشق لأن التحالف معه يعنى التحالف أيضاً مع الناصر داود صاحب الكرك ، والمنصور ابراهيم صاحب حمص (١) . هذا بالرغم من أن الامبراطور فردريك الثانى قد أوضح فى خطابه المرسل إلى كل أمراء وملوك العالم المسيحي الغربى بشأن هزيمة الفرنج فى معركة غزة عام ١٢٤٤م - ٦٤٢ هـ أنه كان يؤيد فكرة تحالف الصليبيين مع سلطان مصر لثقلته الكبيرة بملاركها بعد أن حافظ الملك الكامل محمد من قبل بكل قيود المعاهدة المبرمة معه عام ١٢٢٩م - ٦٢٦ هـ (٢) .

على أية حال ، انتهى الأمر بموافقة الصليبيين على مساعدة الصالح اسماعيل وحلفائه ضد سلطان مصر ، على أن تكون سيطرة الصليبيين على بيت المقدس تامة ومطلقة ، بمعنى أن يستولى الصليبيون على الحرم الشريف بما فيه من المسجد الأقصى وقبة الصخرة (٣) . وأن تسلم اليهم كذلك طبرية وعسقلان وكركب ، ويسمح لهم بتحسين قلاعها (٤) . واتجه الصليبيون

(١) «...» وقد رفض بارونات المملكة اللاتينية ورجال الدين اقامة هدنة مع سلطان مصر ، ووجدوا أن من صالح الفرنج التحالف مع سلطان دمشق والناصر داود سيد الكرك «...» لمزيد من التفصيلات أنظر :

Matthew Paris, English History, I, p. 483.

(٢)

Historia Diplomatica Fridrici Secundi, VI, part I, p. 239.

(٣) ابن واصل : المصدر السابق ح ٥ ، ص ٣٣٢ ، ابن الوردي : المصدر السابق ،

ج ٢ ، ص ١٧٣ . ومن المصادر والمراجع الأجنبية أنظر :

Matthew Paris, op. cit., I, p. 497, Prawer, Military Orders and Crusaders Political in the Second half of XIII th Century, p. 224.

(٤) ابن واصل : المصدر السابق نفس الجزء والصفحة ، المقرئى : المصدر السابق ،

ج ١ ، ص ٢ ، ص ٣١٥ ، ابن تفرى بردى : المصدر السابق ، ح ٦ ، ص ٣٢٢ راجع كذلك :

Amadi, Chroniques d'Amadi, p. 185, cf also : Stevenson, op. cit., p. 322.

على الفور ناحية بيت المقدس وعلى رأسهم البطريك اللاتيني روبرت ورجال الدين وبدأت الكنائس في دق أجراسها معلنة عن بدء نشاطها . وجهاز كل من الداوية والاسبتارية الترتيبات اللازمة لاعادة تحصين المدينة المقدسة (١) .

وجدير بالذكر أن الصالح اسماعيل وحلفاؤه قد وعدوا الصليبيين بمنحهم جزءاً من أراضي مصر إذا هزموا السلطان المصري واستولوا على الديار المصرية (٢) . وقد أعدت الترتيبات بين الجيوش المتحالفة على أن يرسل الصالح اسماعيل قواته إلى غزة لغلق الطريق الموصل بين مصر وبيت المقدس بينما يستقر الناصر داود بجيشه بالقرب من القدس ليتمكن من صد أى تقدم مصرى على وجه السرعة . أما المنصور ابراهيم صاحب حمص فكان على عاتقه الذهاب إلى عكا لاعداد الترتيبات والتجهيزات الأخيرة مع الفرنجة استعداداً لبدء الحركة . وقد اتفقوا جميعاً على أن تجميع القوات الصليبية السورية خارج عكا في صيف ١٢٤٤م - ٦٤٢ هـ (٣) .

وإزاء ذلك الخطر المشترك شعر الصالح نجم الدين أيوب أن بلاده مهددة بالغزو والاستيلاء عليها ولذلك لم يجد بداً في ذلك الموقف الحرج من الاستعانة بالخوارزمية (٤) . ووعدهم في مقابل هذا أن يمنحهم الاستقرار في بيت

(١) King, op. cit., p. 231, Smith, The Knights of St. John in Jerusalem and Cyprus, p. 181

(٢) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٣٢ ، أبو الفد : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٨١ راجع أيضاً :

Humphrey, op. cit., p. 274, Richard, op. cit. p. 333, Smith, op. cit. Loc. cit, Michaud, Histoire des Croisades, IV, p. p. 26, Setton, op. cit., II, p. 561.

Humphrey, op. cit. Loc. cit, Setton, op. cit. loc. cit. (٣)

(٤) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٣٦ ، المقرئى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٥ ، ص ٣١٥ أنظر أيضاً :

Stevenson, op. cit., p. 322, Richard, op. cit. Loc cit, King, op. cit, p. 231.

المقدس وجزء من أراضي مصر (١). ولم تكد دعوة الصالح أيوب تصل إلى الحوارزمية في يونيو ١٢٤٤م - محرم ٦٤٢ هـ حتى اندفع عشرة آلاف منهم في فرحة كبيرة بقيادة مقدمهم الأمير حسام الدين بركة خان نحو بلاد الشام الصليبية يخربون البلاد ويشعلون الحرائق في القرى ، وما مروا بموضع إلا نهبه وعاثوا فيه وقتلوا وسبوا (٢). وكانوا قد انقسموا إلى قسمين : أحدهما اجتاز بقاع بعلبك ، والآخر قصد غوطة دمشق ، وكانت دمشق نفسها حصينة فأتجهوا صوب الجليل حيث استولوا على طبرية ، ثم على بانياس ، ومنها قصدوا بيت المقدس في ١١ يوليو ١٢٤٤م - ٣ صفر ٦٤٢ هـ (٣).

ولما علم الصالح اسماعيل بهذا الأمر حصن دمشق واعتصم بها ، واستدعى جنوده من غزة ففارقوها وعادوا إلى دمشق ، ورحل الملك الناصر داود إلى الكرك ، وهرب كثير من الفرنجة الذين كانوا بالقدس (٤). وعندما وصلت جموع الحوارزمية بيت المقدس لم تجد بها حامية قوية ، فكانت أشبه بمدينة مفتوحة ضعيفة التحصين (٥). فساعدهم هذا إلى حد كبير على دخول المدينة بدون عناء . ووقع القتال في الشوارع وبذلوا السيف فيمن كان بها من

(١) Eracles, op. cit., p. 427, Matthew Paris, op. cit., p. 491, cf also : Besant, The History of Jerusalem, p. 513, Michaud, op. cit., IV, p. 27.

(٢) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٣٦ ، المقرئ ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣١٦ . راجع كذلك :

Michaud, Bibliotheque des Croisades, IV, pp. 444-445, cf also : Setton, op. II, p. 561, King, op. cit., p. 208.

Prawer, Histoire du Royaume Latin, II, p. 310, Setton, op. cit. (٣) Loc cit.

(٤) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٣٧ .

Eracles, op. cit., p. 428, Michand, op. cit., IV, 445, cf. also : Prawer, op. cit., p. 307.

أهلها من المسيحيين حتى أفنوا الرجال وسبوا النساء والأولاد (١) : وقد انتهك الخوارزمية حرمة المقدسات الدينية ، فاقترحوا الكنائس وهدموها مثل كنيسة القديس يعقوب Saint Jacques في حى الأرمن ، ودير القديس جيمس Saint James ، وذبحوا كل من بداخلها من قساوسة ورهبان وعلمانيين (٢) . ولم يكتفوا بذلك بل دخلوا كنيسة القيامة ، ونهبوا آثارها المقدسة ، وامتدت أيديهم إلى القبر المقدس وحطموه ، ثم انتهكوا حرمة مقابر ملوك اللاتين الأول أمثال جود فرى وبلدوين ففتحوها وأحرقوا محتلفاتها ونهبوا كل ما فيها من آثار مقدسة ومجوهرات (٣) . وقاموا بعد ذلك بذبح المسيحيين البؤساء الذين اتخذوا من هذه الكنيسة ملجأهم وهرباً من سيوف الخوارزمية (٤) .

ومع ذلك فقد جهز سادة الداوية والاستبارية فرقة كبيرة لتلبية النداء في الدفاع عن المدينة ، وانقاذ البقية الباقية من سكانها . ولكنها سرعان ما تدهقرت وعادت في الحال بعد أن علمت بتحطيم أسوار المدينة ، وأدركت صعوبة وخطورة الوصول إليها وهى على هذه الحالة ، مما يزيد من خسائر الفرنج (٥) خاصة وأنهم كانوا يجهزون في هذا الوقت قواتهم في عكا بقصد

(١) ابن واصل : المصدر السابق ، ذات الجزء والصفحة ، المقرئى : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣١٧ .

(٢) Chronical of Melrose, cf. Church Historians of England, t. IV, (٢) Part, I. p. 188 cfalso : Praver, op. cit. Loc. cit, King op. cit., p. 232.

(٣) Rothelin, cf. R.H.C.-H. Occ., II, p. 562, Michaud, Biblio- theque des Croisades, IV, p. 445, Chronical of melrose, IV part, I, p. 190, Historia Diplomatica Fredrici Secundi, t. IV, part, I, p. 238, cf also : Lamb, The Crusades, p. 280, Iorga, Histoire des Croisades, p. 166, king, op. cit., 232, Praver, op. cit., p. 311.

(٤) Rothelin, op. cit. Loc cit, Chronical of Melrose, op. cit. Loc cit, Matthew Paris, op. cit. I, p.524 .

(٥) King, op. cit. Loc cit.

الهجوم المشترك بينهم وبين السوريين ضد مصر (١) .

وهكذا أصبح سكان بيت المقدس في موقف لا يحسدون عليه ، لأنهم عانوا كثيراً من شدة الجوع وقلة الأسلحة وحالة الرعب الشديد الذي كانوا يعيشون فيه ، بجانب عمليات الارهاب والعنف التي تعرضوا اليها من قبل الجنود الخوارزمية (٢) . وقد كان لهذا أثره السيئ في نفوس مسيحيي العالم الغربي وسائر الفرنج الموجودين في عكا . ولكن مع ذلك ، ورغم كثرة طلبات النجدة المرسلة من السكان المحاصرين بالمدينة إلى بني جلدتهم في عكا ، لم يتمكن هؤلاء من امدادهم بالمساعدات اللازمة لأكثرة اعداد الخوارزمية من ناحية ، وشدة الحصار المفروض على المدينة من ناحية أخرى . فكان لا يوجد أى منفذ في المدينة يمكن التسلل منه إلا وأن يمر أمام جيش الخوارزمية (٣) .

وفي ضوء هذه الظروف ، لم تتمكن حامية المدينة من الصمود طويلاً أمام قوات الخوارزمية ، واضطرت إلى الهرب إلى برج داود . ولكنها لم تصمد في المقاومة أكثر من ستة أسابيع ، ثم استسلمت بعد ذلك (٤) .

وعلى الرغم من كل هذه المذابح التي تعرض لها سكان بيت المقدس ، لم تقف الفرنج موقفاً سلبياً تجاه اخوانهم المحاصرين في المدينة المقدسة ، وإنما بعثوا بسفارة إلى الناصر داود صاحب الكرك ، وهو أقرب الحلفاء المسلمين اليهم يرجونه مساعدتهم في تأمين خروج الفرنجة من بيت المقدس والسير حتى يافا ، وكذلك السماح للراهب سيمون رئيس الوعاظ بالدخول في المدينة

(١) Praver, op. cit. Loc cit.

(٢) Chronical of melrose, op. cit., p. 188.

(٣) Chronical of Melrose, op. cit., p. 189, Matthew Paris, op. cit, I, p. 499.

(٤) Brundage, The Crusades, A Documentary Survey, p. 233, Humphrey, op. cit., p. 272.

لتشجيع المسيحيين الموجودين بداخلها وتثبيت إيمانهم . فوافق الناصر داود على هذا ، ووعد بالذهاب بنفسه إلى الخوارزمية لأقناعهم بالموافقة (١) .

ومما يثير الدهشة والتساؤل ، أن الناصر داود وافق أن يتوسط للفرنج لدى الخوارزمية ويرجوهم في مثل هذا الشأن ، على الرغم من أنه كان متحالفاً مع باقي أمراء الشام والفرنج ضدهم . الواقع أن المصادر العربية والأجنبية المعاصرة لهذه الفترة أو المتأخرة عنها زمنياً ، لم تمدنا بأية تفصيلات تعلل سبب هذا التناقض . ومع ذلك فالتأنيدي ، من خلال تتبع الأحوال والظروف في المنطقة ، إنه ربما كان لصلة القرابة القوية التي تربط بين الناصر داود من جهة والخوارزمية من جهة أخرى ، أثرها في التأثير عليهم ، لأن أمه خوارزمية الأصل (٢) . فكأنه عندما توجه إليهم ورجاهم لصالح الفرنج لم يكن هذا بصفتهم سلطاناً للكرك ، وإنما بدافع صلة القرابة . وعندئذ فحينما تحدث إليهم إنما كان يتحدث مع أخواله وأقاربه ، وليس مع أعدائه . وتدعيماً لهذا الرأي ، وعلى ارتياح الخوارزمية فيما بعد للتعامل مع الناصر داود . انهم استمالوه إليهم للوقوف معهم ضد الملك الصالح نجم الدين أيوب عام ١٢٤٦م - ٦٤٤ هـ وفق ماسيتضح فيما بعد (٣) . وكذلك عندما فضل عدد كبير منهم الدخول في خدمته بعد هزيمتهم الساحقة وتشتت شملهم في نفس هذا العام على أيدي قوات المنصور إبراهيم صاحب حمص المتحالفة مع الجيش المصري . فكانوا سنداً قوياً له في كل المعارك التي خاضوها ضد منافسيه (٤) .

على أية حال عندما قرر الملك الناصر التوجه إلى الخوارزمية أصر الواعظ

(١) Chronical of Melrose, op. cit. loc. cit.

(٢) ابن تغري بردى : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٥ .

(٣) أنظر فيما بعد ص .

(٤) أنظر ص .

سيمون على مرافقته في رحلته إلى بيت المقدس . وعند وصوله اجتمع بكل
المسيحيين الموجودين هناك وأخذ يعظهم ويرفع من روحهم المعنوية . كما
منحهم الغفران نيابة عن البطريك ، ثم أبلغهم بمحاولات الناصر داود لدى
الحوارزمية لضمان الأمان لهم عند الخروج من بيت المقدس . وأخيراً حذرهم
بعدم الخروج من المدينة إلا بعد الحصول على وثيقة الامان من السلطان .
وعقب انتهاء الاجتماع أعربوا عن استيائهم الشديد للراهب لثقة الفرنج في
صلك الأمان الذي سيمنحهم أياه الحوارزمية . وأجمعوا على أنهم يفضلون
الموت جوعاً داخل المدينة المقدسة ، عن الثقة أو الاعتماد على هؤلاء
الحوارزمية . وقرروا في النهاية أنهم لن يغادروا المدينة وسيبقون منتظرين
المساعدة الالهية لهم (١) . وعند ذاك غادر الراهب سيمون المدينة ، وفي
طريق عودته إلى يافا زار السلطان الناصر داود واستلم منه وثيقة تأمين طريق
الفرنج عند مغادرتهم بيت المقدس (٢) . ولكن حدث في ذلك الوقت أن
استسلمت حامية المدينة في الثالث والعشرين من شهر أغسطس عام ١٢٤٤م
١٥ ربيع الأول ٦٤٢ هـ ، فأعمل فيهم الحوارزمية الذبح (٣) . وفي مساء
هذه الليلة هرب من المدينة حوالى ستة آلاف من أهلها من الرجال والنساء
والأطفال ، وتركوها للحوارزمية متخذين طريقهم ناحية يافا (٤) . ولم
يبق في المدينة سوى أصحاب العاهات والمسنين ، فشن الحوارزمية عليهم

(1) Chronical of Melrose, op. cit. Loc. cit.

(2) Ibid.

(3) Matthew Paris, op. cit, p. 498, Hayton, La Flor des Estoire
de la terre d'Orient, Cf. R.H.C. -Doc. Arm., II, p. 146, cf. also :
Brundage, op. cit. p. 233., Smith, op. cit., p. 181, Cam Med. Hist.,
V p. 315.

(4) Rothelin, op. cit., p. 564, Matthew Paris, op. cit., I, p. 498, cf.
also : Setton, op. cit., II, p. 562, Prawer, op. cit., p. 311.

هجوماً قاسياً وقتلواهم جميعاً ، وأصبحت المدينة شبه مهجورة (١) . ولم يكذب المسيحيون ببتعدون عن بيت المقدس حتى تطلعت منهم جماعة إلى الورا لاقاء النظرة الأخيرة على مدينتهم المقدسة ، فشاهدت أعلام الفرنج ترفرف على أبراج المدينة وسمعوا رنين أجراس الكنائس معلنة الصلاة فظنوا أن هناك بعض النجذات قد وصلت المدينة وانتصرت على الخوارزمية وأن هذه الأعلام اعلاناً لاستدعائهم للعودة مرة أخرى إلى المدينة (٢) . وأصر عدد كبير منهم على الرجوع . ولكن هذا الاضرار كان خطوة سريعة إلى مصيرهم التمس ، لأن الخوارزمية تعمدوا خداعهم بهذه الطريقة ولتأكيد هذا الخداع انسحبوا مسافة قصيرة عن مواقعهم . وعند ذلك عاد المسيحيون وهم مطمئنين ومعتقدين بأنهم سيكونون في أمان . غير ما لبثوا أن وقعوا في الكمين الذي أعده لهم الخوارزمية (٣) . فسرعان ما أحاطوا بهم من كل جانب ووقعت مذبحه كبيرة راح ضحيتها الكثير . وعندما حل الظلام تسال الصليبيون الذين نجوا من المذبحة وحاولوا الهرب ولكنهم ضلوا طريقهم ، وسلكوا طرقاً صحراوية في وسط الجبال . وعندما وصلوا إلى أحد الممرات الضيقة عند سهول الرملة ، فوجئوا بكمين آخر أعده الخوارزمية لهم ، فأحاطوا بهم من كل جانب وهجموا عليهم وقتلواهم عن آخرهم (٤) .

أما بالنسبة لهؤلاء الذين لم يعودوا إلى بيت المقدس مع اقي اخوانهم ، وآثروا مواصلة طريقهم إلى يافا ، فقد تعرضوا لهجمات قطاع الطرق من

Besant, op. cit., p. 513, Michaud, Histoire de Croisades, IV, (١)
pp. 27—28.

Matthew Paris, op. cit., I, p. 498, Rothelin, op. cit., p. 564, cf (٢)
also : Setton, op. cit., ii, p. 562, Prawer, op. cit., p. 311, Besant, op.
cit. Loc. cit.

Ibid.

(٣)

Rothelin, op. cit., p. 564, Matthew Paris, op. cit., I, pp. 524- (٤)
525, cf also: Besant, op. cit, Loc. cit.

العرب أثناء سيرهم تجاه البحر . وهلك منهم أكثر من ثلاثة آلاف مسيحي . أما البنات والأولاد فقد حملوا كأسرى وتم بيعهم في أسواق العبيد . وعلى ذلك لم يصل منهم سالماً إلى يافا أكثر من ثلاثمائة فقط . ولكنهم كانوا في حالة صحية سيئة للغاية ، ومات أكثر من نصفهم (١).

وجدير بالذكر ، إذا كان بعض المؤرخين القدامى المعاصرين لهذه الفترة الزمنية ، مثل روتلان ومتى الباريزي ، قد أوضحوا طريقة القضاء على هؤلاء المسيحيين الهاربين من بيت المقدس بالكيفية التي ذكرناها فان الخطاب الصادر في ٢١ سبتمبر عام ١٢٤٤م - ١٣ ربيع ثان ٦٤٢ هـ من روبرت بطريرك بيت المقدس وغيره من كبار سادة الفرنج إلى البابا أنوسنت الرابع (١٢٤٣ - ١٢٥٣م) قد انفرد بذكر رواية أخرى تختلف عن تلك التي ذكرها هذان المؤرخان وتضمنت هذه الرواية أن عدد أكبر آمن الفرنج نجح في الهروب ليلاً من بيت المقدس دون اخبار بقية زملائهم من المسيحيين الموجودين معهم . وعندما وصلوا إلى يافا وجه اليهم البطريرك وسادة الفرنج في المدينة اللوم الشديد لخروجهم دون بقية اخوانهم . وبعد أيام قليلة ، وعلى وجه التحديد في الثالث والعشرين من شهر أغسطس ١٢٤٤م ١٥ ربيع الأول ٦٤٢ هـ هرب بقية سكان المدينة المقدسة باستثناء المسنين وأصحاب العاهات . وقد اتخذوا من الأقاليم الجبلية طريقاً سهلاً لهروبهم بعيداً عن عيون الخوارجية ، ولكنهم تعرضوا لهجمات قطاع الطرق من عرب الجبال فقتلوا منهم أكثر من ألفين بينما وقع كثير من النساء والأولاد والبنات في الأسر وتم بيعهم كعبيد في أسواق التحاسه . أما الذين نجوا منهم فقد واصلوا سيرهم حتى وصلوا سهول مدينة الرملة ، وهناك تلقفهم سيوف الخوارجية وقضت عليهم ماعدا ثلاثمائة منهم نجحوا في الهرب والوصول إلى يافا وهم في حالة صحية سيئة متأثرين بجروحهم فمات أكثر من نصفهم (٢).

(1) Matthew Paris, op. cit., I, pp. 524-525, cf also : Setton, op. cit., II, p. 562, Runciman, op. cit., III, p. 225.

(2) Chronical of Melrose, p. 190.

والواقع أننا لودققنا النظر في كلتي الروايتين لوجدنا أن مضمونهما واحد غير أن المؤرخين متى الباريزى وروتلان قد اضافا واقعة الخدعة التي دبرها الخوارزمية لسكان المدينة عندما رفعوا أعلام الفرنج على أبراج المدينة لاستدراجهم اليها . وعلى ذلك يمكننا القول أنه عندما أغفل بطريرك بيت المقدس ذكر هذه الواقعة في خطابه المرسل إلى البابا أنوسنت الرابع فإن هذا لا يعنى عدم حدوثها أو اتهام البطريرك للتعمد في اخفائها ، وإنما من المحتمل أن يكون الخطاب قد سقط منه سهواً بسبب الحالة النفسية السيئة التي كان يعاني منها وقت كتابة الخطاب بسبب حزنه وتألمه على فقد الفرنج بيت المقدس من ناحية ، وما أصاب المسيحيين من سكان المدينة المقدسة من قتل وتشرد وجوع على أيدي الخوارزمية من ناحية أخرى ، بالإضافة إلى الجرائم والفظائع التي اقترفها هؤلاء الخوارزمية في حق المقدسات المسيحية من ناحية ثالثة . كما أننا لو تحققتنا من تاريخ تدوين الخطاب نجد أنه يرجع إلى الحادى والعشرون من شهر سبتمبر ١٢٤٤م ، أى أنه لم يكتب إلا بعد مرور شهر على وقوع الحادثة وهي مدة ليست قصيرة ويمكن أن تؤدي إلى نسيان بعض الوقائع ، خاصة في مثل هذه الظروف الصعبة التي كان يعيشها المسيحيون في ذلك الوقت . ونضيف إلى هذا أيضاً أن البطريرك لو كان قد تذكر هذه الحادثة ، لما تردد على الاطلاق في ذكرها ، لأنه لا يوجد سبب واحد يجعله يعتمد في اخفائها خاصة وهي تمثل نقطة سوداء تضاف إلى رصيد الخوارزمية في المكر الذي اتصفوا به والفظائع والأعمال الوحشية التي ارتكبوها بأسم المسلمين ضد الفرنج ، خاصة وأن خطاب البطريرك قد اعتمد كلية على وصف وحشية الخوارزمية وهمجيتهم والمقارنة بين سياستهم تجاه المسيحيين في بيت المقدس وسياسة التسامح الديني التي أظهرها صلاح الدين الأيوبي عندما استعاد المسلمون بيت المقدس عقب موقعة حطين عام ١١٨٧م - ٥٨٣ هـ .

ومهما كانت الآراء حول كيفية قضاء الخوارزمية على سكان بيت

المقدس ، فكنا ننتظر من المصادر والأصول العربية أن تمدنا بمعلومات تساعدنا على القاء بصيص من الضوء على تلك الخدعة التاجحة التي اتبعها الخوارزمية حيال سكان بيت المقدس لتقطع الشك باليقين . ولكن بالرغم من ذلك ، فإننا لا نستبعد حدوثها بما تضمنته من مكر وخداع ووحشية ، لأن هذه السياسة ليست بغريبة على الخوارزمية ويتفق مع ميولهم وطباعهم .

على أية حال بعد أن قام الخوارزمية بعملية نهب واسعة النطاق في بيت المقدس ، حتى أصبح المكان قفراً موحشاً ، اتجهوا صوب غزة ، ومن هناك أرسلوا إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب يخبروه بقدومهم نصرته على عمه الصالح اسماعيل صاحب دمشق . فأرسل إليهم جيشاً بقيادة ركن الدين بيبرس ، ووعدهم بأن يمنحهم الشام (١) . وكانت جيوش الفرنج في ذلك الوقت تحتشد خارج عكا ، وقد انضمت إليها جيوش حمص ودمشق بقيادة المنصور ابراهيم أمير حمص ، وجيش الكرك بقيادة الناصر داود . ثم اتجهت جموع هذه القوات في الرابع من أكتوبر عام ١٢٤٤م ٢٦ ربيع ثان ٦٤٢ هـ ناحية غزة (٢) . ومما يؤسف له أن هذا الجيش الأيوبي قد سار تحت اعلام الفرنجة ، والصلبان على عسكري دمشق وفوق رأس المنصور ابراهيم صاحب حمص (٣) . وقد التقى الجيشان المتحاربان عند المنطقة الرملية الفاصلة بين غزة وعسقلان ، بالقرب من قرية «الحربية» Harbiyah المعروفة عند مؤرخي الحروب الصليبية باسم La Forbie ، وهي على

(١) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٣٧ - ٣٣٨ ، المقرئ : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣١٦ - ٣١٧ .

(٢) المقرئ : نفس الجزء والصفحة راجع أيضاً :

Rothelin, op. cit., p 563, cf also: Setton, op. cit. Loc. cit

Besant, op cit., p. 514; Runciman, op. cit., III, p. 225.

(٣) سبط ابن الجوزي : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٤٩٤ ، المقرئ : المصدر السابق ،

ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣١٧ .

بعد أميال قليلة من شمال شرق غزة (١) .

كان الجيش الصليبي يتكون من فرسان جميع بارونات المملكة اللاتينية وكذلك من مختلف الطوائف العسكرية الدينية الممثلة ببعض فرق من جماعة الفرسان الداوية بقيادة أرماند بريجورد ، وجماعة الفرسان الاسبتاريه بقيادة وليم شانونوف وكتيبة من فرسان التيوتون . كما ساهمت أيضاً كل من قبرص وانطاكية وطرابلس بعدد كبير من الفرسان . فبلغ مجموع فرسان الفرنج المشتركين في هذه المعركة ما يقرب من ثلاثة آلاف فارس ، يضاف اليهم ما يقرب من ألفين من القوات السورية بقيادة أمير حمص المنصور ابراهيم . هذا ، بجانب ما يقرب من عشرة آلاف من المشاه (٢) . وعلى ذلك كان الجيش الصليبي المشترك في معركة غزة يمثل أكبر قوة تم تكوينها واعدادها للمعركة ضد المسلمين منذ معركة حطين عام ١١٨٧م - ٥٨٣ هـ (٣) . ولكن مما يعيب تكوين هذا الجيش هو عدم وجود قائد واحد أساسي له ، وإنما يوجد العديد من القادة ، كل منهم يرأس مجموعة من المقاتلين ، وكان من بينهم فيليب دى مونتفرات صاحب صور ، والتربرين كونت يافا وليم سيد البترون ، وتوماس كند سطل طرابلس فضلاً عن مقدمى الطوائف العسكرية الدينية الثلاث السابق ذكرهم (٤) ولذلك فقد تكون ما يسمى باسم «مجلس الحرب» من كل هؤلاء القادة ليحل محل القائد العام في عملية الاشراف على خط سير المعركة (٥) .

Setton, op. cit., II, p. 563, Prawer, op. cit., p. 312, Humphrey, (١)

op.cit., p. 'p. 275.

Eracles, op. cit., p. 428, Matthew Paris, op. cit., I, p. 491, H (٢)
Historia Diplomatica Fridrici Secundi, VI, part I, p. 237, cf also :
Prawer, op. cit., pp. 312—313.

Runciman, op. cit., Loc. cit. (٣)

Eracles, op. cit., p. 430, cf also: King, op. cit., p. 233, Setton, (٤)
op. cit., II, pp. 662—663.

King, op. cit., Loc. cit. (٥)

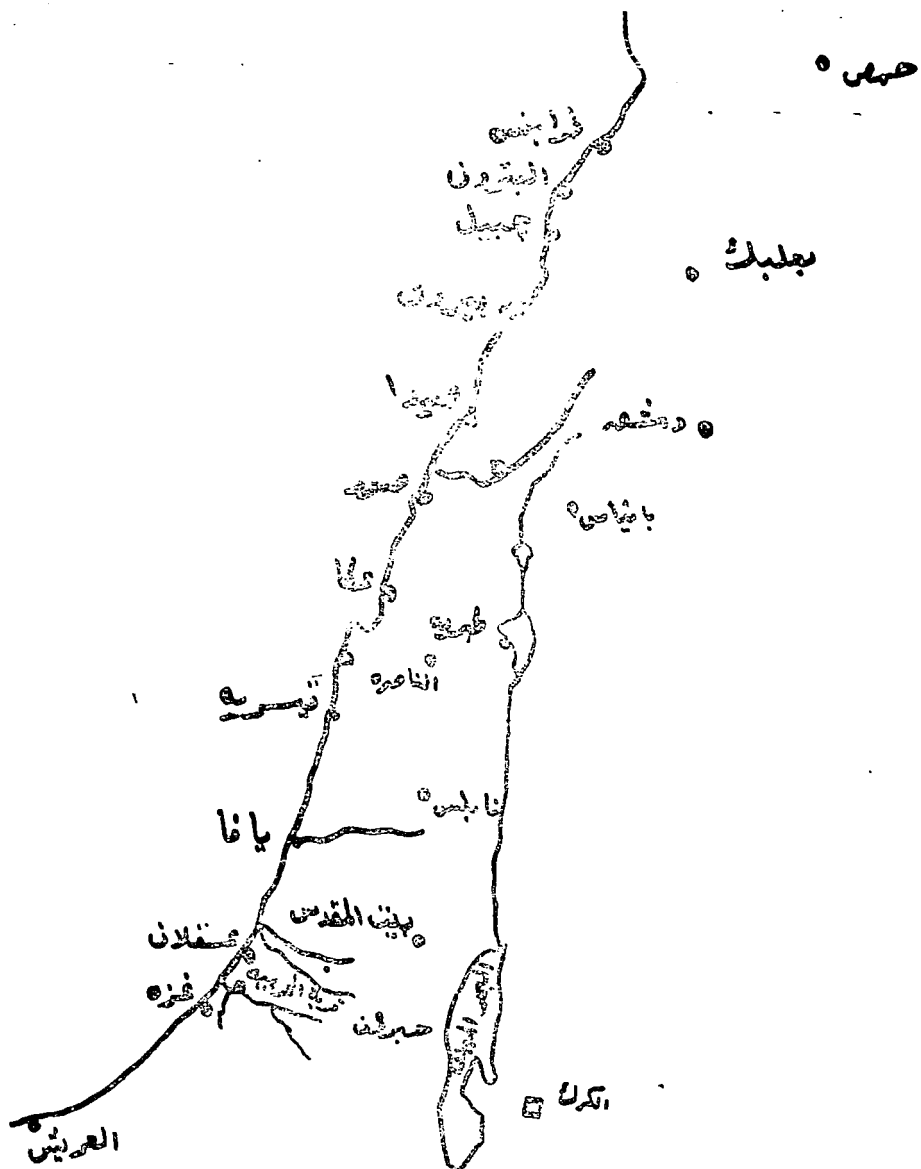
وقد تشكل الجيش الصليبي في ثلاث مجموعات ، تضمن الجناح الأيسر الفرسان الاستتاريه بقيادة والتر دى برين كونت يافا ، وتضمن الجناح الأيمن جيوش المسلمين المتحالفة مع الفرنج بقيادة المنصور ابراهيم صاحب حمص . بينما كان القلب برياسة مقدم الداوية ويضم فرسانه ، وقوات بارونات المملكة اللاتينية (١) . ومعهم روبرت بطريك بيت المقدس حاملا الصليب الحقيقي وبرفقه بطرس رئيس أساقفة صور ، ورالف أسقف اللد والرملة (٢) . أما الجيش المصرى فقد تألف من مجموعتين : الجناح الأيسر ويضم خمسة آلاف من أمهر المقاتلين بقيادة الأمير المملوكى ركن الدين بيبرس ، والجناح الأيمن ويتكون من عشرة آلاف من الخوارزمية بقيادة سيدهم بركة خان (٣) .

وجدير بالذكر أن الصليبيين عقدوا مجلساً للحرب عند عسقلان قبل وصولهم إلى غزة . وأعرب فيه المنصور ابراهيم عن تخوفه من خوض المعركة ضد الخوارزمية والمصريين بسبب نقص امكانيات الفرنجة فى المؤونة وعدم ضمان وصولها بسرعة وبكميات وافرة من عكا . وأوصى بالعودة لتجنب الهزيمة . وفى نفس الوقت أشار عليهم بأنه إذا لم يكن هناك مفر من القتال فلا بد من التريث فى الهجوم وأن يعملوا على تحصين معسكرهم جيداً . وأن يتخذوا جانب الدفاع خاصة وأن الخوارزمية يكرهون مهاجمة المواضع المنيعه ، ويميلون من هذا النوع من القتال مما يؤدى إلى انسحابهم من ميدان القتال . وبالتالي لن يكن يوسع الجيش المصرى الاستغناء عنهم والقتال

Joinville's Chronicle, p. 268, cf also : Michand, op. cit., IV, (١)
pp. 32—33, King, op. cit., p. 234, Lamb, op. cit., p. 280.

Setton op. cit., II, p. 563, Runciman, op. cit., III, p. 226, (٢)

King, op. cit., Loc. cit, Setton, op. cit., Loc. cit. (٣)



بدونهم فيضطر إلى الانسحاب بدوره (١) . وقد أيد كثير من الصليبيين هذا الرأي ، بينما عارضه البعض الآخر وعلى رأسهم والتردى برين كونت يافا الذى كان شديد الالحاق على ضرورة القيام بهجوم مباشر وسريع ، وانتهى الأمر برجحان كفة والتر ، ويتحرك الصليبيون من عسقلان ووصلوا غزة وأصبحوا في مواجهة الجيوش الخوارزمية المصرية (٢) .

وساد الهدوء بين الطرفين عدة ساعات كان خلالها كل طرف يتحرش بالآخر . وقد لاحظ والتر كونت يافا وجود بعض الاضطرابات في صفوف الخوارزمية ، وأراد أن ينتهز هذه الفرصة ويبدأ في الهجوم عليهم ليحقق نصر يشفع له عند البطريك في العفو عنه من قرار الحرمان الصادر ضده ، ولكن البطريك نهاه عن هذا ورفض منحه العفو المطلوب (٣) .

وفي صباح يوم الاثنين ١٧ أكتوبر ١٢٤٤م - ١٤ جمادى الأولى ٦٤٤ هـ بدأت المعركة بين الخوارزمية وقوات الصالح أيوب من ناحية ، والصليبيين وجيوش حمص ودمشق والكرك من ناحية أخرى . ورغم أن الصليبيين كانوا في أشد الحاجة إلى خبرة والتردى برين ، ورغم كثرة إلحاحه على البطريك للسماح له بالاشتراك في المعركة إلا أنه لم يوافق . ولكن أمام صلابة البطريك اضطر أسقف الرملة والذى كانت تربطه علاقة قوية بكونت يافا ، أن يصدر قراراً بالعفو عنه والسماح له بالاشتراك في القتال ، فأمتطى صهوة جواده وأخذ يشارك زملاءه في القتال (٤) . وكانت المعركة

(١) Eracles, op. cit., p. 429, cf also : Setton, op. cit., Loc. cit. (١)

Ibid.

(٢)

(٣) ذكر جوائفيل أن سبب صدور قرار الحرمان ضد كونت يافا هو رفضه تسليم برج

المدينة إلى البطريك أنظر :

Joinville's Chronicle, p. 268, cf also : Michaud, op. cit., IV, IV, p. 34.

Joinville's Chronicle, p. 269, cf also : Besant, op. cit., p. (٤) 514, Michaud, op. cit., Loc. cit.

متذ اللحظة الأولى تنسم بالشراسة والضراوة فكانت ضربات السيوف وصيحات المتحاربين تسمع من مسافة عدة أميال . واستمرت المعركة يومين ، استغرقت في اليوم الأول وقتاً طويلاً امتد من بزوغ الشمس حتى بعد الغروب بدرجة أنه لم يعد بإمكان أى من الفريقين المتحاربين التمييز بين قواتهما (١) . ولم يتمكن الفرنجة في هذا اليوم من احراز أى نصر أمام شدة ضربات الخوارزمية والمصريين معاً ولذلك فقدوا أعداداً كبيرة من قواتهم (٢) .

وفي صباح اليوم التالى اشتعلت المعركة من جديد ، وكان فرسان الداوية والاسبطارية قد استعادوا قوتهم ونشاطهم ، فأقبلوا على المعركة وهم يغنون تمجيداً لله ، ولبعث أمل النصر في نفوس باقي الصليبيين المحاربين فكأنوا يرددون «السيد منحنا النصر ، ليس من أجلنا وإنما لتمجيد لقبه واسمه المقدسين» (٣) . ولكن لم تمض عدة ساعات حتى فقدوا كل أمل في النصر ، لأنه في الوقت الذي كان فيه الجيش المصري يواصل هجماته ضد قوات الفرنجة ، نجح الخوارزمية في توجيه الضربات الشديدة والسريعة إلى الجيش السوري المتحالف مع الفرنج . فانهى الأمر بهلاكه وانسحابه من ميدان القتال ، وهرب المنصور ابراهيم إلى دمشق وظلت القوات الصليبية في ميدان القتال تواجه هجمات الخوارزمية بمفردها (٤) . فانهز هؤلاء الفرصة وحاصروهم من كل جانب ، وأخذوا يشددون ضرباتهم العنيفة ضدهم . ولكن ، في بداية الأمر ، نجح الصليبيون في الصمود بعض الوقت ، غير أنهم في النهاية لم يتمكنوا من مواصلة القتال لكثافة اعداء الخوارزمية من ناحية

(١) Matthew Paris, op. cit., I, p. 492, 499, cf also : Besant, op. cit., p. 514, Dowling, Gaza, a city of many Battles, p. 69.

(٢) King, op. cit., Loc. cit.

(٣) Matthew Paris, op. cit., I, p. 499, Lamb, op. cit., p. 281.

(٤) Rothelin, op. cit., p. 563, REracles, op. cit., p. 429, Matthew Paris, op. cit., p. 494, cf also Setton, op. cit., II, p. 563, King, op. cit., p. 234.

والخسائر العديدة التي تكبدوها في الأرواح والسلاح من ناحية أخرى (١).
 في ساعات قليلة تحطم كل جيشهم وحلت بهم الهرمة الساحقة ، حتى قُبر
 عدد قتلى الصليبيين ومن انضم اليهم من منافق المسلمين بأكثر من خمسة عشرة ألف
 مقاتل (٢) . ومن الذين لقوا مصرعهم مقدم الداوية ورئيس أساقفة صور
 وسيد البترون وأسقف الرملة . ولأذ بالفرار إلى عسقلان فيليب دي
 مونتفورت ومقدم التيوتون وبطريك بيت المقدس ، ولحق بهم من بقي على
 قيد الحياة من فرسان الطوائف الدينية العسكرية ثلاثة من التيوتون ، وثلاثة
 وثلاثون من الداوية ، وستة وعشرون من الاسبتارية (٣). ووقع في الأسر
 وليم شاتونوف سيد الاسبتارية ، وكند سطل طرابلس ، وكونت يافا فضلا
 عن ثمانمائة آخرين تم سجنهم إلى مصر (٤).

وبعد أن أحرز الخوارزمية هذا النصر الكبير على الفرنج ، اتجهوا ناحية
 عكا واستولوا على الأماكن المحيطة بها التي كانت في حوزة الصليبيين
 والواقعة على بعد ميلين من المدينة ، وقسموها كلها فيما بينهم بحيث لم يتبق

Matthew Paris, op. cit., I, p. 500, cf also : Michaud, op. (١)
 op. cit., IV, p. 35.

(٢) أبو شامة : المصدر السابق، ص ١٧٤ ، سبط ابن الجوزي : المصدر السابق، ج ٨ ،
 ص ٤٩٤ ، المقرئ : المصدر السابق : ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣١٧ . ومن المراجع الأجنبية
 أنظر :

Setton, op. cit., II, p. 564, Michaud, op. cit., Loc. cit.
 Dowling, op. cit., Loc. cit.

Rothelin, op. cit., p. 563, Eracles, op. cit., p. 430, Chronical (٣)
 of Melrose, op cit., p. 192, cf also : Stevenson, op. cit., 322, Dowling,
 op. cit., Loc. cit. Richard, op. cit., p. 334, Runciman, op. cit., III,
 p. 227, Lamb, op. cit., p. 280, Michaud op. cit., IV, p. 35

Rothelin, op. cit., pp. 563—564, Eracles, op. cit., p. 430, (٤)
 Gestes des Chiprois, cf. R.H. C-Doc. Arm, II, p. 740, chronique
 d'Amadi, p. 197, cf also : Runciman, op, cit., Loc. cit.

للصليبيين سوى القلاع (١).

ولما وصلت أنباء انتصار الخوارزمية إلى السلطان المصرى عم الفرح ودقت الطبول واستمرت الرايات والأفراح فى شتى الأقاليم المصرية عدة أيام (٢). وامتلاّت السجون بالأسرى وعلقت رؤوس القتلى على أبواب المدينة (٣).

وكان الخوارزمية يأملون بعد كل ماقدموه من مساعدات إلى السلطان المصرى الصالح نجم الدين أيوب أن يكافأهم بالسماح لهم فى الاستقرار بمصر. ولكن يبدو أن الصالح أيوب قد خشى على ما يترتب على دخولهم مصر من أضرار بالبلاد لكثرة أعدادهم وسياساتهم الحمجية ، ولذلك أرسل اليهم قوات مصرية عند بلبس لمنعهم من دخول مصر ، وفى نفس الوقت أباح لهم الاستقرار فى الشام على حساب الصليبيين ، وخاصة فى الأماكن التى استولوا عليها حول عكا (٤). ولكن نظراً لرغبتهم الشديدة فى الاستيلاء على يافا فقد ضربوا الحصار حولها ، واستغلوا فرصة وجود حاكمها الكونت والتردى برين فى الأسر لديهم فقاموا بتكبيله بالسلاسل وهددوه بالقتل إذا لم يسهل لهم عملية الاستيلاء على المدينة . وفى نفس الوقت هددوا حامية المدينة باغتيال أميرهم إذا لم يفتحوا الأبواب . ورغم كل ذلك فقد أبى الكونت والتر الاستسلام ، ولم يلتفت إلى تهديدات الخوارزمية ، وأخذ يصيح بصوت مرتفع أمام أسوار المدينة مشجعاً أهاليها وحاميتها : حاثاً أياهم على التماسك

(١) Rothelin, op. cit., p. 564.

(٢) المقرئى : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣١٧ ، ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣٢٤ .

(٣) سبط ابن الجوزى : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٤٩٧ ، أبو شامة : المصدر السابق ، ص ١٧٤ راجع أيضاً :

Michaud, op. cit., IV, p. 36, Lamb, op. cit., p. 28.

Eracles, op. cit., p. 430, cf also: Humphrey, op. cit., p. 284. (٤)

وعدم الاهتمام بهديدات عدوهم ، وضرورة تقوية استحکامات المدينة وعدم الاستسلام حتى لو ناله أذى منهم . وكان يقول لهم «واجبكم الدفاع عن المدينة وحمايتها حتى الموت من أجل نصرة المسيح» (١). وعندما يأس الخوارزمية من الاستيلاء على المدينة فكروا الحصار عنها وأرسلوا حاكمها إلى سلطان مصر هدية له للتصرف فيه كيفما يشاء ، فوضعه في السجن (٢). وكان بعض التجار المصريين قد طلبوا من السلطان الصالح أيوب التخلص من كونت يافا انتقاماً من الخسائر الفادحة التي تكبدوها بمعرفته عندما كان رجاله يقومون بالاغارة على القوافل التجارية المصرية المارة بالقرب من مدينة يافا ولكن الصالح أيوب لم يوافق على مطلبهم ، فاضطروا في إحدى الليالي إلى التسلل إلى السجن وقتلوه (٣) .

على أية حال ، بعد انتصار الصالح أيوب في معركة غزة عام ١٢٤٤م ٦٤٢ هـ ، أراد انزال العقاب بأمرأ البيت الأيوبي الذين تحالفوا ضده مع الصليبيين والذين كانوا عاملاً هائلاً من عوامل نشوب معركة غزة . فأرسل جيشاً كبيراً استولى على ممتلكات الناصر داود صاحب الكرك فيما عدا الكرك والبلقاء وعجلون (٤). ثم أرسل حملة أخرى بقيادة معين الدين الحسن بن شيخ الشيوخ على بهدف الاستيلاء على دمشق وقد استعان في ذلك بالخوارزمية ، وقد حققت الحملة هدفها واستولت على المدينة في أكتوبر ١٢٤٥م - جمادى الأول ٦٤٣ هـ ، وتم تعويض الصالح اسماعيل بامارة بعلبك وبصرى والسواد ، وقد ظن الخوارزمية بعد هذا الانتصار الذي حققه سلطان مصر بتأييدهم له بأنه سوف يسمح لهم بالاستقرار في مدينة دمشق ويقاسمهم ملكيتها تكرماً لهم

Joinville's Chronicle, p. 269, cf also: Michaud, op. cit., IV, (١)
p. 37, King, op. cit., p. 239, Besant, op. cit., p. 514, Setton, op. cit.
II, p. 564.

Ibid.

(٢)

Joinville's Chronicle, p. 269i

(٣)

(٤) المقرئى : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣١٨ .

للدور الكبير الذى قاموا به أثناء تعاونهم مع القوات المصرية منذ فرض الحصار على المدينة حتى استسلامها . ولكنهم أصيبوا بخيبة أمل كبيرة عندما رفض الصالح أيوب مطلبهم ، بل قام بمنعهم من دخول دمشق ، واكتفى باقطاعهم الساحل . ولذلك فقد غيروا سياستهم تجاه السلطان المصرى ، واتفقوا على الخروج عن طاعته . فساروا إلى داريا ، وهى إحدى القرى التابعة لدمشق ونهبوها . وكاتبوا ركن الدين بيبرس وهو بغزة على رأس بعض القوات المصرية وحثوه على تكوين حلف بينهما ضد الصالح أيوب ، ووعدوه بتزويجه واحدة منهم ، فقال اليهم . وكاتبوا أيضاً الناصر داود صاحب الكرك فوافقهم ونزل اليهم واجتمع بهم (١) . وقد رأى الصالح اسماعيل من خلال تلك الظروف أن من مصلحته الاتصال بالخوارزمية والتحالف معهم لمساعدته فى إعادة دمشق اليه مرة ثانية . فكاتبهم وقدم اليهم واتفقت كلمة الجميع على محاربة الصالح أيوب . ولكن لما علم الأخير بتطورات الأحداث ، أراد أن ينتقم من ركن الدين بيبرس لخيانته ، فاستخدم الحيلة معه لاستدراجه إلى مصر وقام باعتقاله (٢) . وكان الخوارزمية فى ذلك الوقت قد زحفوا ناحية دمشق ، وحاصروها ثلاثة شهور وضيقوا على من فيها . فهلك كثير من الأهالى من الجوع والأوبئة . غير أن السلطان المصرى كان فى ذلك الوقت قد نجح فى استمالة الحلبيين اليه ، وكذلك المنصور ابراهيم صاحب حمص . وتعهدوا اليه جميعاً بمحاربة الخوارزمية وطردهم من البلاد (٣) . وفى أوائل عام ١٢٤٦م - محرم ٦٤٤ هـ وقعت

(١) المصدر السابق ذات الصفحة ، أبو الفدا : المصدر السابق ، ج ٣ ص ١٨٢ ، ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣٢٤ أنظر أيضاً :

Prawer, op. cit., p. 314, Michaud, op. cit., IV, p. 38.

(٢) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٥ ، ٣٥٠ - ٣٥١ ، المقرئى : المصدر السابق ج ١ ، ٢ ، ص ٣٢٢ ، ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، ج ٦ ، ٣٢٤ - ٣٢٥ . أنظر أيضاً Streveson, op. cit. p. 324

(٣) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٥٣ سبطان الجوزى : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٥٠٤ ؛ المقرئى : المصدر السابق ، ج ١ ، ٢ ، ص ٣٢٣ .

المعركة الفاصلة بالقرب من حمص بين الطرفين : الملك المنصور صاحب حمص ، وعسكر حلب من ناحية ، وجموع الخوارزمية والصالح اسماعيل من ناحية أخرى . وانتهت المعركة بهزيمة الصالح اسماعيل هزيمة ساحقة ، فضلاً عن دمار معظم الخوارزمية حتى لم تقم لهم بعد ذلك قائمة . وقتل مقدمهم حسام الدين بركة خان (١) . وتشتت شملهم . فانحاز البعض إلى المغول ، والبعض الآخر استأجر نفسه عند الناصر داود صاحب الكرك . بينما ظل البعض الثالث يخدم كمرتزقة لدى المماليك في مصر (٢) .

وابتهج العالم الاسلامي لما أصاب الخوارزمية من هزيمة ساحقة أدت إلى اختفائهم من مسرح الأحداث كقوة مستقلة بذاتها أخذت تعمل لمصالحها الخاصة ردهاً طويلاً من الزمن على حساب باقي الدول الاسلامية الموجودة في منطقة الشرق الأدنى .

وهكذا بعد أن استعاد الصالح أيوب دمشق اعترف الأيوبيون بالشام بسيادته على مصر والشام وبيت المقدس ، واستعادت الدولة الأيوبية وحدتها وخيم الهدوء على المنطقة ، وضحى السلطان المصري بوسعه أن يوجه جهوده بعد ذلك لمواجهة الفرنج (٣) . الذين كانت أحوالهم في ذلك الوقت تسير من سيء إلى أسوأ ، وأصبحوا في حاجة إلى أن يقوم الغرب الأوربي بعمل ايجابي جديد يساعدهم على البقاء ولو إلى حين. وترتب على ذلك مجيء الحملة الصليبية السابعة إلى الشرق بزعمارة ملك فرنسا لويس التاسع .

(١) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٥٣ ، ٣٥٩ . المقرئ : نفس الجزء والصفحة ؛ ابن تغرى بردى المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣٢٥ ؛ أبو الفدا : المصدر السابق ج ٣ ، ص ١٨٣ راجع أيضاً :

Prawer, op. cit., p. 314, Setton, op. cit., 11, p. 564.

Setton, op. cit., II, p. 674, Lamb, op. cit., p. 282. (٢)

Runciman, op. cit., Loc. cit. (٣)

بيان بالمختصرات الواردة ذكرها في حواشي البحث

R.H.C.-H.Occ. Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Occidentaux.

R.H.C.-Doc. Arm. Recueil des Historiens des Croisades, Documents Armeniens.

Cam. Med. Hist. Chambridge Medieval History.

قائمة المصادر والمراجع الأجنبية

أولا : المصادر

Amadi, F., Chroniques d'Amadi et de Strambadi, ed. Mas Latrie, Paris, 1891.

Chronique de Terre Saint, Les Gestes des Chiprois, ed. R.H.C.- - Doc. Arm., t. II, Paris, 1869, pp. 623-871.

Chronical of Melrose, cf. Church Historians of England, 1857, pp. 77—243.

Eracles, L'Eracles Empereur et la Conquete de la Terre d'Outremer. t. I, Paris, 1859 ed. R.H.C.H. Occ. t. pp. 1—418.

Historia Diplomatica Fridrici Secundi, ed by J.L.A. Huillard-Breholles, t. VI, part I, Paris, 1860.

Hayton, La Flor des Estoires de la Terre d'Orient, ed. R.H.C. Doc. Arm., t. II, Paris, 1869, pp. 71—490.

Joinville' Chronicle, of the Crusade of St. Lewis, translated by Marzials, London, 1957.

Matthew Paris, English History, translated by J.A. Gilles, 2 vols, London 1889.

Michand, J., Bibliotheque des Croisades, 4 vols., Londond 1852.

Rothelin, Continuation de Guillaume de tyr dite du Manuscrit de Rothelin. (1229—1261) ed. R.H.C. -H. Occ., t. II, Paris, 1859, pp. 489—639.

- Besant, W.,** The History of Jerusalem, London, 1883
- Bloch, L.,** Les Relations Diplomatiques des Hohenstaufen avec les Sultans d'Egypte, Cf. Revue Historique, V, 80, 1902 (pp. 451—69.)
- Brundage, J.,** The Crusades, A Documentary Survey, U.S.A., 1976.
- Conder, C.,** The Latin Kingdom of Jerusalem, London 1897.
- Dowling, D.,** Gaza, a city of many Battles, New York, 1913.
- Grousset, R.,** Histoire des Croisades, 3 vols, Paris, 1948.
- Humphrey, S.,** From Saladin to the Mongols, New York, 1977.
- Iorga N.,** Histoire des Croisades, Paris, 1924.
- King, E.,** The Knights Hospitallers in the Holy Land, London, 1931.
- Lamb, H.,** The Crusades, London, 1931.
- LaMonte, L.,** The World of the Middle Ages, New York, 1949.
- Michand, M.,** Histoire des Croisades, VII vols., Paris, 1822.
- Prawer, J.,** Histoire du Royaume Latin de Jerusalem, 2 vols., Paris, 1975 .
 "Military Orders and Crusader Politics in the Second half of XIII century", in Die Geistlichen Ritterorden Europas, ed, Fleckenstein and Manfred Hellmann. (Stuttgart, 1980).
- Richard, J.,** The Latin Kingdom in Jerusalem, Oxford, 1979.
- Riley, Smith.,** The Knights of St. John in Jerusalem and Cyprus (1050—1310), Edinburgh, 1978.
- Runciman, S.,** A History of the Crusades, 3vols., London 1965.
- Setton, K. (ed),** A History of the Crusades, 3Vols, Philadelphia, 1958.
- Smail, R.,** The Crusaders in Syria and the Holy Land, London, 1973.
- Stevenson, W.,** The Crusaders in the East, London, 1907.
- Cambridge Medieval History, 8 Vols.,** London, 1911—1936.

ثانياً : المصادر والمراجع العربية

أولا المصادر :

- ابن الأثير (أبو الحسن أبي الكرم الملقب عز الدين) :
الكامل في التاريخ - ١٢ ج - القاهرة ١٨٨٢ .
- ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن) :
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ٩ ج - القاهرة ١٩٤٢
- مسبط ابن الجوزى (أبو المظفر شمس الدين يوسف)
مرآة الزمان في تاريخ الأعيان - ٨ ج - شيكاغو ١٩٠٧ .
- ابن الوردي (أبو حفص الدين عمر)
تتمة المختصر في أخبار البشر - ٢ ج - القاهرة ١٨٦٨ .
- ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم)
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - الجزء الخامس ، تحقيق
د. حسين محمد ربيع - القاهرة ١٩٧٧ .
- أبوشامة (عبد الرحمن اسماعيل بن عثمان بن شهاب الدين)
تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على
الروضة - تحقيق عزت العطار القاهرة ١٩٤٧ .
- أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين أبو الفدا اسماعيل)
المختصر في أخبار البشر - ٤ ج القاهرة ١٩٠٦
- الأصفهاني (عماد الدين محمد بن محمد بن حامد) :
تاريخ دولة آل - سلجوق - القاهرة ١٩٠٠ .

- القزوينى (زكريا بن محمد بن محمود) :
آثار البلاد وأخبار العباد - جوتنبرج ١٨٦٨ .
- المقريزى (تقى الدين أحمد بن على)
السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزء الأول والثانى إلى ٧٤١ هـ -
نشر وتعليق الدكتور محمد مصطفى زيادة - القاهرة ١٩٥٧ - ١٩٧١ .
- النسوى (محمد بن أحمد بن على) :
سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى - نشر وتعليق حافظ حمدى -
القاهرة ١٩٥٣ .

ثانياً المراجع :

- حافظ حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول - القاهرة ١٩٤٩ .
- معيد عبد الفتاح عاشور (الدكتور)
الحركة الصليبية - ٢ ج - القاهرة ١٩٦٣ .
- محمد مرسى الشيخ (الدكتور) :
الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها - الاسكندرية
١٩٧٤ .

Conclusion :

Le moment est venu de se poser la question : Combien y a-t-il de /kana/ en arabe classique ? La tentation serait grande de postuler l'existence de deux kana différents. Il y aurait ainsi un monème /kana/ copule vide qui n'a aucune valeur de sens en elle-même, qui est simplement le support formel de différentes modalités verbales, ceci au bénéfice du prédicat, et un autre /kana/ qui assume le rôle prédicatif, ce qui rendrait compte des remarques et des exemples que nous avons faites sur l'énoncé nominal en arabe. De plus, ici également, le critère de la détermination jouerait un rôle important. Nous ne retiendrons finalement pas cette analyse parce que cela nous obligerait à poser des /kana/ différents qu'il serait facile d'identifier. Nous pensons qu'il est préférable de considérer qu'il n'y a qu'un seul kana qui peut prendre différentes valeurs selon les conditions de production du discours, selon les types de phrases.

Alors pourquoi kana ? Il nous a semblé que c'était justement cette pluralité des rôles joués par kana, qui lui donne tour à tour la valeur d'une modalité aspectuelle ou encore d'un prédicat.

Au total, on ne peut aborder cette question de l'énoncé nominal en arabe littéraire qu'en évoquant en premier lieu ce qui rapproche les deux énoncés nominaux en arabe littéraire et en russe.(1). Le seul point de ressemblance entre ces énoncés se situe au niveau de la syntaxe. Entendue au sens restreint : ordre dans lequel se succèdent les éléments significatifs de l'énoncé. En russe "on appelle phrase nominale celle qui s'ordonne autour du verbe 'être' (généralement sous-entendu en russe), et phrase verbale celle qui s'ordonne autour d'un verbe d'action. Dans l'une comme dans l'autre, le sujet se met au nominatif et le verbe s'accorde en genre et en nombre avec lui ... au présent, le verbe "être" ne s'exprime pas en russe : ex. OHb KPacHb."(1) Cependant le verbe "être" s'exprime en russe dans l'énoncé nominal au passé et au futur; OHb OLIAb KPacHBb = Il était beau.

(1) Voir page 13.

(2) Lucien TESNIERE, *Petite Grammaire russe*, Paris, Didier, 1934. page 150.

prédicatoïde(1) de / tu/ qui est un indice personnel sujet.

— /ta ? axxartu fittariku hatta ? amsajtu /

(j'ai pris tellement de retard que j'étais encore en route le soir tombe.).

Dans cette phrase/ ? amsajtu / (être le soir) est un prédicatoïde. Son sujet est l'indice personnel /tu/

Il faut dire, enfin, que le monème /kana/ peut se trouver dans un énoncé nominal d'une manière pléonastique/ za ? idatun/. Dans ce cas, ce monème perd toute influence sur les deux constituants fondamentaux de l'énoncé : le sujet et le prédicat. Autrement dit, ce monème dans cette situation ne met pas le sujet au nominatif et le prédicat à l'accusatif. Nous ne pouvons pas passer sous silence cet emploi de /kana/. Et nous croyons que ce monème dans cet emploi joue le rôle de copule. Nous n'avons trouvé cet emploi que dans la poésie pré-islamique. Cet emploi pourrait nous faire savoir qu'au début la langue arabe connaissait la copule. A cet égard, il n'est peut-être pas inutile de citer un exemple de ce genre :

— Dans cet iambe de ? um ?uqil, le monème /kana/ est employé d'une manière pléonastiqu :

/ ? anta-takunu-magidun nabilun/

(tu es glorieux et noble)

/ ? ida tahubbu s am ? alun balilun/

(chaque fois que le vent frais de am ? alu soufflera)

/tu ? ti rigala l hajji ? aw tunilu/

(tu donneras aux gens du quartier.).

(1) "Parmi les éléments déterminants d'une phrase, on trouve souvent des parties d'énoncé qui présentent la même forme qu'une phrase complète, par exemple, *il part demain*, dans *il dit qu'il part demain* : *part* à, dans ce cas, l'apparence d'un prédicat. Mais comme il se rattache à un segment qui est une détermination du prédicat *dit*, nous ne pouvons le considérer comme un prédicat, et nous le désignons comme un prédicatoïde.". Cf. la définition de prédicatoïde d'après A. MARTINET, *G.F.F.*, ouvr. cité, page 17 et 18.

Il nous paraît utile de citer quelques exemples tirés de la littérature arabe : (1)

Ex 1 : / wa lamma kanatel lajlata 1 talijatu / (Phrase usuelle dans les Mille et une nuit).

(Lorsque arriva la seconde nuit).

Ex 2 : Le poète arabe dit :

/ ? in kana ss ita ? u fa ? idfi ? uni fa ? inna ss ajxa jahrimuhu ss ita ? u/ (Quand l'hiver arrive, chauffez-moi car l'hiver décrépît le vieillard) Dans ce vers, nous remarquons que kana/ est le prédicat du sujet / ? a ss ita ? u/ (l'hiver).

Ex 3 : Le poète arabe ? imru ? 1 qajsi dit:

/tatawala lajluki bil ? asmadi wa bata 1 xaliju wa lam tarqudi/ (Ici le poète s'adresse à son aimée, il lui dit : Tu as passé une nuit sombre à (? asmadi), tu n'as pas dormi et tu n'as pas réussi à dormir car tu pensais à ton aimé, tandis que l'homme sans souci d'amour a bien dormi.).

Nous avons bien remarqué dans le vers précédent (que le poète a employé le monème / bata / (passer la nuit) comme prédicat.

Ajoutons aussi qu'en arabe moderne, nous pouvons trouver des énoncés tels ;

— /nimtu hatta ? adhajtu/

(J'ai dormi jusqu'à la matinée.).

Dans l'exemple précédent, / ? adha / (être dans la matinée) est

-
- (1) Les anciens grammairiens arabes ont décidé de choisir leurs citations dans la période située entre l'époque pré-islamique et l'époque abbaside première (150 de l'Hégire), car jusqu'à cette date la langue arabe était, selon eux, pure puisque les arabes n'avaient pas encore commencé à fréquenter d'autres peuples, et par conséquent, leur langue n'avait pas encore subi d'interférences et d'influences étrangères. Les textes auxquels nous ferons référence sont tirés des mêmes oeuvres.

(et si votre débiteur se trouve dans la gêne, attendez qu'il soit en mesure de vous payer.) (1)

Ex : /fa subhana llahi hina tumsuna wa hina tusbinuna / (Coran, sourate XXX " les Romains, verset 17).

(Gloire à Allah quand vous parvenez au soir et que vous vous retrouvez le matin).

Dans cet exemple, nous remarquons que les deux monèmes / ? amsa / (être le soir) et / ? asbaha / (? asbaha / (être le matin), qui sont les soeurs du monème / kana/, jouent le rôle de prédicat et remplir la fonction prédicative. Ils sont aussi compatibles avec l'indice personnel sujet /una/.

Ex : /xalidina fiha ma damati ssamawatu wal ? ardu / (Coran, sourate XI "Houd", verset 107.).

(Ils y demeureront immortels aussi longtemps que dureront les cieux et la terre).

Dans l'exemple précédent, le monème /dama / (demeurer), l'analogue de /kana/ est le prédicat de deux sujets /samawatu / (les cieux) et / ? ardu / (la terre).

Ex 4 : /walladina jabituna lirabbihim suggadan wa qi jaman / (Coran, sourate XXV, "La Loi ", verset 64.).

(Ceux qui passent la nuit devant leur Dieu, prosternés ou debout.).

Nous remarquons que dans cet exemple le monème / bata / (passer la nuit) est le prédicat de l'énoncé; c'est le prédicat du sujet /una/ qui est un indice personnel.

Ex 5 : wa jabqa waghū rabbika du l galali wal ? ikrami / (Coran, sourate LV "Le Miséricordieux", verset 27.).

(La face de ton Seigneur subsiste, plein de majesté et de munificence.).

(1) Toute notre traduction est prise de "Traduction des sens du Saint Coran, traduction faite par D. MASSON, revue par Dr. Sobhi EL-SALEH, dar al-kitab allubnani, Beyrouth.

cation, de toute sorte de modalité, mais qui n'est pas lui-même déterminable.

Si cette étude devait étudier le rôle de / kana / dans l'énoncé nominal en arabe classique, elle devait aussi montrer le rôle de ce monème dans l'énoncé en général en arabe.

Il serait abusif de traiter le monème /kana/ en arabe uniquement comme copule. Il faut aller plus loin : ce monème peut assumer la fonction prédicative.

Selon André MARTINET, le prédicat est un "élément autour duquel les autres gravitent et par rapport auquel sera indiquée la fonction de chaque élément." (1), la fonction prédicative est celle "du segment qu'on ne peut supprimer sans porter atteinte à l'intégrité du message ... le prédicat est l'élément nécessaire à toute phrase sans être obligatoirement suffisant : pour certains idioms, la phrase comportera nécessairement un rapport sujet-prédicat qui n'existera pas ailleurs." (2) MARTINET reprend la définition du prédicat dans la G.F.F. (3) en écrivant : "le centre de l'énoncé est ce qu'on nomme le prédicat. C'est le monème en fonction duquel s'ordonnent les autres monèmes de l'énoncé. Ceux-ci forment des chaînes de déterminations qui aboutissent toutes au prédicat". (4)

L'essentiel dans ces définitions est de montrer que le prédicat est le noyau de l'énoncé. Ces définitions nous paraissent d'un intérêt particulier, car il illustre bien cet emploi de /kana/. Autrement dit, le monème /kana/ répond en tous points à la définition de MARTINET que nous venons de citer. Par souci de clarté nous citons les exemples suivants :

/wa ? in kana du ? usratun fa nazratun ? ila majsaratin/ (Coran, II, 280).
(et si se trouve le besoin attendez à aise ou facilité)

(1) André MARTINET, *Langue et fonction*, Paris, éditions Gonthier, 1969, page, 59.

(2) André MARTINET, (sous la direction de) *La linguistique, Guide alphabétique*, Edition Dénoel, Paris, 1969, page 90.

(3) André MARTINET, (sous la direction de) *Grammaire fonctionnelle du français*, ouvr. cité, page 15.

(4) Ibid, page 15.

? al ragulu jakunu l tabibu/ (l'homme est le toubib) et cela pour une double raison : d'une part cet énoncé est incomplet et ambigu, d'autre part cela est contre la règle qui demande que le prédicat dans l'énoncé nominal bimonématique où il y a /kana/ doit être à l'accusatif.

Quant au monème /kana/ copule, nous proposons notre point de vue qui est le suivant : Si nous examinons le prédicat de l'énoncé bimonématique en arabe, nous trouvons que ce prédicat pourrait être :

- 1° un substantif : (ex : /hada waladun/ (voilà un garçon).
- 2° un actant : (1) / al waladu-Katibun/ (le garçon 'est' écrivain).
- 3° un patient : (2) ex : / ? al waladu maqtulun/ (le garçon 'est' tué).
- 4° un adjectif : Ex : / al waladu nazifun/ (le garçon 'est' propre).

Le substantif, l'actant, le patient et l'adjectif qui ont joué la fonction prédicative dans les énoncés nominaux bimonématiques précédents ne peuvent jamais prendre les marques du passé ou du futur; par conséquent c'est le monème /kana/ qui peut le faire dans ces énoncés. Or, nous pouvons appeler le monème /kana/ ici le support formel d'une détermination aspectuelle, c'est un support, bien entendu, matériel.

En appliquant cette définition à un énoncé nominal tel que : : /kana l waladu mugtahidan/ (le garçon était studieux), on trouve que le monème /kana/ représente ici le point d'incidence de l'accompli et que ce monème implique aussi une studiosité passée durable chez le garçon en question. Nous remarquons aussi que le monème /kana/ n'a pas de sens, on ne peut pas le déterminer, c'est comme le verbe être en français. Quand on dit en français : Olfate était grande, ce n'est pas le sens qui était au passé, mais c'est la grandeur qui est au passé. Donc, à ce moment la "être" en français comme /kana/ en arabe ne sont que le support formel des modalités.(3). En arabe, ce monème /kana/ est le support de l'indi-

- (1) C'est un monème dérivé d'un verbe, qui désigne celui qui joint l'action de ce verbe absent dans l'énoncé. L'actant peut aussi être dérivé d'un verbe dit traditionnellement intransitif.
- (2) Ce monème désigne l'être ou la chose qui subit l'action.
- (3) "Il y a des classes où les monèmes sont toujours déterminants et jamais déterminés. Tels sont les 'articles' et assimilés, le 'pluriel', les 'temps' et les 'modes'...ces monèmes sont désignés comme des modalités. Les classes de modalités présentent un nombre limité d'unités." Cf. la définition des modalités d'après André MARTINET, G.F.F., ouvr. cité, page 11.

Avant de trancher la question de /kana/comme copule, il est utile d'étudier l'énoncé bimonématique nominal en arabe. Prenons cet énoncé : / ? al waladu mugtahidun / (l'enfant est studieux). Nous sommes devant deux éléments un sujet et un prédicat, et nous pouvons analyser toute énonciation par ces deux éléments. Cela pourrait nous pousser à nous demander si nous n'allons pas trop loin lorsque dans l'énoncé précédent nous parlons d'une copule / jakun (est) qui a un signifiant zéro comme c'est le cas dans certains énoncés nominaux en latin. Nous ferons à cette proposition deux objections :

La première est latente dans la création de la copule elle-même. Donc, nous pouvons poser la question suivante : Pourquoi la copule se crée-t-elle dans la langue ? MARTINET nous répond à cette question en nous disant : "la copule se crée précisément parce qu'on a besoin pour elle, de prédicat nominal ou adjectival qu'on va employer après la copule. On a besoin là d'explicitier un certain nombre de modalités de sens de manière ou d'autres. Alors on emploie une copule qui, au départ, peut-être un verbe complet, en s'arrangeant pour accoler à cette copule des éléments permettant de qualifier le prédicat nominal ou adjectival comme on qualifierait le prédicat verbal".(1) Cela n'est pas le cas de notre prédicat dans l'énoncé précédent qui n'a pas besoin d'éléments de ce genre pour le qualifier prédicat et qui a besoin seulement de l'ordre syntaxique sujet-prédicat et d'être indéterminé avec la précaution d'apporter toujours la marque de l'indétermination en arabe. Cela correspond aussi au fait que la langue arabe est foncièrement une langue parlée et que l'intonation jointe à la situation se substitue à la syntaxe beaucoup plus explicite de l'écrit en général. Ajoutons enfin que nous ne pouvons pas considérer cet énoncé comme comportant un verbe sous-entendu, " ce n'apporte aucun éclaircissement sur (sa) syntaxe propre."(2) Il s'agit en effet la davantage d'un problème d'organisation syntaxique que d'utilisation.

La seconde est d'un fait assez curieux : / jakun / ne peut pas commuter avec le pronom personnel copule dans l'énoncé dont le sujet et le prédicat sont déterminés. On ne peut pas dire en arabe cet énoncé/

(1) Ce paragraphe a été rédigé à la suite d'un entretien particulier enregistré que j'ai eu avec André MARTINET le 30 novembre 1981.

(2) Frédéric FRANCOIS, "l'énoncé minimal dans l'enseignement de la langue," ouvr. cité, page 47.

On ne peut pas considérer /kana/ et ses satellites comme mots-outils pour la simple raison que les mots-outils en arabe ne sont pas compatibles(1) avec les substantifs et les pronoms. Ajoutons que /kana/ et ses analogues se conjuguent régulièrement comme n'importe quel verbe en arabe, tandis que les mots-outils ne peuvent pas se conjuguer.

Dire que ce monème est un auxiliaire pourrait être une erreur et nous sommes tout à fait d'accord avec Silvestre de SACY(2) dans les observations qu'elle a faites à cet égard :

1 — On omet ce verbe toutes les fois qu'il y a dans les antécédents quelque chose qui peut remplacer son influence;

2 — Il n'est pas nécessaire que le verbe /kana/ soit à la même personne ni au même nombre que le verbe sur lequel s'exerce son influence; c'est ce qu'on voit dans l'exemple suivant :

/kana qud ? asabaha maradu/ (était déjà atteint elle maladie une).
(une maladie était survenue à elle).

3 — Il arrive souvent que le monème /kana/ placé devant prétérit ou un aoriste ait une destination toute différente et n'influe sur la valeur temporelle des verbes qui le suivent qu'en détruisant ou épuisant sur lui-même l'influence d'une conjonction ou d'un autre mot qui comporte l'idée d'une condition. Ainsi / ? In kataba / signifie (s'il écrit), / ? in kana kataba / (s'il a écrit); /man fa ? ala dalika qutila/ (veut dire (celui qui fera cela sera mis à mort) et /man kana fa ? ala dalika qutila/ (celui qui a fait cela a été mis à mort).

(1) Les monèmes chez Martinet sont caractérisés en priorité par ce que nous appelons leurs compatibilités. Il ne s'agit pas, précisément, de savoir quelles sont les formes qui vont se "combiner" dans l'énoncé. Les monèmes de même compatibilité forment une classe Cf. A. MARTINET, *G.F.F.*, ouvr. cité, page 9.

(2) Silvestre de SACY, *Grammaire arabe*, ouvr. cité, PP 213—214.

Henri FLEISCH, S.J. (1) considère / kana/ et ses analogues come exposant temporel; "dans la description d'un événement passé, il suffit d'un exposant verbal /kana et ses soeurs/ au commencement du récit.

Marcel COHEN, tout en considérant que /kana/ et ses satellites peuvent jouer le rôle d'un verbe de plein exercice, parle d'une copule dans les énoncés nominaux; "le verbe kun peut avoir le sens plein de advenir, avoir lieu) ou le sens moins précis de (exister);il est dit alors (complet) par les grammairiens arabes ... mais souvent le verbe kun est une copule (les grammairiens arabes le considèrent alors comme 'incomplet'). Toutefois, le terme qui suit est à l'accusatif comme un complément de verbe ordinaire, et non au nominatif comme le second terme d'une phrase nominale." (2)

Silvestre de SACY trouve que "le verbe kana (être), et les autres verbes qui ne renferment que la valeur du verbe abstrait incomplet, unie à une circonstance de temps ou de durée, et qui, par conséquent, servent à joindre un sujet à un attribut exprimé indépendamment du verbe, exigent que le sujet soit au nominatif et l'attribut à l'accusatif. Si ces verbes sont employés comme verbes complets, c'est-à-dire comme verbes attributifs renfermant en eux-mêmes l'attribut, ils n'exercent d'influence que sur le sujet qui doit être au nominatif." (3)

On peut resumer les points de vue des grammairiens arabes et des orientalistes comme suit :

- 1° Kana et ses satellites sont des mots-outils;
- 2° Kana et ses analogues sont de vrais verbes;
- 3° Kana et ses soeurs sont des auxiliaires;
- 4° Kana et ses semblables sont des verbes d'existence;
- 5° Ces monèmes sont des copules de transfert.

Reprenons rapidement chacun des termes de cette définition :

(1) Henri FLEISCH, "Etudes sur le verbe arabe", in *Mélanges Louis Massignon*, Damas, II, Page 174.

(2) Marcel COHEN, *Le verbe sémitique et l'expression du temps*, Leroux, Paris, 1924, XXVII, Page 118.

(3) Silvestre de Sacy, *Grammaire arabe*, tome II, Paris, 1829, page 299.

du fait comme dans /zalla waqifan/ (il reste debout), la marque de la transformation / ? asbaha l daqiqu xubzan / (la farine est devenue pain) et la marque de la durée comme dans / ma fati ? a jaf? alu / (il n'a pas cessé de faire). Parmi les représentants de ce courant / ? abdu l rahmani ? ajjub/ dans son étude intitulée / dirasatun naqdijátun fil nahwi l ? arabi/ (Etudes critiques en grammaire arabe).

Un troisième et dernier point de vue est soutenu par le linguiste contemporain / ?iirahim samirra ? i/ qui considère que ces monèmes ne diffèrent en aucun élément d'action des autres verbes arabes. Ces monèmes indiquent à la fois le temps et le procès. Ce linguiste considère aussi qu'on ne peut pas séparer le procès de /kana/ et de ses satellites (1)

Nous passerons maintenant au point de vue des orientalistes et à cet égard, il n'est peut-être pas inutile de signaler que la situation chez eux n'est pas différente de celle des grammairiens arabes.

Régis BLACHERE considère / kana/ et ses analogues comme verbes d'existence. "Ces verbes ne sont pas simplement des copules verbales unissant le sujet à l'attribut. Ils peuvent introduire aussi dans l'énoncé une notion de temps situé, de durée, de devenir. L'attribut qu'ils introduisent, se met au cas direct." (2) Il ajoute aussi que "certains de ces verbes (nus) ou des dénominatifs... indiquent l'existence, la durée à un certain moment du temps connu." (3) Et on peut citer l'un des exemples qu'il donne : / jabituna lirabbihim suggadan/.

(1) Certains grammairiens arabes protestent contre la classification de ces monèmes. Ils la trouvent non homogène et injuste. Ils préfèrent exclure / lajsa/ et /sara/ de cette classification. / lajsa/ qui désigne une modalité de négation et / sara / qui n'intervient pas dans un énoncé nominal, mais qui unit deux éléments qui ne sont pas sujet et prédicat. Dans cet énoncé : sara l daqiqu xubzan/ (la farine est devenu pain), en supprimant / sara/, nous aurons / ? al daqiqu xubz / (la farine pain). Ces grammairiens trouvent aussi d'autres monèmes négligés par les anciens et qui méritent d'aller de pair avec /kana/ et ses analogues comme / gadda/ , wagada / et qa ? ada/.

(2) Régis BLACHERE, *Grammaire de l'arabe classique*, Paris, Maisonneuve, 3ème édition, Page 269.

(3) Ibid, page 269.

Les grammairiens arabes n'ont point imaginé de regarder la forme verbale /kana jaktubu/ (écrivait) comme un temps composé de la réunion de /kana/ et de /jaktubu/. Les uns ont supposé que c'étaient deux verbes indépendants, les autres ont désigné /kana/ dans cet exemple comme un verbe incomplet(1) tout en considérant l'énoncé / hazem kana jaktubu/ comme énoncé nominal puisqu'il commence par un nom.

Nous pouvons résumer cette divergence de vues à propos de ce monème dans l'énoncé arabe en trois points :

Les uns considèrent /kana/ et ses satellites comme mots-outils (adawat). Ils justifient ceci par le fait qu'ils agissent sur les verbes arabes au même titre que les mots-outils qui agissent sur les verbes en arabe. On dit /tareq jaf ? alu/ (Tarek fait), /kana jaf ? alu/ (il faisait), / ? amsa jaf ? alu/ (il faisait au soir), /ajasa jaf ? alu/ (il ne fait pas); /ma fati ? a jaf ? alu/ (il n'a pas cessé de faire), /kad jaf ? alu/ (il fait peut-être) etc., et ceci est semblable à l'action des mots-outils sur les verbes tel est le cas pour / sawfa jaf ? alu/ (il fera), / wa qad jaf ? alu/ (peut-être il fera), /wa ? in jaf ? alu/ (qu'il fait), /wa lam jaf ? alu/ (il n'a pas fait).

Parmi les représentants de ce courant, citons ? ibnu l ? anbari/ dans / ? assaru l ? ara bijati/ (les secrets de la langue arabe) et / ? abbu l ? abbas (mubarak) dans / ? al muqtadab/ (l'abrégement), ? ibn madda ?/ dans son livre intitulé /fil raddi ? ala nuhati/ et /tammam hassan/ dans son livre / ? al lua atu l ? arabijatu, ma ? naha wa mabnaha/ (la langue arabe, structure et sens). Ceux-ci considèrent que / kana/ et ses analogues expriment la notion de temps et n'expriment pas le procès. Autrement dit ces mots-outils expriment le temps isolé du procès.

Selon autre point de vue : tout en estimant comme le premier que /kana/ et ses soeurs expriment la notion de temps isolée du procès, on ne considère pas / kana/ et ses satellites comme des mots outils, mais comme de vrais verbes. De ce point de vue, on considère que ces monèmes expriment à la fois le temps et une marque sauf /kana/ qui n'exprime que le temps. Ces marques sont des éléments lexicaux grammaticalisés tels les marques de l'approche du fait comme dans /kad jaf ? alu/ (il était sur le point de faire), la marque de la continuation

(1) Cf. Mahdi Al maxzumi, *fil nahwi l ? arabi*, (dans 'a grammaire arabe) 1^o édition, Bayrou, Liban, 1964.

L'intervention de /kana/ et de ses analogues dans l'énoncé arabe est une question fort complexe : d'une part en raison de la multiplicité des thèmes que /kana/ englobe, d'autre part à cause de la plurifonctionnalité de ce monème dans l'énoncé arabe. Il n'est pas étonnant donc que les grammairiens arabes et les orientalistes ne soient pas d'accord sur la fonction de ce monème et de ses satellites dans l'énoncé arabe.

Nous exposons maintenant le point de vue des anciens grammairiens arabes à propos de ce sujet. Les grammairiens arabes qualifient /kana/ et ses soeurs de verbes complets ou de verbes incomplets. Ils sont complets (tamatun) quand ils constituent le noyau de l'énoncé :

Ex; /walladdina jabituna li rabbihim suggadan wa qijaman /Coran, XXV, 64).

(et ceux qui passent la nuit devant leur Dieu, prosternés et debout).

Ces monèmes peuvent aussi remplir la fonction des verbes incomplets /naquisah/ou abrogeants (1). Les grammairiens arabes justifient ce fait en considérant que ces abrogeants ne remplissent pas les fonctions du verbe; ils exigent aussi que le sujet de l'énoncé nominal en arabe soit au nominatif et le prédicat à l'accusatif sans qu'il y ait pourtant contradiction avec la règle générale de l'énoncé nominal qui exige que les deux termes (le sujet et le prédicat) de cet énoncé soient au nominatif.

Cette qualification s'est heurtée à l'intervention de kana et de ses analogues dans l'énoncé verbal arabe. Cette intervention était contestable; néanmoins, elle a eu le mérite d'avoir révélé à ces grammairiens de nouveaux problèmes et d'avoir fait surgir de nouveaux points de vue dans l'exemple suivant :

/hazem kana jaktubu/

(Hazem était écrit)

(Hazem écrivait).

- (1) Selon ? ibn hisam dans /qatrul nada/ (une goutte de rosée, Jérusalem, 132 H.), " ? al nawasixu (les abrogeants) sont le pluriel de /nasix/ (abrogeant) qui est en arabe dérivé de /nasxun/ (l'abrogation) dans le sens de disparaître, effacement). On dit: /nasaxatu ss amsu zzilla/ (le soleil a disparu l'ombre). En grammaire arabe, ce monème met le sujet de l'énoncé nominal au nominatif et son prédicat à l'accusatif.

André MARTINET. Cependant, l'enseignement martinetien sur la coordination pourrait nous donner une solution valable. Selon MARTINET, "les rapports entre les monèmes de l'énoncé ne sont pas uniquement de déterminants à noyau. Il y a des cas où deux ou plus de deux monèmes sont dans les mêmes rapports avec le reste de l'énoncé. Dans ce cas, on parle de coordination. Sont coordonnés, par exemple, blanc et bleu dans *blanc et bleu*."(1)

Cette définition de Martinet nous montre bien que les deux éléments / ? al rahmanu/ (le miséricordieux) et / al hakim/ (le sage) dans l'énoncé précédent sont deux prédicats coordonnés d'un même sujet / ? allahu/ (Dieu).

Citons enfin à ce sujet que BLACHERE(2) note à ce propos la juxtaposition des deux prédicats coordonnés par la conjonction de coordination /wa/ en arabe, et il considère ce phénomène comme fait exceptionnel dans la langue arabe, sans nous présenter aucune explication ou argument.

Nous dirons donc que l'énoncé nominal en arabe est celui :

- 1° qui peut être prononcé isolément;
- 2° dont les relations syntaxiques entre le sujet et le prédicat nominal qui le constituent sont marquées;
- 3° qui peut avoir un pronom personnel copule;
- 4° qui ne contient pas de verbe;
- 5° qui peut recevoir des expansions.

Après avoir donné une définition fonctionnelle de l'énoncé nominal en arabe classique, nous allons aborder maintenant le monème /kana/ en arabe.

La grammaire arabe traditionnelle a établi une liste de formants qu'elle a appelée (kana et ses satellites)(3).

(1) Ibid, page 16.

(2) Cf Régis BLACHERE, *Introduction au Coran*, Paris, 1947.

(3) Les grammairiens arabes classent certains monèmes comme :/kana/ (être, exister, advenir), zalla / (rester le jour),/bata / (passer la nuit),/ ? asbaha/ (être le matin, /? adha/ (être dans la matinée),/? amsa/ (être le soir), dama/(demeurer), sara/ (devenir),/mazala/ (ne pas cesser d'être), / lajsa/ (ne pas être),/mabariha/ (n'a pas cessé de),/ma fati ? a/ (n'a pas cessé de faire et /ma? infakka/ (il n'a pas cessé de) sous la rubrique de /kana/ et ses soeurs.

(le garçon est fatigué)
 /xale bi dana sonni/
 (garçon le sera fatigué)
 (le garçon sera fatigué).

Ou par un monème affixe :

Ex : /xale bi diambar (la) /
 (garçon le studieux est)
 (le garçon est studieux).
 /xale bi sonn (a) /
 (garçon le fatigué était')
 (le garçon était fatigué).

Il est opportun de signaler aussi au sujet de l'énoncé nominal en arabe que l'énoncé minimal dont les deux constituants fondamentaux sont déterminés, peut avoir une expansion (ex : / ? allahu huwa l rahmanu l hakim/ (Allah est le miséricordieux, le sage). le mot / ? al hakim/ (le sage) joue dans cet énoncé le rôle de cette expansion : dans l'esprit martinétien, le déterminant est une expansion de noyau. (1) Mais l'explication que donne Mortinet de l'expansion dans les exemples suivants nous invite à rejeter cette considération''; dans *l'enfant*, l'article est le déterminant du noyau *enfant*; dans *petit enfant*, *enfant* est de nouveau le noyau et *petit* le déterminant, dans ... *mange la soupe gloutonnement*, aussi bien *soupe* que *gloutonnement* sont des déterminants du noyau *mange*. Naturellement, *soupe* qui est déterminant par rapport à *mange*, est noyau par rapport à l'article *la*''(2)

Appliqué sur l'exemple précédent de l'énoncé nominal en arabe, ce raisonnement nous indique bien que nous pouvons éliminer le prédicat / ? al rahmanu/ (le miséricordieux) et former un autre noyau de son sujet / huwa/ (lui) et de l'autre élément / ? al hakim/ (le sage); or ce dernier ne peut être jamais une expansion de ce genre décrit par

(1) André MARTINET, *G.F.F.*, ouvr. cité, page 10.

(2) André MARTINET, *G.F.F.*, ouvr. cité page 10.

de savoir quelle est l'attitude de la langue arabe classique devant un sujet déterminé et un prédicat déterminé ?

Pour répondre à cette question, il est utile de signaler que la langue arabe classique recourt à un pronom personnel séparé qui s'accorde en genre et en nombre avec le sujet et que l'insertion de ce pronom est utile pour indiquer que le mot le précède est le sujet et que le mot qui le suit est le prédicat :

Ex : / ? al ragulu (1)huwa 1 haximu/

(le homme lui le sage).

(l'homme il est le sage).

Dans ce cas, on peut parler, en arabe classique, d'un pronom personnel copule dans l'énoncé nominal : cela nous rappelle le cas de la langue swahili, mais avec une différence, en swahili "le verbe être se greffe sur un pronom personnel, pronom subjectif, c'est le pronom qui devient verbe, sans perdre pour cela sa fonction de pronom sujet"(2) SACLEUX, ici, nous semble prendre une attitude philosophique qui impliquerait un arche-type de phrase que l'observation de différentes langues ne confirment pas. Cette langue ne connaît pas le verbe être, mais il voudrait le (sous-entendre). La linguistique est une science d'observation et non de conjecture.

La langue Wolof(3) connaît aussi la copule dans l'énoncé nominal. Cette copule peut être manifestée et présentée dans cet énoncé par un monème séparé :

Ex : /xale bi dafa sonne/

(garçon le est fatigué)

(1) Nous utilisons ici l'articulation dure du / g/ primitif. Le passage de /g/à/j/n'était pas panarabe. A ce sujet cf. André MARTINET, la palatalisation "spontanée" de g en arabe, in *BSL*, LIV, Paris, 1959, fasc. I, PP. 90—102.

(2) Ch; SACLEUX, le verbe être dans les langues bantoues, in *M.S.L.*, ouvr. cité, P. 153.

(3) C'est une langue parlée et écrite au Sénégal.

russe a recours au procédé de l'ordre (ex : dom novyi " la maison 'est' neuve "; novyi dom " la maison neuve "), la lange arabe substitue à cette procedure une autre syntaxe : le prédicat doit être souvent indéterminé par opposition au sujet qui doit être essentiellement déterminé pour éviter toute ambiguïté. Dans l'exemple suivant : "waladu mugtahidun" (un garçon studieux). *Un garçon studieux* nous paraît un peu étrange. Il faut préciser de façon concrete en quel domaine et en quel temps. Il faut que le mot "mugtahidun" soit caractérisé en situation. L'introduction de l'article défini / ? al / (le) à / Walad / efface toute ambiguïté et implique un énoncé syntaxique acceptable en arabe.

Nous remarquons aussi qu'en français, les énoncés nominaux bimonématiques ne sont prononcés qu'en situation, " c'est-à-dire plus précisément qu'ils impliquent nécessairement la référence à une situation extra-linguistique comme dans *voilà un chien*, alors que les énoncés hors situation ne manifestent pas dans leur forme linguistique cette nécessité ... On considérera enfin l'existence d'un certain nombre d'énoncés nominaux bimonématiques, composés d'un nom précédé de *voici, c'est, il y a*. On remarquera que même si dans *il y a* et dans *c'est* le verbe est reconnaissable à ses modalités *il y avait, c'était*, etc., en revanche, du point de vue fonctionnel, il n'est pas centre d'énoncé (prédicat). D'une part, parce que c'est le segment nominal qui reçoit le plus grand nombre d'expansion; d'autre part, parce que *voici* ou *il y a* ne sont pas les conditions nécessaires de l'indication de la fonction du nom qui suit: celle-ci est la même dans *un chien* et *voilà un chien* : ".(1)

Si l'on se tourne maintenant vers l'énoncé nominal bimonématique arabe: ? al waladu mugtahidun/ le garçon "est" studieux), nous remarquons que l'ordre des termes et l'article défini/ ? al / (le) jouent un rôle syntaxique capital. C'est dire que l'énoncé nominal minimal en arabe n'a pas besoin d'un verbe copule comme signe de prédication ou d'énonciation.

La question qui se pose maintenant et qui est très importante est

(1) Frédéric FRANCOIS, l'énoncé minimal dans l'enseignement du français, in *Théories linguistiques et enseignement*, ouvr. cité, PP 47—48.

Il est utile de signaler aussi qu' "il existe des langues qui ne présentent pas deux catégories grammaticales bien distinctes, verbes d'une part, et substantifs de l'autre, c'est-à-dire que les mêmes unités peuvent servir tantôt de prédicats, tantôt de substantifs, suivant l'énoncé dans lequel ils apparaissent. La frontière entre verbe et nom n'est pas toujours absolument tranchée en arabe. Le verbe ne peut en aucune manière être confondu avec les substantifs. Le verbe est chargé de l'expression de la personne, des temps, des modes de la voix. Le nom assume le nombre, le défini, l'indéfini, le possessif, comme dans la plupart des langues où l'opposition verbo-nominale existe." (1)

Cette idée que toute langue connaît la relation sujet-prédicat présente un problème. Ce problème est celui de la relation entre les fonctions des termes qui composent cet énoncé nominal minimal en arabe. "Comme, dans ce cas, sujet ne va pas sans prédicat, ni prédicat sans sujet, on ne peut pas dire que l'un quelconque soit le déterminant de l'autre. Les deux membres du syntagme sont solidaires. Le rapport est d'un type particulier que Jespersen appelle *nexus*. (2). Dans plus d'un sens, il y a certes priorité du sujet, priorité syntaxique fréquente, et aussi priorité sémantique puisque le sujet est présenté et conçu comme préexistant à l'action." (3)

Ainsi, dans l'étude de l'énoncé nominal en arabe, on se demandera si dans cet énoncé, le sujet doit être considéré comme un complément de prédicat ou s'ils doivent être considérés comme un ensemble de termes sans relation hiérarchique entre eux. On notera que, bien entendu, le sujet dans l'énoncé nominal en arabe est obligatoire. Il a certaines expansions différentes de celles du prédicat.

Ce qui caractérise donc mieux l'énoncé nominal en arabe, c'est l'indication des relations syntaxiques. Si, pour dégager le prédicat, le

(1) Claude TCHEKHOLFF, *Recherches sur la syntaxe de l'énoncé en construction ergative*, Université René Descartes, U.E.R. de linguistique générale et appliquée, Paris, 1975, page 20.

(2) On appelle *nexus* l'ensemble indissoluble de deux termes cependant différents, irréductible à la relation déterminent-déterminé.

(3) André MARTINENT, La construction ergative et les structures élémentaires de l'énoncé, in *Journal de psychologie normale et pathologie* Paris, juillet et septembre 1958, page 379.

le monème en fonction duquel s'ordonnent les autres monèmes de l'énoncé. Ceux-ci forment des chaînes de déterminations qui aboutissent toutes au prédicat."(1)

Encore faut-il préciser ce qu'on entend par "prédicat". C'est un élément nécessaire; "ce n'est pas en effet un terme univoque : ainsi les éléments qui manquent dans les énoncés suivants pour qu'ils constituent des 'énoncés normaux' n'y manquent pas de la même façon : pomme, tombe, la pomme rouge, pomme rouge tombe : *pomme* isolé n'a pas de fonction assignable, *la pomme rouge* manque également de ce qu'il faut pour indiquer syntaxiquement la relation entre les termes, même si le sémantisme n'en est pas ambigu. De même tombe, quoiqu'il ne puisse jouer qu'une seule fonction, la fonction prédicative, c'est-à-dire d'être l'unité par rapport à laquelle toutes les autres fonctions syntaxiques sont indiquées, ne peut constituer à lui seul un énoncé, alors que la fonction de tous les termes de *pomme rouge tombe* est indiquée et que l'absence d'un terme 'nécessaire' *la* n'y change rien"(2)

Or, nous pouvons considérer que l'énoncé verbal en arabe est celui qui contient un verbe. Ce verbe Précède ou non le sujet.

Nous définirons l'énoncé minimal en arabe par la présence des termes syntaxiquement nécessaires à la mise en relation des éléments de cet énoncé nominal minimal lui-même, ainsi que des expansions(3) qu'ils peuvent recevoir, comme / ? al / et / mugtahidun / dans (/ ? al walaḍu ? al mugtahidu mu ? addabun/ "le garçon studieux 'est' poli"). Ainsi, l'énoncé nominal minimal en arabe est un énoncé sans verbe, ou énoncé attributif qui met en rapport un sujet (mubtada ? bihi) et un prédicat (xabar).

(1) André MARTINET, (sous la direction de), *Grammaire fonctionnelle du français*, Didier, 1979, Paris, page 11.

(2) Frédéric FRANCOIS, "l'énoncé minimal dans l'enseignement du français", in *De la théorie linguistique à l'enseignement de la langue*, P.U.F., Paris, 1972, page 43.

(3) "On peut exprimer le rapport entre un élément, le noyau, conditionnant l'apparition d'un autre, le déterminant, en disant que le déterminant est une expansions". Cf MARTINET, *G.F.F.*, ouv. cité, page 10.

Comme point de départ et comme premier principe fondamental, les grammairiens arabes ont pris en considérations le type le plus simple de l'énoncé, que celui-ci soit verbal ou nominal

De ce fait, les anciens grammairiens arabes distinguent soigneusement l'énoncé verbal de l'énoncé nominal. Chez eux, l'énoncé nominal minimum est un énoncé dont le sujet (qui doit être un nom) est ordinairement le premier. Ils l'ont appelé / ? al mubtada ? bihi / (celui par qui on commence l'énoncé). Le prédicat est / ? al xabar /. Ce dernier peut être un substantif (ex : / ? al waladu mugtahidun/ (le garçon "est" studieux.), ou un verbe (ex : / ? al waladu jaktubu/ (le garçon écrit). L'énoncé verbal doit être commencé par un verbe (ex : /jaktubu l waladu/ "écrit le garçon").

Ainsi "les grammairiens arabes ont donc tout centré, pour la phrase nominale, autour du mubtada ? pour la phrase verbale autour du fig ? l. Ils n'ont pas fait l'unité au dessus de cette dualité." (1)

Cependant les phrases en arabe dans le langage courant ne s'appliquent presque jamais à ce principe, et diffèrent presque régulièrement de ce type primitif. Toutefois nous ne voyons pas encore l'intérêt d'adopter ce principe pour l'arabe. Une telle démarche est une question qui reste à débattre. Les raisons avec lesquelles les anciens grammairiens arabes expliquent ce principe sont, en général, métaphysique ou juridique. "Les grammairiens arabes dans leur totalité croient que la langue est un miroir fidèle des choses, des phénomènes et des idées qu'elle exprime. Aussi faut-il y trouver les mêmes lois que dans la pensée, la nature et la vie. En d'autres termes, les lois du langage et celles de la logique, et nous entendons la logique formelle, doivent être identiques. Dans cette confusion entre le langage et la logique réside, en grande partie, les principaux défauts de la grammaire arabe." (2)

La définition de l'énoncé nominal faite par les anciens grammairiens arabes est réfutée par nous pour une simple raison : la seule prise en considération est le prédicat qui est le centre de tout énoncé. "c'est

(1) Henri FLEISCH, s.J., Etudes sur le verbe arabe, in *Mélanges Louis Massignon*, II, Damas, 1957, page 154.

(2) Ibn Mada ?, "La refutation des grammairiens", Traduction et introduction par Mohamed EL KASSAS, thèse complémentaire de doctorat, Paris, page 19.

et en renforçant par l'accent d'intensité l'accent de hauteur dans l'attribut.(1)

Il est intéressant aussi de signaler que le procédé de l'accent copule est commun à toutes les langues bantoues.

D'autres fois, le verbe "être", dans plusieurs langues bantoues, se greffe sur un pronom personnel (pronom subjectif). Dans ce cas, c'est le pronom qui devient verbe, sans perdre pour cela sa fonction de pronom sujet.

En Swahili, l'énoncé suivant "muti u mkulu" peut avoir la traduction suivante :

"(l') arbre, il (est) grand."

Dans le procédé précédent, le pronom en fonction de verbe change sa morphologie selon le genre et le nombre du sujet.(2)

Cela dit, nous estimons intéressant de passer à la phrase nominale en arabe classique.

Avant d'entrer dans l'exposé propre du sujet, il est utile de faire connaître les idées des grammairiens arabes sur la constitution de la phrase.

Avant d'aborder l'analyse de cette phrase, il sera opportun de signaler qu'en général, la phrase chamito-sémitique et qu'en particulier la phrase en arabe classique sont composées de mots nettement séparés, en général pourvus d'un accent distinct, dont les principaux sont des verbes ou des monèmes.(3).

Dans l'énoncé en arabe classique, chaque monème "reçoit toutes les caractéristiques nécessaires soit pour indiquer les modifications secondaires de la notion principale qu'il exprime, soit pour marquer son rôle dans la phrase; il est indépendant de l'aspect phonétique de ses voisins"(4)

(1) Ch. SACLEUX, *le verbe "être" dans les langues bantoues*, ouv. cité, page 153.

(2) *Ibid*, page 154.

(3) Le monème pour André MARTINET est une unité de la première articulation douée d'une forme et d'un sens.

(4) Antoine MEILLET et Marcel COHEN, *Les langues du monde*, Paris, 1924, Page 84.

Il est opportun à cet égard de signaler que l'importance du rôle de verbe être dans la phrase nominale en indo-européen a poussé certains linguistes, comme Hjemselev, à conclure qu'une phrase nominale en latin contient une sorte de signifiant zéro du verbe être : "uox populi uox dei" cet énoncé comprend une caractéristique verbale. Selon Hjemselev, on peut y trouver trois éléments implicites : infectum, présent et indicatif.

La différence entre cet énoncé et un autre tel que : "uox populi est uox dei" est l'emphase ou la mise en relief. C'est ce que nous ne pouvons pas accepter : la première est une phrase nominale et la seconde est une phrase verbale, c'est ce qui a signalé Emile BENVENISTE dans son étude sur la phrase nominale.(1)

Ch. SACLEUX a montré (dans un travail de 1909) (2), que dans les langues bantoues le verbe être dans l'énoncé nominal a comme signifiant l'accent.(3) . Il nous a indiqué aussi que le verbe être, au présent de l'indicatif est très souvent sous-entendu devant l'attribut. Quand un Swahili dit : "simba mui" (lion mauvais), il prononce : "simba mauvais) sans autre fluctuation dans la voix que l'accent normal de hauteur sur l'avant-dernière syllabe "mu" de l'attribut "mui" (mauvais). Mais si on lui demande de traduire (le lion est mauvais), sans rendre le verbe par un mot spécial, il prononcera : "simba/muni" (lion'est mauvais), en faisant une légère pause (/) après l'énoncé du sujet "simba"

(1) Emile BENVENISTE, *Problèmes de linguistique générale*, Paris, Gallimard, t. 1, 1966.

(2) Ch. SACLEUX, Le verbe "être" dans les langues bantoues, in *M.S.L.*, tome XV, fasc. III, Paris 1908—1909.

(3) De nombreuses langues dans le monde connaissent un accent distinctif. Cette quantité distinctive, nous l'appelons quantité ou durée linguistique ou distinctive. Dans certaines langues bantoues, les variations de la place de l'accent dans le monème sont grandes et jouent un rôle morphologique dans le système. Les langues qui se servent de distinctions mélodiques pour caractériser un monème par rapport à un autre s'appellent langues à ton. Dans ces langues, un monème est caractérisé par son ton de la même manière que les phonèmes qui le composent.

La phrase nominale en indo-européen contient donc essentiellement deux termes, qu'on appelle sujet et prédicat. Ce prédicat peut être nominal ou verbal (participe) :

"maria est uxor mea". (Marie est mon épouse).

"resultatum est persuasivus" (le résultat est persuasif).

Le prédicat peut être représenté par un adverbe :

"Puella est bene". (cette jeune fille est bien).

Dans la phrase latine à verbe "être", considérée comme composée de trois termes : sujet, attribut, copule, la place de l'élément verbal est fonction de l'attribut, non du sujet.

"Ainsi, dans plusieurs énoncés successifs, on voit la position du sujet varier, alors que celle de l'attribut reste constante :

Aedes nobis area est, auceps sum ego.

Esca est meretrix, lectus inlex est; amatores aues."(1)

Ajoutons aussi que la phrase nominale pure en latin n'a rien qui la distingue grammaticalement du groupe substantif-épithète. "Elle s'en distingue logiquement en ce que l'épithète énonce une qualité dont l'attribution est présupposée, tandis que la phrase nominale a pour objet de faire connaître cette attribution. Dans un cas, le rapport attributif est présenté sous forme de proposition principale : domnus magna = la maison est grande; dans l'autre, avec le sens d'une subordonnée : magna domnus = la maison qui est grande. A cette différence logique correspond une différence de traitement réelle : dans le premier cas, l'attribut suit normalement le substantif, dans le second cas il précède normalement le substantif."(2).

"La langue a procédé de bonne heure à l'inversion de l'attribut, pour mieux distinguer ce terme du simple qualificatif."(3)

(1) J. MAROUZEAU, *L'ordre des mots dans la phrase latine*, Paris, 1938, Page 110.

(2) J. MAROUZEAU, *La Phrase à verbe "être" en latin*, thèse pour le doctorat ès lettres présentée à la faculté des lettres de Paris, Paris, 1910, page 24.

(3) A. Bergaigne, *Essai sur la construction grammaticale*, M. S.L., III, 1904, page 138.

On infère de là que le verbe être en indo-européen peut jouer deux rôles distincts et différents : verbe d'existence (ex : Dieu est = Dieu existe) et verbe copule (ex : Tarek est gentil ; Hazem est à l'école). C'est le verbe copule qui nous intéresse et qui va être le centre de cette étude.

Tout en considérant que la copule, dans les énoncés nominaux en indo-européen, n'a aucun sens propre, que son intervention n'est que pour introduire le prédicat, sens de "lien" entre le sujet et le prédicat, qu'elle est un élément accessoire et que "l'on conçoit qu'elle ne soit pas exprimée quand le lien du sujet et du prédicat est assez net sans elle." (1), nous ne pouvons pas nier le rôle capital de cette copule et la nécessité de sa présence dans des énoncés du genre suivant :

Si nous disons, par exemple, "cet homme bon", la question qui doit être posée est la suivante : cet homme bon en quoi ? il y aurait une ambiguïté. Pour dissiper cette ambiguïté, nous sommes obligés de faire intervenir le verbe être. Il y a dans ce cas-là un transfert. Donc, la présence de la copule est essentielle pour la prédication, on ne peut jamais négliger sa présence, c'est ce qui a indiqué J. Marouzeau dans sa thèse sur la phrase à verbe être en latin(2).

Après avoir étudié le rôle du verbe être dans les phrases nominales latines avec être, J. Marouzeau les a comparées avec les phrases nominales sans être et il a conclu que "même quand il n'y a pas lieu d'insister sur la notion temporelle modale ou personnelle, il s'en faut encore que la copule soit toujours dénuée de toute signification. Les rares exemples qu'on peut relever en latin de phrases nominales pures ne suffisaient pas à faire apparaître la copule comme inutile à l'énoncé du rapport attributif. C'était en somme l'addition de la copule qui faisait du groupe substantif-épiphrase, simple notation d'un rapport, une phrase attributive, notification d'un rapport. La copule était donc destinée à apparaître comme le signe de l'énonciation".(3)

(1) A. MEILLET, *Introduction à l'étude comparative des langues indo-européennes*, cinquième édition, Paris, 1922, page 322.

(2) J. MAROUZEAU, *La phrase à verbe "être" en latin*, Paris, 1910, page 43.

(3) Ibid, page 43.

ins la marque du temps et du mode du prédicat. La copule manifeste le passé, le futur, le conditionnel, etc. (Hazem est heureux, était heureux, sera heureux, serait heureux, etc.).

Plusieurs langues ont deux types distincts d'énoncés : énoncé verbal dont le prédicat est un verbe et énoncé nominal dont le prédicat est un nom.

En traitant toujours l'énoncé nominal en indo-européen nous ne pourrions délibérément laisser hors question le verbe "être" pour les trois raisons suivantes :

La première est que "le verbe être a au moins au thème du présent, une forme commune à toutes les langues indo-européennes." (1) La deuxième est que quand, en 1906 Meillet a publié son article sur la phrase nominale en indo-européen, il a prouvé, contrairement à ce qui a signalé M. Delbrück dans sa *Vergleichende syntax*, III, P. 117, que le type de phrases nominales avec le verbe "être" était d'origine indo-européenne. En effet, toutes les langues connues seulement à l'époque chrétienne, et aussi l'italique, connu à une date plus ancienne mais prématurément altéré, ont en règle générale, une phrase nominale à verbe "être" le, russe moderne faisant exception avec le letto-lituanien; mais les deux groupes de dialectes qui sont connus à la date la plus ancienne et qui ont conservé le plus de traces authentiques du type indo-européen, à savoir l'indo-iranien et le grec, admettent comme également normales la présence et l'absence du verbe être." (2)

La troisième et dernière raison est que "le verbe être semble réaliser, plus nettement que n'importe quel autre verbe, et pour ainsi dire à l'état nu, ce qui est la fonction essentielle du verbe dans la phrase: la prédication dans le sens large. verbe d'existence, le verbe être se fait aussi copule et constitue ce qui semble être le centre de la phrase dite nominale (*pater bonus est*). " (3)

(1) A. MEILLET, *La Phrase nominale en indo-européen*, (M.S.L., XIV, 1960, Page 1.

(2) Ibid, page 2.

(3) L. Hjelmslev, *Le verbe et la phrase nominale*, in *Essais linguistiques*, Paris, 1971, page 174.

lui attribuer un sens, tandis que le sens est dans le reste de l'énoncé, dans le voisinage.

Or nous pouvons dire que la copule peut être le support formel d'une détermination aspectuelle, support matériel, temporel, mais aussi aspectuel. La copule n'est pas elle même déterminable. La copule ne représente pas le point d'incidence d'une détermination parce que quand on dit : "il était grand", le point d'incidence n'est pas la copule, autrement dit le point d'incidence de l'imparfait, n'est pas la copule, ce qui est impliqué, c'est une grandeur passée durable chez l'individu en question(1).

A. MARTINET reprend la définition de la copule dans une de ses conférences à l'E.P.H.E. en disant : " la copule ne correspond pas à une information axiologique(2). La copule n'importe rien en elle-même, elle est simplement le support formel qui permet l'expression d'un certain nombre de modalités (3) qu'on appelle en général des modalités verbales parce qu'elles se rattachent normalement sur le plan formel à un verbe mais qui sont des modalités qui valent aussi bien pour une proposition nominale.

Après les définitions d'André MARTINET, nous pouvons arriver à ces conclusions :

1. La copule est un élément qui n'a pas de "signifié";
2. Sa fonction est d'indiquer que l'attribut est le prédicat;
3. Etant copule, elle perd sa fonction de verbe;
4. Bien que la copule ait perdu sa fonction de verbe, elle porte néamo-

(1) Ce paragraphe a été rédigé à la suite d'un entretien particulier enregistré que j'ai eu avec André MARTINET le 8 décembre 1981 à l'Ecole Pratique des Hautes Etudes à Paris.

(2) L'axiologie étudie la valeur, au sens saussurien du terme, des monèmes dans une langue donnée. Cf André MARTINET, Sémantique et axiologie, *Revue Romaine de linguistique*. XX (1975, n° 5 (hommage à Alexandre Rasetti), page 540 et cf. André MARTINET, (sous la direction de) Grammaire fonctionnelle du français, Didier, 1979, page 21.

(3) Cf *ibid*, page 11.

ils peuvent être déterminés indépendamment de la détermination de prédicat adjectival ou nominal.

Prenons le verbe *sembler*, on peut se demander si la semblance est précise ou vague. Nous savons que la précision ajoutée à *sembler* n'est pas fréquente mais il est possible d'avoir le cas contraire. C'est cela qui est décisif. Or nous croyons que c'est une erreur d'employer le mot copule pour *sembler*, *paraître*, etc. Nous pouvons estimer que dans cette semblance, "*clairement*" peut s'appliquer à "*sembler*" comme dans cet énoncé : "*il semble clairement tout à fait imbécile*". Ce cas n'est pas fréquent dans la langue, mais on peut admettre cet exemple. Le point d'incidence de "*clairement*" est "*sembler*" tandis que le point d'incidence de "*tout à fait*" est le prédicat.(1)

Disons simplement que *sembler*, *paraître*, etc. sont des verbes, des monèmes puisqu'ils sont des déterminables. La détermination qu'on ne peut appliquer à "*être*" s'applique aux prédicats. Quand nous disons : "*il est joliment idiot*", l'adverbe "*joliment*" ne s'applique pas à "*être*", ce n'est pas un sens supposé de la copule. Quand nous disons saussurien : "*il est vraiment imbécile*", cet énoncé est l'équivalent prédicat de l'épithète : "*vrai imbécile*". Si nous disons "*j'étais longtemps content*" cela veut dire que le mot "*contentement*" dure longtemps. C'est la même situation, quand nous employons l'adverbe "*auparavant*" avec un verbe passé.

Dans l'énoncé : "*il se trouve bien dans le jardin*", il va sans dire que "*se trouve*" est déterminable par "*bien*", tandis que dans l'énoncé "*il est bien dans le jardin*", avec la copule nous avons une détermination qui effectivement portant sur la réalité du fait de la présence de l'individu dans le jardin, et le point d'incidence, ce n'est pas peut-être "*jardin*" lui-même, c'est peut-être à ce moment là, si nous voulons, l'ensemble "*lui dans le jardin*"; mais si nous disons : "*il est bien dans le jardin*", le prédicat est "*bien*" et à ce moment là "*dans le jardin*" est une détermination de prédicat. Dans un cas de ce genre là il y a toujours une possibilité de marquer, de trouver un point d'incidence.

Cependant le problème ou le drame, si nous pouvons utiliser ce mot, est que comme nous avons un verbe, nous voulons nécessairement

(1) Ce paragraphe a été rédigé à la suite d'un entretien particulier enregistré que j'ai eu avec André MARTINET le 30 novembre 1981.

de conjonction copulative, dans le cas de et, par exemple par opposition à la disjonction qui sépare. On voit que l'on se place ici sur le terrain du contenu, non sur le terrain de la forme : il viendra et il parlera (et = copule); il viendra ou il restera chez lui (ou = disjonction). Ou bien on emploiera le terme copule pour un *verbe* comme "être" qui introduit l'attribut, (au sens de "lien" entre le sujet et l'attribut) : il (sujet) est (copule) blond (attribut). En ce sens, le mot copule est proche de son emploi en *logique*, où l'on distingue dans une proposition : le sujet l'attribut et la copule qui sert de liaison entre les deux."

Le dictionnaire de Jean Dubois "*dictionnaire de linguistique*, librairie Larousse, Paris, 1973" "définit aussi le mot copule :, le verbe être est appelé copule quand, dans une phrase de base, il constitue avec un attribut (adjectif, syntagme nominal ou syntagme prépositionnel) le prédicat d'un syntagme nominal sujet. La copule sert à énoncer les propriétés qui définissent le sujet dans des phrases prédicatives."

"*Le dictionnaire de la linguistique*, sous la direction de Georges MOUNIN, P.U.F., Paris, 1974", nous donne la définition suivante : "Se dit en général d'un terme de liaison et, spécifiquement, du verbe être qui lie le sujet à l'attribut : l'air est pur. Selon une définition plus précise de Martinet : "Elément de contenu sémantique nul qui indique le caractère prédicatif du substantif ou de l'adjectif suivant et auquel, matériellement, s'agglutinent les déterminations temporelles et modales de ce prédicat. Martinet distingue aussi des copules vides (verbe être) et des copules sémantiquement pleines sembler; paraître, etc.), susceptibles de recevoir des déterminations (sémantiques) autres que celles du prédicat substantival ou adjectival suivant."

L'essentiel dans ces définitions précitées est de montrer que la copule unit deux éléments tout en indiquant que le second est un prédicat.

Cependant il est intéressant de signaler que la distinction entre copule vide et copule sémantiquement pleine, citée par le *Dictionnaire de la linguistique* de Georges MOUNIN, n'est pas claire.

Nous avons en français des verbes qui ont un sens comme "sembler, paraître, etc." qui vont se construire comme la copule "être" c'est-à-dire, ces verbes peuvent avoir les mêmes compatibilités que la copule. Or ces verbes ont un sens ou la possibilité de leur donner un sens, donc,

y a nécessité de favoriser la connaissance et la recherche dans toutes les disciplines utiles au développement de notre pays.

Conscient et persuadé de l'utilité, de développer une recherche opératoire en linguistique pour vivifier et adapter la langue arabe aux exigences scientifiques modernes, notre travail tente de s'inscrire dans la ligne de cet effort.

Nous sommes d'autant plus encouragé à approfondir notre étude que la voie dans laquelle elle se place a déjà été ouverte par notre professeur André MARTINET. Dans la préface qu'il rédigea pour présenter les travaux sur la langue arabe de linguistes tunisiens dans Cahiers du C.E.R.E.S., 1969, nous avons retenu, notamment, les considérations ci-après avec lesquelles nous sentons en pleine harmonie." c'est pour donner des usages arabes contemporains une présentation scientifique c'est-à-dire un tableau qui ne soit gauchi par aucun préjugé, aucune prévention, aucun désir de masquer la diversité réelle au nom du principe de l'unité de la langue."(1)

Oui ! c'est bien là un objectif, certes, ambitieux, mais absolument indispensable au progrès de la société arabe.

En matière de langage comme en nutrition, il n'y a pas de miracle. Tout ne peut être assimilé à n'importe quel moment. En vue d'obtenir un maximum d'efficacité pédagogique, il convient surtout d'agir sur l'usage spontané du langage, en canalisant ses motivations affectives sans lesquels aucun enracinement durable des acquisitions n'est possible. La linguistique doit donc se fonder sur la discipline qu'impose l'observation, l'analyse et la description d'une langue.

Fidèle à la pensée fonctionnelle, la présente étude est une application de l'enseignement d'André MARTINET à la syntaxe fonctionnelle.

Le dictionnaire "*Le Langage*", réalisé sous la direction de Bernard POTTIER (bibliothèque du CEPL, Lille, 1973) définit ainsi le mot copule: "Au sens large, le mot copule désigne les termes qui servent à lier. On pourra donc distinguer deux emplois fondamentaux : ou bien on parlera

-
- (1) Taïeb BACCOUCHE et autres; *Travaux de phonologie*, Cahiers du Centre d'Etudes et de Recherches Economiques et Sociales, Série linguistique, Tunis, 1969, page 14.

LE CONCEPT DE LA COPULE EN INDO-EUROPÉEN ET EN ARABE LITTÉRAIRE

Par

AHMED MOHAMED HAMED FAHMI

Docteur d'Etat ès lettres

L'objectif essentiel de cette étude contrastive est, d'une part, d'étudier le rôle du verbe copule dans l'énoncé;(1) pour ne pas nous noyer dans les détails, nous nous sommes borné à limiter cette étude à la copule en indo-européen et en langue arabe littéraire. D'autre part, nous voulons étudier en détail en arabe classique le monème "kana" considéré par certains linguistes uniquement comme verbe copule, ce qui ne nous paraît pas justifié.

Au cours des dernières décennies, l'Egypte a connu un développement rapide et étendu. Elle a entrepris une expérience d'avant garde touchant à tous les domaines de l'activité sociale, économique et culturelle.

Nonobstant des efforts considérables dans de nombreux secteurs, l'Egypte, dans le domaine de la linguistique, n'a pas pu se libérer des servitudes et contraintes attachées à la philologie arabe dont le contenu philosophique est demeuré relativement stable depuis le huitième et neuvième siècle de notre ère, époque où les anciens philologues, les grammairiens et les puristes arabes ont fixé, une fois pour toutes, les règles intangibles des anciens parlers bédouins.

Cependant, il apparaît de plus en plus nécessaire pour l'Egypte de disposer de spécialistes en linguistique générale au même titre qu'il

-
- (1) André MARTINET définit ainsi l'énoncé, dans *la linguistique, guide alphabétique*, Edition Dénol, Paris, 1969, P. 18, "Tout énoncé comporte un noyau autour duquel s'organisent les éléments dont les fonctions sont indiquées par différents procédés qui ne sont pas exploités de la même façon dans toutes les langues mais qui peuvent être réduite, en linguistique générale, de la nature même du langage."

- FARRASSE, Gerard — "Héliographie". in *Revue des sciences humaines*. Juillet — Septembre 1973.
- GIORDAN, Claudine — Ponge et la nomination. in *Poétique* No. 28, 1976. P. 484—495.
- JEAN, Raymond — "La parole poétique" in *L'Arc* No. 70 1966 "Ponge et le plaisir" in *Sud* No. 16, 4ème trimestre 1975, P. 20 à 26.
- LABRUSSE, Hughes — "La coloquinte" (reliefs de campagne) in *Sud*. Revue trimestrielle No. 16, 1976. P. 5 à 16.
- LEMICHEZ, Jean-Luc. "Origines inscrites" in *Revue des sciences humaines*. Juillet-Septembre 1973. Tome XXXVIII No. 151. pp. 411—421.
- MALDINEY, Henri—*Le legs des choses dans l'oeuvre de Francis Ponge*. Lausanne, édition L'âge de l'homme. 1974.
- ONIMUS, Jean — Jean Follain ou les profondeurs de l'insignifiant in *Annales de la faculté des lettres et sciences humaines de Nice*, 1971.
- FRIGMENT, Christian—"Pour une poétique matérialiste— La lecture du pré — Francis Ponge" — in *Critique*. Revue générale des publications françaises.
- ROUSSEAU, André — *Littérature du XXème siècle*. Paris Albin Michel. 1953.
- SARTRE, Jean-Paul — *Situations. L'homme et les choses*.
- SPADA, Marcel — *Francis Ponge* — Paris, Seghers, 1974, 191 p.
- THIBAUDEAU, Jean — *Francis Ponge* — Paris, Gallimard, 1967.
- VAJDAS, Andras — "Pourquoi est-il difficile d'analyser la poésie moderne" in *Annale Universitatis scientiarum Budapestinensis de Polando Eotvos*. Tome VIII. 1977.
- VALERY, Paul — *Variété III*. Paris, Gallimard, 1936.
- VOELLMY Jean — *Aspect du silence dans la poésie moderne*. Zurich, 1952.

- *Le Parti pris des choses* — Paris, Gallimard, 1967 (précédé de *Douze petits écrits* et suivi de *Proèmes*). 223 pages.
- *Le peintre à l'étude*. Paris, Gallimard, 1948, 167 pages.
- *Le Savon* — Paris, Gallimard, 1976, 128 pages.
- *Lyres* — Paris, Gallimard, 1980, 176 pages.
- *Méthodes*, Paris, Gallimard, 1971, 320 pages.
- *Nouveau recueil* — Paris, Gallimard, 1980, 236 pages.
- *Pièces* — Paris, Gallimard, 1979, 192 pages.
- *Pour un Malherbe* — Paris, Gallimard, 1965, 340 pages.

Ouvrages critiques consultés

- ALYN, Marc — *La nouvelle poésie française*. éd. Robert Norel, Paris, 1968 —251 pages.
- ARON Thomas — *L'objet du texte et le texte de l'objet*. La chèvre de Francis Ponge-Les éditeurs français réunis. 1980.
- BRAQUE, Georges — *Textes de Francis Ponge, Braque ou la méditation de l'oeuvre par Francis Ponge*. France, 1977.
- BONNEFIS, Philippe — "Faisons carrément l'éloge de l'araignée" in *Revue des sciences humaines*. Juillet-Septembre 1973.
- BRINDEAU, Serge — *La poésie contemporaine de la langue française depuis 1945*. Paris, éd. St Germain des Prés. 1973.
- CAMUS, Albert — Lettre au sujet du Parti Pris in *N.R.F.* No. 45 — Septembre 1956.
- CHAR, René — *Les matinaux*. Paris — Gallimard, 1948.
- CIACARLIE, Livius — "Un art poétique contemporain — Le Savon de Francis Ponge" — in *Analele Universitatii din Timisara, seria Stiinta filologica* Vol IX 1971.
- CLAUDEL, Paul—*Positions et Propositions*. I Paris, Gallimard, 1944.

BIBLIOGRAPHIE

SELECTIVE

Oeuvres de Francis Ponge :

- 1926 Douze petits écrits
- 1942 Parti pris des choses.
- 1948 Proèmes.
- 1948 Proèmes.
- 1948 Le peintre à l'étude.
- 1950 La Seine.
- 1952 La rage de l'expression.
- 1961 Le grand recueil I. Lyres II Méthodes III Pièces.
- 1965 Pour un Malherbe.
- 1967 Le savon.
- 1967 Nouveau recueil.
- 1971 La fabrique du pré.
- 1977 Comment une figure et pourquoi.
- 1977 L'Atelier contemporain.

Colloques, entretiens et correspondances :

- *Ponge inventeur et classique* : Centre culturel international de Cerisy-La Salle Colloque 1975. (du 2 au 12 août 1975) dirigé par Philippe Bonnefis, Pierre Oster avec la participation de Francis Ponge-Paris, Union générale d'édition—1977. 434 pages.
- *Entretiens de Francis Ponge avec Philippe Sollers* : Paris-Gallimard-1970. 193 pages.
- *Correspondance de Jean Paulhan et de Francis Ponge* : (1923—1968); édition critique avec introduction et notes de Claire Baaretto 1981, Vol. Thèse dactylographiée.

Oeuvres Consultées

- *Comment une figure de parole et Pourquoi* Paris, Flammarion,
- *La fabrique du pré* — Genève, A. Skira, 1971. 272 pages.
- *L'Atelier contemporain* — Paris, Gallimard, 1977, 357 pages.
- *La rage de l'expression* — Paris, Gallimard, 1976, 217 pages.
- *Le Grand recueil* — III. Paris, Gallimard 1961 — *Lyres*, 189 pages — *Méthodes*. 307 pages — *Pièces*, 219 pages.

“Francis Ponge est le seul écrivain de notre époque à développer une sensibilité nouvelle dont l’expression fasse confiance au langage (...) Jacques Prévert devait penser à lui en écrivant : “Quant on le laisse seul, Le monde mental ment monumentalement(1)”.

(1) Pierre Caminade “Francis Ponge — Lors d’un anniversaire” in *Sud* No. 16—1975. P. 27.

“qu’il existe des peintres de nature morte et que, pas plus que Cézanne ou Chardin n’étaient apparemment capables de peindre des batailles, il ne s’est trouvé, lui Ponge, capable d’écrire, par exemple, des poèmes de la résistance(1)”.

Que ce soit “le galet” ou “la fenêtre”, “l’assiette” ou “le savon”, “la terre” ou “les olives”, tous ces objets représentent une “peinture figurative”(2) qui n’est jamais morte avec la “révolution du langage pictural du tournant du siècle (3)”. Dès la première phrase du poème pongien, un arrangement de syllabes entre les mots et leurs référents du sens se révèle et descèlle le lien qui les unit. Son but est celui de dire du neuf et de créer du nouveau. Lorsque Ponge dédie ses textes, c’est aux gens de l’art : peintres, écrivains ou sculpteurs qu’il s’adresse. Un rapport commun, un lien étroit les joint intimement à son écriture qui “s’entrecroise, s’entrecoupe, s’entrelie, s’entreglose”. Avec Francis Ponge, la poésie contemporaine offre un plaisir que les hommes prennent à l’art en même temps qu’à la vie.

“Justement, écrit Raymond Jean, le plaisir tempéré me paraît une vertu éminemment pongienne(4)”.

A travers l’habileté de ses productions, Ponge donne “une Justification à point de vue”, “un renforcement de la volonté de vivre” et une “notion de plaisir qui mène à un sens relativement “tempéré” :

(1) Thomas Aron — *L’objet du texte et le texte de l’objet*. P. 113..

(2) Dans ses *Entretiens avec Philippe Sollers*, Ponge dit : “... Si j’ai commencé à connaître physiquement les peintres, les plus grands peintres de l’époque, Picasso, Braque, Fautrier, Dubuffet, eh bien, cela s’est cela s’est produit à cause du *Parti pris des choses*. Le Parti pris des choses avait été, m’a-t-on dit, et j’ai pu le vérifier, aimé par ces peintres. On m’a beaucoup dit que ces textes (...) comme je les traite, auraient pu aussi bien être des tableaux que des textes”. P. 89.

(3) Raymond Jean — “Ponge et le plaisir” in *Sud* 1975. P. 21.

(4) Raymond Jean — “Ponge et le plaisir” in *Sud* 1975. P. 21.

En effet "l'opus", cette indication utilisée pour désigner une pièce de musique, devient chez Ponge le mode d'ouverture choisi ou l'inverse symétrique d'une fermeture. Elle consiste à découvrir le début ou "avant" du texte pongien pour s'en voiler ensuite et transformer l'ombre en une lumière vive et pénétrante. Ces tendances nouvelles, cette manière de permettre au texte de servir plusieurs fois caractérise la stratégie de la poésie pongienne :

"une livraison isolée en revue, publication de luxe dans un montage typographique ou sérigraphique, agencement dans un recueil, migration dans un autre texte (...) et surtout remise en jeu de ce texte dans et par l'écriture qui la produit. L'engendrement, en l'espèce, s'effectue à rebours, d'aval en amont, selon cette image du fleuve qui remonte vers sa source, dont la rhétorique avait fait le modèle de l'impossible (1)".

En se transformant encore une fois en texte, "l'opus" favorise ainsi la butée de sa clôture et l'ascension de ses brouillons. Par là, le poème, ou l'objet d'art, se reforme à mesure, traîne comme une toile ses propres déchirures, puisque le fil tire de nouveaux circuits. Les traits et les couleurs qui forment le fond d'un tableau, les sons et les airs qui composent la mélodie d'une symphonie, sont comparables aux noms et adjectifs qui conviennent à la poésie. En les ramassant en une totalité synthétique, Ponge parvient à rendre exactement "l'articulation intérieure et le surgissement de la chose dans le monde (2)", afin d'atteindre son objet d'art "qu'il nomme le poème(3)".

Il lui arrive de temps en temps d'avoir à se défendre contre ceux qui l'accusent de son intérêt consacré aux objets. En 1968, dans un film réalisé par Sylvain Roumette pour la télévision scolaire : "*Francis Ponge ou un nouveau matin*", le poète rappelle

(1) Philippe Bonnefis — "*Faisons carrément l'éloge de l'araignée*" P. 408.

(2) Jean Paul Sarte — *Situations I*. "L'homme et les choses". p. 265.

(3) *Ibid.*

langue, les mots) n'était pas au moins égale à la sensibilité du monde extérieur. Cela me paraît évident. Van Gogh, par exemple, le montre très, précisément dans sa correspondance avec son frère (1)".

C'est bien le moment qui représente chez Ponge l'arrêt du déclic, l'instant "s'enclenche" la phrase terminale : c'est le moment pongien par excellence. C'est à partir de là seulement que va se dégager une sorte de déviation de sens et vont apparaître tout ce que les règles ont de secret et de caché. Dans *Pour un Malherbe*, Ponge précise que ces règles sont

"comme des obsessions impératives, des manies, des rites, des inhibitions, des phobies personnelles(2)".

A chaque moment, ils peuvent se révéler d'une manière différente. Or, si Freud souligne dans *La science des Rêves* que le rêve dispose de moyens innombrables", il serait également important de déceler entre les textes de Ponge et les textes du rêve une ressemblance capitale. Aussi pourrait-on revenir à l'heureuse formule de Lacan : "L'inconscient est structuré comme un langage" et constater que "le langage est lui aussi structuré comme un inconscient". Bien que les textes de Ponge peuvent être regardés sous plusieurs angles et s'interpréter de diverses manières, il serait important de préciser que sous chaque optique on arrive toujours à voir entièrement l'objet et y trouver du nouveau. Aucune limite ne peut se déclarer dans cette poésie où le discours

"s'affolle, se fait litannique, impératif, exclamatif, oraculaire, mime on ne sait quelle jubilation métaphorique, mythique, voire métaphysique(3)".

Une impression bizarre peut souvent tenir le lecteur en haleine pour lui inculper que le poème pongien ne veut jamais prendre fin. Le texte de Francis Ponge "transforme le point final, inerte, inactif de l'opus en point d'interrogation à effet rétroactif(4)".

(1) Francis Ponge — *Entretiens avec Philippe Sollers* — PP. 47—48.

(2) Ibid — *Pour un Malherbe* — P. 253.

(3) Philippe Bonnefis — *Faisons carrément l'éloge de l'araignée* P. 407.

(4) Ibid.

qu'aucune "vérité" n'est autre que "relative au temps", à l'espace, à la condition humaine" et aux "langages". On ne peut jamais inventer la vérité car : "la vérité n'a pas de contraire(1) "déclare-t-il" La vérité existe, on n'invente que le mensonge.(2)".

Pareil au tableau, le poème semble nous adresser la parole, il nous désigne et nous regarde. Un échange perpétuel de mots, de regards et de sensations naît immédiatement entre un poème et son lecteur, entre un tableau et son admirateur, entre une pièce de musique et son auditeur, à la seule condition de l'éclosion d'une sensibilité particulière à l'art dont il est question :

"Quand vous vous placez devant un tableau, écrit Ponge, ou quand vous placez un tableau devant vous, avez-vous l'impression que, principalement, vous le regardez, ou au contraire que c'est lui qui vous regarde ? (3)".

En posant cette question, Ponge souligne l'importance du dialogue qui peut s'engager entre l'homme et l'objet d'art. Cette catégorie de personnes doit posséder un peu plus de sensibilité, un peu plus de réalisme, un peu plus de matérialisme. Ainsi la pensée de Ponge doit tout à un mouvement de poète, qui "s'insurge contre les prétentions des bâtisseurs d'idées à gouverner le monde (4)". Il en est de même pour l'objet d'art en question, que ce soit poésie, peinture ou musique, celui-là doit présenter toujours une sensibilité particulière, rattachée à un présent ou moment essentiel.

"Très souvent, j'ai affirmé que rien ne pouvait être fait de bon, en matière d'écriture, comme aussi bien en matière de peinture ou de musique, enfin en tout autre art de ce genre, si la sensibilité au mode d'expression choisi (en l'espèce, pour les écrivains, la

(1) Georges Braque — *Textes de Francis Ponge — Braque ou la méditation de l'oeuvre* par Francis Ponge. P. 38.

(2) *Ibid.* P. 14.

(3) *Ibid.*

(4) André Rousseau — *Littérature de 20ème siècle*. P. 94.

(qu'il désigne par la métaphore géologique d'épaisseur sémantique) (1), cela permet de voir une certaine spécificité de la littérature descriptive contemporaine au fait d'un "savoir" que les artistes d'aujourd'hui ont acquis. Ils savent que le langage ne doit jamais être "un calque transparent de la réalité" mais plutôt référentiel. En regardant les chèvres de Picasso, il nous est simple de constater qu'elles ne sont pas moins ressemblantes à la réalité, ce qui ne peut s'appliquer aux chevaux de Lebrun, qui rend dans ses tableaux une image typique de la nature. Il en est de même lorsqu'on s'imagine le cheval, la chèvre ou les hirondelles de Ponge, dont l'image, sur le plan descriptif, est peut-être moins fidèle à la réalité que le renard, le lion ou les alouettes de La Fontaine. "Les tableaux, dit Francis Ponge, sont quelque chose comme des drapeaux et il est certain qu'un homme comme Picasso peut être considéré comme un porte drapeau de l'offensive intellectuelle; offensive de toute façon, aussi bien morale que proprement littéraire: morale, art de vivre: art de vivre comme individu et art de vivre comme individu social"(2) Or la tendance contemporaine de la poésie rend la réalité avec un esprit nouveau, avec une vue toute nouvelle qui s'élabore avec un surplus, un excédent, un "excès" pour reprendre la formule de Claude Prévoist.(3) Francis Ponge présente dans ses textes des :

"descriptions-définitions esthétiquement et rhétoriquement adéquates(4)".

Il faut prendre les choses comme elles sont, pense-t-il, tout en choisissant: "notre niveau, celui où nous pouvons sentir, voire, peindre ou écrire(5)".

Dans ses textes sur Braque, Francis Ponge ne tardera pas à affirmer

-
- (1) cf. Francis Ponge — *L'Atelier Contemporain*, Paris, Gallimard, 1977.
 - (2) *Entretiens de Francis Ponge avec Philippe Sollers*. Gallimard Paris Paris, 1970, P. 91.
 - (3) Claude Prévoist — *La littérature est un excès* — Littérature du dépaysement — Les éditions françaises réunies, 1979. P. 9.
 - (4) Francis Ponge — *Le grand recueil* — "Méthodes". "My creative method". P. 20
 - (5) Id — *Braque ou la Méditation de l'oeuvre*. p. 38.

que les choses lui dictent. Son poème est un rapport objectif (1)".

Ainsi, sur toute lecturer, l'oeuvre de Ponge est toujours en avance d'une écriture. "Quoique nous lisions, n'est jamais celle qu'il faut". Au reste, nous ne lisons que pour que cela s'écrive. Or, plus nous taillons et plus cela se tisse : "Serre ton style, écrit Flaubert, fais-en un tissu souple comme la soie, et fort comme une cotte de mailles".

Dans son *Carnet de Bois de Pins*, Ponge s'écrie :

"Bois de pins, sortez de la mort, de la non remarque, de la non-conscience : " (2) "Surgissez, bois de pins, surgissez dans la parole. L'on ne vous connaît pas. Donnez votre formule" (3).

Cette formule sera donnée en effet par la marche à la fois répétitive et dynamique, statique et progressive de sa poésie. Ponge a pu contribuer à un élargissement sensible dans le domaine du mot tout en renouvelant les formes du langage de la pensée et tout en embrassant les différents domaines artistiques : poésie — peinture—musique

Conclusion : Poésie — Musique — Peinture :

Poète et "peintre du réel" (4), Francis Ponge rend avec une habileté admirable le vrai côté de l'univers poétique. Pareille à la couleur pour le peintre, l'écriture est pour Ponge l'élément essentiel de son art. Matière vivante, fracassée de couronnes, ponctuée de voyelles, son écriture offre à la fois le travail artistique d'une main qui écrit au moyen d'actes graphiques où "l'arabesque volubile" et où la coupe, le ton et le rythme investissent le sens et sont investis par lui. Si les poèmes de Ponge se révèlent à travers "une matière sémique, plurielle, pulvérulente

(1) Jean Voellmy — *Aspects du silence dans la poésie moderne*. P. 72.

(2) Francis Ponge — *La rage de l'expression* : "Le *Carnet de bois de Pins*". P. 113.

(3) *Ibid.* PP. 113, 114.

(4) Gérard Farasse — "Héliographie". in *Revue des sciences humaines*. P. 437.

Et voilà que ces mots viennent enliser un laboratoire de précision. Or cet effet voulu par le poète représente le but principal de son texte. Ponge veut absolument transporter son lecteur au sein d'une multitude infini, insaisissable d'objets. Il veut donner à son lecteur la possibilité d'accéder à cet univers qu'il crée à sa façon pour lui permettre de vivre avec le poème tout en s'y intégrant puissamment. Comme la crevette, le texte de Francis Ponge semble avancer à reculons et tout comme l'araignée son écriture fait le texte et vient tendre son filet(1).

L'écriture de Ponge ressemble ainsi à un puits vertigineux qui s'ouvre à chaque phrase où les mots et les signes perdent leur simplicité pour se faire texte. Dans son ensemble, le texte pongien se constitue de différences et de ressemblances, de mots et de groupements de mots, de phrases et de paraphrases. Tous ces éléments échangent entre eux des dialogues infinis : ils se parlent et se reparlent, se disent et se redisent, se répondent et se corrigent. Au moyen de la répétition, Ponge parvient à "décoller l'écriture de son référent immédiat, de son sens". L'écriture arrive ainsi à se signifier elle-même en se dédoublant et tout en se dédoublant, elle se désigne.

"La répétition, écrit Gérard Farasse, lève le sens, annule le signifié, le dissipe et confirme le significatif (2)".

Située entre deux pulsions : celle de vie et celle de mort, l'écriture dite "automatique" se trouve mise en activité, seule solution provisoire, solution à reprendre, à équilibrer dans sa contradiction. Aussi passe-t-elle dans une sorte de battement, par les deux extrêmes. Elle se fraye un chemin entre ces deux pulsions, sans s'identifier ni à l'une ni à l'autre.

"Ponge a porté l'écriture automatique à son extrême perfection. Il ne fait pas un choix parmi les paroles

-
- (1) "Vous, lecteurs, vous, attention de mes lecteurs-afin de vous dévorer ensuite en silence (ce qu'on appelle la gloire)". F. Ponge. *Pièces*. "L'araignée". P. 112.
- (2) Gérard Farasse — "Quelques phrases mises de côté pour Francis Ponge." *Colloque Ponge*. P. 215.

constellation, semble-t-il, de "crevette première", "crevette seconde", primauté — secondarité. C'est surtout l'antériorité de ce texte de *Pièces* sur celui du *Parti-Pris des choses* qui est des plus révélateurs. Ainsi "la crevette seconde" n'intervient dans cet arrangement qu'au titre de représentant de la "Crevette" du *Parti-Pris des choses*.

L'écriture contient ainsi des séquences répétitives, où se révèlent des indices "poétiques" au sens Jakobsonien du terme. Cette écriture se vise et retrouve en elle-même sa propre finalité. Dans "La crevette dix fois (pour une sommée)" des *Pièces*, le nombre inouï de reprises, de modifications, d'enchevêtrement est parfaitement agencé. Souvent le lecteur sent une certaine gêne, il se trouve perdu et se demande si ce qu'il lit il l'a déjà lu ou si ce qu'il perçoit comme répétition est une copie exacte ou approximative de ce qu'il a déjà perçu. Offrant des difficultés, l'écriture de Ponge fait souvent éprouver aux critiques l'impression de n'avoir véritablement rien dit de ses textes. Voilà ce qu'écrit un de ses critiques :

"Plus nous pénétrons dans les textes et plus le reflet
se vide et le miroir ne montre plus rien."

En lisant Ponge, on peut toujours risquer un "coup de filet hasardeux." Un désarroi de la parole peut mener à une complication inextricable. On pourrait donc songer à ces mots : "Peut-être que tout éclaircissement de ces poèmes est chute de neige sur la cloche". Une simplicité parfaite et une complication absolue peuvent se réunir dans un même poème, selon le point de vue où l'on se place. Souvent le projet de Ponge semble inintelligible. Albert Camus n'y a vu au début que du désespoir : "une conscience qui décrit et une conscience qui échoue". A première vue, la poésie de Ponge lui semble comme un insignifiant qui lui colle à l'esprit, englu sa conscience, l'envahit et l'écoeure "comme une boue uniforme". Désormais, il lui écrit au sujet du *Parti Pris des choses* :

"Si votre recherche est "absurde", c'est dans la
mesure où vous ne pouvez trouver que des mots
et non le mot juste (1) ".

(1) Albert Camus — Lettre au sujet du *Parti-pris des choses*. in *N.R.F.*
No. 45. Septembre 1956. P. 390.

“Nous glorifierons-nous donc maintenant de la principale imperfection de ce texte, écrit Ponge, ou plutôt de sa paradoxale et rédhitoire perfection ? Elle vient à la fois de cette énorme quantité (ou *pro-fusion*) de matières (dont aucune, d’ailleurs, qui n’ait son échantillon ici-bas), de leur densité inégale et de leur état en fusion (ou, à proprement parler, *confusion*) ... (1)”.

Ce texte semble à la fois écriture et théorie de l’écriture. De même son livre intitulé *Pour un Malherbe* offre la critique d’un livre comme corps total. Il s’agit là d’une critique de la cohérence traditionnelle pour la cohérence du fragment ou, plus simplement, une critique de l’écriture. Or, étant formé de fragments, l’œuvre pongienne ne peut en quelque sorte être qualifiée de livres. Le cloisonnement des paragraphes, leur système d’emboîtement, le durcissement des articulations, la multiplication des limites, relèvent d’une pratique particulière de ces fragments. Le titre qu’il donne à l’un de ses livres du *Grand Recueil* : *Pièces*, est des plus significatifs. Ponge essaye de mettre la littérature en “pièces” rassemblées et dispersées sous le même coup. Chaque fragment semble subir une répétition qui fait éclater le livre, à savoir son sens. Les fragments sont ainsi comme durcis, réinscrits à d’autres endroits et dans d’autres contextes, mis dans l’obligation de fonctionner différemment. Un exemple très caractéristique du fonctionnement de cette écriture, ou “prose gesticulante”, est celui qu’on peut tirer du texte intitulé “La crevette dans tous ses états(2)”. Il y a une sorte de

(1) Francis Ponge — *Pieces*. “Le soleil placé en abîme. P. 137.

(2) Soulignons là les différents sous-titres donnés par le poète dans ce poème et les ressemblances des textes : “La crevette” du *Parti-Pris des choses* “peut-être le plus farouche gibier de contemplation”... “de laisser s’engager de son mouvement propre dans le conduit des circonlocutions” ... “Admettons-le d’abord, parfois, il arrive qu’un homme” Dans “La crevette” de *Pièces* : “Le gibier le plus farouche peut-être pour la contemplation” ... “de laisser s’engager de son mouvement propre (aux fosses, aux galeries) dans le conduit des circonlocutions”... “Admettons-le d’abord, parfois il arrive qu’un homme”, etc...

métonymique ou métaphorique et met le lecteur dès le prime abord "sur la piste d'un sens".

Le but de Ponge n'est pas de creuser, mais plutôt de "cribler" encore une fois. Dans ses projets, Ponge prend soin d'établir une cloison virtuelle, pelliculaire et vibrante, croisant leurs oppositions; haut et bas, dessus et dessous, intérieur et extérieur. Là l'ombre et la lumière viennent faire signe dans cette prose gesticulante dont on peut suggérer qu'elle aurait plu à Nietzsche. Limité et illimité à la fois, chaque texte pongien est fini et infini, circonscrit et dispersé. Se tenant toujours à la limite, il est évident, d'une "évidence frustrante". Après maints tâtonnements et approximations, Ponge finit par ramasser une totalité synthétique qui rend exactement le surgissement d'une poésie où l'expression fait confiance au sens même. Tout cela représente une fête : fête de l'écriture et du langage et où l'on trouve la signature de Ponge placée au centre. Etant "le seul écrivain de notre époque" qui a su développer cette sensibilité particulière, ce poète a écrit d'admirables poèmes d'un ton entièrement neuf et crée une nature matérielle qui leur est propre(1)".

Francis Ponge a pu déposer "la lumière cheville", il a su dresser sa première butée et lancer.

"son premier NON à la langue française dont les mots éperdus sillonnent les paragraphes : on dirait des poissons dans un bocal (2)".

Cet écrivain met de l'ordre et rectifie : c'est la révolution des sphères et des astres lointains : "le monde, il est mon pouvoir de le refaire par la poétique" déclare-t-il. Or bien que ses textes semblent souvent comme un perpétuel "brouillonnement", ce dernier est hétérogène, fondu et trouve son commentaire dans la pensée même de Ponge. Si l'on examine, par exemple, le texte intitulé : "le soleil placé en abîme", il serait simple de déduire qu'il s'agit d'une critique faite au nom de l'écriture :

(1) Jean-Paul Sartre — *Situations I*. Gallimard — 1947. L'homme et les choses. P. 286.

(2) Philippe Bonnefis. "Faisons carrément l'éloge de l'araignée." in *Revue des sciences humaines*. Juillet September 1973. P. 397.

n'entendent pas. Son objectif est de se détacher, de prendre ses distances pour entamer une forme nouvelle de la poésie. Le Littré devient un de ses instruments de travail préférés. Pour lui, le mot se présente comme le noeud d'une arborescence qui désigne, abrège, chiffre, crypte. Ce travail de dictionnaire permet aux colonnes de mots dressés qui renvoient de l'un à l'autre de circuler pour être réinverti dans le texte qui s'écrit(1). En regardant les mots au fond des yeux, jusqu'à "leurs profondes racines intérieures", Ponge le fait "à sa façon" :

"Je ne le ferai qu'à ma façon, dit-il, pour certains scandaleuse, c'est-à-dire en recopiant (à ma façon) le Littré, et en laissant au lecteur la tâche de distinguer, s'il le juge nécessaire, ce qui est du Littré ou de moi (2)".

Il en est de même pour le titre qui partage le sort, du mot, puisque la plupart du temps il se réduit à un substantif, à une essence de sommation comme la chèvre, le lézard, le galet, l'araignée, le pigeon; la fenêtre, la scolie, l'édredon etc... Ce titre s'insère dans la chaîne des métaphores scolaires qui relient la loi à la source et la vérité au sens. Le lecteur a l'impression que le titre surveille le texte et le règle. Rien ne peut échapper à cet oeil textuel, vigilant, éveillé et toujours aux aguets. Le titre pongien représente effectivement un petit soleil qui renvoie ses rayons à chaque ligne et les infiltre même entre les lignes. Possédant une double fonction, le titre désigne le référent, le sens, le thème. Très souvent il possède un article défini qui pose, cadre, borde fermement et avec une netteté tranchante, l'objet à décrire. A l'étroit de chaque tenue évoqué dans le titre s'enclot le germe d'où s'éclore le texte. En désignant celui-ci, le titre offre la possibilité de la manier, de le manipuler comme une miniature et de la faire fonctionner dans sa platitude tel une énigme ou un astre en mouvement. Etant d'autant plus plein de sens qu'il est bref, le titre donne la clef du texte, clef synecdochique,

-
- (1) Gérard Farasse — "Héliographie". in *Revue des sciences humaines*. P. 450.
- (2) Georges Braque — (*Textes de Francis Ponge, Braque ou la méditation de l'oeuvre de Francis Ponge* — Frances 1977.

ture : elle fait vibrer des dissemblables (texte achevé/
texte inachevé; mots/choses, masculin/féminin,
Thanatos/Eros ...) dans et pour le semblable(1)".

En effet, le langage parvient à exprimer "l'être adéquatement" lorsqu'il s'allie au poète. Un ensemble de va et vient s'établit entre ce qu'on dit et ce qu'on contre-dit, entre la position et la négation, pour permettre au langage d'acquiescer sa loi véritable et sa structure interne. Une sorte de réciprocité semble-t-il vient envelopper chaque mot pour représenter un moment essentiel, voire positif de la force de l'expression qui existe en lui :

"Cette réciprocité, explique Ernest Cassirer dans sa *Philosophie des formes symboliques*, manifeste que les frontières du mot, comme celle de l'étant lui-même, ne sont pas immobiles, mais mouvantes (2)".

C'est en se paralysant dans un mot, que le contenu s'arrache au flux continu du devenir où il se trouve plongé. Il n'est donc pas saisi d'après sa totalité et n'apparaît que dans une détermination partielle. Cette filiation des mots est une sorte de dérivation, un mouvement propre à la langue qu'utilise le poète. C'est bien là le mouvement de son évolution et de son engendrement où la trajectoire des mots devient une recherche patiente des étymons et la quête de leur origine :

"le propre de la pratique étymologique de Francis Ponge est d'être attentive à l'une, au poids des mots, des racines dans la langue, et d'utiliser l'autre, les ressources du langage et de ses mécanismes(3)".

Ponge tient un journal où il note ce que les autres ne voient ou

(1) *Ibid.* PP. 484—485.

(2) Ernest Cassirer — *Philosophie des formes symboliques*.

(3) Jean-Luc Lemichez — "Origines inscrites" — in *Revue des sciences humaines*. Juillet — September 1973. Tome XXXVIII No. 151 PP. 411—412.

-t-il pas à faire face à une expérience cruelle. Il se heurte à un obstacle éminent : le problème du langage. Celui-ci s'avère nettement insuffisant, sa défaillance s'ouvre aux yeux du poète comme un abîme profond. Les formules dont disposent les artistes sont bien pauvres. Depuis des siècles tous parlent, écrivent et pensent de la même manière. Ne se voyant pas comme d'autres poètes "aux limites du mot", il essaye de briser ces barrières qui ne doivent plus exister pour lui tout en se rangeant du côté de l'indicible. Ponge prend conscience de :

"la maladie du langage. Il voyait comme ce noble outil s'était abîmé. Il sentait le vide infini qui répondait à l'effort du poète (1)".

Décidant de réagir, Francis Ponge entreprend sa démarche vers la découverte d'un issu. "L'enjeu" ne cesse plus de s'éclaircir : il exige un langage remis à son état naissant :

"Par "dégoût" de la langue commune abolir pour un recommencement (...) L'expression y est souhaitée "définitive, infaillible, bien tournée, irrécusable, comme une sorte d'oracle", parole de dieu, ou de "loi", de "maxime", prise implicitement dans une logique du sens(2)".

Par l'entremise de la langue, l'expérience et la conscience de la réalité se trouvent munies d'un trousseau de clefs pour tout ce qui peut s'énoncer. Ponge entreprend un retour vers la phrase matricielle où la glissade luge des livres, puisque la poésie est de tous les pouvoirs : "le seul peut-être, selon Saint-John Perse, qui ne corrompe point le cœur de l'homme face aux hommes". Dans le langage pongien, chaque signification est la plupart du temps, liée à son contraire, chaque sens à son inverse :

"La production pongienne est non seulement riche en contradictions, mais elle nous semble faire jouer des contradictions en tant que moteur de son écri-

(1) Jean Viellmy. *Aspects du Silence dans la poésie moderne*. P. 73.

(2) Claude Giordan — Ponge et la nomination" *op. cit.* P. 487.

phore, puisque le sens propre des mots devient indécidable. Pas d'hyperbole ou de litote puisque le texte ne nous aide en rien à essayer de faire la comparaison de différentes qualités ou quantités. Tout cela nous amène à ne voir aucune fonction stylistique de tel ou tel élément pendant que leur fonction sémantique est des plus intéressantes à déclarer à examiner et à étudier.

La poésie de Francis Ponge est surtout une invitation ouverte à pénétrer à l'intérieur du sens des mots, à descendre jusqu'à leurs unités significatives et élémentaires, à explorer leurs différents sèmes. Les recherches doivent en principe s'acheminer aussi bien vers la sémantique approfondie que vers la théorie des textes mêmes.

Il s'agit donc de trouver le Verbe primitif ou plus précisément :

"le moment premier du langage, où en deçà de toute structure, la langue est articulation, turbulence de l'orage original, dont la source initiale est le cri(1)".

C'est en nous introduisant dans les méandres de l'écriture et du langage pongiens que l'on pourrait en quelque sorte élucider les points essentiels de cette poésie contemporaine.

3. *Langage et écriture :*

Très jeune, Francis Ponge se voue à la poésie (2). Aussi ne tarde-

(1) Henri Maldiney, *Le legs des choses dans l'oeuvre de Francis Ponge*. Lausanne édition l'âge de l'homme, 1974.

(2) En 1914 et à l'âge de 15 ans, Francis Ponge commence à écrire ses premiers poèmes en voilà un spécimen :

"Je rêve d'une vie affectueuse et tendre, où sur un lourd sofa correctement assis je verrai près de moi venir quelques amis, hommes et femmes, pour me parler et m'entendre".

Au Baccalauréat, sa dissertation obtient la meilleure note de l'Académie. En automne 1961 il a le don des formules (...) Cependant, F. Ponge ne réussit plus ses dissertations : chaque fois il néglige l'évidence et s'enfonce de façon abstruse dans un style épais où il met beaucoup trop d'acharnement du côté où le sujet l'intéresse. Tiré de Jean Thibaut : *Francis Ponge*. Paris Gallimard 1967. PP. 28—29.

(et donc d'une pensée) à l'état naissant (1)".

Un non respect des règles de grammaire se manifeste très souvent chez Ponge qui souligne l'idée d'avoir fait porter son étude beaucoup plus sur le vocabulaire et le dictionnaire que sur la syntaxe et la grammaire. Ce qui l'intéresse c'est la matière à proprement parler, plutôt que ce qu'il appelle : ses formes ou figures" pratiquées d'instinct(2)".

Francis Ponge attribut un rôle prépondérant à "l'ellipse du prédicat", c'est-à-dire à l'emploi des phrases nominales réduites à un seul élément nominal (3). Très souvent, le syntagme verbal fait défaut, il s'en suit que la structure de la "phrase minimale" n'est presque pas respectée. A plusieurs endroits de l'oeuvre de Ponge, le verbe se transforme en nom et lègue à un substantif son sens et une partie de sa fonction.

La construction d'ensemble du poème révèle souvent une confusion presque totale des conjonctions et des signes de ponctuation. Virgule, point-virgule, deux points, point viennent parfois se poser dans le texte sans raison valable, sans motif précis. De même la notion du sens propre et du sens figuré devient de plus en plus douteuse. Le texte pongien tend à mêler les deux moments du "voici" et du "voilà". Le poète dérègle toujours le couple d'oppositions: "le dessus (le recto) est le dedans, le dessous (le verso) est le dehors; d'un côté chauffé à blanc le plan d'inscription, de l'autre, dans les ténèbres, le cabinet du scoliaste, (4)". Ses textes offrent parfois des figures classiques comme les métataxes, les métasèmes ou les métalogismes(5). Cependant, les autres figures existent peu ou même jamais. C'est-à-dire pas d'ellipse puisque la quasi totalité des textes sont fortement elliptiques. Aucune méta-

(1) *Entretiens de Francis Ponge avec Philippe Sollers*, P. 99.

(2) Francis Ponge — *Pour un Malherbe*. P. 201.

(3) Cf. Francis Ponge : "Le chien" in *Pieces* — P. 7 "la fenêtre" *Ibid* P. 38—39—40. "Paraphrase et poésie" *Ibid* P. 42 — 43 — etc...

(4) Philippe Bonnefis — "Faisons carrément l'éloge de l'araignée" in *R.S.H.* P. 404.

(5) Henri Maldiney — *Le legs des choses dans l'oeuvre de Francis Ponge* — Lauranne édition l'âge de l'homme, 1974.

sant de Bretange en Normandie. Et même d'objet comme le téléphone que je manipulais il y a un instant. Et aussi de ce pigeon, qui s'est posé au dessus de la bibliothèque hier après midi(1)".

Dans leur construction d'ensemble, les textes de Ponge sont obligés d'obéir en somme à deux principes architecturaux discordants et mis en oeuvre simultanément. Il s'agit d'une disposition en fragments, disposition continue, assurant l'unité linéaire du texte ou poème pongien. Cette fragmentation est le plus souvent renforcée par l'utilisation quasi exclusive du présent de l'indicatif qui pourrait constituer un "portrait" nouveau de l'objet en question : chèvre, poisson, araignée, crevette, fenêtre, terre, cheval, savon, soleil, orange, guêpe, radio, téléphone, lézard, verre d'eau etc. Même dans "La fabrique du pré", bien que l'évocation du pré que l'on voit impose des marques temporelles indiquant le passé, la recherche de la "notion" du pré "géophysique" et du pré "logique" est toujours au présent. Soulignons également la fréquence de l'adverbe "aujourd'hui", qui vient renforcer l'emploi du temps présent(2). Ce texte va en effet à la rencontre "d'un passé dépassé, tendu à son présent (3)".

Francis Ponge souligne donc l'importance du "moment présent". Son but est celui de créer une "communication directe", une "opération en actes" et une parole "à l'état naissant" :

"il s'agit de dire au sens intransitif du "dire", déclare-t-il, c'est-à-dire, de parler dans le moment présent, comme homme, comme animal, dans le moment présent, et de montrer comment les choses se font dans le moment même, de créer la communication directe, non par la récitation d'un produit fini, mais par l'exemple d'une opération en acte, d'une parole

(1) Raymond Jean — "Ponge et le plaisir" in *Sud* 1973. P. 20.

(2) Claudine Giordan — "Ponge et la nomination" PP. 492—493.

(3) Henri Maldiney — *Le legs des choses dans l'oeuvre de Francis Ponge*. 1974.

n'aurait fixé les figures(1)”. Son entreprise, qui pourrait être qualifiée de révolutionnaire, est celle de rendre le regard transparent, inquiet, avide de l'enfant, tel que l'exprime un autre poète contemporain en disant :

“il y a un jour où tout à coup j'aperçois cet objet,
qui, depuis dix ans était sous mes yeux... Tout à coup,
ce bol oublié se rappelle à moi, s'impose(2)”.

C'est là précisément l'instant poétique, celui qui marque la rencontre du regard avec l'objet. Mais si de tous les objets le poète choisit les plus futiles, peut-être les moins intéressants ou encore les plus niais, c'est

“justement parce que ceux-là n'entrent pas dans les séries toutes faites, ne sont “pertinent” dans aucune conduite; leur gratuité, leur absurdité fait éclater nos ordonnances et nos accoutumances. C'est alors, avec la présence retrouvée, que jaillit la poésie (3)”.

Ponge tente d'exprimer ces objets en traduisant leur présence intime à travers sa masse textuelle. Son oeuvre concerne toujours son lecteur. Elle semble le regarder et lui parler de tout ce qu'il connaît, de tout ce qui l'environne, de tout ce qu'il a l'habitude de faire et de voir. Evoquant cette oeuvre caractéristique, Raymond Jean dit :

“elle me parle de la cigarette qui est dans mon paquet.
Du verre d'eau qui est devant moi. Du savon avec lequel je me lavais ce matin. De la serviette éponge que j'utilisais sur la plage hier. De la pluie qui tombait l'autre soir. Du pré qui est en bas du château de Cerisy. De la crevette et du plat de poissons frits que je trouvais sur ma table en pas-

(1) Philippe Bonnefis — “Faisons carrément l'éloge de l'araignée.
op. cit. P. 405.

(2) Jean Follain — “Tout instant” P. 9.

(3) Jean Onimus — “Jean Follain ou les profondeurs de l'insignifiant”. *op. cit.* P. 127.

Un tel comportement "total et personnel" est souligné dans le titre de l'ouvrage *Parti pris des choses* ou, comme l'intitule son auteur : "compte tenu des mots" :

"En somme, écrit Ponge, voici le point important :
Parti-pris des choses égale compte tenu des mots (1)".

Une sorte de "problématique productive", dirait-on, donnée par la parole aux objets s'y trouve pleinement fondée. Les jeux de mots de certains titres pongiens sont des plus révélateurs. Ils permettent de constater que leur auteur est le premier à avoir délibérément „aboli la frontière entre "brouillon" et "texte achevé", geste très longuement accompli par les peintres(2). Aussi devient-il impossible d'établir une limite ou une hiérarchie entre le travail préparatoire et le travail achevé. Voilà ce qu'il nous apprend à ce propos dans sa Colloque de Cérisy :

"Et ce qu'a dit Marcel Spada sur les motivations extra-littéraires qu'ont fait que j'ai publié ces brouillons, c'est très clair, c'est quand exactement (parce que moi, j'aime bien revenir à la réalité des choses concrètes), c'est quand Gallimard a refusé à Mermod les droits du *Parti-Pris des choses* pour la Suisse, pour être publié en Suisse. Mermod est venu me trouver en me disant : "Est-ce que vous n'avez pas autre chose." Je lui ai dit "je n'ai que des brouillons, des notes..." Il m'a dit : "Je prends", et m'a donné de quoi vivre deux ans. C'est extra-littéraire, mais j'ai considéré dès lors mes brouillons comme des textes définitifs!"..(3).

Chez Francis Ponge, tome ou recueil ne se conforme point à l'idée faite par la littérature. Son oeuvre est semblable à une immensité singulière, elle pourrait être comparée à "un ciel zodiacal dont aucun astrologue

(1) Francis Ponge — *Le grand Recueil — Méthodes* — "My creative method", P. 20.

(2) cf. Supra — Poésie — peinture — musique.

(3) *Colloques* Ponge. PP. 178—179.

“Pas plus que dans ce texte-ci, (cette similitude) n'est dans ce texte là et s'il faut qu'elle soit quelque part, ce sera dans l'intervalle, à gauche de la page de droite, à droite de la page de gauche, partout où il y a du jeu (1)”.

A l'intérieur de la masse textuelle se situe la “narrativité” du texte pongien qui, en principe, joue sur la successivité linéaire de l'écrit, interprété souvent comme succession chronologique. C'est en mettant en relief l'acte réglé du travail textuel que Francis Ponge arrive à dégager son “Objet” ou genre nouveau :

“celui où l'objet de notre émotion placé d'abord en abîme, l'épaisseur vertigineuse et l'absurdité du langage, considérées seules, sont manipulées de telle façon que, par la multiplication intérieure des rapports, les liaisons formées au niveau des racines et les significations bouclées à double tour, soit créé ce fonctionnement, qui seul peut rendre compte de la profondeur substantielle, de la variété et de la rigoureuse harmonie du monde(2)”.

Ce texte livre précisément une idée nette du fonctionnement des textes du poète. Il transmet une explication parfaite du travail transformateur et producteur à la fois. Il s'agit d'un travail d'élaboration qui secrète la “totalité concrète” du “travail/production”. Ce dernier joue dans un espace énergétique et réalise une copulation polysémique entre l'objet et le jeu, dans un sens, et entre les choses et les mots, dans un autre sens. Il vise à l'existence d'une certaine différence établie entre l'objet et le jeu, tout en montrant l'acte réglé du travail textuel qui permet le dégagement d'un objet en plus. L'accent est mis sur l'idée : fonctionnement et travail scénique du matériau verbal.

-
- (1) Philippe Bonnefis — “Faisons carrément l'éloge de l'araignée” in *Revue des sciences humaines*. Juillet Septembre. P. 403.
(2) Francis Ponge — *Pièces* — “Le nous quant au soleil. Initiation à l'objet”. P. 137.

Le poème intitulé "La chèvre"(1), donne l'impression suivante : plus le texte s'avance et plus la phrase s'allonge, se distend, se fait "coulante", comme le lait de cette chèvre qui se met soudain à couler avec le jeu pongien :

"le lait textuel, le lait "réel", par un vaste détour
à travers les ateliers infernaux et le ciel constellé (se
met) à se répandre ineffablement à nous (2)".

Dans "L'araignée", à chaque moment, le texte se reprend puis s'écarte.. La phrase sémantique entreprend une marche incongrue et un rapprochement qui creuse :

"A son propos, écrit Ponge, à son image me faut-il lancer des phrases à la fois assez hardies et sortant uniquement de moi, assez solides et faire ma démarche assez légère, pour que mon corps sans les rompre sur elles prenne appui pour en imaginer—en lancer d'autres en sens divers-et même en sens contraire par quoi soit si parfaitement tramé mon ouvrage, que ma pause dès lors puisse s'y reposer, s'y tapir, et que je puisse y conquérir mes proies-vous, lecteurs vous, (3) "

"La Nouvelle araignée", autre texte évoquant le même insecte, affermi l'idée que l'écriture fait la masse textuelle, tout comme l'araignée fait son filet et jamais elle ne se laisse prendre par lui. Une similitude particulière et un jeu révélateur peuvent ainsi s'appliquer à presque tous ses textes :

(1) Francis Ponge - *Pièces*. "La chèvre". P. 183.

(2) Thomas Aron — *L'objet du texte et le texte de l'objet*. La chèvre de Francis Ponge. P. 58.

(3) Francis Ponge — *Pièces*. "L'araignée". P. 112.

l'indicible, c'est qu'il a su extraire à sa façon de cette même source, une masse de sensations ineffables et un dialogue intérieur unique suggéré par le silence des objets. Par cette démarche il arrive à sortir de la poésie, à la dépasser, bref à en tirer des pensées nouvelles. C'est ce silence qui donne à Francis Ponge une force et un poids exceptionnels. Avant de publier son premier recueil, il a gardé pendant vingt ans le silence(1). Par ces sentiers, il a pu accéder à "la conquête de l'inouï"(2) Les rapports entre parole et silence, entre écriture et blanc sont, d'après Paul Claudel, la ressource particulière de poésie (3). Ponge s'adresse aux paroles avec amour, il les attend en extase :

"Paroles, s'écrie-t-il, fondez du haut des airs sur ce papier(4) !"

Pièces se présente au lecteur comme "une gueule enflammée", "la gueule d'un four où se souffle la parole". Dans *Pour un Malherbe*, ces paroles semblent embraser "la tour Babel avec sa bouche dentue ou ignivore (5)". De même, *La rage de l'expression* pourrait en quelque sorte désigner étymologiquement "O, rage de l'expression" ou encore "orage de l'expression", ce qui veut dire "violence originaire de la masse textuelle". Là, le discours critique se sent "névrotique", il semble "condamné aux identifications", voué à adorer ou à agresser. La paraphrase dispose ainsi sur les côtés du texte et tout le long du récit où les phrases s'engagent dans un véritable jeu.

(1) Francis Ponge—"Tentative orale" in *Les cahiers de la Pleiade*. Printemps 1969. Paris Gallimard P. 81.

(2) Jean Voellmy — *op. cit.* P. 75.

(3) cf. Paul Claudel—*Positions et Propositions*. I. Paris, Gallimard 1955, P. 120. et René Char — *Les matinaux*. Paris, Gallimard 1948. Lorsqu'il écrit "L'intensité est silencieuse. Son image ne l'est pas". P. 103.

(4) Francis Ponge — *Nouveau recueil*. Paris, Gallimard 1967, P. 49.

(5) Philippe Bonnefis — "Faisons carrément l'éloge de l'araignée" in *Revue des sciences humaines*, P. 188.

corps qui écrit traversé de fatigues, de pulsions, de fièvres, de relâchements (1)".

C'est à partir de là que le bourgeonnement textuel se produit dans la masse textuelle du poème pongien pour ainsi dire, former des détours, des blocages, des fixations rythmées. En prenant par exemple la masse textuelle de "La fabrique du pré", nous constatons que le poète suit un programme d'écriture allégorique : vie, pourriture, mort, régénérescence, prolifération, cycles organiques : tout cela met en scène une longue "fabrique" sémantique. Ainsi composé, le texte est naturellement susceptible de plusieurs niveaux de signification, comme le déclare Francis Ponge lui-même au cours de ses entretiens avec Philippe Sollers(2).

Il y a en effet une fabrique, à savoir : la production d'un "Acte textuel". Ponge s'arrête aux démarches de l'esprit lorsqu'il se fait penseur. Il jouit pour ainsi dire, aussi bien de sa parole que de son silence, puisque, selon les termes de René Char

"La beauté naît du dialogue, de la rupture du silence et du regain de ce silence".

Lorsque Ponge décrit ses objets et tend à les faire parler, il pénètre dans le silence et le charge de mots pour combler le vide immense de l'abîme du langage". Seul par ce moyen il arrive à gagner des formules nouvelles et des formes inusitées de la pensée. Les fameux vers de Paul Valéry reviennent alors :

"Patience, patience,
Patience dans l'azur :
Chaque atome de silence
Est la chance d'un fruit mûr(3)".

Ponge fournit un effort singulier pour arriver à cette nouvelle rhétorique. S'il dépasse un grand nombre de poètes, qui s'étaient aventurés dans

(1) Christian Progment — "Pour une poétique matérialiste". La lecture sur le pré-Francis Ponge in *Critique*. Revue générale des publications françaises.

(2) *Entretiens avec Philippe Sollers* P. 170

(3) Paul Valéry— *Variété III*. Paris, Gallimard, 1936. P. 15.

en approfondissant cet art poétique que l'on arrivera à dégager les éléments fondamentaux sur lesquels est fondé le corps même de la poésie pongienne, son essence, ou, pour plus de précision, sa masse textuelle.

2 — Masse textuelle :

Dès le premier contact avec l'oeuvre de Francis Ponge, elle pourrait se montrer d'une particularité significative. Une certaine assurance de sa masse textuelle s'impose immédiatement au lecteur. "Le Carnet de Bois de Pins", "La crevette dans tous ses états", certains textes de *La Rage de l'expression*, du *Savon*, une bonne partie de *Pour un Malherbe* obligent ce dernier à suivre des sentiers à travers des développements énergétiques, avec un geste long, patient, en plusieurs biffures, rejets et surjets. Une saturation graphique des pages montre souvent le calque d'une activité physique, qui inscrit parfois un diagramme corporel. Une condensation de lignes offre des aspects en masses, tantôt carrées ou rectangulaires, tantôt arrondies ou pyramidales.

Une première lecture en bloc des textes pongiens donne l'impression d'un corps au travail, il s'agit d'un texte qui s'écrit. La masse textuelle qui se présente est tantôt longue ou courte, tantôt mince plate, tantôt concentrée ou resserrée. Elle s'étale suivant des aspects particuliers et d'une extrême fantaisie selon une verticalité, une horizontalité, une dilatation, un engorgement ou un épanchement, pour former des surfaces vagues ou des oeuvres en spirales qui tournent "en rond(1)". Ainsi la lecture des oeuvres de Francis Ponge avance à travers une masse textuelle qui se base sur une multitude d'éléments comme :

"tracement, griffure, dynamisme corporel du mouvement génétique mettant en jeu comme actants essentiels de son travail les "détails" que l'idéalisme rejette habituellement au magasin des accessoires sans importances (sans "rolé") : (supports, instruments, stylo, lunettes, etc..) matériau verbal dictionnaire, meubles dans la pièce où l'on écrit

(1) Parlant de sa rédaction du "Galet", Ponge déclare avoir tenté d'écrire "en rond".

qui les caractérise. Dans son volume *Le peintre à l'étude*, soulignons le texte intitulé "Matière et mémoire", où il s'agit de la pierre lithographique. Ce texte caractéristique dévoile une nouvelle source de la poésie humaniste. Les principes fondamentaux de l'art poétique de Ponge s'y trouvent génialement interprétés au moyen de valeurs symboliques. Celles-ci établissent des rapports intimes entre l'homme et l'objet à l'aide de commentaires faits sur les relations entre l'oeuvre et son contexte. Un autre ouvrage *Le Savon* permet aussi de dévoiler les principes de cet art poétique. Avec ce long poème, qui revêt l'aspect d'un discours sur le langage poétique, nous avons à faire à une sorte de réciprocité établie entre l'eau, les mains et l'air. Le poète expose une multitude de problèmes émergeant à travers les aspects divers de l'objet : tantôt c'est la "tendance théoriquement auto-reflexive de la littérature moderne (1)", tantôt ce sont "les rapports entre l'oeuvre et la nécessité de la recherche diachronique(2)", ou encore c'est "l'identité ou la non-identité entre l'écriture et la lecture (3)". Or, il ne s'agit pourtant pas d'une analyse littéraire faite à travers l'ouvrage même, mais plutôt d'un simple commentaire critique. Ponge ne prête aucune attention aux relations poétiquement fertiles, établies à l'intérieur du texte, entre l'apparence et le valeur symbolique du savon. Il n'insiste pas non plus sur les liens qui existent entre le savon en tant qu'objet de la description, et la description elle-même. Ce qui l'intéresse surtout c'est le pouvoir d'insister sur "tout art poétique (et il y en a de très variés) ressortant de la renaissance de la poésie, qui a déconcerté tant de gens et en déconcerte encore quelquefois aujourd'hui". En évoquant l'oeuvre de Francis Ponge, un critique dit qu'elle est formée au rythme "d'un homme qui travaille comme le chêne fait son bois dur"; cela rervient effectivement à la brièveté et la densité, à la loyauté et la solidité de cette oeuvre si riche. Elle se se révèle importante non seulement dans le domaine de la poésie et de l'art, mais encore dans le sens même de la vie de l'homme, qu'elle soit spirituelle ou morale. C'est

(1) Livius Ciacârliu — "Un art poétique contemporain — Le Savon de Francis Ponge" in *Analele Universitatii din Timisoara*, serie stiintie filologica. Vol IX. 1971. — P. 21.2

(2) *Ibid.*

(3) *Ibid.*

Ponge tend ainsi à une communication avec la réalité universelle. Il veut aller au secours de l'homme, ce souverain détrôné, assujéti par la tyrannie de la matière déchaînée par la science et l'inconscience. Il aspire à rendre à l'homme "la santé dans la vie de l'esprit". Par dégoût des idées, le poète choisit de parler des objets comme la fenêtre, le pré ou le lézard :

"Les idées, déclare-t-il, ne sont pas mon fort. Je ne les manie pas aisément. Elles me manient plutôt, me procurent quelque écoeurement ou nausée. Je n'aime pas trop me trouver jeté au milieu d'elles." (1)

Par opposition avec Schopenhauer et Hegel, non seulement il préfère La Fontaine, Rameau et Chardien, mais, plus encore, il estime davantage un galet, une scholie ou un brin d'herbe. Seuls ces "jets du monde extérieur" peuvent lui donner le maximum de bonheur par l'effet de leur "surprise" :

"Les jets du monde extérieur au contraire me ravissent. Il leur arrivent de me causer de la surprise, mais ne paraissent en aucune mesure se soucier de mon approbation : elle leur est aussitôt acquise. Elle ne les révoque pas en doute (2)".

En ramassant un caillou, "n'importe quel caillou", en observant un objet quelconque, Ponge parvient à en tirer des "déclarations inédites du plus haut intérêt (3)". Même les mots, les oeuvres, les textes sont pour lui de nouvelles sortes d'objets. En face d'un mot, d'une oeuvre, d'un texte, d'un galet, d'une crevette ou d'un cageot, Ponge se met toujours dans une extase poétique. Tous ces objets, il les voit décrits avec "le même mélange de gourmandise forcenée de l'objectivité(3)"

(1) Francis Ponge — *Le grand recueil — Méthodes* — "My creative method". Collection Idées N.R.F. P. 25.

(2) *Ibid.* P. 25.

(3) *Ibid.*

(4) Marc Alyn — *La nouvelle poésie française*. ed. Robert Morel. Paris 1968, 251 pages. P. 227.

“Le chaos inhumain où est plongé de nos jours
l’homme des grandes villes, écrit Jean Rousseau,
est d’abord un attentat contre les choses (1)”.

Et Ponge de dire : “Hélas : pour comble d’horreur, à l’intérieur de nous-même, le même ordre sordide parle...”

En effet, même les mots que nous utilisons correspondent eux aussi, d’après le poète, au désordre des choses “dans l’informe et le dénaturé”(2). Etant à la recherche du vrai mot, Ponge sait qu’il doit correspondre à l’ordre des choses vraies. Ressentant le tiraillement de l’homme entre la perte et le salut, reconnaissant l’éternel jeu de cet ange déchu qui se débat dans les deux sens, Ponge essaye à l’aide de sa poésie, tout en ayant recours à la nature des choses, de lui ouvrir les horizons d’un humanisme nouveau. Loin d’être une tentative philosophique, le poésie de Ponge fait largement pont à des questions qui concernent l’homme. Il s’agit d’une solidarité qu’il essaye d’établir entre l’homme d’une part, et les objets qui meublent son monde, d’autre part. En entreprenant cette initiative, Francis Ponge s’est clairement exprimé, disant qu’il essaye :

“de créer des objets littéraires qui aient le plus de chances”.

“Je ne dis pas de vivre, explique-t-il, mais de s’opposer (s’objecter, se poser objectivement) avec constance à l’esprit des générations, qui les intéressent toujours (comme les intéresseront toujours les objets extérieurs eux-mêmes, restent à leur disposition de leur désir et goût du concret, de l’évidence (muette) opposable, ou du représentatif (ou présentatif).

“Il s’agit d’objets d’origine humaine, souligne-t-il encore, faits et exposés spécialement pour l’homme (et par l’homme) mais qui atteignent à l’extériorité et à la complexité, en même temps qu’à la présence et à l’évidence des objets naturels (3)”.

(1) André Rousseau — *op. cit.* P. 92.

(2) *Ibid.*

(3) Francis Ponge — *Le grand recueil. Méthodes.* “My creative Method”. Collection Idées N.R.F. P. 17.

“attitude naïve chère à tous les radicalismes philosophiques, à Descartes, à Bergson, à Husserl” écrit Sartre,

Tandis que pour Francis Ponge,

“fort peu, chez lui, de ces instantanés brillants par quoi une Virginia Woolf, une Collette rendent exactement l'apparence d'un objet (1)”.

En témoignant de la renaissance de la poésie contemporaine, Francis Ponge arrive à utiliser le mot “renaître” au sens le plus fort de ce terme. Ce n'est pourtant pas un nouveau départ sur une ancienne ligne ou un surgeon qui éclot sur un vieil arbre; non, avec Ponge il s'agit d'un art poétique qui a l'aspect d'une reconquête du monde terrestre par la dignité même de l'homme. Un grand effort est fourni de la part du poète pour renouer entre les choses et l'homme d'un côté, entre la réalité de la substance verbale et la parole de l'autre. Ponge aspire à une renaissance du monde humain des choses les plus simples. Il leur donne la possibilité de retrouver une nouvelle prise de possession par l'esprit de l'homme, une acquisition des qualités correspondantes. Son but poétique est aussi politique, car il est celui de créer un monde nouveau où les hommes et les choses connaîtront des rapports harmonieux(2). Pour retrouver le chemin de l'homme, Ponge doit sonder et redécouvrir l'univers des choses les plus simples, les plus banales, les plus insignifiantes. Aussi se place-t-il devant la nature des choses (Natura Rerum). Une loyauté intellectuelle s'empare de lui toutes les fois qu'il se place devant un monde d'une telle finesse et délicatesse. Il le contemple alors avec la patience d'un paysan, ou celle d'un cultivateur avide de regarder ses propres faits. Il prend cette attitude parce qu'il connaît l'effet destructeur, celui de la corruption et de la négligence de la nature des objets, qui se trouve à la base de la déchéance de l'homme dans le monde actuel :

(1) Jean-Paul Sartre- *Situation I*. “L'homme et les choses” P. 262.

(2) Voir notre article sur “La symphonie des choses dans l'oeuvre pongienne”.

Un contact direct et continue s'engagea ainsi entre les choses et les mots. Ponge puise dans ce trésor inouï. Il s'élance avec vigueur et insistance dans cet univers immense où l'abstrait au concret s'allie. Séduit par cet amour, le poète ne tardera pas à l'exprimer dans son *Parti-Pris des choses* en disant :

“O ressources infinies de l'épaisseur des choses
rendues par les ressources infinies de l'épaisseur
sémantique des mots (1)”.

Très souvent, une leçon de choses semble naître de ses poèmes. Sur ce point, on pourrait rapprocher Francis Ponge de la Fontaine. Mais si, par moments, on arrive à les voir tous deux sous la perspective d'un certain angle, on devrait cependant les écarter sous d'autres. Pendant que le grand fabuliste dirige lui-même ses figures, Ponge, lui, cède à l'initiative des choses. Jamais il n'impose sa leçon comme la Fontaine, mais lui permet de résulter de sa propre observation, la considérant comme “une conséquence organique”(2) Chaque fois où La Fontaine utilise l'expression “il est utile à l'homme”, Francis Ponge, grand administeur du fabuliste déclare qu'il est “plaisant”, “avantageux” ou plutôt “utile à l'écriture” :

“ne serait-ce que pour désarmer les prétentions de
l'une par celles de l'autre, écrit Philippe Bonnefis.
C'est par commodité: une façon de faire des mines,
de prendre des poses dans un métier qui en fournit
si peu l'occasion (3)”.

Comme Buffon faisait pour le cheval ou la giraffe, Ponge, dans l'artifice de la description, réside dans le gymnaste comme étant le représentant d'une espèce animale. Le poète contemporain tend à prêter son langage à toutes ses paroles enlisées, engluées, leur permettant de surgir de la terre, de l'air et de l'eau : il existe en effet une

(1) Francis Ponge — *Parti pris des choses*. Paris 1942.

(2) Jean Voellmy — *Aspect de silence dans la poésie moderne*
P. 72.

(3) Philippe Bonnefis “Faisons carrément l'éloge de l'araignée”
in *Revue des sciences humaines* — 1973 — P. 400.

désigner le refus de ses barrières. Renfermant un monde en tension qui, à la fois, existe et n'existe pas, elle exige à la contradiction de devenir un de ses éléments fondamentaux.

Art poétique frappé, martelé, resserré au maximum, la poésie contemporaine renferme le furtif et l'insaisissable. Elle révèle la rencontre aléatoire qui dénonce un certain "jeu" dans le système. Sous l'effet de la "charrue poétique", une réalité s'éveille dans sa diapure originelle, comme ce fut le cas de *Proème* de Francis Ponge où :

"sont mises à jour des millions de parcelles, de
paillettes, de racines, de vers et de petites bêtes jusqu'
alors enfouies(1)."

"L'Absurde", malgré son mystère et son inquiétude, semble moins massif, moins impénétrable, plein d'étonnements, plein de surprises à faire rêver. N'importe quel détail ne brille qu'à la condition de le "déshabiller". C'est bien Ponge qui, selon les termes de J.P. Sartre, a su "déshabiller" les objets des significations trop humaines dont ils étaient parés et d'avoir "assimilé, digéré le monde des choses pour découvrir le grand espace plat des mots(2)". En utilisant un "instrument nouveau", Ponge a su créer un art poétique où le lien entre l'objet et la parole a pu s'établir :

"Cette nouvelle alliance, déclare André Rousseau,
des choses de la terre et de la parole de l'homme ne
pouvait se nouer qu'au moyen d'un instrument
nouveau(3)".

(1) Francis Ponge- "*Proèmes*" , P. 139. Notons que ce titre "*Proèmes*" a suscité la colère de quelque critique: "Ah ces poètes modernes, toujours leurs néologismes : ". Mais en cherchant ce terme dans le Littré, on constate que "proème" est un vieux mot qu'on trouve chez Amyot et Christine de Pisan; et signifie préface, exode ; étymologiquement : chemin d'entrée.

(2) Jean Paul Sartre - *Situations*. I "L'homme et les choses". P. 261.

(3) André Rousseaux — *op. cit.* P. 89.

L'oeuvre lyrique de Claudel et l'oeuvre épique de Peguy soulignent toutes deux cette tendance. Quant au *Faust* de Valéry, cet ouvrage caractéristique exprime l'aveu suivant : le symbolisme prolongé doit aboutir, tôt ou tard, au néant. Ainsi les différentes tendances poétiques se révèlent par des dominantes. Elles ont rapport à un certain mode de création comme ce que l'on pourrait lire dans une anthologie de la poésie française contemporaine (1). Le poème moderne, cet instrument nouveau, est ainsi une sorte de connaissance manifeste entre le langage et le monde extérieur, monde de l'objet et prétexte d'évoquer le langage. Francis Ponge déclare dans son "Discours du pré" que le poème ou texte "devient la production même du discours en tant que oeuvre". Souvent le poème moderne représente une sorte de théorie syntaxique et syntagmatique dont la fonction, selon Jakobson, se situe dans "la théorie de la communication". Le langage poétique se transforme en un "langage intransitif" renfermant un squelette interne. Les mots jettent leurs sens les uns sur les autres, afin de favoriser la symbolique du son, de la sonorité des groupes phoniques qui se rapprochent de ces mots :

"C'est bien là, écrit Vajas, les symptômes des difficultés d'analyse, qui empêchent de découvrir les structures significatives typiques qui pourraient servir de principes ordonnateurs théoriquement bien fondés dans l'étude poétique d'une époque(2)".

Etant "poétique", le mot n'est pas seulement une désignation mais plutôt un "discours performatif". La poésie moderne se met à transgresser à travers une série d'oppositions pour ainsi dire, afin de

(1) L'anthologie de Serge Brindeau : *La poésie contemporaine de la langue française depuis 1945* (Paris, éd St. Germain des Prés, 1973) se compose de plusieurs livres. Dans le 1er par exemple, les poètes et les tendances sont répartis en 16 chapitres, le dépassement du vocabulaire où il s'agit du lettrisme, du spatialisme, du langage paralloïdre, ensuite le Ch. II intitulé surréalisme assez vague, ensuite poésie ésotérique, cosmique, mystique et nature menacée, "l'homme au travail" ou bien poésie philosophique ou chemin profond.

(2) Andras Vajdas : *op. cit.* P. 147.

revient aux tendances des expériences dadaïstes, qui visent essentiellement non pas la matière, mais les "structures verbales" et les "jeux structurels". Or qu'il s'agisse de déformer les structures pré-existantes ou d'en forger de nouvelles, cela s'apparente à une façon particulière d'analyse, de caractère quelque peu poétique soit-elle. André Breton a voulu reconstruire le dadaïsme en trahissant le monde extérieur. Exposant le désir au centre, il ira au delà du réel et prêchera le surréalisme à travers le rêve.

D'autres poètes du XXème siècle, comme Pierre- Jean Jouve, construisent un monde poétique et mystique qui rejoint la mythologie freudienne. Henri Michaux écrit une poésie qui provient de ses propres impressions, beaucoup de ses poèmes représentent des innovations ou "forgeies", qui offrent une certaine cohérence sémantique et ne doivent être examinées qu'à un niveau linguistique supérieur. Antonin Artaud s'attarde sur l'impossibilité d'accéder au monde, extérieur, car c'est en soi-même que l'on trouve la totalité de l'univers. Une fonction symbolique enfouie et une violence de l'obscur se dévoilent dans ses poèmes. Aussi découvre-t-il que "tout vrai langage est incompréhensible".

Un retour au monde sensible de la conscience individuelle se manifeste. Dû aux différents régimes politiques : communisme, socialisme, stalinisme, ce courant est renforcé par les querelles incessantes entre la France et l'Allemagne, par les mouvements de l'Allemagne et son Nazisme, de l'Italie et son Fachisme, de la Russie et son Marxisme. Philosophes, penseurs et poètes Français se trouvent élançés dans la voie du "personnalisme". Un des représentants de cette poésie de la jeunesse est Jacques Prévert. Avec la deuxième guerre mondiale, la poésie acquiert une légèreté significative. Aragon, Pierre Emmanuel, René Char, Paul Eluard et autres retournent avec leurs poèmes à l'éloquence et le pathétique. Vivement émus par le fait d'avoir vécu la guerre, ces poètes expriment une violence manifeste dans la poésie contemporaine. Celle-ci finit par former un système différentiel, qui possède une rationalité élargie. Il s'agit de l'ouverture d'un éventail caractérisé par des convergences et des divergences. La poésie contemporaine est ainsi un mode de connaissance de la langue, une épistémologie de cet art. Elle aide à aiguillonner la science et donne une réconciliation possible au poète pour renouer puissamment avec les choses du monde créé.

Plus tard, les penseurs donnent encore plus de vigueur à la poésie en s'imprégnant du mot de Sartre : "la poésie est comparable à l'air et à l'eau". Ils insistent sur l'importance de la poésie. Elle "est autour de nous, écrit Raymond Jean, elle se respire, elle se touche, elle se traverse, elle est un élément de la nature(1)".

La poésie permet souvent à l'homme de vivre en ce monde, de vivre avec ce monde, de vivre pour ce monde, car "l'honneur de l'homme est d'avancer dans ce monde, en même temps qu'il le fait avancer avec lui. Et l'honneur du poète est d'en témoigner pour tous les hommes(2)".

Dès le XXème siècle, un examen des oeuvres poétiques médiévales glisse vers la philologie pure. Un même glissement s'opère vers un subjectivisme ou impressionisme critique. Ainsi la critique de la poésie moderne s'éloigne de l'interprétation pour s'approcher de la pure description.

Après la première guerre mondiale, la poésie fait table rase : perte du sentiment de la réalité; naissance d'un relativisme, apparition du freudisme, instauration de la psychologie des profondeurs. Une crise de conscience mêlée à un côté patriotique s'exalte nettement dans les poèmes. Dans une grande partie des cas on ne parle que des thèmes principaux de tel ou tel poète. La mort d'Apollinaire le 9 novembre 1918 durant la guerre, effectue une interruption brutale qui recevra rapidement son contre coup. Lucien Lefèvre précise qu'il faut prendre du recul.

Jean Cocteau et Paul Mauron offrent à la poésie un côté purement mondain. Raymond Radiguet lui apporte une acidité remarquable. Un recours au mythe, dans le but de libérer le côté évanescant du symbolisme, se déclare. Le dadaïsme naît avec Tzara. Quelques uns de ses textes, ou ceux d'autres dadaïstes, entrent dans la catégorie des écrits ininterprétables et inanalysables, comme textes poétiques. Cela

(1) Raymond Jean - "La parole poétique" in *L'Arc* No. 70, 1966. P. 60.

(2) André Rousseaux - *Littérature du XXème siècle* - Paris, Albin Michel 1953. P. 83.

l'étrange profondeur de tout ce qui l'entoure, capte les souvenirs les plus fragiles, saisit les instants les plus futiles, s'accroche aux créations les plus subtiles. Grâce à sa sensibilité de poète, Ponge voit et sait dire, regarde et aide à voir.

Il serait donc intéressant de sonder les horizons nouveaux des tendances poétiques contemporaines. C'est à travers l'oeuvre de Francis Ponge que nous essayerons d'explorer ces univers délicats en nous introduisant dans les profondeurs mêmes de l'art poétique, de la masse textuelle, du langage et de l'écriture de ce génie, afin d'"entrer aux splendides villés"(Rimbaud) où, peut-être, il n'y aurait que des merveilles" (Paul Eluard).

1. *Art poétique* :

L'art poétique exige toujours un instrument neuf chargé d'un art et d'un langage dans la plénitude de leur force. Tendant à l'édification d'un monde constamment nouveau et qui ne ressemble pas à un autre, l'art poétique demande aux poètes de retenir avant tout la plus grande partie des règles d'Aristote.(1).

Dès le XVIIème siècle les grands poètes, comme La Fontaine, Racine et autres, possèdent une certaine souveraineté poétique. Désormais, la force de cet art poétique n'ira qu'en s'affaiblissant. Les poètes romantiques se voient obligés de se retourner vers les époques antérieures. Ils prennent pour modèle Ronsard et ses émules et leur demandent de les réarmer. Formulant un arrêt, une halte dans la communication, la poésie du XIXème siècle, elle, représente le moment de la respiration, celle où l'on revient à soi. C'est ainsi qu'elle se manifeste avec Nerval, Verlaine ou Baudelaire. Chez ce dernier, la poésie devient une manière de retrouver l'unité perdue. En principe, le symboliste se jette dans une nouvelle entreprise: "celle de mettre en place du monde aboli, un monde créé par son propre verbe(2)".

(1) On pourrait résumer ces règles en cinq points essentiels : 1- Quoi dire ? 2- Comment disposer ? 3- Savoir disposer ou l'élucto. 4-mise en scène ou l'actus. 5-une facilité pour la mémoire ou mémoria.

(2) Andras Vajdas- "Pourquoi est-il difficile d'analyser la poésie moderne ? " - in *Annales Universitatis Scientiarum Budapestinensis De Polando Eotvos*. Tome VIII. 1977. P. 147.

sonnelles(1). " Un souci de justesse et d'exactitude, de recherche et de sincérité, d'explication et de "logique raisonneuse" ne cesse de scander cette nouvelle poésie. Ponge tend à fonder en raison (résons) quasi scientifiquement (...) l'audace de (ses) intentions (2)."

Tantôt botaniste, tantôt miniaturiste et horloger, Ponge essaye d'étudier patiemment son objet afin d'élaborer un rouage intime sur le plan de la parole, car "il s'agit d'une activité et d'un travail (3), comme il le dit. Un monde poétique nouveau surgit et s'épanouit sous sa plume : "un monde reposant et clos"(4).

Ses poèmes ou textes se présentent sous l'aspect de constructions biseautéées, dont chaque facette représente un paragraphe ou unité organique pouvant se suffire, car c'est là "un monde qui se suffit".

Douze petits écrits (1926), *Le parti pris de choses* (1942), *Proèmes* (1948), *Le peintre à l'étude* (1948), *La Seine* (1950), *La rage de l'expression* (1952), *Le grand recueil* (1961), *Pour un Malherbe* (1965), *Le savon* (1967), *Le Nouveau recueil* (1967) et autres marquent les principaux moments de son oeuvre poétique dont la sensibilité de l'expression fait confiance à la pureté du langage. Qualifié de "toile" à la fois transparente et opaque, cette oeuvre oblige "à changer toute une métaphorique car on ne jette pas un filet" selon Philippe Bonnefis (rien à trouver), "on tisse une toile", A la limite de cette transparence qui aveugle, "on aurait aimé faire affleurer une texture(5)". Tout en apprenant du langage, Ponge lui demande de ressusciter un esprit différent. Un regard nouveau se reconnaît chez lui, regard qu'il ne maîtrise pas, regard qui se porte au hasard, s'acoroche aux détails superflus, aux choses simples, aux objets négligés. Regard vif qui s'infiltré dans

(1) *I.d.* - *Méthodes*. P. 41.

(2) *I.d.* - *Pour un Malherbe*. P. 57.

(3) *Entretiens de Francis Ponge avec Philippe Sollers*. op. it. P. 27.

(4) Jean Voellmy - "Aspects du silence dans la poésie moderne". Une étude sur Verlaine, Mallarmé, Valéry, Rimbaud, Claudel, René Char et Francis Ponge. Zurich 1952. 85 pages. P. 70.

(5) Jean Onimus. „Jean Follain ou les profondeurs de l'insignifiant" in "Annales de la faculté des lettres humaines de Nice, 1971. P. 127.

“On m’a classé rapidement, on m’a fourré dans la compagnie des poètes, dit-il, alors que je n’ai cessé de déclarer que je ne voulais pas être considéré comme un poète, que je ne me croyais pas, mettons, digne de cette appellation, et que j’écrivais en prose; que j’ai également, comme je vous l’ai dit, choisi cette activité non du tout pour former des objets poétiques, mais seulement pour pouvoir dénoncer le langage commun, en former ou aider à en former un autre, et que je pense seulement que je ne pouvais pas écrire, et que l’on ne peut pas écrire autrement que j’ai écrit, j’ai essayé seulement d’écrire de la façon la plus claire que j’ai pu.” (1)

Francis Ponge entend par “poème” un ouvrage particulier ou “texte”, qui souvent exclut le lyrisme. Il aspire à un “antilyrisme”, à une volonté de communication toute neuve, à une “sortie du manège”, “sortie du “ronron poétique”. Son but est celui d’aboutir à une “considération élémentaire, lexicale, organique, à la mesure d’une crise radicale(2).” Muni du don de l’observation exacte et scientifique, Ponge fait revêtir ses textes de son talent, tout en n’enlevant rien à la précision de son style.

Votant pour le progrès de la science, cet écrivain aspire à rendre son affaire plus scientifique que poétique :

“Je désire moins aboutir à un poème qu’à une formule, écrit-il. S’il est possible de fonder une science dont la matière serait les impressions esthétiques, je veux être l’homme de cette science(3)”.

Ses écrits se veulent toujours, comme il le dit, “claires et imper-

(1) *Entretiens de Francis Ponge avec Philippe Sollers*. ed. Gallimard. 1970. P. 16.

(2) *Ibid.* P. 11.

(3) Francis Ponge- *La rage de l’expression*.

FRANCIS PONGE
ET
LES TENDANCES POÉTIQUES CONTEMPORAINES

Par

NAFISSA ABDEL FATTAH SCHASCH

"La poésie est toujours la promesse d'un monde
requalifié"(1)

(Raymond Jean)

"Qu'y-a-t-il de plus engageant que l'azur si ce n'est
un nuage, à la clarté docile ?"(2)

(Francis Ponge)

"Manière d'être et de concevoir le monde", la poésie concrétise une pureté originelle du langage, Elle représente la forme la plus spécifiquement littéraire de la société. A l'aide du "jeu" et de la "musique", elle rejoint une réalité cachée et s'incarne en un système singulier de perception. Pouvant dire "plus que la prose en moins de mots", selon les termes de Voltaire, la poésie offre un mode de connaissance du langage, une épistémologie de la langue, une manière de réconciliation possible entre le langage et le monde extérieur. Parlant du poète, Jean Cocteau exprime l'essentiel en ces mots: " le poète écoute le dieu, le poète reçoit le dieu, le poète transmet le dieu."

Dans le cas de la poésie du XXème siècle, et plus particulièrement dans celle de Francis Ponge, il ne s'agit presque plus de poèmes en tant qu'unités organiques et relativement autonomes, mais plutôt de certains procédés ou effets poétiques isolés :

(1) Raymond Jean: "La parole poétique" in *L'Arc* No. 70, 1966. P. 64.

(2) Francis Ponge: *Pièces* - "L'insignifiant". n.f. Gallimard 1962. P. 7.

—, *L'imaginaire*, Psychologie phénoménologique de l'imagination, Paris, Gallimard, 1940.

—, *L'Etre et le Néant*, Essai ontologique Phénoménologique, Paris, Gallimard, 1943.

—, *L'âge de Raison*, (Les chemins de la liberté t. I) Paris, Gallimard, 1943.

—, *L'existentialisme est un humanisme*, Coll. Pensées, Paris, Nagel, 1946.

—, *Situations I*, Paris, Gallimard, 1947.

—, *Théâtre*, Les mouches, Huis-clos, morts sans sépulture, la putain respectueuse,, Paris, Gallimard 1947.

—, *Situations III*, Paris, Gallimard, 1948.

—, *Qu'est-ce que la littérature?* Paris, Gallimard, 1948.

—, *Critique de la raison dialectique*, Paris, Gallimard, 1960.

—, *L'imagination*, Paris, Presses Universitaires de France, 1965.

—, *Situations IX*, Paris, Gallimard, 1970.

—, *Oeuvres romanesques*, Edition établie et annotée par Michel Contat et Michel Rhybalka, Gallimard, Bibliothèque de la Pléiade, 1982, 2286 P.

VERSTRAETEN, Pierre, *Violence et éthique*, Gallimard, Paris, 1972. 447 P.

ARTICLES :

BURNIER, Michel Antoine, "Un combat politique" in *L'Arc*, revue trimestrielle No. 30, 1966, P. 15 à 19.

LAPLACE, Yves, "Jean-Paul Sartre et Simone de Beauvoir-Coma" in *Littérature*, No. 8, du 24 février 1982.

"Une étude sans précédent dans l'histoire littéraire—Une psychanalyse perce les vrais secrets de Sartre". Compte-rendu in *Samedi Soir* du 7-13 Octobre 1950.

- , *Essais de Psychanalyse*, Paris, bibliothèque scientifique, Payot, 1954, 250 P.
- , *Introduction à la psychanalyse*, Paris, petite bibliothèque Payot, 1962, 444 P.
- , *Trois essais sur la théorie de la sexualité*, Paris, Gallimard, 1925, 222 P.
- , *Nouvelles conférences sur la psychanalyse* suivi de *Psychanalyse et médecine*, Paris. Gallimard n.r.f., 1975, 185 P.
- IDT, Genevieve**, *Le mur de Sartre*. Techniques et contextes d'une provocation-Paris, Larousse, 1972, 223 P.
- JACOBI, Jolan**, *La psychologie de Jung*. actualité pédagogiques, et psychologiques, Paris, Delachaux et Niestlé, 1949, 194 P.
- JEANSON, Francis**, *Sartre par lui-même*. Paris. écrivain de toujours, aux éditions du seuil 1957. 191 P.
- JUNG, Carl-Gustav**, *Essai d'exploration de l'inconscient*. Paris. Gonthier, 1965, 707 P.
- , *Metamorphoses et symboles de la libido*, Paris. éd. Montaigne, 1924. 487 P.
- , *Dialectique du moi et de l'inconscient*, Paris, Gallimard, 1964, 274 P.
- LAFFONT, TCHOU** — *Les écoles psychanalytiques — la psychanalyse en mouvement — les grandes découvertes de la psychanalyse — freud — adler — rank — jung — reich — horney — fromm — bionhartman - castriadis — aulagnier - desoille - janov - france*, Sète. 1981. 319 pages.
- PACALY, J. SARTRE AU MIROIR, UNE LECTURE PSYCHANALYTIQUE DE SES ECRITS BIOGRAPHIQUES**, FRANCE, 1980, 472 pages.
- PONGE, Francis**-*Le Parti Pris des Choses-Proêmes*. Paris Gallimard 1948,
- SARTRE, Jean-Paul**, *Le Mur* (La chambre. Erostrate, Intimité, l'enfance d'un chef) Paris, Gallimard, 1939.
- , *Esquisse d'une théorie des émotions*, Paris, Gallimard, 1939.

Le fait d'être vivant n'a en effet rien signifié d'autre pour ce penseur que la promesse indéradicable du "Néant". N'a-t-il pas déclaré que la plupart des hommes qui pensent "sont condamnés au désespoir" ? Ainsi toute vie est reconnue par Sartre comme une sorte de Coma qui sépare la naissance de la mort(1). Avant de mourir, cet existentialiste s'est défini par les mots suivants :

"Tout un homme fait de tous les hommes et qui les vaut tous et que vaut n'importe qui (2)".

BIBLIOGRAPHIE

ABRAHAM, Dr. Karl, *Psychologie et Culture*. Paris, Petite bibliothèque, Payot, 1969, 243 p.

BACHELARD, Gaston, *La poétique de l'espace*, Paris, Presses Universitaires de France, 1960, 220 P.

BEAUVOIR, Simone de, *La force de l'âge*, Paris, nrf, Gallimard, 1960, 624 pages.

—, *La cérémonie des adieux suivi des Entretiens avec Jean Paul Sartre*, Paris, Gallimard 1982, 564 pages.

BERGSON, Henri, *L'énergie Spirituelle*, Paris, Presses Universitaires de France, 132ème édition, 1967, 214 P.

BOUTONNIER, Juliette, *L'Angoisse* Bibliothèque de Philosophie contemporaine, Psychologie et Sociologie, Paris, Presses Universitaires de France, 1963, 314 P.

BRABANT, Georges Philippe, *Clefs pour la psychanalyse*, Paris, Seghers, 1970, 1971, 189 P.

DURAND, Gilbert, *L'imagination symbolique*, Paris, Presses Universitaires de France, 1968, 129 p.

FREUD, Sigmund, *The psycho-analytical treatment of children*. Technical lectures and Essays London, Imago Publishing Co. Ltd, 1947, 98. P.

(1) Yves Laplace, *op. cit.*, p. 11.

(2) *Ibid.*

Mais serait-il possible à l'homme de "se retrouver lui-même", sans avoir recours à la Puissance Divine qui a créé l'homme et lui a permis de régner sur la terre ?

* * *

En formant une oeuvre complexe et variée à la fois, Sartre a essayé d'atteindre son objectif dans ce monde déchiré et bouillonnant. En s'attribuant les privilèges du romancier, de l'essayiste, du dramaturge, du critique, du reporter, du scénariste, de l'orateur et du photographe, a-t-il pu instaurer ses théories, entre autres, sa théorie psychanalytique ? Considérant la littérature comme l'équivalent de la religion, Sartre conçoit la vie de tous les jours comme vile et absurde.

C'est à travers son oeuvre qu'il cherchait à s'édifier une autre vie contenant à la fois une valeur métaphysique et une sorte d'absolu "laïcisé". Mais si Sartre a fini par découvrir cette vie, pourquoi demeure-t-il jusqu'à sa mort broyé par la poursuite de sa recherche ? *La Cérémonie des adieux* de Simone de Beauvoir raconte que Sartre s'acharne jusqu'à la dernière heure, en dépit de la maladie et du vieillissement, à "demeurer lui-même", à travailler, à écrire, à prendre parti.(1)

A quoi donc tendait cet illustre philosophe ?.... A-t-il voulu jusqu'à sa fin, trouver une véritable concrétion au delà de la psychanalyse ? Pourquoi se sentait-il emprisonné dans un présent trop proche et cependant inaccessible ? "L'existentialisme est un optimisme" a-t-il déclaré un jour, l'existentialisme est une doctrine d'action dont la totalité de l'élan va de l'homme vers l'homme(2), précise-t-il Si à travers sa conception psychanalytique Sartre essaye de découvrir l'homme avec son existence, son engagement, sa liberté et son idéologie, cet élan individuel et unique" ne semble-t-il pas souvent, perdu dans l'immensité de l'Absolu ? Sartre écrit dans son livre *L'existentialisme est un humanisme* : "c'est seulement par mauvaise foi que confondant leur propre désespoir avec le nôtre, les Chrétiens peuvent nous appeler désespérés(3)."

(1) Yves Laplace, *op. cit.* p. 11.

(2) J.P. Sartre, *L'existentialisme est un humanisme*, p. 95.

(3) *Ibid.*

et à sa condition. Quant à la plupart des romanciers catholiques, ceux-ci découvrent dans l'amour un dépassement vers la Providence :

"l'élan vers Dieu n'est pas moins concret que l'élan vers telle femme particulièrement(1)".

Cependant Sartre ne croit pas à la puissance de l'amour et affirme que l'homme est seul maître de sa passion et de ses actes.

"L'existentialiste (...) ne pensera jamais qu'une belle passion est un torrent dévastateur qui conduit fatalement l'homme à certains actes, et qui, par conséquent, est une excuse. Il pense que l'homme est responsable de sa passion(2)".

Il s'agit donc de retrouver la totalité de l'élan vers l'être, de récupérer un "rapport originel à soi, au monde et à l'Autre (3)", élan purement individuel et unique.

Eloigné de toute sensation métaphysique, "Sartre a cessé de croire en Dieu à l'âge de onze ans". Son problème fut celui de concilier entre les exigences esthétiques d'un côté, et une certaine idée de l'efficacité de l'autre. Il aspire à une sorte d'intuition réconciliante à travers sa conception psychanalytique incluse dans l'existentialisme.

Défendant son agnosticisme il prétend que :

"l'existentialisme n'est pas tellement un athéisme au sens où il s'épuiserait à démontrer que Dieu n'existe pas. Il déclare plutôt : même, si Dieu existait, ça ne changerait rien ; voilà notre point de vue (...) il faut que l'homme se retrouve lui-même et se persuade que rien ne peut le sauver de lui-même, fut-ce une preuve valable de l'existence de Dieu (4)".

(1) *Ibid.*, p. 649.

(2) J.-P. Sartre, *L'existentialisme est un humanisme*. pp. 37 — 38
"l'homme est responsable de ce qu'il est" écrit Sartre.

(3) Francis Jeanson, *Sartre par lui-même*, p. 173.

(4) J.-P. Sartre, *L'existence est un humanisme*, p. 94.

l'expérience vécue, il ne peut éviter de s'enliser dans le labyrinthe de cette même psychanalyse. La méthode appliquée par Sartre et la doctrine suivie par lui, ayant tenu compte de ce qu'il y a de plus valable dans la psychanalyse, n'ont fait qu'y intégrer la philosophie existentielle. En tenant compte des "pensées" de la veille, de tous les "actes réussis et adaptés" du style etc., la psychanalyse existentielle rejoint la psychanalyse classique. Or, depuis l'analyse du "moi" qui occupe chez les chercheurs une place égale à celle qu'occupait au début l'analyse de l'inconscient, la psychanalyse classique s'intéresse également à plusieurs autres formes. Sartre a voulu, par tous les moyens, soutenir ses idées. Et comme la nature humaine est faite de telle sorte qu'on est porté "à considérer comme injuste ce qui déplaît," il en fut de même pour l'attitude de Sartre envers la psychanalyse classique. Arrivé là il devient facile à l'homme de prouver par des arguments afin de justifier son aversion. — Si les théories de Sartre se présentent souvent comme des chemins qui s'écartent d'une zone obscure et confuse : celle de la psychanalyse, il nous semble aisé de démontrer que les théories sartriennes mènent à cette même région.

"Le nouveau mode de l'être dans le monde", permet également à Sartre d'étudier l'amour. Il dévoile le sens de la cristallisation stendhalienne et précise que

"l'amour tel que le décrit Stendhal apparaît comme un mode de l'être dans le monde, c'est-à-dire comme un rapport fondamental du pour-soi au monde et à soi-même (ipséité) à travers telle femme particulièrement(1)".

J.-P. Sartre prétend que l'amour ne se réduit pas au seul désir de posséder une femme mais vise à s'emparer de l'univers entier :

"la femme, écrit-il, ne représente qu'un corps conducteur qui est placé dans un circuit(2)".

De même les moralistes trouvent dans la passion et le désir comme „un dépassement par lui-même". Jamais l'amour ne peut se réduire à lui-même, il s'élève au dessus de soi et renvoie à une réalité propre à l'homme

(1) J.-P. Sartre, *L'Etre et le Néant*, p. 649.

(2) *Ibid.*, p. 649.

Comportements et gestes semblent ainsi poussés par une "nécessité" immédiatement éprouvée. Se sentant fasciné par cette perspective, Oreste la trouve inscrite sur le fond même de sa perpétuelle absence.

Sartre n'hésite donc pas à soutenir toute thèse ramenant à la liberté humaine. Il refuse le rôle accordé par le freudisme à l'inconscient, à cause de sa rigidité qui écrase cette liberté humaine. A travers ses pièces de théâtre, il tend à influencer le spectateur par sa propre opinion :

"le théâtre contestant la réalité n'est-ce pas une des meilleures façons de provoquer la société à s'infliger elle-même de sa propre contestation ?

User des prestiges pour dénoncer le recours aux prestiges, prendre appui sur des faux semblables pour désigner la vérité, posséder pour mieux affranchir, séduire pour mieux libérer ..."

VII. *Nouveau Mode de L'Être Dans Le Monde*

En choisissant certains thèmes connus grâce à la psychanalyse et en les interprétant à sa manière, Sartre s'est persuadé ne rien laisser échapper des vues les plus modernes et les plus audacieuses. Il a pu les situer dans une atmosphère acceptable pour les gens bien pensants. Son but est celui de dépasser les théoriciens et de prêcher un nouveau "mode de l'être dans le monde". La littérature fut d'emblée pour lui "la recherche d'une justification dans le futur, une transformation de la vie éternelle". Cet existentialiste trouve qu'il est préférable d'accepter provisoirement, dans le présent, une existence "contingente et vague", pour être reconnu éternellement, par la société après sa mort. Il pense que l'homme déchiffre lui-même le signe comme il lui plaît. L'homme est selon lui sans aucun appui, sans aucun secours puisqu'il est condamné à "inventer l'homme", aussi retient-il la phrase de Ponge : "l'homme est l'avenir de l'homme"(1) "c'est parfaitement exact" écrit-il dans *L'existentialisme est un humanisme*(2). Voulant que sa théorie philosophique offre tout ce que la psychanalyse nous fait apprendre, Sartre essaye d'éviter les hypothèses choquantes ou contestables sur lesquelles la psychanalyse s'appuie. En prétendant qu'il ne tient compte que de

(1) Francis Ponge - *Le parti pris des Choses. Proèmes* - Paris, Gallimard, 1946 - p. 218

(2) J.-P. Sartre. *L'existentialisme est un humanisme*, p. 38.

Oreste, fils d'Agamemnon et de Clytemnestre, est éloigné de sa ville natale "Argos" à l'âge de trois ans. Cet ordre est promulgué par Egisthe qui tue son père et devient l'amant de sa mère. Dix-sept ans plus tard, Oreste revient pour tirer vengeance. La ville étouffe sous le poids des "mouches" et des "vêtements noirs" de la population, symbole du remords qui l'écrase. Oreste sait ce qu'il doit faire : venger son père, libérer la ville du poids de son remords, réaliser son rêve et celui de sa soeur qui l'a tant attendu. Au moment où Oreste accomplit son devoir, il se rend compte de son engagement et réalise qu'il n'a jamais eu le choix :

"il y a, s'écrit-il, des hommes qui naissent engagés : ils n'ont pas le choix, on les a jetés sur un chemin, au bout du chemin il y a un acte qui les attend, leur acte(1)."

En effectuant "l'acte" qui le hante après tant d'hésitations, le jeune homme parvient à libérer la ville du poids qui l'écrase. Mais, se sentira-t-il débarrassé du fardeau de la vengeance ? Recouvrera-t-il la liberté tant désirée ? ... Hélas. Oreste ne trouvera qu'une liberté d'un aspect bizarre et confus, une liberté imprégnée d'indifférence qui finit par le posséder entièrement.

Exilé à Corinthe, nourri de belles lettres et de la vanité de toute chose, Oreste avait mené l'existence d'un homme "indépendant de toute terre". Il se présentait comme un "être existentiel", un être flottant à la surface des choses :

"Je ne pèse pas plus d'un fil, dit-il et je vis en l'air. Je sais que c'est une chance et je l'apprécie comme il convient (2) "

Pour récupérer sa liberté, il doit retrouver sa patrie. Dès qu'il se met en contact avec sa ville natale, il ressent l'envers de cette liberté qui ne représente qu'une.

"liberté concrète aux prises avec les choses immergées dans la nécessité de la tradition ..(3)".

(1) J.-P. Sartre, *Théâtre* — "Les mouches". Paris Gallimard 1947, p. 24.

(2) *Ibid.* p. 24.

(3) Pierre Verstraeten, *Violence et éthique*, p. 18.

de la liberté humaine. - Quant à la psychanalyse classique, celle-ci affirme que l'affectivité première de l'individu ressemble à une cire vierge et son conditionnement ne peut jamais revêtir l'apparence de la liberté, puisqu'il représente le moment progressif de l'analyse du comportement. Il se saisit immédiatement comme système de déterminisme psychologique frauduleusement sous les apparences de la contradiction dans les interstices du système. La psychanalyse du choix finit donc par représenter "l'envers de sa liberté".

Or, les concepts sartriens procèdent d'une intuition de la liberté qui met l'accent sur les possibilités destructrices contenues dans cette liberté. Celle-ci interdit toute distinction entre l'activité libre et l'activité névrotique. Selon Sartre, cette dernière ne peut se développer qu'à la lueur de la plasticité du psychisme humain.

Sans la liberté humaine, la névrose n'existerait peut-être jamais. Un rapprochement pourrait ainsi s'établir entre "névrose" et "liberté". Cette liberté ressemble ainsi à un "pouvoir catalytique" plutôt qu'à une activité créatrice. Elle semble éveiller chez l'homme une émotion dévastatrice qui n'est autre que l'angoisse.

La plupart des hommes qui pensent "sont condamnés au désespoir" déclare J.-P. Sartre. En effet, ils découvrent que toutes les activités humaines peuvent être équivalentes en même temps : "s'enivrer solitairement, ou conduire les peuples(1)" revient au même affirme-t-il. Par conséquent, toutes les activités humaines, selon lui, "sont vouées par principe à l'échec". Il applique cette théorie sur son héros de *L'enfance d'un chef*, et lui attribue la sensation de vivre dans un brouillard. Par là, il souligne l'expérience existentielle de la liberté à savoir : celle de la conscience perdue dans les méandres du néant. La liberté c'est, selon Sartre, l'être humain mettant son passé hors de jeu en sécrétant son propre néant (2). Ainsi le théâtre de Sartre semble aborder ce sujet et paraît des plus révélateurs. En prenant par exemple la pièce intitulée : *Les mouches*, nous constatons que le problème moral, celui de la liberté, forme le noyau théorique des réflexions pratiques soulignées par l'existentialisme. Sartre construit ses théories sur un fond classique relevant de la littérature grecque.

(1) J.-P. Sartre, *L'Etre et le Néant*, p. 271.

(2) *Ibid* — P. 65.

même envers toutes les femmes qu'il trouve sur son chemin. Lucien démontre une attitude frappante qui va tantôt "du voyeurisme à l'exhibitionnisme, tantôt du masochisme au sadisme". Ainsi un rapport de l'homme à lui-même, une relation avec le monde et les autres prendra corps à travers la psychanalyse en général.

VI. *Psychanalyse Et Liberté*

La psychanalyse apporte le principe du devenir historico-anthropologique, la laïcisation du modèle proposé comme vérité par Kierkegaard. Un certain conditionnement de la liberté constitue cette possibilité. Il s'agit de l'émergence à la culture elle-même et par conséquent à l'humanité entière. La liberté est "le produit d'un pouvoir vital ou d'une invention planétaire au regard du devenir du petit homme(1)". Par conséquent l'homme devient le produit réglé d'une alliance, tout en prenant en considération le pouvoir respectif de chacun et de tous : "l'homme est condamné à être libre, affirme Sartre, condamné, dit-il, parce qu'il ne s'est pas créé lui-même, et par ailleurs cependant libre, parce qu'une fois jeté dans le monde, il est responsable de tout ce qu'il fait(2)". Ce que Sartre appelle "liberté" ne peut être distingué de "l'être" ou de "la réalité humaine" comme il le souligne dans *L'Etre et le Néant*; "l'homme n'est point d'abord pour être libre ensuite, mais il n'y a pas de différence entre l'être de l'homme et son "être libre" (3)".

La psychanalyse parvient à accomplir distinctement ce que la sociologie ne fait pas. Elle pose "la question radicale", celle de l'origine de cette liberté, celle du .

"choix originel qui la fait se prendre ou se dépendre de soi(4)".

Selon Sartre, pour devenir un pur fait, la liberté est ramenée sans le moindre droit à l'illusion d'une "superstructure idéologique individuelle". Le choix auquel remonte la psychanalyse existentielle rend compte de sa contingence originelle. Elle ne connaît rien avant le surgissement originel

(1) Pierre Vaerstraeten, *Violence et éthique*, p. 303.

(2) J.-P. Sartre, *L'existentialisme est un humanisme*, Paris, édition Nagel, 1966, 142 Pages, p. 37.

(3) *Id.* *L'Etre et le Néant*, p. 61.

(4) Pierre Verstraeten, *Violence et éthique*, p. 245.

de la psychiatrie et de la psychanalyse c'est parce qu'il possède un besoin intérieur de vouloir sécréter ses idées sans le savoir :

“Si Sartre n'écrivait-pas, on ne peut affirmer qu'il deviendrait fou, mais on ne peut prétendre qu'il serait en danger(1).”

En effet, presque tous les personnages sartriens éprouvent à la fois désir et dégoût ... approbation et refus .. attraction et répulsion.

Dans *le Mur*, à l'approche de son exécution, Pablo éprouve une sensation de dégoût à l'égard de sa bien-aimée Concha. Il n'hésite cependant pas à donner comme preuve à son “amour défunt”, un fantasme de mutilation :

“Je me serais *coupé* un bras, dit-il, à coup de hache pour la revoir cinq minutes(2).”

Pierre, de la nouvelle intitulée *La chambre*, ne peut plus supporter d'être touché par les objets ni par les humains, ni même par Eve son épouse fidèle . Il redoute le contact des statues de pierre en forme de femmes, bien qu'il les attende impatiemment. De même Paul Hilbert d'*Erostrate* éprouve à la fois attirance et répugnance, non seulement à l'égard des femmes, mais encore à l'égard de toute l'espèce humaine. Il craint toujours d'être dévoré par le sexe. Pour éviter de subir ce mal et cette castration, il s'efforce de l'infliger à autrui. Quant à Lulu de la nouvelle intitulée *Intimité*, son attitude s'avère très caractéristique. Cette jeune dame refuse d'être touchée, dominée, prise comme un objet, par quelqu'un. Elle ne voit dans l'acte sexuel qu'une “blessure” aussi bien physique que morale. Son but sera de se hâter la première d'infliger cette blessure à son mari. Elle essaye de le réduire à l'état d'enfant et de le démunir de sa personnalité. Ses comportements envers les autres sont également révélateurs : elle fait acte de viol tantôt avec son amie Rirette, tantôt avec un curé et va même jusqu'à faire emprisonner injustement un homme sans le connaître ... Plusieurs cas analogues se répètent le long de l'oeuvre sartrienne et en particulier chez Lucien de *L'enfance d'un chef* qui se comporte d'une façon bizarre avec toutes les personnes qu'il rencontre. Envers Ritri ou Berliac, envers Bergère ou les Juifs ou

(1) Francis Jeanson, *Sartre par lui-même*, p. 6.

(2) J.-P. Sartre, *Le Mur*, p. 28. C'est nous qui soulignons.

Nombreux critiques comme Juliette Boutonier et autres soulignent que la psychanalyse existentielle s'appuie sur des affirmations fantaisistes ou des inexactitudes flagrantes :

“ .. nous ne voyons rien dans cette soi-disant psychanalyse existentielle qui soit plus exact, plus nouveau et plus compréhensible, ou qui puisse même avoir le piètre avantage de paraître moins choquant pour le sens commun, que dans la psychanalyse authentique(1)”.

Or, cette opinion semble nous renseigner plus sur l'attitude personnelle de l'univers de Sartre que sur sa doctrine psychologique.

Les idées de Sartre s'exposent elles-mêmes au moyen d'une castration par la vie sexuelle, mise en valeur par la psychanalyse.

V. *Univers De Sartre*

Il semble intéressant de mentionner l'avis du jeune psychiatre américain qui, après deux ans d'investigations psychanalytiques a su nous faire douter de l'univers de Sartre(2). Il a conclu que Sartre fut de l'espèce des grands traumatisés. A l'âge d'un ou de deux ans, il a malencontreusement assisté à une scène bouleversante et incompréhensible : celle de l'acte sexuel entre son père et sa mère. Il en est resté tatoué, déchiré toute sa vie. Obsédé par cette image, il subit les conséquences d'un doute formidable. De là son tempérament inquiet et irrésolu, son sentiment de culpabilité et d'auto-punition qu'il s'est infligé inconsciemment parce qu'il avait conscience d'avoir mal agi. De là également un certain exhibitionnisme, révélateur d'une tendance à l'homosexualité. De là enfin ce masochisme qui le conduit à se vouer à l'échec, à travers ses actes. Ainsi se présentent les idées du jeune psychiatre américain qui conclut son article en déclarant que, malgré toutes ces formes anormales, Sartre demeure un homme parfaitement sain, équilibré et lucide. Si quelques-unes de ses œuvres ont un aspect morbide, il serait probable qu'il avait voulu se libérer de la vision obsédante de son enfance. Sa pensée demeure d'une lucidité parfaite. Mais si une grande partie de son univers romanesque relève entièrement

(1) Juliette Boutonier, *L'angoisse*, p. 126.

(2) Compte-rendu in *Samedi Soir* du 7-13 Octobre 1950: "Une étude sans précédent dans l'histoire littéraire - Une psychanalyse perçue les vrais secrets de Sartre".

avoir un autre sens que celui de la sexualité ? ...En effet, bien avant cette dernière, il y a toute une gamme d'expériences, comme la nutrition ou la défécation. La bouche est un trou qu'on ne remplit que passagèrement. Elle représente une ouverture faisant disparaître ce qu'on y met. D'après les psychanalystes, nous pouvons savoir que les enfants se rapprochent davantage dans leurs conceptions primitives de l'an^{us}, non seulement à cause de sa situation, mais parce qu'il en sort quelque chose(1)".

D'autres obsessions se retrouvent chez J.P. Sartre comme "l'hémorragie", "le trou de vidange" et "la tendance à remplir". Cet existentialiste constate que l'hémorragie est "la crainte d'être lentement, interminablement, vidé de soi". A cette image s'associe celle du trou de vidange par où s'écoule en un instant le trop-plein de la réalité, "l'en-soi qui l'encombrait". Ces images désignent "la soudaine disparition du monde, qui se dérobe à la conscience qui lui est volé d'un coup(2)". Sartre pose ainsi des variations concernant des thèmes connus, il les agence de telle manière à pouvoir servir ses propres théories. Quiconque familiarisé avec la pratique de la psychanalyse décèle dès le prime abord, dans l'exposé de Sartre, une attitude voilée visant un but précis : celui de passer spontanément de la psychanalyse du trou à sa psychanalyse existentielle. Considérant la femme comme "un trou dans le monde", Sartre déduit qu'elle sent elle-même "sa condition comme un appel(3)". L'expérience du trou pour l'enfant enveloppe selon lui "le pressentiment ontologique de l'expérience sexuelle en général(4)". Aussi précise-t-il que le trou en lui-même "est le symbole d'un mode d'être que la psychanalyse existentielle se doit d'éclaircir(5)". De là, il passe à "l'acte amoureux" qu'il considère comme une sorte de castration de l'homme" puisque le sexe est bouche :

"bouche vorace qui avale le pénis(6)"

(1) Juliette Boutonier, *L'angoisse*, p. 126.

(2) Francis Jeanson, *Sartre par lui-même*, p. 133.

(3) J.-P. Sartre, *L'Être et le Néant*, p. 706.

(4) *Ibid.*

(5) *Ibid.* p. 707.

(6) *Ibid.*, p. 706. Sartre fait allusion là au vagin denté dont l'étude de Marie Bonaparte sur Edgar Poe, Tome 1., pp. 283 — 289 est des plus remarquable.

“boucher les trous”, à “remplir des vides” ou à “réaliser et fonder symboliquement le plein”. Dès que l’enfant commence à reconnaître qu’il est lui même troué, cette tendance naît en lui. Lorsqu’il se met le doigt dans la bouche, il tente de boucher le trou de son visage : orifice buccal ou bouche. De là Sartre déduit que l’enfant essaye d’atteindre” la densité, la plénitude uniforme et sphérique de l’être parméniidien (1)”.

En suçant le doigt, le petit être tend à diluer cette partie de son corps et à la transformer en une pâte collante, en un ciment qui obturera la cavité de son visage :

“c’est seulement à partir de là, affirme Sartre, que nous pouvons passer à la sexualité (2)”.

Selon ce philosophe, l’être humain, par sa tentative de boucher un trou, contribue à faire exister le plein être dans le monde. Que va-t-il en résulter si l’on juge cette théorie de la manière utilisée par J.-P. Sartre ? Boucher un trou, c’est originellement faire sacrifice de son propre corps pour faire exister la plénitude. Cela signifie subir la passion du “Pour-soi” pour façonner, parfaire et sauver “l’En-soi”. Cette tendance fondamentale pousse ainsi l’être humain à manger d’une part et d’autre part à remédier par l’acte sexuel à l’obscénité du sexe féminin(3)”. Sartre explique que les psychanalystes assimilent le trou à l’organe sexuel féminin et supposent “chez l’enfant une expérience qu’il ne saurait avoir vu, un pressentiment qu’on ne peut justifier(4)”. Cependant n’a-t-il pas écrit lui-même à ce sujet des concepts qui supposent chez l’enfant non seulement des pressentiments mais encore des expériences vécues ? Lorsqu’il prétend que l’enfant s’intéresse aux trous uniquement pour les combler, cela prête à équivoque. On peut aussi admettre que l’enfant tend à l’exploration de cette cavité par curiosité ou simplement pour vouloir l’agrandir. Par ailleurs, pourquoi Sartre considère-t-il que le trou est avant tout une spécification sexuelle ou “une attente obscène” ou encore “un appel de chair”(5). Ces termes peuvent -ils

(1) J.-P. Sartre, *L’Être et le Néant*, IV Partie, Ch. 2, p. 705.

(2) *Ibid.*

(3) *Ibid.* p. 705.

(4) *Ibid.*, P. 704.

(5) *Ibid.*, p. 706.

répète dans *L'enfance d'un chef* lorsque Lucien découvre l'arme à feu "au creux de la soie rose" des combinaisons de sa mère. "La canne de jonc" utilisée par ce dernier pour fouetter les orties. "L'asperge" dont l'image obsédante accompagne sans cesse toutes ses expériences qui deviennent pour lui une source de honte.

Les organes féminins symboliquement évoqués dans les textes sont encore plus frappants. Dans la nouvelle de Sartre intitulée *Intimité* nous pouvons lire le passage suivant :

"Lulu retira son orteil de "la fente du drap" et agita un peu les pieds pour le plaisir de se sentir alerte auprès de cette chair molle et captive (1)."

Dans *Erostrate* le héros est attiré par "le pli de la nuque" d'un homme assis derrière lui :

"le pli de la nuque me souriait, dit-il, comme une bouche souriante et amère (2)".

"Le sexe est bouche" avait dit J.-P. Sartre à propos du sexe féminin. Dans le cas précédent le symbolisme semble à la fois traditionnel et appuyé. L'objet symbolique paraît à plusieurs reprises tantôt seul tantôt associé à ce qu'il remplace. Il ne s'agit pas d'un système cohérent ou d'une acceptation sincère de ses axiomes essentiels mais d'une interprétation plus parodique que sérieuse. Les cas pathologiques exposés par Sartre écartent tout renseignement sur l'enfance des personnages (*L'enfance d'un chef* fait exception). Sartre voulait donc exclure toute tentative d'interprétation freudienne. Cependant il revient continuellement sur un thème connu par les psychanalystes à savoir "le symbole du trou". D'après lui, un trou "se présente originellement comme un néant à combler avec (sa) propre chair(3)". Cette attitude représente "une des tendances les plus fondamentales de la réalité humaine " la tendance à remplir(4)". Sartre explique cette idée en précisant que l'enfant, l'adolescent et l'adulte passent une grande partie de leur vie à

(1) J.-P. Sartre, *Le Mur — Intimité*, p. 105.

(2) *Id.* *Erostrate*, p. 97.

(3) *Id.*, *L'Être et le Néant*, IV Partie, Ch. 2, p. 705.

(4) *Ibid.*

Il applique minutieusement la règle voulant que le névrosé répète continuellement le traumatisme en exposant dans le récit des images obsédantes :

“il lui paraissait qu’il avait connu très longtemps auparavant, des impressions analogues et une image absurde lui revenant à l’esprit : il se revoyait tout petit avec une longue robe bleue et des ailes d’anges(1).”

Cette nouvelle est donc présentée sous la forme d’une récapitulation de l’enfance d’un garçon sous une optique psychanalytique. Sartre insiste sur “des modes d’être pré-psychiques et presexuels” déjà explicités par Freud :

“Le gluant, écrit Sartre, le pâteux, le vaporeux, etc..., les trous de sable et de terre, les cavernes, la lumière, la nuit, etc... lui révèlent des modes d’être pré-psychiques et présexuels (2)”.

Une symbolique nouvelle qui pourrait s’appliquer au cas envisagé, doit être réinventée par le psychanalyste. D’après J.-P. Sartre, la vie psychique entretient des rapports de “symbolisation à symbole” à l’aide de “structures fondamentales et globales qui constituent proprement la personne (3)” Par là il déduit que malgré le passage d’un ensemble signifiant à un autre ensemble(4) les rapports élémentaires de symbolisation semblent garder une signification constante et interchangeable en chaque cas. Sartre constate que la psychanalyse tient compte du choix qui est net, vivant et capable d’être évoqué par le sujet étudié. Or les clés données par Freud dans son chapitre intitulé : “le symbolisme dans le rêve”(5), peuvent aisément s’appliquer aux écrits de Sartre.

Selon une rhétorique freudienne, les organes génitaux mâles et femelles sont symbolisés par différents objets. Le Pénis est symbolisé dans *Erostrate* par le revolver de Paul Hilbert. Le même exemple se

(1) J.-P. Sartre, *L’enfance d’un chef*, in *Le mur*, p. 200.

(2) *Id. L’Être et le Néant*, p. 740.

(3) *Ibid.* P. 657.

(4) *Ibid.* p. 661 (exemple : files = or, pelotte à épingles = seins, etc...)

(5) in *Introduction à la psychanalyse. op. cit.*

Les sens de la jeune épouse l'assujettissent et la rendent en effet esclave de Pierre. Or, chaque individu voulant mener une vie normale et rationnelle et devant participer au travail culturel de la société court le danger de voir ses instincts sexuels résister à ce refoulement (1). Voilà donc pourquoi Eve accepte de vivre enfermée avec un fou écartant toute relation avec la société.

En touchant à ce sujet sensible et épineux, Sartre tombe dans un piège.. N'a-t-il pas, dès 1939 reproché à Freud son "pansexualisme"

"Le pansexualisme de Freud, écrit Simone de Beauvoir", nous semblait du délire, il heurtait notre puritanisme (2)

En 1937, lorsque Sartre présente ses nouvelles à l'éditeur Jean Paulhan, il lui dit sur un ton malin :

"elles sont un peu ... heuh ... heuh ... libres. Je touche aux questions en quelque sorte sexuelles(2)".

ces questions sont abordées dans plusieurs endroits des écrits sartriens et jouent souvent un rôle capital.

Certains concepts freudiens se révèlent nettement dans l'oeuvre de Sartre comme le complexe de castration, le symbolisme des rêves ou de l'ambivalence affective. Nombreux sont les personnages principaux qui, sous l'influence d'une angoisse consciente ou d'un complexe inconscient de castration refusent la réalité. Le cas de Lucien de *L'enfance d'un chef* commence par une castration symbolique : on le traite de jeune fille dès son enfance, castration répétée le long de la nouvelle. Les manœuvres de Bergère et l'homosexualité dans laquelle il enlise Lucien mettent en lumière "l'ambivalence affective" et "le conflit des tendances contraires". Ces concepts purements freudiens sont utilisés par J.P. Sartre qui accuse la psychanalyse freudienne en l'appelant une "école d'immoralisme". En ayant recours aux clichés de Freud, Sartre offre une représentation caricaturale et dérisoire de la psychanalyse freudienne.

(1) S. Freud, *Introduction à la psychanalyse*, p. 13.

(2) S. de Beauvoir, *La Force de l'âge*, p. 25.

(3) *Ibid.* p. 306.

s'obstine à continuer de vivre avec ce fou et refuse tous les conseils de son père qui, de temps en temps, vient visiter le triste foyer qui pue la démence et l'effondrement. Voulant sauver sa fille, le père insiste, il la prie de faire hospitaliser Pierre, de le confier aux spécialistes, de se sauver de cette atmosphère malsaine et empoisonnante. Prières vaines ... Tout le rêve de cette amante est de vivre aux pieds de Pierre. Elle aime sa voix. Elle approuve ses idées cauchemardesques et hallucinatoires. Elle adore le regard de ses pauvres yeux rêveurs qui divaguent. Elle ne veut que respirer amoureuxment l'haleine veinimeuse de son âme malade.

Le long de cette nouvelle qui s'attarde à décrire les nuances les plus subtiles de la vie d'un aliéné mental, Sartre ne fait point la moindre allusion à son enfance. Comment Pierre est-il arrivé à cet état ? ... Quels incidents l'ont-ils mené à ce stade de perversité ? ... Pourquoi a-t-il fini par s'enliser dans ce monde obscur et sans issue ? ... Nombreuses sont les questions qui viennent effleurer l'esprit du lecteur et ne trouvent point de réponses. Cependant, le cas de l'épouse semble assez frappant.. Son comportement à l'égard du mari s'explique le long de la nouvelle et touche un point important à savoir l'érotisme et la sensualité.

IV. Une École D'Immoralisme

Parmi les forces instinctives refoulées, Freud affirme que la sensualité ou "émotion sexuelle" est d'une importance considérable. Très souvent, ces forces subissent "des sublimations" (1); c'est-à-dire elles peuvent faire semblant de se détourner de leur but érotique pour s'orienter vers des buts socialement supérieurs. Cependant les instincts sexuels sont difficilement domptés. Le cas d'Eve, la jeune épouse, qui accepte de vivre avec un fou ne la reconnaissant plus, lui attribuant un nom autre que le sien, semble des plus caractéristiques. C'est à travers la conversation de Monsieur et Madame Darbédac, parents de la jeune Eve que se dévoilent les raisons de cet attachement :

"c'est de la perversité .. s'exclame madame Darbédac, il la prend dans ses bras et il l'embrasse et l'appelant Agthe et en lui débitant toutes ses calembredaines (...) eh bien, si elle a des sens, j'aimerais encore mieux qu'elle prenne un amant (2)."

(1) S. Freud, *Introduction à la psychanalyse*, p. 13.

(2) J.-P. Sartre, *La chambre* in *Le mur*, p. 45.

dans une chambre d'hôtel, il se met à la regarder pendant qu'elle se déshabille. Il lui demande de se promener toute nue dans la pièce, de "marcher de long en large" sans daigner la toucher. Le seul plaisir qu'il tire de cet acte ne fut point le spectacle même, mais plutôt la sensation de gêne qu'il inflige à cette pauvre créature.

"Rien n'embête plus les femmes que de marcher quand elles sont nues ... Pour moi, j'étais aux anges (....) j'étais joyeux comme un enfant (1)."

Ce personnage sadique qu'est Paul Hilbert répétait au fond de son âme :

"Les femmes, je ne les aurais pas tuées. Je leur aurais tiré dans les reins, ou alors dans les mollets pour les faire danser (2)".

Danse macabre et lugubre s'il en fut!

Ainsi le rêve de cet homme était toujours celui de tuer l'être humain homme ou femme, n'importe, cela lui paraissait parfaitement égal. Ce névrosé possédait pour les hommes une haine implacable qui se projetait et prenait corps sur l'écran de ses nuits : "il était hanté par le même rêve qu'il faisait plusieurs nuits(3);" Voulant mettre un terme à cette obsession et assouvir sa soif, Paul Hilbert se décide de tirer sur une douzaine de personnes. Il écrit une lettre avouant l'intention de son crime; en fait cent deux exemplaires qu'il envoie à des écrivains français. Les jours suivants, il s'occupe lentement de son crime : ses démarches commenceront par les autres hommes et se termineront par sa propre personne en se lançant une balle dans le cerveau. Paul Hilbert exécute la première partie de son crime, mais à ce moment, ses forces l'abandonnent, il ne peut se suicider, et sera massacré par les gendarmes.

Dans une autre nouvelle intitulée *La chambre* l'auteur expose le cas de Pierre, un autre aliéné mental. "Halluciné", il passe sa vie enfermé dans sa chambre, en compagnie de sa jeune épouse Eve, "follement" amoureuse de lui. Cet homme anormal est arrivé au point de ne plus reconnaître sa seule compagne. Il la nomme "Agathe" au lieu de "Eve". Pourtant celle-ci accepte volontiers son nouveau nom. Elle

(1) JP. Sartre, *Erostrate* in *Le Mur*, pp. 84—85.

(2) *Ibid.*, p. 85.

(3) *Ibid.*, p. 88.

tiguité existant entre ces réalités corporelles ou image et le mécanisme de leur production. Descartes essaye d'éviter de distinguer les pensées d'après ces mécanismes qui appartiennent au „monde des choses douteuses”(1).

Spinoza, „qui pourrait voir plus nettement que Descartes”, affirme que le problème de l'image ne se résout que par „l'entendement”. Cette idée s'oppose nettement à celle de Sartre qui constate : l'imagination ou connaissance par images diffère totalement de l'entendement puisqu'elle possède la faculté de gorger des idées fausses et ne présente ainsi la vérité que sous une forme tronquée.

Sartre précise qu'il n'y pas d'images dans la conscience puisque „l'image est elle même un certain type de conscience”, elle est „un acte” et non pas une chose puisqu'elle est „consciente de quelque chose”(2).

Etant un contenu psychique, inerte, selon Sartre, l'image ne saurait se concilier avec les nécessités de la synthèse. Elle ne pourra pas entrer dans le courant de la conscience que si l'image est elle même „synthèse” et non pas „élément”(3). De même l'image, qui est une réalité psychique certaine, ne saurait se ramener à un „contenu sensible”, ni se constituer sur la base de ce même contenu. Ainsi se présente le cas de Lucien(4) lorsque la théorie sartrienne appliquée à contretemps la psychanalyse proprement dite et la fait paraître comme un objet de dérision.

Dans certaines nouvelles comme *Erostrate*, *La chambre*, *Intimité* et autres, Sartre semble ne faire aucune allusion à cette doctrine. Il ne mentionne point l'enfance des personnages, ce qui aurait permis une interprétation freudienne. Le personnage principal de la nouvelle intitulée *Erostrate* se présente sous l'aspect d'un névrosé. Il ressent une haine furieuse, indomptable pour tous les êtres humains et plus particulièrement pour les femmes. Aussi cherche-t-il à les maltraiter chaque fois que l'occasion se présente. Une joie et un plaisir indélébiles s'emparent de lui lorsqu'il parvient à les humilier. En accompagnant une femme

(1) *Ibid*, p. 8.

(2) *Ibid*, p. 162.

(3) *Ibid*,

(4) Personnage principal de la nouvelle intitulée : *Enfance d'un chef*.

et l'image, fera naître en lui un trouble complexe : sexuel et métaphysique s'il en fut. Aussi, en retient-il „le tabou de l'inceste et la théorie de la comédie généralisé(1)”. En effet, l'immense majorité des souvenirs demeurent inconscients et, revenant à la conscience, il faut faire appel à deux théories inconciliables selon les termes de Bergson qui affirme que :

“l'une a sa racine dans la psychologie, dans le biologisme bergsonien, l'autre répond aux tendances métaphysiques, au spiritisme bergsonien(2)”.

Bergson dévoile un univers de représentation, un monde d'images qui nous entoure et où se forme une sorte de parenté et d'analogie avec la conscience même. Toute espèce de réalité, tout objet possible d'une représentation pourrait avoir le nom “image” (3).

D'autres psychologues réservent le nom d'image à toute chose perçue. Par exemple Hume s'attarde sur l'opacité même qui constitue la qualité de sensibilité des impressions. Il ne se limite pas à la description des contenus sensibles de la perception, mais il tend plutôt à composer le monde de la conscience à un degré d'intensité assez réduit. Chez Hume, “les images de l'associationnisme représenteront des centres d'opacité et de réceptivité(4)”.

D'autres penseurs, comme Descartes, voient dans l'image une sorte d'idée que l'âme forme à l'occasion d'une affection du corps. Cette idée donne ainsi une certaine possibilité qui permet aux centres psycho-sensoriels de s'exciter soit par un stimulus intérieur, soit par un stimulus extérieur :

“On appelle image, dit-il, l'état de conscience qui correspond à la première sorte d'excitation, perception, celle qui correspond à la seconde (5)”.

Descartes se borne par conséquent à décrire ce qui se déroule dans le corps au moment où l'âme pense à dévoiler les lieux corporels de con-

(1) Geneviève Idt. *Le Mur de Sartre*, p. 199.

(2) J.-P. Sartre, *L'imagination*, p. 52.

(3) *Ibid.*, p. 43.

(4) *Ibid.*, p. 119.

(5) *Ibid.*, p. 115.

“J’ai désiré ma mère jusqu’à l’âge de quinze ans(1)”. déclare Berliac à Lucien en demandant d’une voix sérieuse s’il connaît la psychanalyse. Se sentant “mal à l’aise” Lucien craint de rougir. Berliac reprend alors sur un ton positif — “Toi aussi, lui dit-il, naturellement, tu as eu envie de coucher avec ta mère(2)”.

— “Naturellement” répond Lucien, confus, troublé et tout en n’étant point convaincu. Aussi ne tardera-t-il pas à découvrir que son amitié pour Berliac reposait sur “un malentendu et que nul plus que lui, certes, n’était sensible à la beauté pathétique du complexe d’oedipe (3). Lucien fait montre là d’une gêne d’adolescent. Il ne sait comment aborder un sujet aussi indécent. De même, Berliac utilise les concepts freudiens à contresens, d’une manière si caricaturale que son ami lui dit :

“C’est la pente fatale, j’ai commencé par le complexe d’oedipe, après ça je suis devenu sadico-anal et maintenant, c’est le bouquet, je suis devenu pédéraste (4)”.

Une étude approfondie du cas de Lucien prouve qu’aucune scène vécue par ce jeune homme ne pourrait être traumatisante. Sa situation familiale est ordinaire, nulle forclusion du père qui se comporte d’une façon normale. Il détient l’autorité dans le couple, donc il n’est point déchu de ses droits. Même lorsqu’après la mort du père évoquée trois fois dans le texte comme étant possibilité abstraite, Lucien n’en peut que tirer des conséquences logiques. S’il possède ce vif désir de remplacer le père, cela lui permet de se libérer du complexe d’oedipe en supposant qu’il existe. Donc malgré tout le matériel psychanalytique présent dans le texte, cet effet voulu ne fait que tourner en dérision les idées mêmes de la psychanalyse existentielle. Par le fait même que Lucien hésite sur son véritable sexe, Sartre essaye de souligner l’ambivalence propre aux enfants et la loi d’authenticité qui pèsent sur l’univers.

Voulant fuir l’existence, le jeune Lucien cherche à s’identifier à l’image que les autres ont fait de lui ou plutôt à son “être pour autrui”. La scène primitive à laquelle il a assisté et dont il gardera le souvenir

(1) J.-P. Sartre, *L’enfance d’un chef* in *Le mur*, p. 183.

(2) *Ibid.*

(3) *Ibid.*

(4) *Ibid.*, p. 186.

aux Loups de Freud. Or cette sensation de vivre dans le brouillard a voulu traduire l'expérience existentielle. L'identification finale de Lucien à l'image du père est sans aucun doute l'accès à la maturité et la tentation de fuir l'existence dans "l'en-soi". Les principaux éléments de cette nouvelle donnent lieu ainsi à deux interprétations : l'une psychanalytique, l'autre existentialiste, et la deuxième tourne en dérision la première.

Relevant d'un point capital de la psychanalyse, les comportements de Lucien reposent sur le problème "innocence et culpabilité" chez les enfants. En effet, si Sartre accepte la psychanalyse pour les cas pathologiques il n'hésitera pas à la récuser pour les cas normaux. Dans *L'enfance d'un Chef*, Sartre trace un personnage normal, parfaitement adapté à la société. Désormais, revenant à l'idée qu' "il n'y a pas d'enfant innocent (1)", il reconnaît avec Freud que les innombrables relations qui se dévoilent chez les enfants ont rapport à la sexualité. En outre, Freud affirme que les enfants possèdent dès l'âge le plus tendre des excitations, des besoins, et même des satisfactions sexuelles. Cette vie s'éveille chez eux bien avant l'âge de la puberté. A l'âge de douze à quatorze ans, ce qui commence à se révéler n'est que la fonction de la reproduction. Il ne faut donc pas confondre "sexualité" et "reproduction". Celle-ci, commençant à paraître, voudra se servir d'un appareil corporel et psychique déjà existant pour pouvoir réaliser ses buts. Si la recherche psychanalytique s'est vue très souvent obligée de porter son attention sur la vie sexuelle de l'enfant, c'est parce que les souvenirs et les idées qui surgissent chez certains sujets au cours de l'analyse sont le plus souvent amenés à remonter aux premières années de l'enfance. Par contre ce que le genre littéraire avait apporté des souvenirs d'enfance jusqu'au XVIIIème siècle s'appuyait généralement sur le mythe de l'innocence enfantine. Fort des découvertes freudiennes, Sartre en montre les perversités. Le cas du personnage principal de *L'enfance d'un chef* est par conséquent une étude psychanalytique parodique faite de clichés freudiens appliqués sur un roman d'apprentissage. Ramenant l'histoire de Lucien à des schémas psychanalytiques simples, voire simplistes, l'auteur permet au texte de donner à chaque événement une interprétation nouvelle. Bref, Sartre s'amuse à faire une analyse grossière du "cas Lucien". Il aborde le complexe d'oedipe par l'intermédiaire des théories freudiennes :

(1) J.-P. Sartre, *L'Etre et le Néant*, p. 704.

d'infériorité. D'après Simone de Beauvoir, "Le tempérament nerveux" d'Adler les satisfait plus que les livres de Freud parce qu'il accordait moins de place à la sexualité. Cependant, cela n'empêche point que Sartre et Simone de Beauvoir ne soient pas tout à fait d'accord avec ce psychanalyste sur le fait que "le complexe d'infériorité pût être utilisé à propos de n'importe quoi(1).

III. *Experiences Psychanalytiques :*

Faisant usage de sa propre psychanalyse, Sartre expose ses théories à travers un certain nombre de ses écrits littéraires. Dans sa nouvelle intitulée "L'enfance d'un chef", il raconte l'histoire d'un jeune garçon qui vivra sous l'effet d'un souvenir confus de "la scène primitive" : le spectacle du coït entre ses parents. Cette image va le renvoyer à une autre encore plus ancienne, une image qu'il a vue "alors qu'il était bébé". Adolescent, un trouble et une angoisse le déchirent. Il se laisse aller à un refus maladif de croire à la différence des sexes. Très souvent il s' imagine une mère phallique travestie en jeune fille à qui une moustache pourrait pousser. Ce personnage fera montre d'un sadisme mêlé de masochisme qui s'expliquent par "une fixation au stade anal". Les complexes paraissent là tout à fait inséparables des expériences sexuelles qui selon Geneviève Idt représentent une sorte de :

"Conduite d'envoûtement qui tend à faire de l'Autre
un objet ou du sujet un objet pour l'Autre(2)".

Or les expériences et les symptômes de Lucien ressemblent très souvent à l'analyse de "L'homme aux Loups" de Freud dans *cinq psychanalyses*. Les comportements sadiques paraissant chez ce personnage, qui ne connaît d'autre plaisir que celui d'infliger à son objet des douleurs et des souffrances (cas des insectes de Riri), ont leur pendant dans son masochisme. Très souvent, son plaisir consiste à recevoir de "l'objet aimé toutes les humiliations et toutes les souffrances sous une forme symbolique ou réelle(3)". Fixé au stade anal, le plaisir de Lucien se révèle à travers des attitudes anormales. Ainsi, dans la scène de la salle de bain, il semble intéressé par les excréments et va même jusqu'à se délecter de leur "bonne odeur". De même le "brouillard" épais qui entoure Lucien ressemble étonnement au "voile" qui enveloppe l'univers dans *L'homme*

(1) *Ibid.*, p. 133.

(2) Geneviève Idt, *Le mur de Sartre*, p. 199.

(3) S. Freud, *Introduction à la psychanalyse*, p. 286.

“C’est finalement l’expérience, affirme Sartre, qui établit que le fondement des complexes est cette libido ou cette volonté de puissance et ces résultats de l’enquête empirique sont parfaitement contingents, ils ne convainquent pas : rien n’empêche de concevoir à priori “une réalité humaine” qui ne s’exprimerait pas par la volonté de puissance, dont la libido ne constituerait pas le projet originel et indifférencié(1)”.

Le complexe se révèle donc insurmontable. Sartre en déduit que la libido ou volonté de puissance ne représente point pour la psychanalyse existentielle, un caractère général, commun à tous les hommes et par conséquent ne semble point irréductible. Quels sont alors les points de contact entre les deux psychanalyses : existentielle et classique (ou empirique) s’il en fut ?

Une recherche analogue se poursuit vers “une attitude fondamentale en situation. Elle exige la reconstruction selon les lois de synthèses spécifiques. “L’une comme l’autre considèrent l’homme dans le monde et ne conçoivent pas qu’on puisse interroger un homme sur ce qu’il est sans tenir compte avant tout de sa situation”(2). De même, l’une et l’autre reconnaissent que l’être humain est une “historisation perpétuelle”, elles cherchent à déceler le sens, l’orientation et les avatars de cette histoire au lieu de dévoiler les données statistiques.

Cependant, Sartre reproche à Freud et ses adeptes le fait d’accorder une importance fondamentale à la sexualité. Il constate comme son alliée Simone de Beauvoir que les psychanalystes rebutent par leur “symbolisme dogmatique et par l’associationisme dont ils étaient entachés(3)”. Ces deux existentialistes déclarent que le pansexualisme de Freud leur semblait tenir du délire car il heurtait à leur puritanisme(4). Ainsi Sartre préfère Alfred Adler à Sigmund Freud, sans cependant l’accepter totalement. Adler, ce disciple dissident de Freud gagne parfois la sympathie de Sartre parce qu’il substitue à la notion de “libido” celle de volonté de puissance et attribue l’origine des névroses au complexe

(1) J.P. Sartre, *L’Être et le Néant*, p. 657.

(2) *Ibid.*

(3) Simone de Beauvoir, *La force de l’âge*, p. 25.

(4) *Ibid.*

chaque sujet une méthode différente et de ce fait même, elle sera employée "pour le même sujet à une époque ultérieure". (1) Ce philosophe propose l'établissement de la vérité humaine de l'homme à l'aide d'une "phénoménologie ontologique" dont l'objet porte sur les désirs empiriques. Si une liste des observations, des inductions et les expériences s'établira, cela permettra la possibilité d'indiquer les relations qu'unissent les différents désirs et les différents comportements. Ainsi les liaisons concrètes entre les diverses "situations" expérimentalement définies seront mises en lumière. Cette psychanalyse dite "existentialiste" tend à l'établissement des désirs fondamentaux et à leur classification afin de les déchiffrer et d'en faire prendre connaissance.

En quoi donc diffèrent la psychanalyse existentialiste ou existentielle de la psychanalyse proprement dite ?

Cette dernière a toujours décidé de son irréductible au lieu de le laisser s'annoncer dans une intuition évidente. La psychanalyse existentialiste elle, rejette le postulat de l'inconscient et considère le fait psychique coextensif à la conscience.(2) La psychanalyse classique, part directement du postulat de l'existence d'un psychisme inconscient caché à l'intuition du sujet (3). Dans Situation IX(4), J. P. Sartre avoue que le langage utilisé par Freud engendre une mythologie de l'inconscient qu'il ne peut accepter. Sartre constate que l'inconscient est une des commodités de "la mauvaise foi". La psychanalyse existentielle cherche à déterminer "un choix originel" antérieur à la logique. Si la psychanalyse classique détecte le complexe dont le nom indique toutes les significations qui s'y rapportent,(5) la psychanalyse existentielle trouve que le complexe représente un choix ultime, un choix d'être et se fait tel(6)". La psychanalyse existentielle n'a donc pas à remonter du complexe fondamental ou "choix d'être" jusqu'à une abstraction, puisque "la libido" (7) ou volonté de puissance constitue un résidu psychologique invincible :

(1) J.-P. Sartre, *L'Être et le Néant*, p. 661.

(2) cf. *Ibid*, p. 659.

(3) *Ibid*, p. 658.

(4) *id. Situations*, p. 105.

(5) *id.*, *L'Être et le Néant*, p. 657.

(6) *Ibid*. p. 660.

(7) "La libido, écrit Sartre, n'est rien en dehors de ses fixations concrètes, sinon une possibilité permanente de se fixer n'importe comment sur n'importe quoi". (*Ibid*).

II. *Psychanalyse Existentielle et Psychanalyse classique :*

Une nouvelle psychanalyse dite "existentielle" qui permettra d'assimiler les réflexions aux analyses "existant" à la base de toute attitude sera prêchée par Sartre. Evoquant les enquêtes psychanalytiques dans *L'Être et le Néant*, il déduit qu'elles

"visent à reconstituer la vie du sujet de la naissance à l'instant de la cure;elles utilisent tous les documents objectifs qu'elles pourront trouver : lettres, témoignages, journaux intimes, renseignements "sociaux" de toute espèce"(1)

Or la Psychanalyse existentialiste considère l'homme comme "une totalité et non comme une collection". Elle doit localiser l'homme pour lui permettre de s'exprimer tout entier dans la plus insignifiante et la plus superficielle de ses conduites". L'essentiel serait donc non seulement de dresser la liste de ses conduites, de ses tendances et de ses inclinations' mais plutôt de pouvoir les déchiffrer, de savoir les interroger. Le but de la psychanalyse existentielle est donc celui de déchiffrer les comportements de l'homme en mettant en pleine lumière les révélations que chacun d'eux contient et de les fixer d'après leurs concepts. Cette psychanalyse doit toujours débiter par l'expérience qui s'appuie sur la compréhension préontologique et fondamentale de l'homme (2). Or selon la psychanalyse existentielle, les tendances profondes ne se distinguent pas de leur propre existence et par conséquent ne peuvent être inconscients. Rejetant le postulat de l'inconscient, cette psychanalyse existentielle recherche le fait psychique qui, demeure à son point de vue "coextensif à la conscience"(3). Etant destinée, non pas à prendre conscience au sujet de ce qu'il est mais d'en faire prendre connaissance, son but sera celui de trouver :

"l'Être et la manière d'Être de l'Être en face de cet Être" (4)

Exigeant la souplesse et la transparence, cette psychanalyse offre la compréhension de l'individuel et de l'instantané. Elle impose pour

(1) J.-P. Sartre, *L'Être et le Néant* p. 657.

(2) *Ibid* p. 565.

(3) *Ibid* p. 658.

(4) *Ibid.* p. 652.

essentiel dans ce processus sera donc la structure même. Comme l'analyste ne demande pas à son patient d'agir mais de se laisser agir, de même, les mots provoquent à leur tour des émotions et constituent pour les hommes le moyen général de s'influencer réciproquement(1).

Ces mots de Freud seront repris par Jean-Paul Sartre et appliqués au langage: "reflet périphérique de l'intériorité du sujet" (2). et ce même procès se placera à la base de la double origine de l'humanité et de l'individu. En s'adonnant à ses écrits, Sartre pratique par delà sa recherche formelle, une attitude et une dimension du monde actuel. Roman, théâtre, nouvelles, contes, essais, bref tout l'univers sartrien se présentera comme une perspective où les personnages se situent en arrière plan. Vis-à-vis de Foucault et de son archéologie des sciences humaines, de Barthes et de sa notion du structuralisme, de Lacan de Lévi-Strauss et de leur conception fonctionnelle, d'Arthusser, de son ethnologie et de sa pure succession des formes, la position de Sartre est nette. Celui-ci récuse la prétention des sciences humaines, celle des savants linguistes, psychanalystes ou ethnologues et les invite à se débarrasser de l'histoire et du sujet. Si chacun de ces maîtres travaille dans un domaine déterminé, cela n'évite point le fait que toutes leurs recherches convergent vers une même inspiration: celle de l'homme structural. Sartre maintient que "la succession des formes" ou "structures" doit obéir à une loi interne car l'important selon lui, n'est pas ce qu'on a fait de l'homme, mais plutôt "ce qu'il fait de ce qu'on a fait de lui". Il s'agit donc d'une écriture de la pensée où contribueront pêle-mêle: le nouveau roman, les recherches, les sciences humaines et en particulier l'ethnologie avec la divulgation des recherches linguistiques et psychanalytiques. Or, si aux yeux du structuralisme tout est différence, nombreux éléments ne vont exister que par les rapports qui les tiennent unis. L'activité du structuralisme sera donc celle de déchiffrer ces liens et à partir de là, constituer des modèles, qui, à leur tour, permettent de désigner des fonctions. L'activité du structuraliste implique, comme le note Barthes "une certaine révision de la notion histoire", qui est considérée comme "une pure succession des formes". De ces idées, Sartre dégage "une conception fonctionnelle", philosophie nouvelle "plus théorétique qu'existentielle".(3)

(1) S. Freud, *Introduction à la psychanalyse*, p. 7.

(2) *Loc. cit.*

(3) cf. - Tchou Laffont, *Les écoles psychanalytiques la psychanalyse en mouvement*, France-Sète, 1981, 319 p.

rattache intimement à la psychiatrie qui, à son tour, suppose une connaissance parfaite "des processus profonds et inconscients de la psychique (1)". Sartre approuve la pénétration de la psychanalyse par une "lumière intense", or celle-ci lui semble "incapable d'exprimer ce qu'elle éclaire". Il est parfaitement convaincu qu'il ne s'agit point d'une "énigme indevinée" mais plutôt d'une situation lumineuse qui ne sera dévoilée que par la réflexion.

"Tout est là, écrit-il dans *L'Etre et le Néant*, lumineux, la réflexion jouit de *tout* (2)".

En donnant à la psychanalyse le titre: "mystère en pleine lumière", Sartre précise qu'il pourrait parvenir à une étude manquant d'analyse et de conceptualisation. Il constate que la réflexion peut, à la rigueur, fournir à la psychanalyse des matériaux bruts sans cependant lui servir de base. En 1940 Jean-Paul Sartre éprouve une répugnance profonde à l'égard de la psychanalyse, et ne dévoilera cette opinion qu'en 1970 lorsqu'il déclare dans *Situation IX* qu'il est incapable de comprendre la psychanalyse étant un français "nourri de traditions cartésiennes, imbu de rationalisme (3)". Gardant cette attitude sceptique, Sartre demeurera profondément choqué en songeant à l'idée d'inconscient. Aussi affirmera-t-il vers cette même date (1970) que depuis l'apparition de la psychanalyse, les romans commencent à en subir les conséquences.

Selon Sartre, il n'existe plus que deux types de romans : d'une part, ceux qui se veulent "naïfs", et doivent décider consciemment d'ignorer les méthodes psychanalytiques qui risquent de les rendre "moins naïfs", d'autre part les "faux-romans" comme ceux de Gombrowiez, qui diffèrent des anti-romans à la manière de Nathalie Sarraute, et représentent une sorte de modèle pouvant être un roman "analytique et matérialiste(4)" à la fois. Jean-Paul Sartre parvient ainsi à faire tourner autour du langage une "couche essentielle" ou plutôt une structure à partir de laquelle de roman sera constitué.

Provenant de Lacan et de la plupart des psychanalystes, cette structure se base sur l'idée suivante : l'homme ne pense pas, mais il est pensé comme il ne parle pas mais il est parlé par les linguistes. L'élément

(1) S. Freud, *Introduction à la psychanalyse*, p. 236.

(2) J.-P. Sartre, *L'Etre et le Néant*, p. 658.

(3) *Ibid. Situations IX.*, pp. 104—105.

(4) J.-P. Sartre, *Situations IX.*, p. 123.

Sartre se mettra ainsi à la recherche d'une nouvelle psychanalyse qui doit rejeter la notion d'inconscient. En 1932, sa doctrine psychanalytique est encore tâtonnante. Sartre nie l'inconscient, ce qui le met en contradiction avec Freud. Convaincu cependant par certaines idées de ce dernier, il admet l'existence d'un "infracassable noyau de nuit" dans chaque individu :

"quelque chose qui ne réussit à percer ni les routines sociales, ni les lieux communs du langage-mais qui éclate scandaleusement. Dans ces explosions, toujours une vérité se révèle et nous trouvons bouleversante celles qui délivrent une liberté (1)".

Sans définir cet "infracassable noyau de nuit", Sartre cherchera à remplacer la notion d'inconscient par une unité nouvelle.

Quelles années plus tard Sartre se passionne pour l'ouvrage de Wilhelm Stekel *La femme rigide* où l'écrivain propose une psychanalyse qui évite la notion d'inconscient(2).

Fasciné par l'idée de psychanalyse, Sartre montrera un mouvement continu de flux et de reflux vers ce rivage redouté et désiré à la fois. Ainsi, vers l'an 1935, et sur la proposition du docteur Lagache, Sartre fait sur sa propre personne, une première expérience : celle de la mescaline. Son but est celui de pénétrer à l'aide de ce "paradis artificiel", dans l'univers obscur de la conscience. Durant six mois environ, Jean-Paul Sartre gardera des hallucinations qui lui permettront d'affronter la psychose. Il subira des déformations sensibles dans ses perceptions et ira même jusqu'à se sentir poursuivi par des crustacés. Sa seconde expérience aura lieu en 1936 lorsqu'il visitera l'hôpital psychiatrique de Rouen(3).

Formant deux entités qui se complètent l'une l'autre, la psychiatrie et la psychanalyse découlent en effet du facteur héréditaire et de l'événement psychique. Elles collaborent de la manière la plus efficace en vue d'un même résultat. La psychanalyse permet la connaissance du fonctionnement intime de la vie psychique et par conséquent se

(1) *Ibid*, p. 135.

(2) cf. Geneviève Idt, *Le mur de Sartre*, p. 187—188.

(3) Simone de Beauvoir, *La force de l'âge*, p. 270.

“secrète unité” qu’est la psychanalyse ne cessera de hanter J.-P. Sartre. Très souvent, elle se trouvera cachée dans les méandres de son oeuvre, la réduisant ainsi à une théorie philosophique(1). Aussi se bornera-t-il souvent à nier toute valeur et toute intelligibilité à sa théorie sous-jacente de la causalité psychique.

Ayant lu Freud, Adler et Jung, Sartre réfléchira loquemment sur la valeur et les limites de la psychanalyse classique. Il déclare qu’il n’est pas un “faux ami” de la psychanalyse mais plutôt “un compagnon de route critique.

* * *

I. *Un Mystère en Pleine Lumière*

J.-P. Sartre commencera à dévoiler ses intentions en avouant qu’il n’a nul moyen de ridiculiser la psychanalyse(2)”.

En 1927, Sartre corrige les épreuves du traité de Psychopathologie de Jaspers qu’on venait de traduire. Il y découvre la notion de „compréhension” concrète et synthétique des individus, qu’il oppose à toute psychologie analytique. Selon le témoignage de Simone de Beauvoir en 1929, Sartre n’avait lu jusqu’alors que “*L’interprétation des rêves et La psychopathologie de la vie quotidienne*. Les deux existentialistes reprochaient aux psychanalystes leur système qui consiste à “décomposer l’homme au lieu de le comprendre(3)”. Ils accordent à la psychanalyse une part assez réduite. Psychoses, névroses, hallucinations, ces phénomènes et leurs symptômes ont une signification qui renvoie à l’enfance de la personne malade. Mais lorsqu’il s’agit de l’analyse de l’homme normal les deux écrivains récusent catégoriquement la psychanalyse. Evoquant les psychanalystes Simone de Beauvoir écrit :

“L’application quasi automatique de leurs “clés” leur servait à rationaliser fallacieusement les expériences qu’il aurait fallu appréhender dans leur singularité(4)”.

(1) Sartre suggère une interprétation psychanalytique du comportement de ses personnages dans un grand nombre de ses nouvelles.

(2) L’homme au magnétophone—“le dialogue psychanalytique” in *Les temps modernes*, p. 1813.

(3) Simone de Beauvoir, *La force de l’âge*, p. 133.

(4) *Ibid.*

JEAN PAUL SARTRE
et
LA CONCEPTION PSYCHANALYTIQUE

Par
NAFISSA ABDEL-FATTAH SCHASCH
Faculté des Lettres Université d' Alexandrie

"L'idée vient de Freud qui assignait déjà au sujet une place ambiguë. Coincé entre le "ça" et le "sur-moi", le sujet du psychanalyste est un peu comme De Gaulle entre l'Union Soviétique et les Etats-Unis(1)."

J.P. Sartre

Zone d'attraction et de répulsion, la psychanalyse représente chez J.P. Sartre une "haine-amoureuse" dont les effets se ressentent dans ses écrits.

Cette thérapeutique interne, ou art d'interprétation, pour reprendre les termes de Freud, permet d'obtenir, "dans les affections difficilement accessibles, des résultats qui ne le cèdent en rien à ceux qu'on obtient dans n'importe quelle autre branche de la thérapeutique interne (2)". Cet instrument d'exploration qui détecte les racines cachées de l'inconscient, ce point de référence intellectuel sera tantôt discuté et rejeté, tantôt accueilli et accepté sournoisement par Sartre. Très souvent, ce philosophe montre une attitude agressive vis-à-vis de la psychanalyse (3). Cependant, cette dernière se déclare nettement à la base même de sa propre psychologie phénoménologique. En ce qui concerne le psychanalyste faisant usage de compréhension pour interpréter la conscience, Sartre trouve que tout ce qui se déroule dans la conscience ne peut recevoir son explication que par la conscience même. Cette

(1) Jean Paul Sartre, in *l'Arc*, No. 30, 1966 p. 87.

(2) S. Freud, *Introduction à la psychanalyse*, p. 383.

(3) cf. *Esquisse d'une théorie des émotions*. La Sartre déclare son refus de la psychanalyse surtout lorsque les résultats s'obtiennent par la compréhension.